التفسير الكاشف

محمد جواد مغنية

المجلد الأول

سورة الحمد وسورة البقرة

الكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

التفسير الكاشف

١

محمد جواد مغنية

التفسير الكاشف

المجلد الأول

في

سورة الحمد وسورة البقرة

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الجواد العامة

هديــة
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجوادين العامة

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب.................. التفسير الكاشف (ج ١)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر.................... دارالكتاب الاسلامي

الطبعه........................ الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

المطبعه.................... مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٩ – ٠٨٥ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 085 - 9

الترقيم الدولي (ج ١): ٧ – ٠٨٦ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 086 - 7

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

فاني ألفت في العقيدة وأصولها سلسلة من ثمانية كتب صغار [1] خاطبت بها الجيل الجديد بأسلوبه ومنطقه ، هذا الجيل الذي لا يصدق شيئاً إلا ما يريده ، ويتفق مع تربيته وثقافته .

وقدر الله لهذه السلسلة النجاح والتوفيق ، وأعيد طبعها مرات ، ولله الحمد، وبديهة ان كل عمل يوافق الحكمة ،والهدف الذي يرمي اليه يكتب الله النجاح له والتوفيق .. ان التوفيق من الله مـا في ذلك ريب ، ولكنه جل وعز أبى أن يجري الأمور إلا على طرقها وسننها .. ومجرد وضع الحبر على الورق ليس من سنن النجاح في شيء ، وانما السبيل الى النجاح والرواج ان يرضى القارىء عما يقرأ ، ويعجب به ، وهو لا يرضى عن أية كتابة إلا اذا كانت من أجله ، لا من أجل الكاتب ، وهذا الرضا بدوره يشجع الكاتب على المضي ، وهكذا يؤثر ويتأثر كل من القارىء والكاتب بالآخر .

وعلى أية حال ، فقد شجعني انتشار السلسلة على تأليف كتب أكبر وأوسع، منها كتاب معالم الفلسفة الاسلاميـة ، والفقه على المذاهب الخمسة ، والشيعـة

---

[1] هي الله والعقل ، والنبوة والعقل ، والآخرة والعقل ، وإمامة علي والعقل ، والمهدي المنتظر والعقل، وعلي والقرآن ، ومفاهيم انسانية في كلمات الإمام جعفر الصادق ، وفلسفة المبدأ والمعاد .

والحاكمون ، والشيعة والتشيع ، وفضائل الإمام علي ، وغيرها .. وشاء الله لهذه ما شاءه لتلك ، فدفعت بي مشيئته تعالى ، وكمال توفيقه الى تأليف موسوعة فقه الإمام جعفر الصادق في ستة أجزاء كبار ، ونفس الشيء حصل لهذه الموسوعة، فتولاها جلت حكمته بعنايته ، تماماً كما تولى اخواتها من قبـل .. وأيضاً نفس الشيء حصل لي ، حيث أغراني نجاح الموسوعة بما هو أضخم وأعظم ، وأعني به تفسير القرآن الكريم الذي أسميته « التفسير الكاشف » .

وقد تم منه بحول الله وقوته ، وتوفيقه وفضله هذا الجزء الذي اقدم له ، وفيه تفسير سورتي الحمد والبقرة بكاملهما .. ولا أدري : هل تمتد بي الحيـاة الى النهاية ، وأرى نتاج ما ضحيت وقاسيت ، أو ان الأقـدار قد تتصرف عكس ما رسمت وأردت ؟. واذا تم « التفسير الكاشف » كما أريد، فهل يُكتب له من الرواج ما كُتب لغيره مما ألفت ونشرت ؟ وفي حال تمامه ورواجه ، هل يثمر كتاباً يأتي من بعده ، كما جاء هو نتاجاً لموسوعة الفقه ؟

أسئلة لا يعلم أجوبتها الا صاحب الكلمـة الأولى ، والارادة العليا : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت » . وايماني بهذه الحقيقة لا يمنعني أبداً من التصميم والمضي في الجهد والعمل الدائب .. لأني أؤمن أيضاً بأن لعزمي الجاد أثره البالغ في تحقق ما أريد .. وهذا الايمان يدفع بي الى بذل المزيد من الجهد خوفاً من فوات الفرصة .. ومن أجل هذا أظل أكتب وأكتب ، وأحلم بالتمام والنجـاح ، حتى الموت ؛ فهو وحـده الذي يحد من نشاطي ، فأنا دائماً أبذل الجهد ، ما دام الموت بعيداً عني .

وأغلى أمنية على قلبي أن يفاجئني الأجل ، وأنا أكتب داعياً الى الله والحق والعدل .. بل أسمى الرغائب لدي ان أدخل الجنة لاقرأ فيها وأكتب خالي البال، متحرراً من الأشغال ، وهموم العيال .. وكم مر بخيالي هذا السؤال — جاء السجع من غير قصد — : اذا أنعم الله بالجنة فهل أكون فيها بطالا ؟ وهل يتسنى لي أن أقرأ فيها وأكتب ؟ واجيب نفسي : أجـل ، ان فيها ما تلذ الأعـين ، وتشتهي الأنفس ، حتى ولو اشتهت القراءة والكتابة .. ويعود السؤال ، ولكن بصيغة ثانية : ولمن أكتب ؟ وأهل الجنة كلهم على غاية الكمال ..

ومعذرة من هذا الاسترسال مع القلم ، وعلى الأصح مع ذاتي في التعبير عن نفسها .. وهل أنا الا مجرد انسان يصعب عليه أن يتحرر من ذاته وينفصل عنها؟

أو يصعب عليه أن يمنعها عن التعبير عما في كهوفها وقرارتها حين تجد فرصة ومنفذاً لهذا التعبير .

الجيل الجديد :

كل شيء يخضع لأسبابه الواقعية ، سواء أكان ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، كالطوفان والزلزال ، أو ظاهرة اجتماعية ، كالجهل والفقر ، أو كان شأناً من شؤون القلب ، كالايمان والكفر ، ولا شيء على الاطلاق يوجد لمجرد الصدفة من غير سبب وتدبير .. مهدت بهذه الاشارة للسؤال والجواب التاليين :

لماذا لا يهتم الجيل الجديد بالقيم الدينية ، كما كانت تهتم بها الأجيال السابقة؟ فأكثر شباب هذا الجيل قد انصرفوا عن العبادات والطقوس الدينية .. بل أثقل شيء على نفوسهم ان يسمعوا موعظة ونصيحة تمت الى الدين بسبب . حتى القيم الانسانية ، كالاخاء والمساواة ، والسلام والتعاون ، والصدق والعدل لا صدى لها في نفوسهم .. وان تحدثوا عنها وعن قداستها فانما يقدسونها بألسنتهم لا بقلوبهم، وبأقوالهم لا بأفعالهم .. اللهم الا في حدود منفعتهم الشخصية .

الجواب : لقد كانت الشعوب الاسلامية العربية منها وغير العربية لا تثق بمبدأ من المبادىء ، ولا بقيمة من القيم إلا اذا كان مصدرها كتاب الله جل وعز ، وسنة رسول الله (ص) .. فلا اشتراكية ، ولا وجودية ، ولا ديمقراطية ، ولا قومية ، لا شيء على الاطلاق إلا وحي السماء ، منه تستمد أصول العقيدة ، وآداب السلوك ، وعليه توضع مناهج التعليم ، ومنه تستخرج القوانين والأحكام التي يعمل بها في دور القضاء ، وتراعى في الدوائر ، وسائر التصرفات الفردية والاجتماعية .

ومن هنا كانت تعاليم الدين واضحة في أذهان الكثير من الناس ، يعرفون ما يقره الشرع ، ويأمر به ، وما يرفضه وينهى عنه . وكان الذي يعيش الدين معايشة صحيحة محل ثقة الجميع ، وموضع أمانتهم ، ومن انحرف عنها لا يأتمنونه على شيء ، ولا يثقون به في شيء .. ومعنى هذا في واقعه ان القيم الاجتماعية كانت هي القيم الدينية بالذات ، فاذا ما شذ فرد عنها ، وخرج عليها كان تماماً كمن يخرج على النظام السليم ، والوضع القويم .

ثم دارت الأيام ، وحدث الانقلاب الخطير بنفوذ الغرب ، وسيطرته على البلاد الاسلامية ، فاتجه أول ما اتجه الى شريعة القرآن ، ومحا أثرها من دور القضاء،وأبدلها بالقانون الوضعي الفرنسي والانكليزي ، وألغى تعلم العقائد والأخلاق الدينية من مناهج التعلم ، وأفسح المجال للميسر والفجور ، وحانات الخمور ، ولكل ما من شأنه أن يشل العقيدة والأخلاق ، فاختفت سمات القرآن والسنة النبوية من الحياة الاجتماعية ، حتى اللغة العربية أصابها ما أصاب العقيدة والشريعة، فكان هذا الجيل الجديد الذي لايهتم بعقيدة ولا خلق،وهو في الواقع نتاج للاوضاع الفاسدة التي نشأ فيها ، ورُبّي عليها ، فن الطبيعي أن يكون انعكاساً لها، ومن الخطأ ان ننظر الى الجيل مستقلاً عن مجتمعه وبيئته .. وحقاً ما قاله الفلاسفة : ان المعلول اظهار لعلته .

العلاج :

وتسأل : لقد وصفت الداء ، فما هو الدواء ؟

والحق ان الجواب عن هذا السؤال لا ينبغي أن ينفرد به مثقف واحد ، ولا بدّ أن تمعن فيه وتتلاقى عقول كبيرة ومخلصة ، لأن الأخلاق والعادات اذا حلت في بيئة وطال عليها الأمد تصبح حقيقة واقعة تنزع إلى البقاء والاستمرار، وليس استئصالها بالشيء اليسير .. انها تعمل في عالم النفوس تماماً كما تعمل الأسباب الطبيعية في عالم الطبيعة ، ويحتاج تغيرها إلى جهد وجهاد طويل وشاق من نوع الجهد الذي بذله الرسول الأعظم (ص) لتغيير عادات أهل الجاهلية وعقائدهم .. وقد جاءت الاشارة في الأحاديث الى ذلك ، منها : « بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » . اذن ، لن يؤوب من غربته ، وتقر عيناه في عودته إلا بقائد كالنبي محمد (ص) ، واصحاب كالمهاجرين والأنصار .. وليس على الله بعزيز أن يتيح الظروف ليوم يعود فيه سلطان القرآن ، وشريعة القرآن ، وأخلاق القرآن .

ولكن علينا أن نعمل جهد المستطيع ، ولا ننتظر معجزة السماء ، والعمل الذي نستطيعه الآن — كما يبدو لي — هو :

أولاً : أن نجعل للدين في المدارس مكاناً مرموقاً ، بخاصة لقراءة القرآن وحفظه وتفسيره ، لأنه حجر الأساس. فاذا رفض ذلك القائمون على شؤون التعليم

في المدارس الحكومية ــ وسيرفضون من غير جدال ــ فعلينا ان ننشىء مدارس أهلية لهذه الغاية الى جانب العلوم الزمنية الدارجة ، ننشىء هـــذه المدارس من الملايين التي تُدفع باسم الحقوق الإلهية للمراجع وغيرهم ، ولا أعرف مورداً لها خيراً من انفاقها لإحياء التعاليم الدينية ، وانتشارها ، وتربية النشء عليها .

ثانياً : أن يؤدي كل واحد من رجال الدين مهمته باخلاص بعد أن يؤهل نفسه لأن يكون هادياً واعياً يعرف من أين ينفذ الى قلوب الشباب وكيف يُقنعهم بأن الدين مصدر القيم التي تمنحهم حياة أفضل .

ثالثاً : أن نوضح الحقائق الدينيـــة ، ونيسرها للافهـــام ، ونذيعها بالكتب والخطب والمقـــالات والنشرات ، ونثبت للجاهـــل والمشكك ان الاسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ينبع من حاجات الانسان الروحيـــة والمادية ، ويضع لمشاكله الحلول السليمة ، ويهدف الى سعادته دنياً وآخرة .. وسيجد القارىء الدليل على ذلك في هذا التفسير الذي يربط الدين بالحيـــاة بشتى مظاهرها ، ويهتم بالجانب الانساني أكثر مما يهتم ببلاغة الكلمة .

المفسر :

التفسير في اللغة الاستبانة ، وفي الاصطلاح علم يُبحث فيه عن معاني ألفاظ القرآن وخصائصه .

ولا بد لهذا العلم من معدات ومؤهلات ، منها العلوم العربية بشتى أقسامها ، وعلم الفقه واصوله ، ومنها الحديث وعلم الكلام ، ليكون المفسر على بينـــة مما يجوز على الله وأنبيائه ، وما يستحيل عليه وعليهم ، ومنها كما يرى البعض علم التجويد والقراءات .

وهنا شيء آخـــر يحتاج اليه المفسر ، وهو أهم وأعظم من كل ما ذكره المفسرون في مقدمة تفاسيرهم ، لأنه الأساس والركيزة الأولى لتفهم كلامه جل وعلا . ولم أرَ من أشار اليه ، وقد اكتشفته بعد أن مضيت قليلاً في التفسير ، وهو ان معاني القرآن لا يدركها ، ولن يدركها على حقيقتها ، ويعرف عظمتها الا من يحسها من أعماقه ، وينسجم معها بقلبه وعقله ، ويختلط ايمانه بها بدمه

ولحمه،وهنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين (ع) : ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق .

وأيضاً أيقنت – وأنا ماضٍ في تفسير آي الذكر الحكيم – ان أي مفسر لا يأتي بجديد لم يسبق اليه ، ولو بفكرة واحدة في التفسير كله ، أيقنت ان هذا المفسر لا يملك عقلاً واعياً ، وانما يملك عقـلاً قارئاً ، يرتسم فيه ما يقرأه لغيره ، تماماً كما ترتسم صورة الشيء في المرآة على ما هو من لون وحجم .. ذلك ان معاني القرآن عميقة الى أبعد الحدود ، ولا يبلـغ أحد نهايتها مهما بلغت مكانته من العلم والفهم ، وانما يكتشف منها ما تسعفه معارفه ومؤهلاته ، فاذا وقف المفسر السابق عند حد من الحدود ، ثم جاء اللاحق وترسم خطـاه لا يتجاوزها ، ولو بخطوة واحدة كان تماماً كالأعمى يتوكأ على عكاز ، فاذا فقدها جمد في مكانه .

وقد تحصل لي الكثير من الآراء والمعتقدات غير هذا وذاك خلال التفسير ، وبالأصح إن التفسير صحح الكثير من مفاهيمي السابقة .. من ذلك اني أيقنت – وأنا أتدبر كلمات الله سبحانه – انه لا ايمان بلا تقوى ، وان الجنة حرام الا على من جاهد وضحّى في سبيـل الحق ، وان ما من أصل من اصول الاسلام أو فرع من فروعه من الايمان بالله الى أصغر حكم في الشريعة ، كلها دون استثناء إلا وترتبط بالحياة ارتباطاً وثيقاً وقوياً ، كما أيقنت وآمنت بأن أجهل النـاس بحقيقـة الاسلام ومراميه هم المنتمون اليه ، الى غير ذلك مما يجده القـارىء في مطاوي الصفحات ، وخصصت لكثير منه فقرات مستقلة بعناوين تدل عليها .

وبالتالي ، فاني لا أعرف مهمة أشق وأصعب من مهمة المفسر لكلمات الله .. انه يتصدى للكشف عن ارادته ، جلت كلمته ، وليس هذا بالشيء اليسير .. والذي يهون الخطب ان المفسر يعبر عن فهمه وتصوره لمعاني القرآن ومقاصده ، كما هي في ذهنه، لا كما هي في واقعها ، تماماً كالفقيه المجتهد الذي يُؤجر ان أصاب ، ويُعذر ان أخطأ ، بل ويؤجر أيضاً على نيته واجتهاده وعدم تقصيره.

دعوة القرآن :

من تتبع آي الذكر الحكيم ، وتدبر معانيها يجـد وراءها مقسماً مشتركاً ،

وإطاراً عاماً يربط بين جميع قواعده ومبادئه ، وسوره وآياته ، وهـذا الرابط هو الدعوة إلى أن يحيا الناس ، كل الناس، حياة طيبة يسودها الأمن والعدل ، ويغمرها الخصب والسلام : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم – الأنفال ٢٣ » .

ولدعوة الله والرسول الى الحياة أسلوب خاص ، وركائز تقوم عليهـا ، أما أسلوب الدعوة فقد حدده الله سبحانه بقولـه لنبيه الأكرم (ص) : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن – النحل ١٢٥ ». والمراد هنا بالحكمة والموعظة الحسنة ان يخاطب القلب والعقل ، ويعرض في دعوته الى الله بدائع المخلوقات ، وعجائب الكائنات : « سنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق – فصلت ٥٣ » .

وان يحذر المشاغبين والمعاندين من سوء العاقبة والمصير ، ويضرب لهم الأمثال من الأمم السابقة ، كما فعل شعيب ، حيث قال لقومه : « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد – هود ٨٩ » . فإن أصروا على العناد تركهم وشأنهم ، حيث لا مزيد من البينات والبراهـين : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن – آل عمران ٢٠ : « انما عليك البلاغ وعلينا الحساب ».

أما ركائز الدعوة الى الحياة الطيبة فنذكر منها ما يلي :

١ – ان الانسان لم يوجد في هذه الحياة صدفة ومن غير قصد : « والله خلقكم ثم يتوفاكم – النحل ٧٠ » .

٢ – ان الله سبحانه لم يترك الانسان سدى تتحكم فيـه الأهواء والنزوات ، بل اختط له طريقاً سوياً لا يجوز أن يتخطاه ويتعداه : « أيحسب الانسان أن يترك سدى – القيامـة ٦ » . « فوربك لنسألنهم أجمعين عمـا كانوا يعملون – الحجر ٩٢ » .

٣ – الأمن وصيانة النظام ، ومن أخل به ، وسعى في الأرض الفساد عوقب بأشد العقوبات في الدنيا ، وله في الآخرة عذاب أليم : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلـوا أو يصلبوا أو تقطـع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم – المائدة ٣٣ » .

٤ — ان صيانة الأمن والنظام لا تتحقق ولن تتحقق إذا لم يكن كل انسان أميناً على نفسه وكرامته ، لأن المجتمع الصالح في منطق القرآن هو الذي لا يوجد فيه بذرة واحدة من بذور الفساد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً — المائدة٣٢». ذلك ان حقيقة الانسانية تقوم بكل فرد ، تماماً كقيامها في جميع الأفراد ، فمن أساء الى واحد منها فقد أساء الى الانسانية بكاملها ، ومن أحسن اليه فقد أحسن اليها كذلك . وقوله تعالى : (قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض) اشارة الى ان لكل فرد قدسيته الانسانية ، وانه في حرم محرم ، حتى ينتهك هو حرمة نفسه بارتكاب جريمة ترفع عنه تلك القدسية والحصانة الانسانية .

٥ — ان العلاقات بين الناس تقوم على أساس حصانة الكرامة وصيانتها لكل فرد من غير فرق بين الذكر والأنثى والأسود والأبيض والغني والفقير .. من أي ملة كان ويكون ، وقد أقر الله هذه الحقيقة بأوجز عبارة وأبلغها : « ولقد كرمنا بني آدم — الأسراء ٧٠ » . ومن استهان بمن كرمه الله سبحانه فقد استهان بالله وشريعته .

٦ — ان الايمان بالله ، ونبوة محمد،واليوم الآخر ، وما إلى ذاك من الأصول والفروع ليس مجرد شعار ديني يرفعه القرآن ، بل ان لكل أصل من أصول الاسلام ، وكل حكم من أحكامه ثمرات وحقائق يجمعها الخلق الكريم ، والعمل النافع .. فلقد قرن الله الايمان به بالعمل الصالح في العديد من الآيات ، أما الإيمان بنبوة محمد (ص) فهو ايمان بالانسانية ورفاهيتها : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين — الأنبياء ١٠٧ » . أما دخول الجنة فيرتبط أقوى ارتباط بالجهاد والعمل الصالح في هذه الحياة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين — آل عمران ١٤٢ » .

وهكذا يرسم القرآن الطريق الايجابي لبلوغ مقاصده ، واستجابة الدعوة الى الحياة التي أشار اليها بقوله : « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » . وهذا دليل واضح على ان أية دعوة لا تمت الى الحياة بصلة فما هي من الدين في شيء ، ومن نسبها الى الله ورسوله فقد افترى على الدين كذباً .. وعلى هذا الأساس حاولت ان أفسر آي الذكر الحكيم والتفصيل فيما يلي .

المنهج :

المراد بالمنهج هنا اطار من الضوابط العامة يسير المؤلف في ضوئها ولا ينحرف عنهـا ، وأي عمل لا يقف وراءه منهج فهو عمـل عشوائـي يسوده الارتجال والتناقضات .. والمنهج الذي اتبعته في هذا التفسير يتألف من الضوابط التالية :

١ ــ نظرت الى القرآن على انه في حقيقته وطبيعته كتاب دين وهدايـة ، واصلاح وتشريع يهدف قبل كل شيء الى أن يحيا الناس جميعاً حياة تقوم على أسس سليمة ، يسودها الأمن والعدل ، ويغمرها الخصب والرفاهية ، وأشرت الى ذلك فيما سبق .

٢ ــ اهتم جماعة من المفسرين القدامى أشد الاهتمام باللغة ، وأطالوا في بيان السر لاعجاز الكلمة والأسلوب ، وافترضوا أسئلة : مثل لماذا ذكر الواو دون الفاء ، أو الفاء دون الواو ؟. ولماذا قال يفسقون ولم يقل يظلمون..الى غير ذلك، وأجابوا عنها بما لا يجدي شيئاً،ولا يدخل تحت ضابط .. ولذا لم أتعرض لشيء من هذا النوع .

واذا كان لكل تفسير لون يغلب عليه فان اللون الذي يغلب على تفسيري هذا هو عنصر الاقناع ، اقناع القارىء بأن الدين بجميـع أصوله وفروعه ، وسائر تعاليمه يستهدف خير الانسان وكرامته وسعادته،وان من انحرف عن هذا الهدف فقد انحرف عن حقائق الدين وصراط الحياة القويم .. وكي أصل الى هذه الغاية حاولت جهدي أن يجيء الشرح سهلاً بسيطـاً واضحاً ، يفهمه القارىء في أي مستوى كان .

واذا اهتم المفسرون القدامى بالتراكيب الفصيحة ، والمعاني البليغة أكثر من اهتمامهم باقناع القارىء بالقيم الدينية فلأن العصر الذي عاشوا فيه لم يكن عصر التهاون والاستخفاف بالدين وشريعته وقيمه ، كما هو الشأن في هذا العصر ، فكان من الطبيعي أن تكون لغة التفسير ايام زمان غيرها في هذا الزمان .

ان التفسير تماماً كالفن ينبع من ظروف محلية .. ومن هنـا اتجهت بتفسيري الى اقناع الجيل بالدين اصولاً وفروعاً ، وانه يسير مع الحياة جنباً الى جنب ، ولا يعني هذا اني أغفلت الجهات النافعة التي تعرّض لها المفسرون الكبار .. كلا، فاني لخصتها وعرضتها بأوضح بيان ، بل وأبديت رأيي فيها ، بخاصة المشكلات

الفلسفية ، مثل الجبر والاختيار ، والهدى والضلال ، والإمامة وعصمة الأنبياء ، والشفاعة والاحباط ، ومرتكب الكبيرة ، وحساب القبر .. وما الى ذلك ، كما خصصت لكل آية – في الغالب – فقرة بعنوان (اللغة) لتفسير بعض المفردات غير المألوفة المعروفة ، وأخرى بعنوان (الاعراب) لبيان الأحكام النحوية لكلمة مشكلة .. مع العلم بأن التفاسير الحديثة قد أغفلتها ، ولكني راعيت رغبة بعض القراء ، وان ندروا ؛ أما علم البديع والبيان ، والتنظيم والترصيف فقد تركتـــه لكشاف الزمخشري ، والبحر المحيط للأندلسي الغرناطي ، وغيرهما ممن تعرضوا لذلك .

وبمناسبة الاشارة الى ان لغة التفسير تختلف باختـلاف العصور أذكر كلمـــة لمحيي الدين ابن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية ، باب (حضرة الحكمة) قالها خلال حديثه عن تلاوة القرآن ، وهي تحمل أعمق المعاني ، وتتفق مع أحدث النظريات وأهمها ، أعني النظرية النسبية لـ « انشتين » التي اعتبرت الزمان والمكان من الأبعاد المقوّمة للشيء ، قال ابن العربي: « ... يتلو المحفوظ من القرآن فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في التلاوة الأولى ، مع ان الحروف المتلوة هي هي بعينها ، وانما الموطن والحال تجدّد ، ولا بد من تجدده ، فان زمان التلاوة الأولى غير زمان التلاوة الثانية » .. وقوله : لا بد من تجدده يدل على ايمانه وثقته بأن الشيء يتجدد ويتعدد بتجـــدد الزمن .. وصدق فيلسوف العصر « راسل » ، حيث قال : ان القدامى استنبطوا من اجتهادهم ومجـــرد أفكارهم نظريات أثبت العلم صدقها وانها الرأي العلمي الصائب بينما لم تكن في ايامهم أكثر من اجتهاد مقترح .

٣ – نظرت إلى الاسرائيليات التي جاءت في بعض التفاسير على انها خرافة وأساطير ، ولا شيء أصدق في الدلالة على كذبها وزيفها من نسبتها الى (اسرائيل) .

وأيضاً تجاهلت ما جاء من الروايات في أسباب التنزيل إلا قليلاً منها ، لأن العلماء لم يمحصوا أسانيدها ، ويميزوا بين صحيحها وضعيفها ، كما فعلوا بروايات الأحكام ، حتى هذه قد تسامحوا في سند المستحب منها ، ولم يدققوا إلا في سند الواجب والحرام .. بـــل عقدوا بحثاً مستقلاً في كتب الأصول بعنوان التسامح بأدلة السنن والمستحبات .

وأيضاً لم أشغل نفسي والقـــارىء بذكر العلاقة والمناسبة بين الآيات واتصال بعضها ببعض ، كما فعل المفسرون ، لأن القرآن لم يوح الى النبي (ص) جملة واحدة ، وانما نزل منجماً بين وقت يتابع أحياناً ، ويبطىء أحياناً أخرى ، ولم تُرتب السور والآيات في القرآن الذي نقرأه حسب نزولها . قال أحد العـــارفين بترتيب القرآن وبلاغته :

« رُتب القرآن – كما هو بين أيدينا – سوراً منذ أيام النبي (ص) ، وقدمت في المصحف طوال السور على أوساطها وأوساطها على قصارهـا ، ولم يراعَ في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو المدينة ، ولا تاريخ نزول الآيات. ونحن نجد البقرة وآل عمران والمائدة في أول المصحف بعد الفاتحـــة ، مع انها مدنية .. وربما وجدنا في السورة المدنية آيات نزلت بمكة ، وفي السورة المكيـة آيات نزلت بالمدينة » .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استـــاذه الشيخ محمد عبـــده في الجزء الثاني ص ٤٥١ طبعة ثانية انه قال :

« ليس القرآن كتاباً فنياً ، فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص به، وانما هو كتاب هداية ووعظ ، ينتقل بالانسان من شأن من شؤونه الى آخر ، ويعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة ، مع التفنن بالعبارة ، والتنوع في البيان ، حتى لا يمل تاليه وسامعه من المواظبة على الاهتداء » .

٤ – اعتمدت – قبل كل شيء – في تفسير الآية وبيان المراد منها – على حديث ثبت في سنة الرسول (ص) ، لأنها ترجمان القرآن ، والسبيل الى معرفـة معانيه : « وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهـــوا – الحشر ٧ » . فاذا لم يكن حديث من السنة اعتمدت ظاهر الآية ، وسياقها ، لأن المتكلم الحكيم يعتمد في بيان مراده على ما يفهمه المخاطب من دلالة الظاهر ، كما ان المخاطب بدوره يأخذ بهذا الظاهر ، حتى يثبت العكس .

وإذا وردت آية ثانية في معنى الأولى ، وكانت أبين وأوضح ذكرتهما معاً ، لغاية التوضيح ، لأن مصدر القرآن واحد ، ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض .

وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع حكم العقل وبداهته اوّلت اللفظ بمـا يتفق مع العقل باعتباره الدليل والحجة على وجوب العمل بالنقل .

وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع اجماع المسلمين في كل عصر ومصر على مسألة فقهية حملت الظاهر على الاجماع ، كقوله تعالى : « اذا تداينتم بدين فاكتبوه » حيث دلت (اكتبوه) على الوجوب ، والاجماع قائم على استحباب كتابة الدين، فاحمل الظاهر على الاستحباب دون الوجوب ..

أما أقوال المفسرين فلم اتخذ منها حجة قاطعة ، ودليلاً مستقلاً ، بل مؤيداً ومرجحاً لأحد الوجوه إذا احتمل اللفظ لأكثر من معنى . فلقد بذل المفسرون جهوداً كبرى للكشف عن معاني القرآن وأسراره ، وابراز خصائصه وشوارده ، وأولوا كتاب الله من العناية ما لم يظفر بمثلها كتاب في أمة من الأمم قديمها أو حديثها .. هذا وان في المفسرين أئمة كباراً في شتى علوم القرآن التي كانت الشغل الشاغل للمسلمين في تاريخهم الطويل ، فإذا لم تكن أقوال هؤلاء الأقطاب حجة، كقول المعصوم، فانها تلقي ضوءاً على المعنى المراد ، وتمهد السبيل الى تفهمه .

الأخطاء المطبعية :

لا أذكر اني قرأت كتاباً أخرجته المطابع قديماً وحديثاً ، دون أن أجد فيه أغلاطاً مطبعية ، وأحسب اني لن أقرأ كتاباً يخلو منها ، وحرصت جاهداً ان أتجنبها في مؤلفاتي فلم أفلح..وكنت من قبل لا أطيق أن أرى شيئاً منها في كتاب أو مقال ، ثم ألِفتها بالتتابع والتكرار .. والشيء الذي لم آلفه ، ولم يكن لي بحسبان ان أرى هذه الأغلاط في كتابة المصحف الشريف ، من ذلك – على سبيل المثال دون الحصر – ما جاء في بعض الطبعات (يبصط) بالصاد مكان يبسط بالسين ؛ وفي كتابة القرآن المطبوع متناً في تفسير الرازي سنة ١٩٣٥ بمصر جاءت الآية ١٤٦ من سورة البقرة هكذا : « وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم لا يعلمون » . والصواب وهم يعلمون ، ومثل هذه الغلطة لا يُتسامح بها. وفي تفسير المنار الطبعة الثانية ، الآية ٢١٢ من سورة البقرة كُتب قوله تعالى : « والذين اتقوا فوقهم الى يوم القيامة » والصواب فوقهم يوم القيامة ، وهذه الغلطة لا تقل فظاعة عن تلك .. ويعتذر المخطىء عندنا في جبل عامل بمثل مشهور : « الغلطة في كتابة المصحف » . وفي تفسير مجمع البيان طبعة العرفان الآية ١٥ من سورة الاحقاف كتب قوله تعالى – متناً – حتى « اذا بلغ أربعين سنة » والصواب « حتى اذا بلغ أشده وبلغ اربعين سنة » .

وليس الغرض من هذه الاشارة ان أعتذر سلفاً عما يجده القارىء من أخطاء مطبعية في هذا الكتاب .. وان كانت اشارتي هذه معذرة في واقعها ، أردت ، أو لم أرد ، وانما غرضي الأول ان أقول لمن يفتح عينيه على خطأ اللفظ ولحنه، ويعمى عن اعراب المعنى وحسنه ، أقول لهذا ، ولمن قال لي ذات يوم : ان في كتبك أغلاطاً مطبعية ، وسكت عن غيرها ، حتى كأن لا شيء في مؤلفاتي الا الأخطاء المطبعية ، أقول له : سامحك الله وعافاك ، وهداني واياك .

وكيف كان ، فاني أعتذر من الأخطاء الفكرية والمطبعية أيضاً .. « والناس كلهم منقوصون مدخولون الا من عصم الله » كما قال الإمام أمير المؤمنين (ع).. والله سبحانه المسؤول أن يتقبل مني ما أصبت،ويتجاوز عما أخطأت بالنبي وآله، عليه وعليهم أفضل الصلوات ، وأزكى التحيات .

تمهيد

الاستعاذة

اذا قرأت القرآن :

قال تعالى : فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ـ النحل ٩٨.
وقال : واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ـ الاعراف ٢٠٠ .

معنى الاستعاذة :

وهذه الاستعاذة التي ندب الله اليها لا تنحصر بقولك ، « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، بل ان اطلاقها يشمل الثقة بالله ، والتوكل عليه ، والخوف منه، وان لم يقترن باللفظ والقول .. فمن أقدم في المهمات معتقداً ان من ورائه قـوة تمده وتعينه على العمل الصالح ، ومن مالت نفسه إلى فعل الحرام فصدها عنـه طاعة لله ، ومن مر به خاطر لا يـدري : أرباني هو ، أم شيطاني ، وقبل تنفيذه عرضه على شريعة الله ، واتخذ منها مقياساً للاقـدام ، والاحجام ، كل اولاء مستعيذون بالله حقاً وواقعاً من الشيطان الرجيم .

ولا ظاهرة أقوى وأدل عـلى الاستعاذة بالله ، واللجوء اليه من ثقة الانسان بخالقه ، موقناً بأن العبد لا يضر ولا ينفع ، وانه لا شيء اطلاقاً يغني عن عناية الله ورعايته .. فلقد علمتنا التجارب ان من اعتز بغير الله ذل ، وان من استجار

بسواه خاب ، وان الأماني لا تنال باللجوء الى الحكام ، ولا الى السواد ، ولا إلى خزائن الأغنياء ، انها في الله وحده لا شريك له .

من هو الشيطان :

نحن لم نرَ الشيطان وجهاً لوجه ، ولكن أخبر الوحي عنه فوجب التصديق ، ولسنا مكلفين بالبحث والسؤال عن هويته وشكله ، وعرضه وطوله .. أجل، لقد وصفه الله سبحانه في كتابه العزيز بالتصدي لغواية الناس ، وصرفهم عن طاعة الله ، وعمل الخير ، وعلى هذا فكل خاطر ، أو انسان يحول بينك وبين الطاعة والخير ، ويغريك بالمعصية والشر ، ويموه الأباطيل والأضاليل ، ويلبسها ثوب الهداية والحقيقة فهو شيطان حسي أو معنوي .

ومن الطريف ان شياطين الانس يتعوذون من الشيطان ، وهم بذلك يتعوذون من أنفسهم ، من حيث لا يشعرون ، تماماً كمن يقرأ القرآن ، والقرآن يلعنه، كما جاء في الحديث الشريف .. ذلك ان القرآن يلعن الكاذب الخائن ، فاذا قرأه هذا فقد نطق بلعنة الله على نفسه بنفسه .. وقال تعالى : « اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

الحكم :

الاستعاذة قبل قراءة القرآن مستحبة ، وليست بواجبة ، والأمر بها تماماً كالأمر بغسل اليد والتسمية قبل الطعام ، ولو كانت واجبة لوجبت في الصلاة، لمكان الفاتحة والسورة ، مع ان الاجماع قائم على عدم الوجوب ، قال صاحب مفتاح الكرامة : « لم يخالف في ذلك إلا ابن الجنيد،وقد رموه – أي الفقهاء – بالشذوذ والغرابة » .

منطق ابليس :

وبمناسبة الاستعاذة من الشيطان نشير الى بعض ما يعزى الى ابليس من الأساطير ، لأنها صورة واضحة للكثير من أهل هذا العصر ، خاصة الانتهازيين من كل مهنة في مغالطاتهم وتلاعبهم بالألفاظ بقصد التمويه،واخفاء الحقائق .. وقد تصرفنا

بانشاء الكلمات فقط مع الاحتفاظ بالمضمون والمحتوى .

قيل : ان ابليس قال لله جل وعز : لا يجوز أن تعاقبني على ترك السجود لآدم .

قال سبحانه : ولِمَ ؟

قال : لو أردت السجود مني حقاً لاجبرتني عليه قهراً .

قال تعالى : ومتى علمتَ اني لم أرد منك السجود لآدم ؟ هل علمت ذلك بعد أن أمرتك وعصيت أمري ، أو قبل أن آمرك بالسجود ؟

قال : بعد أن أمرتني .

قال عظمت كلمته : اذن لزمتك الحجة ، لأنك خالفت وامتنعت قبل أن تعلم بأني أردت غير ما أظهرت .. هذا ، ولو ألجأتك الى السجود قهراً لم يبق من داع للأمر به اطلاقاً .

ونجد في منطق ابليس هذا صورة واضحة لمن يلقي جميع التبعات والمسؤوليات على العناية الإلهية .. ان الله سبحانه لا يعامل المكلفين بارادة الخلق والتكوين ، وعلى طريقة « كن فيكون » وانما يعاملهم بالارشاد ، وارادة الطلب والتشريع التي يعبر عنها بالأمر والنهي .

وقيل : ان ابليس التقى ذات يوم بمحمد (ص) ، فقال له : ان الله نعتك بالمرشد الهادي ، ووصفني بالمضلل الغاوي .. وكل من الهداية والغواية في يده، وليس في يدك ويدي شيء .

قال الرسول الأعظم (ص) : كلا ، ان في يدي بيان الباطل والزجر عنه ، والوعيد عليه،وفي يدك الخداع والنفاق والاغراء بالباطل ، وفي يد الانسان القدرة والتمييز والاختيار ، فمن أحسن الاختيار فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

وقيل : انه جاء الى عيسى (ع) ، وقال له : ألا تزعم ان لك مكاناً علياً عند الله ؟ فألق بنفسك من شاهق لنرى : هل ينقذك من الهلاك ؟

قال السيد المسيح : ان لله ان يمتحن عبده ، وليس للعبد أن يمتحن ربه .

وقيل : انه قصد نوحاً بعد أن غرق الناس ، وجف الماء ، وقال له يا نبي الله ان لك عندي يداً ، واريد مكافأتك عليها .

قال نوح (ع) : استغفر الله أن يكون لي على مثلك يد[1] .

قال ابليس : هو ما أقول لك .

قال نوح : ما هي يدي عليك ؟

قال ابليس : دعوت على قومك بالهلاك ، فهلكوا ، وقد كنت من قبل مشغولاً ليل نهار في اغوائهم ، وتضليلهم .. وأنا الآن بعد هلاكهم في اجازة، لا أجد من اغويه .

قال نوح : بماذا تكافئني ؟

قال : أنصحك أن لا تغضب ، فما غضب انسان الا وهان عليّ انقياده ، ولا تحكم بين اثنين ، فاذا فعلت كنت ثالثاً لكما ، ولا تخل بامرأة والا أغريتك بها ، وأغريتها بك .

ويشعر هذا المنطق الشيطاني ان ابليس من أنصار الحرب، وانه يبارك الأسلحة الجهنمية .

وقيل : مرّ رسول الله (ص) وأصحابه برجل ، يركع ويسجد ، ويتضرع، فقالوا : يا رسول الله ما أحسن صلاة هذا العابد !

قال : هذا الذي أخرج أباكم من الجنة .

وتهدف هذه النادرة ، أو الأسطورة الى ان الانسان ينبغي له ألا يغتر،وينخدع بمظاهر الزهد والتعبد .

وقيل : ان موسى (ع) كان ذاهباً يناجي ربه ، فالتقى صدفة بابليس ، فقال له : الى أين يا كليم الله ؟

قال : ذاهب الى ربي أتلقى كلمات منه .. وأنا على استعداد ان أتوسط لك لديه سبحانه ، كي يعفو عنك إذا وعدتني بالاقلاع عن غيك وضلالك .

قال ابليس : أنا لا استشفع بك ولا بسواك اليه .. بل هو عليه – استغفر الله – أن يطلب مرضاتي .

قال له موسى : قبحت من كافر لعين .

قال ابليس:ولمَ يا كليم الله ؟ وأي ذنب لي ؟ لقد طلب مني السجود لآدم،

---

[1] قيل لعالم صالح : ان فلاناً يثني عليك ، وكان فلان هذا معروفاً بالفسق والفجور ، فقال العبد الصالح : لا بد اني اقترفت سيئة ، والا فان مثله لا يثني على مثلي .

وأنا من شدة اخلاصي له لا أسجد لسواه .. ومتى كان الاخلاص ذنباً ؟

قال موسى : ان هذه مغالطات ، وتلاعب بالألفاظ لا يغني عنك فتيلاً ، وسترى ماذا سيحل بك غداً .

قال ابليس : وأنت أيضاً سترى ماذا سأفعل غداً ..

قال موسى : وما أنت بفاعل ؟

قال ابليس : أطالب الله بوعده ، وأحتج بقوله : « ان رحمتي وسعت كل شيء » وأنا شيء،فوجب أن تتسع لي رحمته .. واذا كنت أنا لا شيء فاللاشيء لا يحاسب ولا يعاقب .

قال موسى : ان رحمة الله تتسع لمن فيـه الأهلية والقابلية لها ، وأنت بعيد عنها كل البعد .

قال ابليس : اذن اسلك سبيلاً آخر .

قال موسى : وأي سبيل تسلك ؟

قال ابليس : أدعو من اتبعني من الغاوين ، وأطلب منه تعالى أن يدعو هو من اتبعه من المؤمنين ، ونجري الانتخاب والاقتراع ، وعندها يعرف من الفائز الحائز على أكثرية الأصوات،وإذا ألغى الانتخاب قمت مع جمعي بمظاهرة صاخبة حتى أبلغ ما أريد .

وهذه الاسطورة تهدف إلى أن أهل الباطل أكثر من أهل الحق عدداً ، لأن الحق ثقيل ، والباطل خفيف ، كما قال أمير المؤمنين (ع) ، وان على العاقل أن لا يتخذ من منطق الأكثرية مقياساً للحق،ولا من منطق الأقلية ميزاناً للباطل، كقاعدة كلية ، ومبدأ عـام ، فلقد جاء في نهج البلاغة : « ان الفرقة أهل الباطل وان كثروا ، والجماعة أهـل الحق وإن قلوا » .

وجاء في القرآن الكريم : وأكثرهم للحق كارهون ، وفي آية ثانية : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وفي ثالثة : لا يشكرون ، وفي رابعة : لا يعقلون ، وفي خامسة : لا يؤمنون .. وفي رواية اذا اجتمع أعوان ابليس ملأوا الخافقين .

ولهذه النصوص وغيرها كثير وكثير قال الشيعة : ان خليفة الرسول ، تماماً كالنبي يختاره الله ، ويستخلفه على عباده ، لا من اختاره الناس ، وبايعوه ، وقدموه لأنفسهم وعلى أنفسهم .. ان هذا ملك على الناس، وليس بخليفة لرسول الله .. أما المرجع الديني الأول عند الشيعة فهو الذي يتحلى بالصفات التي نص

عليها صاحب الشريعة الأصيل،لا من ينتخبه الناس للدين ، ولا من يعينه الحاكم الدنيوي بمرسوم .. كيف ؟.. وهل لأرباب الشهوات والأهواء ان يؤتمنوا على دين الله ؟.. اذن فليختاروا وينتخبوا الرسل والأنبياء ، ويفرضوهم على الله فرضاً ، ويلجئوه الى الاعتراف بهم الجاءً .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ..

والنتيجة المنطقية ان خليفة الرسول لا يكون ، ولن يكون إلا بالنص عليه من الرسول بالذات ، وان المرجع الأكبر في الدين من نص عليه بالصفات .. فمن تصدى لمنصب الخلافة بلا نص على اسمه ، أو تصدى لمنصب المرجعية بلا نص على صفاته فهو مفتر على الله ورسوله .. وقد خاب من افترى .

وبعد ، فان القضية ، أية قضية ، سواء أكانت في الخلافة،أو في المرجعية ، أو غيرها لا تصدق إلا إذا كانت انعكاساً عن الواقع ، وان التلاعب بالألفاظ لا يجعل المبطل محقاً ، ولا المحق مبطلاً ، ولا غير المعقول معقولاً .. وان دلت المقدرة على التبرير بالأقوال ، لا بالحق والواقع ، ان دلت هذه المقدرة على شيء فانما تدل على ان صاحبها تلميذ ناجح لابليس في تمويه الحقائق ، وتغطيتها بالطلاء المغشوش المزيف .

البسملة ، وتحديد الاسلام بكلمة واحدة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الكلمة المقدسة شعار مختص بالمسلمين ، يستفتحون بها أقوالهم وأعمالهم ، وتأتي من حيث الدلالة على الاسلام بالمرتبة الثانية من كلمة الشهادتين : لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله . أما غير المسلمين فيستفتحون باسمك اللهم ، وباسمه تعالى ، أو باسم المبدىء المعيد،أو باسم الاب والابن وروح القدس ونحو ذلك .

وتحذف الهمزة من لفظة (اسم) نطقاً وخطاً في البسملة ، وتكتب هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، لكثرة الاستعمال ، وتحذف الهمزة نطقاً ، لا خطاً في غير البسملة ، نحو سبح باسم ربك الأعلى ، واقسم باسم الله .

ولفظ الجلالة (الله) علم للمعبود الحق الذي يوصف بجميع صفات الجلال والكمال ، ولا يوصف به شيء .. وقيل : ان لله اسماً هو الاسم الأعظم ، وان

الذي يعرفه تفيض عليه الخيرات ، وتقع على يده المعجزات .. ونحن نؤمن ونعتقد بأن كل اسم لله هو الاسم الأعظم ، أي انه عظيم ، لأن التفضيل لا يصح اطلاقاً ، لعدم وجود طرف ثان تسوغ معه المفاضلة ... وبكلمة ان المفاضلة تستدعي المشاركة وزيادة .. والذي ليس كمثله شيء لا يشاركه أحد في شيء .

والرحمن في الأصل وصف مشتق من الرحمة ، ومعناها بالنسبة اليه تعالى الاحسان ، وبالنسبة إلى غيره معناها رقة القلب ، ثم شاع استعمال الرحمن في الذات القدسية ، حتى صار من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : « قل ادعوا الله أو الرحمن اياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » . وعلى هذا فلك ان تعرب لفظة الرحمن صفة لله بالنظر الى الأصل ، ولك أن تجعلها بدلاً بالنظر الى النقل .

الرحيم أيضاً وصف مشتق من الرحمة ، بمعنى الاحسان بالنسبة اليه جل وعز . وفرّق أكثر المفسرين ، أو الكثير منهم ، بين لفظة الرحمن ، ولفظة الرحيم بأن الرحمن مشتق من الرحمة الشاملة للمؤمن والكافر ، والرحيم من الرحمة الخاصة بالمؤمن ، وفرعوا على ذلك ان تقول : يا رحمن الدنيا والآخرة ، وان تقول: يا رحيم الآخرة فقط دون الدنيا .. أما أنا فأقول : يا رحمن يا رحيم الدنيا والآخرة : « أهم يقسمون رحمة ربك ـ الزخرف ٣٢ » .

ومعنى « بسم الله الرحمن الرحيم » بجملة انك قد ابتدأت عملك مستعيناً بالله الذي وسعت رحمته كل شيء مسجلاً على نفسك ان ما تفعله هو باسم الله ، لا باسمك أنت ، ولا باسم أحد سواه ، تماماً كما يقول موظف الدولة للرعايا : باسم الدولة عليكم كذا وكذا .. وان عملك الذي باشرت هو حلال لا شائبة فيه لما حرم الله .. فان كان حراماً ، وفعلته باسم الله فقد عصيت مرتين في آن واحد ، وفعل واحد : مرة لأنه حرام بذاته ، ومرة لأنك كذبت في نسبته الى الله .. تعالى علواً كبيراً .

والبسملة جزء من السورة عند الشيعة الإمامية .. وقد أوجبوا الجهر بها فيما يجب الجهر فيه بالقراءة ، كصلاة الصبح ، وأولي المغرب والعشاء ، ويستحب الجهر بها فيما يخافت فيه بالقراءة ، كأولي الظهر والعصر ، ويجوز الاخفات .

وقال الحنفية والمالكية : يجوز ترك البسملة في الصلاة كلية ، لأنها ليست جزءاً من السورة .. وقال الشافعية والحنابلة : بل هي جزء لا تترك بحال ، سوى ان الحنابلة قالوا : يخفت بها اطلاقاً ، وقال الشافعية : يجهر بها في الصبح ، واولي العشاءين ، وما عدا ذلك اخفات .. ويتفق قول الشافعية والحنابلة مع قول الإمامية.

ونجمل الاشارة الى أن اسم الله سبحانه وصفاته تتألف من هذه الحروف ، وتلفظ وتكتب كغيرها من الكلمات ، ومع هذا لها قدسية وأحكام خاصة بها ، فلا يجوز أن يكتب شيء منها على ورق ، أو غيره ، أو بمداد ، أو قلم نجس، وأيضاً لا يجوز مسها الا للمطهرين .

وأفتى فقهاء الإمامية بكفر وارتداد « من ألقى المصحف عامداً عالماً في القاذورات والقمامة ، أو ضربه برجله ، أو مزقه اهانة واعراضاً ، ونحو ذلك مما يدل على الاستهزاء بالشرع والشارع » .

وقال قائل : ان سورة الفاتحة تضمنت جميع معاني القرآن دون استثناء، وان البسملة تضمنت جميع معاني الفاتحة ، وان الباء من البسملة تضمنت جميع معاني البسملة،وبالتالي تكون الباء من بسم الله الرحمن الرحيم فيها معاني القرآن بكامله .

وهذا القائل أشبه بمن يحاول أن يدخل الكون بأرضه وسمائه في البيضة دون أن تكبر البيضة ، أو يصغر الكون ..

تحديد الاسلام بكلمة واحدة :

قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٢١ نيسان سنة ١٩٦٧ كلمة قال كاتبها ضياء الريس : انه قرأ مقالاً في مجلة أدبية لكاتب عربي شهير ، قال فيه : انه — أي الكاتب — حين كان عضواً في البعثة العلمية بانكلترا اشتبك في نقاش حاد مع انكليزية مثقفة حول الاسلام والمسيحية،فقالت الانكليزية — متحدية جميع المسلمين بشخص الكاتب المسلم — اني ألخص مبادىء المسيحية كلها بكلمة واحدة ، وهي المحبة ، فهل تستطيع أنت — أيها المسلم — ان تأتي بكلمة تجمع مبادىء الاسلام ؟ فأجابها الكاتب المسلم : أجل ، انها كلمة التوحيد .

وبعد ان نقل الريس هذا الحوار قال : لم يكن الجواب موفقاً، وذكر أسباباً وجيهة وصحيحة تدعم حكمه على الكاتب بعدم التوفيق ، وبعد ان انتهى الريس من حكمه وأسبابه الموجبة قال : لو وجه الي هذا السؤال لأجبت بأن هذه الكلمة هي الرحمة ، واستدل على صحة جوابه هذا بالعديد من الآيات والروايات مبتدئاً ببسم الله الرحمن الرحيم .. الى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين .. الخ

وصدق الريس في قوله : ان الكاتب لم يكن موفقاً في جوابه .. ولكن الريس أيضاً لم يكن موفقاً في اختياره كلمة الرحمة ، لأنه لم يزد شيئاً على ما قالته الانكليزية ، حيث أخذ كلمة المحبة منها ، وترجمها الى كلمة الرحمة ، وعلى هذا لا يكون للاسلام أية ميزة على المسيحية .

ولو كنت حاضراً مع البعثة العلمية بانكلترا لأجبت بكلمة « الاستقامة » فانها الكلمة الجامعة المانعــة الشاملة للاستقامة في العقيدة بما فيها التوحيد والتنزيه عن الشبيه ، وأيضاً تشمل الاستقامة في الأعمال والأخلاق والأحكام وجميع التعاليم بما فيها الرحمة والمحبة والتعــاون . ان الرحمة من مبادىء الاسلام ، وليست الاسلام بكامله ، كما ان التوحيد أصل من أصوله ، لا أصوله بأجمعها .

وبما ان الاستقامة تجمع المحبة والرحمة والتوحيد ، وسائر الأصول الحقــة ، والأعمال الخيرية،والأخلاق الكريمة المستقيمة ، وبما انها المقياس الصحيح للفضيلة والكمال الذي يبلغ بالانسان الى سعادة الدنيا والآخرة .. لذلك كله أمرنا أن نكرر في صلاتنا صباح مساء: « أهدنا الصراط المستقيم » .. وقال عز من قائل مخاطباً نبيه الأكرم (ص) : « واستقم كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطغوا انه بما تعملون بصير – هود ١١٣» . وقال : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعــدون – فصلت ٣٠ » .

ولا شيء أدل على ان الاستقامة هي الكل في الكل من قول ابليس اللعين : « لاقعدن لهم صراطك المستقيم » .

وجاء في الحديث الشريف : « قال سفيان الثقفي : يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا اسأل عنه أحــداً بعدك . قال رسول الله : قل : آمنت بالله ، ثم استقم » .

واختصاراً ان معنى الاستقامــــة أن نقف عند حدود الله ، ولا ننحرف عن الحق الى الباطل ، وعن الهداية الى الضلال ، وان نسير بعقيدتنا وعاطفتنا،وجميع أقوالنا وأفعالنا على الصراط المستقيم،صراط الذين أنعم الله عليهم غــير المغضوب عليهم ولا الضالين .

الجزء الأول

في

سورة الحمد وسورة البقرة

الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ★ الرَّحمنِ الرَّحيمِ★ مالِكِ يومِ الدِّينِ★ إيّاكَ نَعبُدُ وإياكَ نَستَعينُ★ اِهدِنا الصِّراطَ المسْتَقيمَ★ صِراطَ الَّذينَ أنْعمْتَ عَليهِمْ غَيرِ المغْضُوبِ عَلَيهِمْ ولاَ الضَّالِينَ★

النزول :

اختلفوا في مكان نزولها ، فقيل : في مكة المكرمة . وقيل : بل في المدينة . وقال ثالث : نزلت مرتين : في مكة أولاً ، وفي المدينة ثانية تأكيداً لأهميتها ، ومبالغة في تشريفها . وأكثر المفسرين على انها نزلت في مكة .

وهذا الخلاف عقيم لا فائدة له ، لأن هذه السورة الكريمة لا تحتوي على آية يختلف معناها باختلاف النزول .

الأسماء :

ذكروا لها أسماء عديدة ، أشهرها :

١ — الفاتحة ، لأنها أول سورة في كتابة المصاحف ، ولوجوب قراءتها في أول الصلاة .. هذا الى ان التعليم على وجه العموم كان يفتتح أول ما يفتتح بها ايام زمان .

٢ — الحمد ، لأنه أول لفظها .

٣ — أمّ الكتاب ، وأمّ القرآن ، لأنها متقدمة على غيرها من السوَر ، ولو كتابة .. تقدم الأم على أبنائها ، ولأنها اشتملت على أصلين : ذكر الربوبية والعبودية ، وعليهما ترتكز تعاليم القرآن .

٤ — السبع المثاني ، لأنها سبع آيات ، وبقراءتها يثنى في الصلاة ، أو لأنها جمعت بين ذكر الربوبية والعبودية .

ومهما يكن ، فان التسمية تصح لأدنى شبه .

الحمد لله رب العالمين :

هذه الجملة إخبار بمعنى الانشاء ، لأن المتكلم قصد احداث الحمد لله ، لا الأخبار عن ثبوت الحمد لله .. وهي تلقين وتعليم من الله لعباده : كيف يحمدونه أي قولوا يا عبادي : الحمد لله .

ومعنى الحمد لله الثناء عليه سبحانه بقصد التعظيم والتبجيل على كل حال ، حتى على الضراء ، قال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطب النهج : « نحمده على آلائه ، كما نحمده على بلائه » .

ومحمد وأحمد ومحمود وحامد وحميد وحمدان أسماء مأخوذة من الحمد .. وقد يأتي الحمد وصفاً للشيء الذي ترضى عنه،قال تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً — الاسراء ٧٩ » .. وقالوا : حمد السوق من ربح .. وعند الصباح يحمد القوم السرى .

ولفظ الرب يطلق على السيد والمالك ، وكل من المعنيين يصح ارادته هنا ، ولكن معنى الخالق هو المتبادر من لفظ هذه الآية الكريمة .

والعالمين جمع عالم بفتح اللام ، والعالم يطلق على نوع خاص من الكائنات، فيقال : عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، وعالم الانسان ، ولا يطلق لفظ عالم على المفرد ، لأنه اسم للجمع .. والمراد بالعالمين هنا كل ما عدا الله سبحانه ، فيعم جميع الكائنات .. وقد يطلق على جميع أصناف الناس، كقوله: « هدى للعالمين – آل عمران ٩٦ » .. وإذا صح جمع العالمين بالياء نصباً وجراً فينبغي أن يصح جمعه بالواو رفعاً ، فيقال: العالمون .. وقال أبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط : انه شاذ .

ومعنى رب العالمين خالق كل شيء ومدبره ، ولفظ رب بدل كل من لفظ الجلالة ، ويشعر بالعلية ، أي اني أحمد الله ، لأنه رب العالمين .

الرحمن الرحيم :

مر الكلام عن لفظ الرحمن والرحيم في فصل البسملة .

ومن أقوال أمير المؤمنين (ع) في وصف الله جل وعز قوله : « لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تُلهيه رحمة عن عقاب » .. والذي فهمته من هاتين الجملتين ان غضب الله على العاصين، وعقابهم غداً – لا يمنعه عن رحمتهم في هذه الحياة التي يتمتعون بنعيمها ، ويتقلبون في ملذاتها ، وان رحمته غداً للمؤمنين لا تدفع عنهم البلاء والأسواء في هذه الحياة .

مالك يوم الدين :

للفظ الدين معان شتى ، منها المكافأة والجزاء ، مثل كما « تدين تدان » . وهذا المعنى يناسب المقام ، حيث تجازى في ذاك اليوم كل نفس بما كسبت ..

وقرىء « مالك يوم الدين » بالألف ، كما تقول : فلان مالك هذا البستان بمعنى الاختصاص .. وقرىء « ملك يوم الدين » بكسر اللام ، كما تقول : ملك اليونان بمعنى الحكم والسلطة ، والقراءتان متواترتان، والأولى أكثر استعمالاً .

والمعنى المنساق إلى الذهن واحد على كلتا القراءتين ، وهو ان كل شيء بيد الله وحده اليوم وغداً ، فهو رب العالمين ، ورب يوم الدين، والغرض التخويف من المعصية ، والترغيب في الطاعة .

وعلى القراءة الأولى يكون « مالك » وصفاً ، وعلى القراءة الثانية يكون « ملك » بدلاً .

وفي نهج البلاغة : إنّا لا نملك مع الله شيئاً ، ولا نملك الا ما ملّكنا ،فمتى ملّكنا ما هو أملك به منا كلّفنا ، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا .

اياك نعبد واياك نستعين :

اياك ضمير منفصل ، ومحله النصب مفعولاً للفعل الذي بعده ، وقدم للحصر والاختصاص .. والمعنى نعبدك ، ولا نعبد سواك ، ونستعين بك ، لا بغيرك ، وخاطب العبد ربه بضمير المفرد اخلاصاً في التوحيد ، وتنزيها عن الشريك ، ومن أجل هذا لا يخاطب الواحد القهار بصيغة الجمع .. أما ضمير نحن في نعبد ونستعين فللمتكلم ومن معه ، لا للتعظيم .

وتتحقق العبادة بالصوم والصلاة ، والحج والزكاة لوجه الله تعالى ، وأيضاً تتحقق بكل عمل انساني يسد حاجة من حاجات الناس ، فلقد جاء في الحديث: « أهل المعروف بالدنيا أهل معروف في الآخرة .. خير الناس أنفع الناس للناس » .

وليس معنى « اياك نعبد ، واياك نستعين » ان الله أهل للعبادة وكفى ، بل تدل الآية أيضاً على ان الانسان مخلوق كريم حرره الله من العبودية والخضوع اطلاقاً إلا للحق الذي يعلو على كل شيء ، ولا يعلو عليه شيء .. وبديهة ان الحرية التي لا يحدها الحق تنعكس الى فوضى .. ومما قرأته في هذا الباب قول جان بول سارتر : « ان التحرر الحقيقي ان يلتزم الانسان بوضع نفسه وحريته في خدمة الآخرين »[1] .

---

[1] معنى الوجودية التي كان يقول بها سارتر ان كل فرد من افراد الانسان هو في عزلة واستقلال عن غيره ، وانه لا شيء بالنسبة اليه إلا وجوده وحده ، ولا يتحقق له وجود إلا إذا انطلق مع حريته ، دون قيد أو شرط ... أما الدين والمبادئ والمعايير والمقاييس فكلام فارغ ، فلا خير إلا خير الفرد نفسه ، ولا شر إلا شره بالذات ... ويستدل سارتر على ذلك بأن الإنسان أتى من عالم مجهول، ويذهب إلى عالم مجهول وانه وجد قبل القوانين العقلية والدينية ، ومن استسلم لدين من الأديان ، أو لمبدأ من المبادئ فقد قيد نفسه ، وتنازل عن حريته ، وبالتالي عن وجوده .. ثم عدل سارتر عن فلسفته هذه ، واعتنق « حرية أعظم ، وهي الحرية من أجل الملايين ، وان الإنسان يكسب نفسه حينما يضعها في خدمة الآخرين ، وان الإنسان الحقيقي هو الذي يلتزم بهذا المبدأ » .. وبعد أن كان سارتر يتكلم عن الفرد ويدافع عنه أصبح يتكلم عن الشعوب ويدافع عنها .

وقيل : ان اثنين كانا يتنزهان في حديقة ، ومع أحدهما قضيب يلعب به ، فمس طرف القضيب أنف الآخر ، ولما اعترض هذا قال صاحب القضيب : أنا حر ، فقال له صاحبه : لحريتك حد ينتهي عند أنفي .

ولا أعدو الحقيقة إذا حددت الحرية بالايمان بالله ، والتعبد له وحده لأن من تعبد للحق دون سواه فقد تحرر من الباطل ومن تحرر من عبادة الحق فقد عبد الباطل حتماً ، والتفكيك محال إلا عند فوضوي ، لا يؤمن بحلال ولا بحرام ، ولا بشيء على الاطلاق إلا بنفسه وحدها لا شريك لها .

اهدنا الصراط المستقيم :

الصراط في اللغة الطريق المحسوس ، وفيه قراءتان بالسين والصاد ، والسين هي الأصل ، والمستقيم المعتدل الذي لا عوج فيه وهو صفة للصراط ، والمراد بالصفة والموصوف هنا الحق .

وليس المراد بالهداية مجرد العلم ، بل العلم مع التوفيق الى العمل ، فمن دعا لك بالهداية فقد دعا لك بالخير كل الخير ، ومن دعا لك بالعلم فقد دعا لك ببعض الخير .. والغريب ان أكثر الناس يثقل عليهم الدعاء بالهداية ، بخاصة العلماء والكبراء مع العلم بأن الرسول الأعظم (ص) كان يكرر الدعاء بها ليل نهار في صلواته وغيرها .

ولست أعرف هداية وتوفيقاً أفضل وأعظم من أن يكتشف الانسان عيوب نفسه بنفسه ، ويشعر بالتأنيب ووخز الضمير من أجلها .. وبهذا الشعور يمكن النجاة والخلاص ، أعاذنا الله من الغرور وأسوائه .

صراط الذين :

جاء في بعض الروايات ان المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، ولكن لفظ الآية عام لا تخصيص فيه ، ولا استثناء ، فكل مطيع تشمله نعمة الله ورحمته ، وكل عاص ضال ومغضوب عليه .

ومهما يكن ، فان الغرّض من هذه الآية ، ومن سورة الفاتحـــة بكاملها ان يقف العبد بين يدي سيده مؤمناً موحداً ، وشاكراً حامداً ، ومخلصاً وداعياً ان يوفقه لمرضاته علماً وعملاً .

وكل انسان واجد عند خالقه ما قدم من عمل ، أما الأقوال فلا أثر لها إلا ان تقرّب من طاعة ، أو تبعد عن معصية .

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الۤمۤ ★ ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ★

فواتح بعض السور ، والقرآن والعلم الحديث :

قال صاحب مجمع البيان هي مدنية كلها الا قوله تعالى : واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله .

ألـــم :

اختلفوا فيما هو المقصود منها ، ومن فواتـــح بعض السور ، مثـل الر ، وكهيعص ، وحم ، وما اليها .. فقيل : هو من علم الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحداً .

ويلاحظ بأن الله سبحانه لا يخاطب الناس بأشياء لا يريد أن يعرفوها ويطلعوا عليها .. كيف ، والغيب هو السر المكنون ؟! بالاضافة إلى انه قد ندد بالذين لا يتدبرون القرآن في الآية ٢٤ من سورة محمد : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » .

وقيل : ان هذه الفواتح أسماء للسورة وقيل : بل هي أسماء لله . وقيـل : بل لمحمد (ص) . وقيل غير ذلك .

وأقرب الأقوال إلى الواقـــع والفهم ان الله سبحانه بعد أن تحدى بالقـــرآن الجاحدين والمعاندين وعجزوا عن الاتيان بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة

واحدة ، بعد هذا أشار بذكر هذه الحروف (الم) ونحوها إلى ان هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف التي هي في متناول الأطفال والجهال .. فعجزكم – اذن – دليل قاطع على ان هناك سراً ولا تفسير لهذا السر الا ان هذا القرآن من وحي السماء ، لا من صنع الأرضَ .

ذلك الكتاب الآية ٢ :

ذلك اسم اشارة ، ومحله الرفع بالابتداء ، والكاف للتعظيم ، لا للبعد ، كقولك : أنا ذلك الرجل .. والمراد بالكتاب القرآن . وبنفي الريب عنه انه كتاب حق وصدق .. وعجزهم عن صياغة مثله يستدعي ان لا يرتابوا فيه اطلاقاً لو كانوا طلاب حقيقة .

القرآن والعلم الحديث :

قوله تعالى : « هدى للمتقين » فيه دلالة واضحة على ان القرآن لا يلتمس فيه علم التاريخ ، ولا الفلسفة ، ولا العلوم الطبيعية والرياضية ، وما اليها، وانما يلتمس فيه هداية الانسان ، وارشاده الى صلاحه وسعادته في الدارين .. وبكلمة ان القرآن كتاب دين وأخلاق وعقيدة وشريعة .

وتسأل : وماذا أنت صانع بالآيات الكونية : « والشمس تجري لمستقر » . والقمر قدرناه منازل .. وما إلى ذلك من عشرات الآيات ؟.

الجواب : لم يكن الغرض من هذه الآيات ان يبين الله لنا ما في الطبيعة من حقائق علمية ، كلا ، فان ذلك موكول الى عقل الانسان وتجاربه ، وانما الهدف الأول من ذكرها أن نسترشد بالكون ونظامه الى وجود الله سبحانه ، وانه لا شيء من هذه الكائنات وجد صدفة ، ومن غير قصد كما يزعم الماديون ، بل وجد بارادة عليمة حكيمة ، وقد بين الله ذلك صراحة في قوله تعالى : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق – ٥٣ حم السجدة» . أي سنكشف للكافرين بالله عن تدبير الكون وأحكامه ما يعلمون معه انهم على ضلال..

ان القرآن حين يدعو الى النظر في الكون فانه يقول بلسان مبين ان دلائل الكون أصدق حجة ، وأقوى دلالة علـى وجود الله من كل شيء ، حتى من الدور والتسلسل. قال بعض الحكماء : ان لله كتابين : كتاباً يتلوه اللسان ، وكتاباً يتلوه العقل ، وهو الكون .

أجل ، ان القرآن حث علـى دراسة العلوم الطبيعية ، وكل علم يعود على الانسانية بالخير والهناء ، ولكن حثـه على العلم شيء ، وكونه كتاباً في العلوم شيء آخر .

وأيضاً لا يشك عارف بالقرآن وآياته ان معانيه لا تحصيها كثرة ،ولا يحيط بها عقل بالغاً ما بلغ من العظمة ، وانما يدرك منها كل عالم ما تتسع له مؤهلاتـه ومواهبه،وهي عميقة إلى أبعد الحدود ، فاذا اكتشف عالم معنى منها فانه يكتشف طرفاً من أطرافه ، وجهة من جهاته يستعين بها على معرفة بعض ما يحويه الكون.. ولكن هـذا شيء ، والحقائق العلمية التي يستنتجها الاخصائيون في مختبراتهم شيء آخر .

« ملحوظة » : اني مـا مضيت في تفسير القرآن إلا قليـلاً ، حتى أيقنت ان أي مفسر لا يأتي بجديد لم يسبق اليه ، ولو بفكرة واحدة في التفسير كلـه يخالف فيها من تقدمه من أهل التفسير ، ان هذا المفسر لا يملك عقلاً واعياً ، وانما يملك عقلاً قارئاً يرتسم فيه ما يقرأه لغيره دون محاكمة ، أو تقليم وتطعيم ، تماماً كما يرتسم الشيء في المرآة على ما هو من لون وحجم .. وأيضاً اكتشفت من تفسيري للقرآن ان معانيه لا يدركها ، ولن يدركها على حقيقتها إلا المؤمن حقاً الذي اختلط الإيمان بدمـه ولحمه .. وانسجم مع أهـداف القرآن انسجاماً كاملاً . وهنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين : ذلك القرآن الصامت ، وأنا القرآن الناطق .

ومما يعزز ويؤيد ان القرآن أولاً وقبل شيء هو كتاب هـدى ودين وشريعة وأخلاق وانه أنزل لأجل هذه الغاية قوله تعالى :

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » .

وقوله : « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة » .. وكفى دليلاً على ذلك قـول الرسول الأعظم (ص) انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . وقـال الإمام

أمير المؤمنين (ع) في الخطبة ١٧٤ من خطب النهج : « ان في القرآن شفاء من أكبر الداء ، وهو الكفر والنفاق ، والغي والضلال » . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً - ٨٢ الأسرى » .. وعسى أن يتعظ بقول الإمام(ع) من يطلب الشفاء لأوجاعه الجسمية بتلاوة هذه الآية إلا أن يضيف اليها (روشتة) الطبيب .

وتسأل مرة ثانية وماذا تقول بهذه الآية : « ما فرطنا في الكتاب من شيء - ٣٨ الانعام » . حيث دلت بظاهرها على أن في القرآن جميع العلوم ؟.

الجواب : ان عموم كل شيء بحسبه ، فاذا قلت : هذا البيت فيه كل شيء فهم منه ان فيه ما تدعو اليه حاجة المقيم فيه من مؤنة واثاث .. واذا قلت عن كتاب فقهي : فيه كل شيء . فهم منه جميع المسائل الفقهية .. والقرآن كتاب دين ، وعليه يكون معنى ما فرطنا في الكتاب من شيء يتصل بخير الانسان وهدايته .

سؤال ثالث : وما قولك في هذه الكتب التي تحمل اسم القرآن والعلم الحديث، والاسلام والطب الحديث ، وما الى هذا ؟.

الجواب : أولاً ان كل من يحاول الملاءمة بين مستكشفات العلم قديماً كان أو حديثاً ، وبين القرآن الكريم فانه يحاول المحال .. ذلك ان علم الانسان محدود بطاقته العقلية ، والقرآن من علم الله الذي لا حد له .. فكيف تصح الملاءمة بين المحدود ، وغير المحدود ؟.

ثانياً : ان علم الانسان عرضة للخطأ ، لأنه عبارة عن نظريات وفروض تخطىء وتصيب . وكم رأينا العلماء يجمعون على نظرية ، وانها صحيحة مئة بالمئة ثم اكتشفوا، أو من جاء بعدهم من العلماء انها خطأ مئة بالمئة .. والقرآن معصوم عن الخطأ .. فكيف تصح الملاءمة بين ما هو عرضة للخطأ ، وبين المعصوم عنه ؟ ثم هل نستمر في تأويل نصوص القرآن،ونحملها ما لا تتحمل كلما نسخت أو عدلت فروض العلم ونظرياته ؟

أجل ، لا بأس أن نستعين بما يكتشفه العلم من حقائق على فهم بعض الآيات ، على شريطة أن لا نجعلها مقياساً لصدق القرآن وصحته ، بل وسيلة

للتعرف على أسراره وحكمة بعض أحكامه .. ومن الجائز ان يكون هذا ما قصد اليه الذين كتبوا وألفوا في القرآن والعلم الحديث .

ومهما يكن ، فنحن على يقين راسخ بأننا أقوياء في ديننا ، أغنياء فيما لدينا من البراهين على صدقه .. ولسنا أبداً بحاجة الى ما عند الغير ، بـل نعتقد ان الغير بحاجة الينا في ذلك .. ان البشرية في تاريخها كله لم تعرف ، ولن تعرف ديناً أصلح لها من دين الاسلام ، ولا كتاباً أنفع من كتابه ، ولا نبياً أعظم من نبيه ، ومن لم يهتد بدلائل القرآن ، ودعوته الى الحياة الطيبة فلا تقنعه الكشوف العلمية قديمة كانت أو حديثة . وخطر في بالي الآن شيء .. ربمـا خفف عن القارىء وطأة الملل من القراءة ، وأغراه في المضي ، كما انه يصلح – على ما أظن – رداً على من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث ، وهذا هو الخاطر :

مر عزير على قرية خاوية على عروشها ، وكان معه حماره ، وطعامه ، وشرابه ، فتعجب واستغرب ، وقال : انّى يحيي هـذه الله بعد موتها ؟! وأراد الله أن يزيل استغرابه ، واستبعاده فأماته مئة عام ، وأبقى طعامه وشرابه طوال هـذه المدة على حالها دون أن ينالها تغير وفساد .. ولما أحيا الله عزيراً وأراد أن يريه من آياته عجباً قال له : أنظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، أي لم يتغير .

فهل يا ترى كان طعام عزير وشرابه في ثلاجة ؟! السؤال موجه لصاحب القرآن والعلم الحديث..وليس من شك ان هذه الثلاجة التي حفظت الطعام والشراب مئة عام ليس من شك انها من موديل سنة الألفين ، لا موديل سنة الـ ٦٧ .

أجل ، ان فهم معاني القرآن الكريم يمكن تطبيقه على العلم الحديث ، وبصورة خاصة على النظرية النسبية .. ذلك ان الفهم لجهة من جهات معنى من معانيـه الدقيقة العميقة يختلف باختلاف زمن التلاوة ومكانها ، وحال من يتلو أو يسمع .

وان قال قائل : ان هذا الاختلاف لا يختص بالفهم لتلاوة القرآن وحده ، لأن النظرية النسبية عامة لا تقبل التخصيص .

قلنا في جوابه : هذا صحيح ، ولكن لمعاني القرآن استعداداً لذلك لا يوجد في غيرها .. وهذا يعزز ملاحظتنا بأن من يقف عند قول المفسرين ، لا يتعداه ولو في تفسير آية واحدة فهو قاصر يملك عقلاً قاصراً لا عقلاً واعياً ، والله سبحانه المسؤول أن يجعل فهمنا لآياته فهم وعي

مكتبة العلامة ... مؤسسة السيدة ... الحسيني الشهرستاني ... الكاظمية - العراق

و « المتقين » أوله واو ، لأنه وقي وقاية ، ثم قلبت الواو تاء ، والوقاية في اللغة مطلق الصيانة والتحفظ ، وفي الشريعة الوقاية من سخط الله وعقابه على ترك واجب ، أو فعل محرم ، قال أمير المؤمنين (ع) : التقى رأس الأخلاق . وقال بعضهم : التقى ان لا يراك الله ، حيث نهاك ، ولا يفقدك ، حيث أمرك ، وبالتقوى وحدها يكون التفاضل عند الله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وتسأل : ان المتقين مهتدون ، فلا يحتاجون الى من يهديهم ، تماماً كما لا يحتاج العالم الى من يعلمه ؟.

الجواب : ان المعلم يلقي دروسه على جميع الطلاب ، الأذكياء والبلداء ، ولكن الذين ينتفعون بالمعلم هم الأذكيـاء المجتهدون الذين تكون عاقبتهم الى النجاح ، وعليه يصح أن يقال : ان المعلم هو معلم الناجحين ، وكذا القـرآن الكريم ، فانه قد خاطب الجميع دون استثناء ، ولكن الذين انتفعوا به هم الذين صاروا من المؤمنين المتقين ، ومن أجل هذا خصهم بالذكر ، على ان المتقـي يستمر ويزداد تقى بالقرآن : « والذين اهتدوا زدناهم هدى » .

الذين يؤمنون بالغيب الآية ٣ ـ ٥ :

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصلاةَ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ★ وَالذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمـا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ★ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ★

العالم بكل شيء لا مكان له :

قيل : ان عالماً كان يجلس في مكان الصدارة ، والناس من حوله يستمعون

له ، ويخشعون ، فحسده منافس له في المهنة ، فقال له بمسمع من الجميع : ما قولك بكذا ؟ وسأله مسألة أشبه بالطلاسم .

فقال العالم : لا أعلم .

قال السائل : ان المكان الذي أنت فيه لمن يعلم ، لا لمن لا يعلم .

قال العالم : ويلك ، ان هذا المكان لمن يعلم شيئاً ولا يعلم أشياء ، والذي يعلم كل شيء لا مكان له .

أجل ، ان الانسان يستحيل أن يحيط بكل شيء علماً : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

المعرفة :

لا أحد من الناس يُخلق عالماً بشيء من الأشياء ، وانما تتجدد له المعرفة آناً بعد آن بسبب من أسبابها ، حتى اسمه العَلَم لا يعرفه إلا بعد أن ينادى به أكثر من مرة ، وقد ذكر أهل الاختصاص للمعرفة أسباباً ، منها :

١ ــ أن يتلقى الانسان معلوماته من إحدى حواسه الخمس ، كمعرفته الألوان بالبصر ، والأصوات بالسمع ، والروائح بالأنف ، والطعوم بالذوق ، والصلابة وما اليها باللمس .. ومثلها ما يتصوره الانسان عن طريق مشاعره الباطنية، كالجوع والشبع ، والحب والبغض .

٢ ــ أن يتلقى معارفه من المراقبة والتجربة .

٣ ــ أن يتلقاها بالبديهة ، أي أن يشترك في معرفتها جميع العقلاء مثل: واحد وواحد اثنان ، والأشياء المساوية لواحد متساوية ، والشيء النافع خير من الضار ، أو يتلقاها من إعمال الفكر واجتهاد العقل الذي يتلقاها بدوره من الحواس ، أو التجربة أو البديهة ، مثل الحكم على كل قطعة من قطع الحديد بأنها جسم صلب ، فان هذا الحكم على كل قطعة ما وقع منها في خبرة الحس ، وما لم يقع ، ان هذا الحكم لا يعتمد على اختبار كل القطع الحديدية ، وانما اعتمد على مجرد تصور العقل وتنبؤه بوجود قدر جامع بين جميع قطع الحديد ، وعلى هذا يكون الحكم الشامل عقلياً ، لكنه استخرج من المعرفة التي تستند الى التجربة .

٤ – أن لا يتلقى معلوماته من الحس ، أو التجربة ، أو القوة العقلية ، بل يتلقاها مباشرة وبلا واسطة . وذلك بعد جهاد النفس لتنقيتها من الشوائب كما يقول المتصوفة .. وبكلمة أوضح ان القلب عند المتصوفة تماماً كالعقل عند غيرهم فكما ان العقل يدرك بعض الأشياء بالبديهة ، ومن غير نظر ، والبعض يدركه بالاجتهاد والنظر كذلك القلب، فانه يشعر بأشياء من غير حاجة الى جهاد النفس، كشعوره بالحب والبغض والبعض يشعر به بعد جهاد النفس ، كوجود الباري وصفاته ، فالاجتهاد العقلي عندنا يقابله جهاد النفس عند المتصوفة .

ولا أحد يستطيع أن يناقش الصوفي في آرائه ومعتقداته ، لأنك اذا سألته عن الدليل يجيبك بأن ايماني وعلمي ينبع من ذاتي وحدها .. وإذا قلت له : ولماذا لا ينبع هذا الإيمان ، وهذا العلم من ذوات الناس ، كل الناس ؟ يقول: لأنهم لم يمروا بالتجربة الروحية التي مررت بها .

ونحن نقف من هذا التصوف موقف المحايد المتحفظ ، فلا نثبته ، لبعده عما عرفنا وألفنا ، ولا ننفيه ، لأن المئات من العلماء في كل عصر ، حتى في عصرنا هذا يؤمنون بالتصوف على تفوقهم ، واختلافهم في الجنس والدين والوطن واللغة ، وليست لدينا أية حجة تنفي التجارب الشخصية البحتة ، ومن الجائز أن تكون تجربة الصوفي أشبه شيء باللحظات التي يلهم فيها الشاعر والفنان ، ولكن هذا شيء يعنيه وحده ، ولا حجة له فيه على غيره ، حيث لا ضابط له ، ولا رابط .

الغيب :

وهناك أشياء لا وسيلة الى معرفتها بالحس والتجربة والقوة العقلية ، منها : اللوح المحفوظ والملائكة ، وابليس ، وحساب القبر ، والجنة والنار . ومنها : انقلاب العصا حية ، واحياء الموتى ، وما الى ذلك مما اخبر به النبي ،ولا يستقل العقل بادراكه ، ولم نره نحن بالعين ، كل ذلك هو المقصود بالغيب في قوله تعالى : « يؤمنون بالغيب » . فالغيب هو الذي لا يمكن التوصل الى معرفته الا بالوحي من السماء على لسان من ثبتت نبوته وصدّقه بالعقل : « وعنده مفاتح

الغيب لا يعلمها الا هو – الانعام ٥٩ » . وبهذا يتبين ان الايمان بالغيب جزء من الاسلام ، وان من لا يؤمن به فليس بمسلم .. وأيضاً يتبين ان ما لا يمكن استكشافه بالمشاهدة والتجربة ، أو بالعقل ، ولم تنزل به آية من كتاب الله ، أو تأتي به رواية عن رسول الله فهو أسطورة وخرافة ، كأكثر ما يرويه الرواة من الاسرائيليات ، وما اليها .

الدين والعلم :

والغريب ان الطبيعيين يؤمنون بالغيب ، لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الكون وجد صدفة .. وليس من شك ان الايمان بالصدفة ايمان بالغيب ، لأن الطبيعيين لم يشاهدوها بالعيان ، اذ المفروض انهم وجدوا بعد الكون ، وأيضاً لم يدركوها بالعقل ، لأن العقل يبطل الصدفة ، أو لا تقع تحت اختباره اثباتاً ولا نفياً – على الأقل – .

والاغرب انهم يسمحون لأنفسهم أن يفترضوا وجود مادة لطيفة يطلقون عليها اسم الأثير ، ومنها وجد الكون بزعمهم، بل يؤمنون بذلك ايماناً لا يشوبه ريب ، ثم يحرمون على غيرهم أن يفترض ويؤمن بوجود قوة حكيمة مدبرة وراء هذا الكون .. مع العلم بأن هذا الافتراض أقرب الى العقل والقلب من افتراض وجود مادة عمياء صماء .

وعلى أية حال ، فان الغيب يدل اسمه عليه ، يدرك بالوحي فقط ، لا بالتجربة ولا بالعقل .. أجل شرطه الوحيد أن لا يتنافى مع العقل، لا أن يستقل العقل بادراكه .. وعلى هذا فلا يبقى مجال لأية محاولة تهدف الى اخضاع الوحي ونصوصه للعلم التجريبي .. ان مهمة هذا العلم تنحصر في محاولة الانسان لفهم الطبيعة ، والسيطرة عليها ، ويجيب عن هذه الأسئلة : ما هي القوى التي تتألف منها طبائع الأشياء من جماد ونبات وحيوان ؟ وكيف نصمم طائرة تزيد سرعتها على سرعة الصوت ؟ ولا يدرك العلم التجريبي من أوجد الطبيعة ونظامها .

أما الدين فانه يعرفنا بأسباب الوجود ويعطينا المفاتيح الرئيسية لمعرفة خالق الكون ويقودنا الى ما ينبغي عمله في هذه الحياة ، لنحقق أهدافنا الروحية والمادية . ان

المصنع وحـــده ، والحقل وحده ، أو هما معاً لا يفيان بجميع أغراض الانسان وأهدافه ، لأن الانسان ليس جسماً ومادة فقط ، انه مادة وروح وعاطفة ووعي.. ان في داخل الانسان رحمة شاملة ، اسمها الانسانية ، ونوراً ساطعاً ، اسمه العقل الذي يتصاغر أمامه ، ويتضاءل العالم الأكبر .

ان مطالب جسمنا هذا المحسوس من الأكل والشرب والنوم قد فرضت نفسها علينا فرضاً ، ولا خيار لنا في رفضها ، فنحن نسعى للقيام بها دون اختيـار ، ولا يختلف في ذلك فرد عن فرد عالماً كان أو جاهلاً ، نبياً أو غير نبي . أما الروح فتختلف مواهبها ومطالبها باختلاف الأشخاص والأفراد ، وكثيراً ما يكبت الانسان عواطفه وميوله ، ويكظم غيظه ، ويتجرعه طواعية ، لا قسراً، ويكون الخير كل الخير في هـــذا الكبت والردع ، على العكس من الجسم اذا لم نلبِ مطالبه .

هذا ، ولو كان الانسان جسماً فقط لتحكم به علماء الطبيعة ، كما يتحكمون بالمادة ، ولاستطاعوا أن يعرفوا أسرار النفس وكوامنها ، وان يحولوا جحودهـا إلى ايمان ، وايمانها الى جحود ، وحزنها الى فرح وفرحها الى حزن ، وحبهـا إلى بغض وبغضها الى حب ، وادراكها الى جنون ، وجنونهـا الى ادراك ، وشيخوختها الى شباب ، وشبابها الى شيخوخة .. ولو استرسلت في هـذا الباب لملأت العديد من الصفحات .. وأرجو أن أوفق لعرض هذه المسألة في المناسبات الآتية بصورة أكمل وأوضح .

والقصد من هـــذه الاشارة هو البيان بأن موضوع العـلم التجربي شيء ، وموضوع الدين والوحي شيء آخر .. فالأول موضوعه المادة جامدة كانت ، أو نامية ، وهدفه الكشف عما تحتوي عليه من قوى ، والثاني موضوعه حياة الانسان بشقيها المادي والروحي ، وان شئت قلت حياته الروحية والعملية . أما هدفه فهو أن يعيش الناس ، كل الناس عيشة راضية مرضية .

أجل ، ان الاسلام يحترم العقل والعلم النافع ، ويحث عـلى طلبه ، ويعتبره فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويرفع أهله درجات ، ومن أجل هذا يجب على المسلم بما هو مسلم أن يعتقد بأنه لا شيء في العلم الصحيح أو العقل السليم، يتنافى مع الاسلام ، ولا في أحكام الاسلام ما يتنافى معها .. ان عدم المنافاة والمناقضة

شرط أساسي ، أما أن يستقل العقل ، أو العلم التجريبي بادراك كل حكم من أحكام الاسلام فليس بشرط .

وتسأل : لقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) قوله : « أصل ديني العقل » وهو بظاهره يدل على ان العقل يدرك جميع الأحكام الدينية الاسلامية ؟.

الجواب : ان الاسلام يرتكز أول ما يرتكز على الألوهية والنبوة ، ومنهما تنبع تعاليمه وأحكامه ، والسبيل الى معرفتها هو العقل[1] ، وعليه يكون معنى الحديث الشريف ان الاسلام الذي يرتكز على الألوهية والنبوة اعتمد في اثباتهما على العقل ، لا على التقليد والمتابعة العمياء ، ولا على الخرافات والأساطير .

ويقيمون الصلاة :

قد تحكم السلطة على شخص بالإقامة الجبرية في بلد معين ، وتحجر عليه ان يتعداه الى غيره ، وتلزمه بالحضور كل يوم في الدائرة المختصة اثباتاً لوجوده ، فان تخلف كان مسؤولاً .

واختط الاسلام للمؤمن مخططاً خاصاً يثبت به ويؤكد كل يوم خمس مرات ايمانه بالله فاطر السموات والأرض ، واخلاصه في جميع أعماله : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .. « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ومن ترك الصلاة جاحداً فهو مرتد عن الإسلام،أو متهاوناً فهو فاسق مستحق للعقاب . وبهذا نجد تفسير قول الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة : « ان رسول الله شبه الصلاة بالحَمّة — هي عين تنبع بالماء الحار — تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن». أي ان المواظبة على الصلاة تزكي القلب من الارتداد والفسق ، تماماً كما يطهر الاغتسال الجسم من الاقذار ، وأي شيء أقذر من الكفر والفسوق ؟!

---

[1] يعرف الله سبحانه بالعقل عن طريق الكون ، ويعرف النبي بالعقل عن طريق المعجزة .

ومما رزقناهم ينفقون :

الانفاق هنا يشمل جميع ما يبذله الانسان في سبيل الخير زكاة كان ، أو غيرها .. وليس من شك ان البذل في سبيل الخير راجح في ذاته، ولكن هل: يجب في الأموال شيء غير الزكاة والخمس ؟

لقد جاء في طريق السنة ، كما عن الترمذي ، وفي طريق الشيعة كما عن الكافي ان في الأموال حقاً آخر . وفسر الإمام جعفر الصادق (ع) هذا الحق بأنه الشيء يخرجه الرجل من ماله ، ان شاء أكثر ، وان شاء أقل على قدر ما يملك ، واستدل بقوله تعالى: « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم — الذاريات ١٩».. والآية ٢٤ من سورة المعارج : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم». غير ان أكثر العلماء حملوا ذلك على الاستحباب دون الوجوب إلا الشيخ الصدوق من الشيعة، حيث نقل عنه القول بأن في الأموال حقاً لازماً غير الخمس والزكاة، يخرجه المالك حسب ما يملك كثرة وقلة .. ومهما يكن ، فان الذي لا شك فيه ان بذل المال في سبيل الخير يطهر من الاقذار ، وينجي من عذاب النار ، قال تعالى في الآية ١٠٣ من سورة التوبة: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها».

يؤمنون بما انزل اليك :

الخطاب الى محمد (ص) ، والمراد « بما انزل اليك » القرآن والسنة معاً ، لأنه (ص) ما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والمراد بما انزل من قبلك الكتب التي نزلت على من سبق من الرسل ، كزبور داود ، وتوراة موسى ، وانجيل عيسى (ع) .. ولا أثر اليوم للايمان بهذه الكتب من الوجهة العملية ، لأنها في عقيدة المسلمين اما غير موجودة ، واما الموجود منها محرّف .. وندع الكلام فيما يتعلق بالأناجيل للمسيحيين أنفسهم، قرأت في كتاب « فولتر » تأليف « جوستان لانسون » ، ترجمه محمد غنيمي هلال ص ١٩٣ طبعة ١٩٦٢ ما نصه بالحرف الواحد : « كان المعروف من هذه

الأناجيل يبلغ اربعة وخمسين انجيلاً ، وكان تحرير الأناجيل الأربعة متأخراً عن ذلك ، والرابع – لوقا – هو أحدثها » .

وقال الياس نجمة في كتاب « يسوع المسيح » ص ١١ طبعة ١٩٦٢ : « ولما رأى الرسل – يريد تلاميذ المسيح – وتلاميذهم انه من الضروري تدوين بعض تعاليم الرب ، وبعض أعماله ومعجزاته كتبوا بعضاً من تلك التعاليم والأعمال والمعجزات ، وهذا ما نسميه بالضبط الانجيل المكتوب ، فجاء الانجيل المكتوب واحداً في صور أربع ، أو نصوص أربعة » .

وهذا اعتراف صريح بأن الأناجيل الأربعة ليست وحياً بنصها وحروفها ، كما هو الشأن في القرآن ، وانما هي مجرد نقل عن السيد المسيح (ع) ، تماماً ككتب الحديث عند المسلمين التي دونوا بها أقوال محمد (ص) واعماله ومعجزاته .. والفارق الوحيد ان رواة الأناجيل الأربعة ، وهم : متى ويوحنا ومرقس ولوقا معصومون عن الخطأ عند المسيحيين لا يجوز الطعن برواياتهم[1] . ولا عصمة ولا حصانة لرواة الحديث عن النبي عند المسلمين،بل لا يجوز الأخذ والعمل بأخبارهم إلا بعد التحقيق والتمحيص ، ولا فرق في منطق العقل بين الأناجيل الأربعة ، وبين كتب الحديث من حيث جواز الطعن بهما معاً،ما دام كل منهما مجرد نقل عن صاحب الرسالة .. أما الفرق بين القرآن والأناجيل فواضح ، لأن القرآن يتحدى الأجيال أن تأتي بسورة من مثله دون جميع الكتب السماوية .

وحاول الياس نجمة أن يدفع هذا الاشكال بقوله في ص ١٢ : « الكنيسة تشهد للانجيل ، والانجيل يشهد للكنيسة ، وكلاهما يثبت الآخر » .

وبديهة ان هذا اثبات للدعوى بالدعوى نفسها ، لأنه تماماً كقول من قال : أنا صادق في دعواي ، لأن فلاناً يشهد لي بالصدق .. فاذا قيل له : ومن يشهد لفلان بأنه صادق قال : أنا أشهد بذلك .. ومعنى هذا في واقعه ان الشاهد هو

---

١ في ملحق جريدة « النهار » البيروتية ، تاريخ ١٢ – ٧ – ١٩٦٤ ، مقال مطول ، جاء فيه : ان العلماء المختصين ، والمسيحيين أيضاً أثبتوا بالتجربة وبالدماغ الالكتروني ان أكثر الرسائل المنسوبة إلى بولس الرسول المؤسس الأكبر للمسيحية ، ان أكثر هذه الرسائل مزورة .. وبهذه المناسبة لا بأس ان تقرأ التعليق على الآية ٧٩ من هذه السورة .

عين المدعي .. والفلاسفة يسمون هذا النوع بالدور الذي يحيله العقل .. وقد نظمه بعض الشعراء بقوله :

مسألة الدور جرت بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشب

والبيت الأخير – كما ترى – أشبه بهذيان المجانين ، لأن معنى العجز ان مشيب الشاعر حدث بعد هجر الحبيب ، وان سبب المشيب هو الهجر .. ومعنى الصدر ان الهجر حدث بعد المشيب ، وان سبب الهجر هو المشيب ، وعلى هذا يلزم أن يكون كل من الهجر والمشيب سبباً ومسبباً ، ودليلاً ومدلولاً ، وعلة ومعلولاً في آن واحد ، كقول القائل : فصّلت هذا الثوب كي ألبسه، ولبسته كي أفصّله .

انذرت ام لم تنذر آية ٦ – ٧ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ★ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ★

سواء اسم بمعنى الاستواء ، والفعل منه استوى ، والوصف مستوٍ ، وجملة لا يؤمنون خبر انّ ، وسواء مبتدأ ، وأنذرتهم خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر معترضة بين انّ وخبرها ، وعلى هذا يكون تقدير الكلام ان الذين كفروا لا يؤمنون ، حتى ولو أنذرتهم ، والهمزة هنا للتسوية لا للاستفهام .

منهج الاسلام :

سبقت الاشارة الى أن تعاليم الاسلام ومبادئه على نوعين : عقائدية ، وعملية ، أي أصول وفروع ، عقيدة وشريعة عبّر بما شئت ، وموضوع العقيدة يتصل بنفس الانسان ومشاعره ، وموضوع الشريعة أعمال الانسان وأفعاله ، وقد دعا الاسلام الى الايمان به عقيدة وشريعة .

أما المنهج الذي اتبعه الاسلام لانتشار دعوته فيما يتصل بالعقيدة فقد جاء بيانه في الآية ١٢٥ من سورة النحل : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك أعلم بمن ضل عن سبيله،وهو أعلم بالمهتدين ». والمراد بالحكمة والموعظة الحسنة الاعتماد على العقل فيما يستقل بادراكه، كالألوهية التي يتوصل الانسان الى معرفتها بالامعان والتأمل في خلقه ، وفي خلق السموات والأرض ، وكنبوة محمد (ص) التي يعرفها الباحثون من سيرته،وطبيعة رسالته .. أما منهج الاسلام في معرفة ما لا يستقل العقل بادراكه من أصول العقيدة ، كبعض المغيبات فهو الاعتماد على وحي من الله الى نبيه الذي ثبت بدليل العقل نبوته وصدقه فيما أخبر به عن الله جل وعز .

أما المنهج لاثبات الشريعة فهو الكتاب والسنة والعقل .. وترتكز أحكام هذه الأصول الثلاثة على المصالح والمفاسد ، الطيبات والخبائث ، العدل والبغي ، عبّر بما أردت : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم – الأعراف ١٥٦ » .. « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات – المائدة ٥ » .. « وأوحينا اليهم فعل الخيرات – الأنبياء ٧٣ » .. « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي – النحل ٩٠ » .

واختصاراً ان العقيدة منها ما يقوم على العقل ، ومنها على الوحي ، وأحكام الشريعة ترتكز على المصالح والمفاسد .. واستجاب للاسلام ودعوته الذين آمنوا بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأعرض عنه الكافرون والمنافقون ، وقد ذكر الله المؤمنين أولاً في الآيات السابقة ، وثنّى بذكر الكافرين ، وثلّث بالمنافقين وأوصافهم ، كما يأتي :

الملتزم بالحق :

الناس من حيث الالتزام بالحق وعدمه اثنان : الأول يلتزم به لوجه الحق ، سواء أوافق غرضه الخاص ، أو خالفه ، بل لا غرض له يتنافى مع الحق ، والا لم يكن ملتزماً ، ومن أجله يضحي ، ويتحمل المشاق ، تماماً كالمريض ، ينشد الصحة في شرب الدواء المر ، وفي ألم المبضع ، والثاني لا يلتزم بشيء ، ولا قيمة عنده لشيء إلا إذا اتفق مع غرضه وهواه ، ولا يبالي بالنقد ، مهما كان صائباً .. ولا يخلو هذا المستهتر من أحد اثنين : اما مستهتر بالحق باطناً وظاهراً ، في قلبه ولسانه ، واما باطناً لا ظاهراً ، ويسمى الأول كافراً ، والثاني منافقاً في عرف القرآن ، ويفترق الملتزم بالحق عن المستهتر بكلا قسميه، يفترقان من وجوه :

« منها » : ان الملتزم يشعر بالمسؤولية ، على العكس من غير الملتزم الذي لا يشعر بشيء .

و « منها » : ان الملتزم لا يؤمن بشيء إلا مع الدليل المقنع ، أما غير الملتزم فلا يؤمن بشيء اسمه دليل وحجة ومنطق ، فالمبرر عنده عدم المبرر إلا ما يريد.. وإذا تظاهر بتبرير ارادته فانما يفعل ذلك استخفاء من الناس ، وحرصاً على حرمته عندهم .

و « منها » : ان الملتزم يفسح المجال للنقد ، ويرحب به ، ويصغي للناقد بامعان ، ويعدل عن رأيه إذا استبان له الخطأ ، وهذا هو المعني بقوله تعالى : « والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه – الزمر ١٨ » . وغير الملتزم: عنز ولو طارت[١] .. وقد صوّر الله الذين يصرون على ضلالتهم بأدق تعبير وأبلغه في العديد من الآيات الكريمة : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون – فصلت ٥ » .. « ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم – فاطر ١٤ » .

---

١ قيل : ان رجلين أبصرا سواداً من بعيد ، فقال احدهما : هذه عنز . وقال الآخر : بل غراب وأصر كل منهما على ما قال .. وبعد ثوان طار الغراب . فقال الذي أصاب لصاحبه : أرأيت ؟ فقال زميله : عنز ولو طارت .. فذهبت مثلا .

و « منها » : ان الملتزم معفو عن خطأه اذا أخطأ بعد البحث والفحص، ولا عذر لغيره ولا جزاء إلا اللعنة والعذاب .

وأكثر الناس لا يؤمنون ، ولا يقتنعون إلا بمصالحهم الخاصة ، من حيث لا يشعرون ، أو يشعرون .. وكيف تُقنع جاهلياً بأن أكرم الناس عند الله أتقاهم وهو يعتز ويتعالى بنسبه ؟ أو تقنع حاكماً بالعدل في حين ان حكمه وسلطانه قائم على العسف والجور .. أو تقنع محتكراً بتحريم الاحتكار وتركه ، وهو المصدر الأول لثروته ؟.

ان هؤلاء ، ومن اليهم من المستهترين والمتمردين على الحق هم المقصودون بقوله تعالى : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

وتسأل : ماذا تقول بالذين لا ينطبق عليهم وصف الملتزم،ولا غير الملتزم ، كالحمقى السذج الذين يسارعون الى التصديق من غير حجة ولا برهان،بل بدافع من سلامة الطوية ، وكفى ؟.

الجواب : ان هؤلاء أشبه بالمجاذيب والمستضعفين : « عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » .

سؤال ثان : ان الظاهر من قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » انه هو الذي منعهم من الايمان واتّباع الحق ، وعليه يكون الكافر مسيراً لا مخيراً ، وبالتالي ، فلا يستحق ذماً ولا عقاباً ؟.

الجواب : ان كل شيء لا يُنتفع به ، ولا يؤدي الغرض المطلوب منه يكون وجوده وعدمه سواء ، والغرض المطلوب من القلب أن ينتفع ويهتدي بالأدلة والبراهين الصحيحة ، كما ان الغرض من السمع أن ينتفع بما يسمع من أصوات، ومن البصر بما يشاهد من كيفيات وكميات ، فاذا قامت الدلائل القاطعة على الحقيقة ، وانصرف الانسان عنها مصراً على ضلاله فان معنى هذا انه لم ينتفع بقلبه ، ولا قلبه انتفع بما ينبغي الانتفاع به ، حتى كأن الله قد خلقه بلا قلب، أو بقلب موصد لا ينفتح للحق .. ولذا جاز أن يُنعت قاسي القلب بأنه لا قلب له .. قال عز من قائل : « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد – ق ٣٧ » . مع العلم بأن القلب موجود وثابت ، لكنه ليس بشيء ما دام بعيداً عن الهدى والرشاد .. وعليه تكون نسبة الختم اليه سبحانه

مجازاً لا حقيقة ، ويؤيد هذا ان لا غشاوة حسية على سمع الكافرين وبصرهم ، فكذلك لا ختم حقيقي على القلوب .. أما مسألة الجبر والاختيار ، وهل الانسان مسير أو مخير فيأتي الكلام عنها مفصلاً ان شاء الله .

المنافقون الآية ٨ – ٢٠ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولُ آمنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ★ يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنوا وَما يَخْدَعونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشعُرُونَ ★ فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحونَ ★ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشعُرُونَ ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ ★ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ★ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ★ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ ★ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا اضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ ★ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعونَ ★ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ

الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ★ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ★

ذكر سبحانه المؤمنين أولاً ، وهم الذين أخلصوا للحق قلباً وقالباً ، وثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر باطناً وظاهراً ، والآن جاء دور المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان ، وما هم بمؤمنين ، وكُفْر هؤلاء أخبث الكفر ، وأبغضه الى الله ، ولذا أطنب بأوصافهم ، وما يؤول اليه حالهم بثلاث عشرة آية بينما اقتصر في وصف الكافرين على آيتين ، بل أنزل سورة خاصة بالمنافقين .. وهذه الآيات واضحة الدلالة ، لا تقبل التأويل ، ولا تحتاج الى تفسير ، تماماً كقوله سبحانه : « والله بكل شيء عليم » . لذا نكتفي بالفقرة التالية :

من هو المنافق ؟

كلٌّ منا يريد أن يكون شيئاً مذكوراً عند الناس ، وعلى الأقل ان لا ينتقدوه في تصرفاته ، ولا يتناولوه بالذم في ألسنتهم ، بخاصة إذا كان نجاحه في عيشه ومهنته يتوقف على ثقة الناس به .. ومن أجل هذا ينبغي الشك والريب في دخيلة كل انسان من هذا النوع ، وان لم يبدُ من أمره ما يريب .. انه معرّض دائماً للخداع والرياء حرصاً على مصلحته ، ولولا اطلاق الدليل لاستثنيته من قاعدة « حمل فعل المسلم على الصحة »[1] .

ومهما يكن ، فان كل من يؤثر الاستخفاء من الناس ، ويتظاهر بما ليس فيه ، ويخشى أن ينكشف الستر عن حقيقته فهو كذاب منافق ، ومراءٍ مخادع ،

---

[1] لقد تسالم الفقهاء على قاعدة ، أسموها حمل فعل المسلم على الصحة ، ومثالها : ان ترى شخصاً يشرب مائعاً ، ولا تدري : هل هو حلال أو حرام ، أو علمت بأنه حرام ، وشككت : هل يشربه للتداوي ، أو جاهلا بالتحريم ، أو يشربه من غير عذر؟ .. فعليك أن تحمله على الصحة ، حتى يثبت العكس .

حتى ولو حاز على ثقة الناس أجمعين ، بل ان هذه الثقة تضاعف من جريمته، وتكون وبالاً عليه عند الله ، والناس أيضاً إذا انكشفت عنه حجب الخداع .

وتسأل : اذا اعتقد الناس ان فعلاً من الأفعال محرم ، واعتقد شخص بينه وبين الله انه مباح لا ضير فيه ، وتعاطاه في الخفاء خوفاً من كلام الناس، فهل يعد منافقاً ومرائياً ، ثم هل يجب عليه أن يبين لهم ما يعتقد ، ويكون مسؤولاً لو سكت عن خطأهم ؟.

الجواب : لا بأس عليه في فعل ما يعتقد باباحته ، ولا يعد من المنافقين والمرائين ما دام مرتاح الضمير ، لأن تكليفه الخاص يرتبط بوجدانه ، وليس بوجدان الناس .. بل يعذر في الخطأ ، اذ لا جرم ولا عيب في الخطأ ، أما بيان الحقيقة فيجب عليه من باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأن المفروض انه خطأ في معرفة الحكم ، لا في تشخيص الموضوع[1] .

والآيات التي نحن بصددها تحدثت عن المنافقين الذين قامت الحجة عليهم بنبوة محمد (ص) ، واثبات الحق ، ومع ذلك أصروا على الانكار عناداً وتمرداً، كما قامت على المشركين الذين عاندوا وحاربوا ، والفرق ان المشركين أعلنوا معاندتهم للحق، وقالوا بجرأة وصراحة : لا نتبع الحق لأن الفقراء اتبعوه واعتنقوه: « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون – الشعراء ١١١ » . أما المنافقون فانهم رفضوا الحق لهذا السبب أو لمثيله ، ولكنهم آثروا العناد ، وأظهروا التسليم جبناً وخداعاً فكانوا أسوأ حالاً من الكافرين ، حيث لاءم هؤلاء بين ظاهرهم وباطنهم ، وصدقوا في اعلان الكفر والعناد ، تماماً كمن يشرب الخمر على قارعة الطريق، وخالف المنافقون بين ما أضمروا وأظهروا ، كالسفاح يلبس مسوح القديسين .

ولا دلالة لهذا الخداع إلا ان المنافق لا وازع له من دين أو عقل ، ولا من حق أو عدل ، ولا يتحرك ضميره لشيء ما دام بعيداً عن أعين الناس ، ومن كان هذا شأنه فمن الصعب ان يؤوب الى خير . ولذا نعت الله المنافقين في هذه

---

١ إذا رأيت انساناً يأكل الخنزير – مثلا – وهو يعلم بأنه لحم خنزير ، ولكن لا يعلم بحكمه وتحريمه فعليك ان ترشده إلى حكم الله ، وتبين له انه محرم ، أما إذا كان يعلم بالحكم ، ولكنه يعتقد أن هذا اللحم هو لحم غنم فلا يجب عليك البيان ، لأنه معذور ، والأول يسمى جاهلا بالحكم، والثاني جاهلا بالموضوع .

الآيات بالخديعة والغفلـــة ومرض القلب والسفه والغرور ومتابعـــة الهوى والخبث والاصرار على الضلالة .. ونعتهم الناس بالطابور الخامس ، وبالعملاء الأدنياء ، وبالمفسدين والمرائين ، وهم موجودون في هذا العصر ، كما وجدوا في عهـــد الرسول وقبله ، وسيوجدون في الاجيال الآتية ، ولكنهم ملعونون أينما وجدوا ، حتى وهم في قبورهم ، وان نجحوا فالى حين ، أما نجاح الصادقـين المخلصين فالى آخر يوم .

ومن طريف ما قرأته عن المنافقين قول محي الدين المعروف بابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية : « ما أحسن ما قال تعالى : « يستخفون من الناس » فانهم مجبولون على النسيان ، ولا يستخفون من الله الـذي لا يضل ولا ينسى ، وكان الأولى لو صح عكس القضية » .

ومعنى هذه العبارة ان المنافق لو تدبر أمره ، وكان على شيء من الفكــر والعقل لوجب ان يخفي جرائمه ونقائصه عن الله – لو أمكن – لا عن الناس ، لأن الناس لا يملكون له نفعاً ولا ضراً ،والذي في يده النفع والضر هو وحده .. هذا ، إلى أن الناس ينسون ما يرونه من السيئات والموبقـــات ، فيتكلمون على صاحبها ، وينالون منه بعض الوقت،ثم ينسون ويسكتون ، كأن لم يكن شيء.. وقد شاهدنا الكثير ممن ارتكب العظائم ، وافتضح بها لدى الملأ ، حتى توارى من سوء فعلته .. ثم ظهر للناس ، وجالسوه ، وتعاملوا معـــه ، كأي بريء ونزيه .. وربما منحوه ثقتهم ، واختاروه للمناصب العامة ، بل قد يتولى منصباً دينياً مقدساً لا يتولاه الا نبي أو وصي نبي . وبالاضافـــة الى ان الناس ينسون فانهم يمدحون ويذمون تبعاً للغرض والهوى ، فيجدر بالعاقل أن يخاف الله ، ولا يخاف الناس ، وان يكون رقيباً على نفسه ، فيجنبها ما يستحي منه ، ولا يحب أن يعرف به ، ويؤاخذ عليه . ولا أحد أجبن ممن يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية .

اعبدوا ربكم . آية ٢١ ـ ٢٢ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ★ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★

بعد ان ذكر سبحانه كلاً من المؤمنين والكافرين والمنافقين بسماتهم وأوصافهم، وما يؤول اليه حال كلٍ منهم انتقل الى مخاطبة البالغين العاقلين ، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين ، الموجود منهم في زمن الخطاب ، ومن سيوجد آمراً الجميع بعبادة الله وحده .. والأمر بالنسبة الى المؤمنين يراد به الثبوت والاستمرار على الايمان والطاعة ، وبالنسبة الى غيرهم من الكافرين والمنافقين والفاسقين يراد به التوبة والانابة .

وتسأل : كيف عمت الخطاب لمن سيوجد مع العلم بأن يا أيها الناس خطاب مشافهة ، والمشافهة مع المعدوم لا تجوز ؟.

والجواب : ان القضايا على نحوين : خارجية وحقيقية ، والأولى تختص بمن وجد بالفعل ، ولا تشمل من سيوجد ، مثل غرق من في السفينة ، والثانية تشمل من وجد ، ومن سيوجد ، مثل اعدلوا أيها الحكام ، فان هذه القضية تنطبق على كل حاكم موجود بالفعل أو بالقوة ، وقوله تعالى : يا أيها الناس اعبدوا ربكم من هذا الباب .

الفرع يتبع الأصل :

من تتبع آيات القرآن ، وتدبرها بروية وامعان يرى انه إذا قرر أصلاً من

أصول العقيدة ، كالتوحيد والنبوة والبعث قرنه بالحجة والبرهان ، وإذا ذكـر حكماً شرعياً ، كتحريم الزنا – مثلاً – ارسل القول فيه من غير دليل ، فما هو السر ؟.

الجواب : إذا ثبت وجود الباري ، ونبوة محمد (ص) بالحجـة العقلية كان قولها هو الدليل والحجة ، ولا يجوز مخالفته بحال ، لأن مخالفة قول الله والرسول نقض لدليل العقل القاطع على التوحيد والنبوة ، فمن آمن وسلّم بهذين الأصلين فعليه أن يسلّم بكل ما ثبت بنص الكتاب والسنة من أحكام الشريعـة وفروعها من غير سؤال ، وطلب للجواب ، ومن أنكرهما فلا جدوى من الحديث معه في الشريعة وفروعها ، ومن أجل هذا اهتم القرآن بايراد الأدلة والبراهين على التوحيد والنبوة والبعث ، وابتدأ بالأول ، لأنه الأساس .

التوحيد :

ترتكز الأديان السماوية كلها على أصول ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والبعث، وما من نبي من آدم الى محمد (ص) إلا وتقوم دعوته على هذه الأصول ، وما عداها يتفرع عنها ، فعدالة الله وقدرته وحكمته فرع عـن التوحيد ، والإمامة والقرآن فرع عن النبوة ، والحساب والجنة والنار فرع عن البعث .

وابتدأ القرآن الكريم بالأصل الأول ، وأرشد الى دلائله ، لأنـه الأساس ، وخاطب الناس بقوله: اعبدوا ربكم الذي خلقكم الخ .. وبديهة ان عبادته تستدعي معرفته أولاً بطريق القطع والجزم، لا بطريق التخمين والظن[1] لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً بشهادة القرآن نفسه . فما هو الطريق الذي يؤدي قطعاً الى معرفة الله جل وعلا ؟

[1] الإسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة كالايمان بالله وصفاته ، والنبي وعصمته ، والبعث وما اليه من الغيب . ولا يثبت شيء من مسائل العقيدة إلا بطريق القطع ، ومن هنا لم تكن محلا للاجتهاد . والشريعـة كالعبادات والمعاملات والجنايات ، ويجوز اثبات مسائلها بطريق الظن والاجتهـاد ، على شريطة أن يقوم دليل قطعي على صحة العمل بهذا الطريق الظني الخاص ، بحيث يكون القطع مصدراً للعمل بالظن .

لقد اختلف العلماء في نوعية هذا الطريق ، وقرره كلٌ بما رآه صواباً .. فمنهم من اعتمد على الدليل الكوني ، وأورده على هذه الصورة : ان الطبيعة وحوادثها المتكررة المتجددة تتطلب وجود علة لها ، ولا يصح أن تكون العلة هي الطبيعة نفسها ، وإلا لزم أن يكون الشيء علة ومعلولاً في آن واحد ، وهذا هو الدور الباطل الذي أوضحناه في الفقرة السابقة « يؤمنون بما انزل اليك » الآية ٤ من هذه السورة ، وان كانت العلة خارجة عن الطبيعة نقلنا اليها الكلام وسألنا: هل هي نتيجة لعلة سابقة ، أو انها وجدت لذاتها من غير علة ، وعلى الأول يأتي الكلام والسؤال عن كل علة سابقة،وهكذا دواليك .. وهذا هو التسلسل المحال، فتعين الثاني ، أي وجود علة بذاتها ، واليها تنتهي جميع العلل ، ولا تنتهي هي الى غيرها ، وهي كلمة الله ، وقوله للشيء كن فيكون .

— ملحوظة — هذا الدليل يقوم على التسليم بنظرية العلية ، وهي ان كل أثر يستلزم مؤثراً ، وكل معلول لا بد له من علة ، تماماً كالعلم يستدعي وجود العالم ، والكتابة وجود الكاتب[1] .

ولكي تتضح لديك فكرة التسلسل وبطلانها ، ووجوب الانتهاء الى علة لا علة لها نضرب اليك مثلاً من هذه التصاميم التي يضعها المهندسون للطائرات والسيارات، وغيرها من الآلات والبنايات فانها جميعاً لا بد أن تنتهي الى المخترع الأول الذي وضع التصميم من تلقائه ، يأخذ الغير منه ، ولم يأخذه هو من أحد ، ولو افترض انه لا مخترع أول للتصميم لزم أن لا يوجد اختراع ولا شيء يمت الى التصميم على الاطلاق .

وعلى هذا فليس لأحد أن يقول ويسأل:ممن أخذ المخترع الأول هذا التصميم، لأن معنى مخترع انه لم يتلق من الغير ، وهذه الحقيقة تدل على صحتها بنفسها، تماماً كما تدل الشمس على ضوئها .. وهكذا الحال بالنسبة الى الخالق

---

١ إن الفيلسوف الانكليزي هيوم ينكر مبدأ العلية ، ويقول : لا دليل على ان وجود شيء يستلزم وجود شيء آخر ، وإنما العادة جرت أن يحدثا معاً دون أن يكون بينهما تلازم قهري . . وليس لدينا شيء نرد به هذا القول سوى ان الغاء مبدأ العلية الغاء لبديهة العقل عند جميع الناس ، فما من أحد يتصور وجوداً من غير سبب موجب .. هذا ، إلى ان تكرار وجود الحادثين معاً ، وعدم تخلف أحدهما عن الآخر ، ولو بحسب العادة يجعل للمادة من القوة ما للتجربة التي هي الطريق الوحيد للمعرفة عند التجريبيين .

والرازق ، فان معناه انه يَخلق ، ولم يُخلق ، ويرزق ، ولم يُرزق .. لذا كان ليبنتز يسمي الله المهندس ، أي المخترع ، وافلاطون يسميه الصانع ، اشارة إلى أنه خالق غير مخلوق .

ومنهم من استدل على وجود الله بنظام العالم وتنسيقه واطراد هذا النظام والتنسيق ، ويُسمى هذا الدليل بالدليل الغائي .

— ملحوظة — يرى الكثير من علماء الطبيعة الجدد أن ظواهر الطبيعة لا يجوز تفسيرها بالعلة الغائية ، بل يتحتّم تفسيرها بالعلة الفاعلية .

والجواب : انّا نستكشف وجود العلة الفاعلية من وجود العلة الغائية ، تماماً كما نستكشف من ترتيب السرير ترتيباً هندسياً وجود النجار الخبير . ويتضح الجواب أكثر من تقرير الفرض الضروري فيما يلي :

ومنهم من اعتمد الفرض الضروري الذي يعتمده علماء الطبيعة وغيرهم في اكتشاف العديد من الحقائق ، ومن هذا الفرض نظرة الجاذبية التي اكتشفها نيوتن من سقوط التفاحة على الأرض .. فان جميع الافتراضات غير الجاذبية خاطئة ، وافتراض الجاذبية صحيح ، ومن هنا جزم نيوتن بوجودها .

أما تطبيق هذا الدليل على ما نحن فيه فهو انّا نشاهد نظام العالم وتماسكه واطراده ، وكل ما نفترضه لوجود هذا النظام غير الخالق الحكيم فهو فرض فاسد يرفضه العقل ، ولا يتقبل العقل إلا وجود خالق حكيم هو الذي نظّم ورتب ، واليك هذا المثال :

إذا رأيت اسمك مكتوباً في الفضاء بأحرف من نور ، ثم بحثت في كل جهة فلم ترَ أحداً ، فلا بد ان تفترض ان انساناً عاقلاً يوجد في مكانٍ ما يملك آلة يستطيع بواسطتها أن يرسم أحرفاً في الفضاء من نور متماسكة منسجمة .. وأي فرض غير هذا ، كالصدفة ، أو اصطدام سيارتين ، أو وجود بركان ، كل ذلك وما اليه يجرك الى الخطأ ، وعلى الأقل لا يركن اليه عقلك الا اذا افترضت وجود الشخص الذي يملك الآلة .. وهكذا الحال بالنسبة الى نظام الكون .

وأخطر كلمة وأوضحها كلمة « فولتر » ، حيث يقول : « ان فكرة وجود الله فرض ضروري ، لأن الفكرة المضادة حماقات » . وقرأت في كتاب

الظاهرة القرآنية ص ٩١ طبعة ١٩٥٨ : « ان نوعاً من النمل في أمريكا يغادر مساكنه قبل اندلاع الحريق فيها بليلة ». ومهما فرضت لذلك من الفروض والتفاسير فلا تركن النفس أبداً الا بفرض وجود مدبر حكيم أعطى لكل نفس هداها .

ومنهم من يعتمد البرهان الخلقي ، ويقول : لولا الايمان بوجود الله لانهارت المقاييس الخلقية ، ولم يكن من رادع يردع الناس عن الشر ، ولا وازع يبعثهم على عمل الخير :

وهذا الدليل في واقعه أقرب الى انكار الخالق من الاعتراف به ، اذ يكون الايمان بالله ، والحال هذه ، وسيلة لا غاية ، بحيث لو افترض وجود انسان يفعل من تلقائه ما ينبغي فعله، ويترك ما ينبغي تركه لما وجب عليه الايمان بالله .. وليس من شك ان جعل الله أداة أقبح من انكاره .

ومنهم من يعتمد الدليل اللدني ، وهو الشعور والاحساس القلبي مباشرة ، ويقول : ان قلب الانسان يدرك وجود الخالق مباشرة من غير براهين، ومقدمات، تماماً كما يحس الحب والبغض، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣ « الذين يؤمنون بالغيب » فقرة المعرفة ، رقم ٤ .

وأفضل الطرق كلها هو الطريق الذي استدل به الله سبحانه على وجوده ، ويتلخص بالنظر والتفكير في خلق السموات والأرض ، وفي الانسان والموت والحياة ، والنعم الجلّى ، وما الى ذاك مما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ونهج البلاغة .

وهذا الطريق ، وان رجع في حقيقته الى الدليل الكوني والغائي الا أن تقريره في هذا الأسلوب يبعده عن التكلف والتعسف ، ويقربه الى افهام الخواص والعوام .. ومن لا يقتنع من الله سبحانه بما أورده هو جل وعلا من الأدلة على وجوده ، فهل يقتنع من عبد مثله ؟.

وغريبة الغرائب ان الجاحد يؤمن ويعتقد بأن القميص الذي يلبسه - مثلاً - قد زرع بذره الفلاح بانتظام ، ثم غزله وحاكه العامل باتقان ، ثم باعه التاجر بمعرفة ، ثم فصّله وخاطه الخياط على القدر المطلوب ، انه يعتقد بهذا كله ، ثم لا يعتقد بوجود من اتقن وصنع كل شيء ؟.

وبالاضافة الى الأدلة على وجود الله التي تدخل تحت ضابط عام ، وقاعدة

كلية ، فانه سبحانه قد أعطى كل انسان دليلاً خاصاً به وحده على وجوده جل وعز لا يشاركه فيه سواه ، فما من انسان أياً كان إذا رجع إلى ما مر به من حوادث وتجارب ، وتأملها بإمعان إلا ويجد في حياته أشياء لا تفسير لها إلا ارادة الله ومشيئته .

واني أستبعد كل البعد أن يعيش انسان ، أي انسان ، ولو كان كافراً ، يعيش حيناً من الدهر دون أن تمر لحظة واحدة في حياته ، ولا يرجع فيها الى الله تلقائياً ومن غير قصد وشعور ، وإلى من يتجه في أحلك لحظات الشدة ؟ انه من غير شك يعود الى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وطبعت كل مولود بطابعها ، حيث لا أب يعلمه ، ولا أم تلقنه ، ولا محيط يكيفه .

قال زنديق للإمام جعفر الصادق (ع) : ما الدليل على وجود الصانع ؟

قال الإمام : لو ركبت البحر ، وهاجت الرياح ، وغرقت السفينة والملاحون، وبقيت أنت حياً ، فهل ترجو النجاة لنفسك ؟

قال الزنديق : أجل .

قال الإمام : ان الصانع هو الذي ترجوه آنذاك .

وبالتالي،فاني أنصح من يشك في وجود الله أن يقرأ أدلة الجاحدين والماديين، فانه سينتهي حتماً الى الإيمان بالله،اذ لا يجد دليلاً على انكارهم إلا انهم يريدون ان يروا الله بالعين ، ويلمسوه باليد ، ويشموه بالأنف .

وقد ذكرت الكثير الكثير من أدلة هذا الباب في كتاب « الله والعقل » . وكتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » الذي وضعته خاصة للرد على الفلسفة المادية ، وكتاب « بين الله والانسان » . وكتاب « معالم الفلسفة » . وكتاب « الاسلام مع الحياة » وكتاب « إمامة علي والعقل »[1] . وغير هذه المؤلفات من الكتب والمقالات .. والله سبحانه المسؤول أن يطهر نفوسنا من الشك والريب ، وأن يشملها بتوفيقه ورضوانه .

---

[1] اسطر هذه الكلمات في اليوم السابع من الشهر الثالث من سنة ١٩٦٧ ، وفيه قدمت دار العلم للملايين ٥ كتب من مؤلفاتي ، إلى المطبعة لتعيد طبعها ، وتجمعها في كتاب واحد باسم « الإسلام والعقل » وهذه الكتب الخمسة هي الله والعقل . النبوة والعقل . الآخرة والعقل . إمامة علي والعقل . المهدي المنتظر والعقل .

وأطلنا الكلام في الأصل الأول ، وهو التوحيد ، ليكون كالضابط العام الذي يرجع اليه في كل ما يتصل به من الآيات .

فأتوا بسورة الآية ٢٣ ـ ٢٥ :

وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ★ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ والْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ★ وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً ولَهُمْ فِيها أزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وهُمْ فِيها خالِدُونَ ★

كما أرشد القرآن الى طريق العلم بوجود الله سبحانه فقد أرشد أيضاً الى طريق العلم بنبوة محمد (ص) .. من ذلك قوله تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا » أي محمد (ص) . والمراد بها التحدي بأن يأتوا بحديث مثل القرآن، وهم أهل الحديث والكلام ، بل هو سيد عملهم .. وليس من الضروري أن يأتوا بما يعادله في الكم والحجم ، فان ذلك متروك لاختيارهم ، ان شاؤوا كلاً، وان شاؤوا بعشر سوَر ، وان شاؤوا بسورة واحدة .. وأيضاً ليس من الضروري أن يأتوا بمثل معانيه من قوانين الأخلاق ، وأصول التشريع ، والأخبار بالغيب، وما اليه ، بل بما يستطيعون من كل معنى وغرض ، على أن يكون لبيانهم نفس الخصائص التي للقرآن .

وهذا الطلب ، كما ترى ، ليس فيه تعجيز – لو كان القرآن من عند غير الله – لأنه لم يطلب منهم أن يحملوا الجبال ، أو يجففوا البحار – مثلاً – وانما طلب الحديث ، ولا شيء أيسر منه عليهم ، وحيث ثبت عجزهم فقد ثبت ان هناك سرّاً ، ولا تفسير لهذا السر الا الوحي والنبوة ، وهكذا كل ما يستعصي تفسيره على العلم بما هو علم لا بد أن يُفسر بما فوق الطبيعة .

ولا شيء أقوى في الدلالة على صدق القرآن من هذا الجزم والوثوق في قوله تعالى : « ولن تفعلوا » .. وحتى اليوم ما فعل واحد من بعدهم ، وما زال الباب مفتوحاً الى آخر يوم .

وبعد ان ذكر الله الكافرين ، وما لهم من الجحيم والعذاب عقب بذكر المؤمنين ، وما لهم من النعيم والثواب جرياً على عادة القرآن من شفع الترغيب بالترهيب ، واقتران الوعد بالوعيد مبالغة في الارشاد والموعظة .

وقال أكثر المفسرين : ان الضمير في مثله يعود الى القرآن ، والمعنى فأتوا بسورة على صفة القرآن وخصائصه في الأسلوب .

وقال آخرون : بل هو عائد الى عبدنا ، وهو محمد (ص) ، والمعنى فأتوا بأميّ لم يقرأ كمحمد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن الذي أتى به هذا الرجل الأمي .

والمعنى مستقيم وصحيح على كلا القولين ،ولكن القول الأول أشهر وأظهر ، حيث قال عز من قائل : « ان كنتم في ريب مما نزّلنا » ولم يقل : ان ارتبتم في محمد (ص) .. ومع ذلك فان للقول الثاني وجهاً قوياً ، لأنه لو افترض ان عالماً قديراً أتى بمثل أسلوب القرآن لا يكون ذلك نقضاً للتحدي ، لأن وجه التحدي محصور بالاتيان من أميّ ، لا من عالم قدير .

والمراد بالوقود كل ما توقد النار به ، والمراد بالناس العصاة ، وبالحجارة الأصنام التي كان يعبدها المشركون .

سر الاعجاز في القرآن :

النبوة سفارة بين الله ، وبين خلقه يخص بها من يشاء من عباده ، ليبلغهم

عنه ما لا غنى لهم عن معرفته .. وقد عزز الله كل نبي ببينة جلية واضحة على صدقه في نبوته ، لتكون له الحجة على من أرسل اليهم ، والشرط الأساسي لهذه البينة أن تكون من نوعٍ خاص يظهر على يد الأنبياء بالذات دون غيرهم حذراً من الخلط والاشتباه بين النبي وغيره .

ولمحمد (ص) بيّنات ودلائل على نبوته ، منها هذا القرآن الذي عمت نسخه كل مكان،وأذيعت سوره وآياته في المكبرات، ومن الاذاعات في الشرق والغرب، حتى من اسرائيل .. ووجه الدلالة أنه تحدى ، ومـا زال ، ولن يزال يتحدى كل منكر أن يأتي هو بنفسه ، أو يأتي بمن يأتي بسورة من مثله . وما نقل عن واحد قديماً وحديثاً انه استطاع أن ينقض هذا التحدي ، على الرغم من كثرة الجاحدين ، وعدائهم للاسلام والمسلمين ، وحيث ثبت العجز فقـد ثبتت نبوة محمد (ص) بالبداهة .

وبعد أن اتفق العلماء على ان القرآن معجزة اختلفوا في وجه الاعجاز وسره: هل هو الاسلوب والشكل من الجمال والروعة ، أو هو المضمون والمحتوى من العلم وقوانين التشريع ، والاخبار بالغيب ، وما إلى ذلك ، أو هما معاً ؟

وقد أطالوا الكلام في بيان وجه الاعجاز ، ووضعوا فيه كتباً خاصة ، ولا أريد التطويل في ذكر ما قيل ، واقتصر على ما أراه وجهاً للاعجاز ، ويتلخص بأن الانسان يستطيع أن يقلد ويحاكي انساناً مثله في قول أو فعل تكلفاً وتصنعاً بالنظر إلى ان كلاً منهما يصدر عن العقل والخيال ، اما ان يقلد ويحاكي خالقه وصانعه في أثر من آثاره فمحال ، لأن الانسان لا يتجاوز حدوده كمخلوق ، مهما بلغ من القوة والعظمة .. ومن الخير أن ننبه على ما يلي :

التحدي :

أشرنا الى ان محمداً تحدى المعاندين بالقرآن ، وليس من شك ان التحدي يتم ويصح إذا كان الفعـل من النوع الذي يقدر عليه الشخص المقصود بالتحدي ، كما لو طلبتَ ممن له يد سليمة أن يضعها على رأسه ، أو يرفع بهـا ريشة من الأرض،أما إذا طلبت من الأمي أن يقرأ ، ومن غير الطبيب أن يشفي المرضى،

ومن غير الشاعر أن ينظم الأشعار فلا يكون من التحدي في شيء .. وقد تحدى محمد (ص) المعاندين بما من شأنه أن يكون مقدوراً لهم ، وهو الكلام، فعجزوا عنه ، وعجزهم هذا أضفى على القرآن صفة المعجزة .

وتسأل : ينبغي أن يكون معجزة بالنسبة الى البليغ في اللغة العربية،لا بالنسبة الى الجاهل بها ، أو الضعيف من أهلها ؟.

والجواب : ان القرآن معجزة بما هو كلام الله ، بصرف النظر عن العربي البليغ وغيره ، وانما نعرف المعجزة ، ونكتشفها من عجز العربي البليغ ، تماماً كما نكتشف من عجز بطل السباحة العالمي في البحر الهائج عجز سواه،مع التقدير بأنه الأول في بطولة السباحة .. وبتعبيرنا نحن الفقهاء ان عجز العربي البليغ سبب للمعرفة بمعجزة القرآن ، وليس جزءاً ولا شرطاً لها .

هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟

يرى البعض ان لا معجزة لمحمد (ص) الا القرآن ، أما أنا فمع الذين يؤمنون بأن معجزاته لا يبلغها الاحصاء ، لأن الحكمــة الإلهية تستدعي تنوع المعجــزة واختلافها باختلاف الموارد والأشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه أن يباهل نبيه نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق ، أما الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر الأمر معه على القرآن ، لأن اعجازه مبدأ عام لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بفئة دون فئة ، أو بفرد دون فرد .. وقد تستدعي الحكمة ان لا تُعرض المعجزة على الشخص اطلاقاً ، كما لو اكتفى بمجرد شعوره واحساسه ، أو بيمين النبي ، فقد جاء في الأخبار ان رجلاً قال لمحمد (ص) : ما لي وللمعجزات ؟.. احلف بالله انك رسول الله ، وأنا اؤمن بك . فقال الرسول : والله اني رسول الله . فقال الرجل : اشهد ان لا إلـه الا الله ، وان محمداً رسول الله .

والذي يدلنا على ان آفاق محمد (ص) ومعجزاته أعظم من أن يبلغها الاحصاء ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد (ص) بما جاءت به الأخبار من تكلم الحصى له ، وسعي الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وكان

الناس يتقبلون هذا يومذاك ، أما اليوم حيث يتطلع الناس الى حياة أفضل فاننا نستدل مما نستدل به على نبوته بأنه وقف مع المستضعفين ، وحارب المستأثرين والظالمين ، وبفضله وفضل شريعته نُزعتْ التيجان عن رؤوس الجبابرة ، وأُلقيت تحـ أقدام رعاة الإبل ، ووُزعت كنوز الملوك على الفقراء والمساكين .

وعلى أية حال ، فان جميع معجزات الرسول الأعظم هامة وعظيمة ، ولكن أهمها جميعاً في تقديري أمران :

الأول : شريعة القرآن التي نظمت حقوق الانسان ، وعلاقات الناس بعضهم مع بعض على أساس العدل والتعاون ، وسنعرض كل شيء في مورده ان شاء الله.

الثاني : مباهلة الرسول مع وفد نجران التي سجلها الله سبحانه في سورة آل عمران،ان هذه المباهلة هي الدليل الحاسم ، والحد الفاصل الذي يضع المعاند الجاحد أمام العذاب والهلاك وجهاً لوجه ، هلاك ينزله محمد من السماء بكلمة واحدة تخرج من فم الطاهر .. ان هذا التحدي لا مثيل له على الاطلاق في تاريخ البشرية .. ويأتي الشرح والتفصيل في محله ان شاء الله تعالى .

وأطلنا الكلام في الأصل الثاني ، وهو النبوة ، ليكون الضابط العام الذي يرجع اليه في كل ما يتصل به من الآيات . وقد ألفت كتاباً خاصاً فيه ، أسميته « النبوة والعقل » طبع أربع مرات .

ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا الآية ٢٦ ـ ٢٧ :

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ ★ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ★

الحيـــاء :

اذا نسب الحياء الى الانسان فمعناه تغير حاله الطبيعية الى حال أخرى ، لسبب من الأسباب ، وحياء الانسان حسن وقبيح ، والحسن منه أن يستحي المرء من فعل القبائح والرذائل ، ولذا يقال لمن يفعلها دون مبـالاة : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .. وقال الإمام الصادق (ع) : لا حياء لمن لا إيمان له .

أما القبيح من هذا الحياء فهو أن يترك المرء فعل ما ينبغي فعله تخوفاً وتهيباً، كالاستحياء من التعلم وطلب المعرفة،وما إلى ذاك ، قال الإمام أمير المؤمنين(ع) : قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرص تمر مر السحاب .. وقديماً قيل: لا حياء في الدين .

هذا إذا نسب الحياء الى الانسان ، أما اذا نسب اليه سبحانه فيراد بـه ترك الفعل ، ومن ذلك ما جاء في الأخبار : ان الله يستحي من الشيخ الكبير ، أي يترك عذابه وعقابه .

والمرد بالمثل الشبيه والنظير ، ويُضرب المثل بقصد توضيح الفكرة ، وازالـة اللبس عنها .

والمراد بعهد الله ما قامت به الحجة لله على عباده ، سواء أكان مصدر هذه الحجة الفطرة والعقل ، أو النقل الثابت بكتاب منزل ، أو على لسان نبي مرسل.. والمراد بالميثــاق الابرام والاحكام .. وأعظم عهود الله المبرمة المحكمه توحيده والاخلاص له بالعبودية التي دل عليه العقل ، واقره الشرع .. والمراد بقطع ما أمر الله به ان يوصل أوامره ونواهيه .

الاعراب :

يصح أن تكون « ما » من قوله تعالى : « مثلاً ما » زائداً جيء بها للتوكيد، و « بعوضة » مفعولاً أولاً ، و « مثلاً » مفعولاً ثانياً مقدماً ، والتقدير ان الله لا يترك جعل البعوضة مثلاً ، وقيل:يجوز أن يكون « مثلاً» حالاً من بعوضة .

وأيضاً يجوز أن تكون « ما » اسماً مبهماً بمعنى شيء من الأشياء،وعليه تكون مفعولاً ليضرب ، وبعوضة بدلاً منها ، ومثلاً مفعولاً ثانياً مقدماً ، والتقـدير

ان الله لا يترك جعل شيء من الأشياء مثلاً ،حتى ولو كان هذا الشيء بعوضة . والمصدر من أن يوصل بدل من الضمير في « به » ، أي يقطعون ما أمر الله بصلته .

الهدى والضلال :

يطلق الهدى على معان :

« منها » : البيان والارشاد ، وأكثر آيات الهدى في القرآن ، والكثير منها تحمل ذلك ، مثل قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ».. وقوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . أي البيان ، ولا بيان لله الا ما جاءت به الرسل ، أو حكم به حكماً بديهياً لا يتطرق اليه الشك والاحتمال .

و « منها » : ان يتقبل الانسان النصيحة ، وينتفع بها ، ومنه قوله تعالى : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها — يونس ١٠٨ » .

و « منها » : التوفيق والعناية من الله بوجه خاص ، كقوله سبحانه : « ولكن الله يهدي من يشاء » .. وقوله : « وان الله يهدي من يريد — الحج ١٦ » ، أي يوفقه الى العمل بالهداية ، ويمهد له السبيل اليها .. وبديهة ان الهداية بمجرد البيان لا تلازم التوفيق الى العمل،بل قد وقد .. ومن ذلك قوله عز من قائل : « ليس عليك هداهم » . أي لا عليك ان يعملوا بهداك ، أو لا يعملوا ، وانما عليك البيان .

و « منها » : الثواب ، كقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم جنات تجري من تحتها الأنهار — يونس ٩ » ، أي يثيبهم بسبب ايمانهم ، وكذلك قوله : « يهدي اليه من أناب » .

و « منها » ان يراد بالهدى المرشد والمبين بالنظر الى ان الهداية حصلت بسببه ، وهذا هو المقصود هنا بقوله تعالى : « يهدي به كثيراً » ، قال صاحب مجمع البيان : « قوله يهدي به كثيراً يعني الذين آمنوا به،وقالوا هذا في موضعه، فلما حصلت الهداية بسبب الله اضيفت اليه » .

و «منها» : ان يراد به الحكم والتسمية بالمهتدي تماماً كقولهم عدّله القاضي ، أي حكم بعدالته ، وهذا المعنى تصح نسبته الى الله سبحانه .

وكذلك الضلال يطلق على معانٍ :

منها » : التلبيس والتشكيك والايقاع في الفساد والمنع عن الدين والحق ، وهذا لا يضاف الى الله بحال ، بل ينسب الى ابليس وأتباعه ومنه قوله تعالى حكاية عن ابليس . « لاضلنّهم وامنيهم » . وقوله : « وأضل فرعون قومه» . وقوله : « وأضلهم السامري » .

و « منها » : العقاب ، وفي القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى ، منها: « يضل الله الكافرين » .. « ويضل الله الظالمين » .. « وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » . أي يعاقب الكذاب والكافرين والظالمين .

و « منها » : ان يراد به الحكم والتسمية بالضال ، كقولك : اضله فلان إذا أردت انه نسبه الى الضلال ، واعتبره من الضالين . ويجوز هذا المعنى عليه سبحانه .

و « منها » : التخلية بين المرء ونفسه .. فمن أهمل ولده من غير عناية وتربية يصح أن يقال : أضلّه أبوه .

و « منها » : الضياع ، تقول : أضلّ فلان ناقته ، أي ضاعت منه ، وهذا أيضاً لا يضاف إلى الله .

و « منها » : الابتلاء والامتحان، بحيث يحصل الضلال عند البيان الذي يمتحن الله به عباده ، قال صاحب مجمع البيان : « المعنى ان الله تعالى يمتحن بهذه الأمثال عباده ، فيضل بها قوم كثير ، ويهتدى بها قوم كثير » .

المعنى :

ومحصل معنى الآيتين ان الله لا يترك ضرب الأمثال بما يراه الجهلة والسفلة حقيراً كالعنكبوت والذباب والبعوضة ، وغيرها ، لأن الله خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، يستوي لديه جناح البعوضة ، والكون بكامله .. هذا ، إلى ان ضرب الأمثال موجود في جميع اللغات ، والغاية منه جلاء الأفكار المجردة

بمقارنتها بشيء محسوس ، فكل ما يحقق هذه الغاية يصح جعله مثلاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وبه تتم الحجة على كل من خالف وعاند .

وقد امتحن الله الناس بهذه الأمثال كما امتحنهم وابتلاهم بغيرها من الدلائل والآيات ، فعمل بها كثير ، وأعرض عنها كثير ، والذين عملوا بها هم الطيبون المؤمنون ، والذين أعرضوا هم الفاسقون الضالون ،وصحت اضافة الهداية والضلال اليه سبحانه بالنظر الى أنه هو الذي ضرب الأمثال التي كانت رحمة على من اتعظ بها ، ونقمة على من لم يتعظ .

ومن المفيد ان نقدم مثالاً لتوضيح هذه الفكرة : عالم ارتفع به علمه إلى أعلى المناصب ، فحسده من حسده ، حتى بلغ الحسد منه مبلغاً أودى بجسمه وعقله - ملحوظة قال أمير المؤمنين : صحة الجسد من قلة الحسد - فيصح أن نقول تجوزا : العالم هو الذي أدّى بالحاسد الى هذه النتيجة السيئة ، تماماً كما تقول : أفسدت فلانة الحسناء فلاناً ، وأذهبت عقله ، وربما لم تكن تعرف عنه شيئاً ولكن لما فسد عقله من أجلها اضيف الفساد اليها ، وبهذا الاعتبار ساغت نسبة الضلال الى الله مجازاً ، لأنه هو الذي أبان الحجة الدامغة وأعلنها ، وترتب على اعلانها مخالفة المبطل وضلاله ، ولو سكت الله عن بيان الحجة لانتفى موضوع الطاعة والعصيان ، ولم يكن هناك ضال ومهتد .

وقد وصف الله من لا يتعظ بالأمثال ، وصفه بالفسق ، ونقض العهد ، وقطع ما أمر الله بصلته من متابعة الاخيار ، وملازمة الجماعة ، وغير ذلك مما فيه التعاطف والتعاون على الخير .

التكوين والتشريع :

لله سبحانه ارادتان : ارادة الخلق والتكوين ، ويعبر عنها « بكن فيكون » وبهذه الارادة يوجد الشيء من لا شيء .. والارادة الثانية ارادة الطلب والتشريع التي يعبر عنها بالأمر والنهي ، والدعوة الى فعل الخير ، وترك الشر ، فان فعل العبد الخير فعله بملء ارادته واختياره بلا جبر واكراه ، وكذلك ان فعل الشر وترك الخير .. واذا كان تنفيذ الأحكام الدينية بكاملها منوطاً بارادة المكلفين

واختيارهم، ولا رقيب عليهم الا من أنفسهم فمن الخطأ أن يقال بأن للدين تأثيراً على انحطاط أتباعه والمنتمين اليه، بحيث نكتشف من تأخرهم عدم صلاحية الدين للحياة .. أجل ، لو عملوا به، وطبقوه تطبيقاً كاملاً على أفعالهم لصح ان يتخذ الدين مقياساً لرقيهم وانحطاطهم .

وبهذا يتبين الحقد والدس على الاسلام في قول من قال : « ان ضعف المسلمين دليل على ضعف الاسلام وتعاليمه » .

وعلى منطق هذا المتجني يجوز لنا أن ننسب الى الديانة المسيحية كل فسق وفجور وتهتك في أمريكا واوروبا ، وان ننسب اليها أيضاً الخراب والدمار وجميع الحروب التي أثارتها الدول المسيحية في شرق الأرض وغربها ، حتى القاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، وقنابل النابالم في فيتنام ، وحتى الانحلال الخلقي ، وارتفاع عدد الجرائم يوماً بعد يوم في أمريكا واوروبا ، وحتى اباحة اللواط في انكلترا قانوناً وكنيسة ، كل ذلك وما اليه كثير وكثير ينبغي أن ينسب الى السيد المسيح (ع) .. حاشا الأبرار من هذه الأقذار .

هذا ، ولو أخذنا بفرية ذاك المفتري لكان اليهودي في اليمن تماماً كاليهودي في نيويورك تحضراً ورقياً ، والمسيحي في مصر كالمسيحي في باريس .. ان لتأخر البلدان أسباباً كثيرة غير الدين ، وأهمها الجهل ورواسب التاريخ ، وظروف البيئة وملابساتها ، وعدم اختلاط البلد المتأخر بالبلد المتقدم[1] ، ولولا اختلاط المسلمين في صدر الاسلام بغيرهم من الشعوب والأمم المتحضرة لم يكن لحضارة المسلمين عين ولا أثر .. أجل، لقد كان الاسلام هو الحافز على ذاك الاختلاط.. وبالاختصار ان أسباب التقدم أو التأخر ليست كامنة في طبيعة المسلمين ، ولا في طبيعة المسيحيين ، ولا في طبيعة اللادينيين ، بل للظروف والأحوال الاجتماعية تأثير بالغ .. وسنعود الى موضوع الجبر والتفويض ببيان أطول واضح حين نصل الى آياته ، وقد شرحناه مفصلاً في كتاب « معالم الفلسفة الاسلامية » ، وكتاب « مع الشيعة الإمامية » .

١ ان الدين تماماً كالسلطة التشريعية ، أما التنفيذ فعلى غيره ، وقد فشلت الامم المتحدة في الكثير من مهمتها، وأيضاً فشلت مؤتمرات السلام في تحقيقه، وفشلت لقاءات الحكام واجتماعات القمة، ودول عدم الانحياز وغيرها، وما أكثر الفاشلين ، ولم تكن المسؤولية عليهم ، فكيف يحمل الإسلام مسؤولية المنتمين اليه بالاسم؟

كيف تكفرون بالله ؟ الآية ٢٨ ـ ٢٩ :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ★ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ★

الاعراب :

كيف اسم استفهام ، يسأل بها عن الكيف ، وهي الحال ، كما يسأل بكم عن الكم ، وهو العدد ، وبأين عن المكان ، وبمتى عن الزمان ، ومحل كيف النصب على الحال من تكفرون ، وهي متضمنة هنا معنى الانكار والتعجب ، والضمير من (سوّاهن) يعود الى السماء ، لأنه اسم جنس يصح اطلاقه على القليل والكثير و (سبع سماوات) بدل من الضمير ، وهو (هنّ) . وقيل : بل تمييز مفسر لهذا الضمير ، وقيل : يجوز أن تكون (سبع سماوات) مفعولاً ثانياً لسواهن ، لأنها بمعنى صيرهن .. وجميعاً حال من (ما في الأرض) .

الانسان بذاته برهان :

الظاهر من سياق الكلام ان الخطاب في هاتين الآيتين موجه الى من لا يجدي معه ضرب الأمثال شيئاً ، ولكنه في واقعه يشمل كل من كفر بالله ، مع وجود هذه الدلائل والبراهين التي لا يبلغها الاحصاء ، منها هذا الكافر الجاحد ، فانه هو بالذات برهان واضح على وجود خالقه ، وإلا فمن الذي أوجده على هذا النظام الدقيق، ووضع كل شيء منه في مكانه الخاص به من خلايا المخ والقلب، الى الامعاء والكبد ، الى السمع والبصر ، الى الاطراف والشرايين ، الى ما لا نهاية .. وكلٌّ يؤدي مهمته بدقة بالغة دون تعهد واشراف من مخلوق .. وأيضاً

من أين جاء هذا الفهم والعقل الذي به قرّب البعيد ، وسهل العسير ، وجمع ما في الأرض في بيت واحد ، ثم ارتقى ووضع آثاره ومعالمه على سطح القمر.. فهل هذا وغير هذا جاء صدفة وعفواً ؟ وهل في خصائص الأشياء ما يؤدي الى هذا التنسيق والتنظيم ؟ وهل يستطيع العلم ان يجيب على ذلك ؟ وبالأصح هل الاجابة عنه من اختصاص العلم التجريبي ؟.

وحاول من حاول أن يجيب .. ولكن تولد من سؤاله ألف سؤال وسؤال .. نحن لا ننكر أبداً ان علماء الطبيعة قد توصلوا الى حقائق باهرة مذهلة في الطب والزراعة والصناعة .. ولكن علماء الحياة ما زالوا ينظرون في فراغ، وهم يبحثون عن سرها وأصلها ، ولا شيء لديهم سوى ظنون لا تغني عن الحق شيئاً .. وبديهة ان كل ما تعجز الطبيعة عن تفسيره يتحتّم تفسيره بما وراءها .

واذا كان وجود الانسان هو البرهان القاطع على وجود الله سبحانه فكيف ساغ لهذا البرهان أن يجحد الدلالة الملازمة له ؟ كيف ساغ للفصيح البليغ أن يجحد فكرة الفصاحة والبلاغة من الأساس ؟. وهنا يكمن سر التعجب في قوله سبحانه : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » أي ما أعجب أمركم وكفركم بالله ، وأنتم بالذات الدليل الواضح القاطع على وجوده .. ومهما أنكرتم وكابرتم ، فهل تستطيعون أن تنكروا وتكابروا في انكم لم تكونوا شيئاً من قبل، فصرتم شيئاً يسمع ويرى ، ويحس ويدرك ، ويقول ويفعل ؟. أليس هذا دليلاً ناطقاً بوجود القوة الخالقة ؟.. حقاً ان الانسان لظلوم كفّار .. وما كفره بوجود الله الا كفر وجهل بوجوده هو[1] .. ومن جهل نفسه فأولى به أن ينكر ويجهل غيره .. وبهذا نجد تفسير الحديث الشريف : « اعرفكم بنفسه اعرفكم بربه » .

وتقول : وأي عاقل ينكر وجود نفسه ؟ وهل يعقل ذلك ؟.

ونجيب : ان الدليل يستلزم المدلول ، وانكار اللازم يستدعي حتماً انكار

---

١ قال شارلي شبلن السينمائي العالمي الذي فاقت شهرته شهرة غاندي : « ان في مملكة المجهول طاقة خيرة لا حد لها » . وقال كيركجارد : « ان الله يتجلى للنفس اليائسة في أحلك لحظات اليأس ، وفي أسفل دركات الخطيئة » .

الملزوم ، فمن أنكر دلالة الألفاظ – مثلاً – على ما وضعت له من المعاني فقد أنكر الألفاظ بالذات ، من حيث يريد أو لا يريد ، ولا يجديه أن يعترف بها في حين انه ينكر دلالتها .. وهذا هو الشأن في الجاحد ، فان وجوده دليل وجود الخالق ، ووجود الخالق سبحانه مدلول له ، فاذا أنكر هذا المدلول فقد أنكر الدليل ، وهو الجاحد بالذات من حيث لا يحس ولا يشعر ..

وهكذا يفعل الجهل بصاحبه ، يفصله عن نفسه ، وعن الطبيعة التي يعيشها ويحياها ، ويحمله من حيث لا يشعر على أن يجحد أوضح الواضحات ، ويؤمن بالأساطير والسخافات .

موتتان وحياتان :

المراد بالموتة الأولى المشار اليها بـ (كنتم أمواتاً) المراد بها العدم السابق ، والمراد بالاحياء الأول (فأحياكم) الخلق بعد العدم ، والموت الثاني (ثم يميتكم) هو الموت المعهود ، والاحياء البعث للحساب والجزاء (ثم يحييكم ثم اليه ترجعون).

وتسأل : هل الروح تفارق الجسد بعد نفاد قواه الموجبة للحياة ، بحيث لو بقيت هذه القوى مئات السنين لبقي الانسان معها حياً ، أو انه من الممكن أن تفارق الروح الجسم ، حتى مع وجود القوى بكاملها ، ودون أن يطرأ أي خلل على الجسم ؟

ذهب الماديون الى الأول ، وقال غيرهم بالثاني ، أما قوله تعالى : « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون – الاعراف ٣٣ » ، أما هذه الآية فتحتمل الوجهين ، لأنها لم تبين سبب الأجل : هل هو فساد الجسم ، أو شيء آخر ؟ وأما قوله سبحانه : « الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا – البقرة ٢٤٣ » . وقوله : « قال انى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام – البقرة ٢٥٩ » . أما هاتان الآيتان فانهما قضيتان في واقعتين لا تتعديانهما الى بقية الوقائع ، كما هو الشأن في القواعد العامة ، والمبادىء الكلية .

ومهما يكن ، فلا شيء لدينا يوجب القطع والجزم ، ولكن الذي نشاهده

بالوجدان ان كثيراً من الناس يدركهم الموت ، وهم في مقتبل العمر ، وأوج الصحة والسلامة ، وان كثيراً منهم يسرحون ويمرحون ، وهم في سن متقدمة ، وفيهم أكثر من داء .. وكم من طبيب ماهر قال لمريضه : ستموت بعد ساعات، فعاش سنوات .. وقد يحدث العكس .

البعث :

البعث هو الأصل الثالث من أصول الاسلام بعد التوحيد والنبوة اللذين سبق الكلام عنها ، وقد أخبر الله بالمعاد في قوله : « ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ».. واستدل أو قرّب سبحانه امكان البعث وجوازه في العديد من الآيات ، منها : « أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى – الاحقاف ٣٣ » . ومنها : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة» وما الى ذلك مما سنتعرض له من الآيات .

وليس من شك ان من خلق الشيء من لا شيء يهون عليه ان يجمع أجزاءه ثانية بعد انحلالها وتفرقها ، بل الجمع أهون وأيسر من الخلق والايجاد .. ومن بنى قصراً يكون بناء الكوخ عليه أيسر[1] .

ولي كتاب خاص في هذا الموضوع ، وهو كتاب « الآخرة والعقل » طبع أكثر من مرة ، ثم أدرج في كتاب « الاسلام والعقل » .

ما في الأرض :

بعد ان ذكّر الله سبحانه الانسان بنعمة الوجود عليه ذكّره بكثرة النعم عليه

---

١ في سنة ١٩٥٩ ألف مصطفى محمود المصري كتاب الله والإنسان أنكر فيه الله والبعث ، وألفت في الرد عليه كتاب الله والعقل ، وطبع حتّى الآن خمس مرات . وبتاريخ ١٠–٤–١٩٦٧ ، قرأت لمصطفى محمود مقالا في مجلة « روز اليوسف » قال فيه ما نصه بالحرف الواحد : « ان ايماني يلح علي بأني كنت موجوداً قبل حياتي هذه باسم آخر ، وانني بعد موتي لن أفنى ، وإنما سأعود إلى الحياة بشكل أو بآخر ، وان الحياة مستمرة » .

من المآكل والمشرب والملبس والمركب والمنظر ، وما الى ذاك من متع الأرض وخيراتها التي لا تدخل في حساب .

واستدل الفقهاء بقوله تعالى : « هو الذي جعل لكم ما في الأرض جميعاً » على ان الأشياء قبل ورود الشرع على الاباحة ، وانه ليس لمخلوق أن يحرم شيئاً الا بدليل : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً قل الله اذن لكم أم على الله تفترون – يونس ٥٩ » .

وربما يستدل بهذه الآية الكريمة على ان الأرض لا تُملك ، وان الذي يجوز تملكه هو ما تنتجه الأرض ، لأنه قال عز من قائل : خلق لكم ما في الأرض ولم يقل خلق لكم الأرض ..

سبع سموات :

معنى « استوى الى السماء » قصد اليهـا ، « فسواهن » خلقهن ، وذكْرُ السبع بالخصوص لا يدل على الحصر بها ، ولا ينفي أبداً وجود غيرها .. فلقد أثبت العلماء في علم الأصول واللغة ان العدد لا مفهوم له ، فمن قال : إني أملك سبع كتب لا يدل قوله هذا على انه لا يملك غيرها ، ويؤيد ذلك ان الله تعالى حين خاطب نبيه (ص) بقوله : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم – التوبة ٨٠ » . قال الرسول الأعظم (ص) : لو أعلم ان الله يغفر لهم لو زدت على السبعين لفعلت .. وقد يكون السبب لذكر السبع ان لها خصائص لا توجد في سائر السماوات .

واذ قال ربك للملائكة الآية ٣٠ – ٣٣ :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لَا تَعْلَمُونَ ★ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ★ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ★

المراد من الأسماء في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » المراد بها معاني الأسماء ، وهي أشياء الكون وخواصها وصفاتها ، قال صاحب مجمع البيان : ان الأسماء بلا معانٍ لا فائدة فيها،ولا وجه للاشارة الى فضلها » .. وسئل الإمام الصادق (ع) عنها ، فقال : الجبال والأودية .. ثم أشار إلى بساطٍ تحته،وقال: هذا منها . أي كل شيء ، حتى هذا البساط .

الملائكة :

لا وسيلة إلى معرفة الملائكة وحقيقتهم بالحس والتجربة ، ولا بالعقل والأقيسة، ولا بشيء إلا بطريق الوحي من الله على لسان أنبيائه ورسله ، فمن يؤمن بالوحي يلزمه حتماً أن يؤمن بالملائكة بعد أن أخبر الوحي عنهم بوضوح لا يقبل التأويل، ومن ينكر الوحي من الأساس فلا يجوز الحديث معه عن الملائكة بحال ، لأنهم فرع ، والوحي أصل .. فان كان ولا بد من الكلام والنقاش معه فينبغي أن يكون حول فكرة الوحي وصحتها فقط ..

ولا نريد هنا نقاش من ينكر الوحي ، فلقد سبق الكلام مفصلاً عن ذلك، وانما نقول للمنكر : لا يحق لك أن تفرض رأيك على من يؤمن بالوحي ، وإلا جاز له أيضاً أن يفرض رأيه عليك .. وإذا قلتَ ــ الخطاب للمنكر ــ لمن يؤمن

بالوحي : إن ايمانك هو باطل ، لأنه لا يستند الى التجربة أجابك بأن قطعك وايمانك بأن الوحي باطل أيضاً لا يستند الى التجربة ، لأن النفي منك ، والثبوت من المؤمن موضوعه واحد ، وهو الوحي ، فاذا كانت التجربة لا تثبت الوحي فهي أيضاً لا تنفيه ، والتفكيك محال .. وبكلمة ان الإيمان بعدم صحة الغيب تماماً كالإيمان بصحته كلاهما غيب في غيب ، وبديهة ان الغيب لا يصح نقده بغيب مثله .. قال سارتر الأديب والفيلسوف الفرنسي الشهير ، وهو يرد على الماديين :

« انكم اذ تنكرون وجود الله تسترسلون في الغيب تماماً كالمثاليين الذين يسلمون بوجود الله .. ان يقين المادي بنفي الغيب يعتمد على نفس الدليل الذي اعتمده المؤمن ليقينه بصحة الغيب .. وبهذا يتبين ان المادي يناقض نفسه بنفسه »[1] .

الخليفة :

المراد من الخليفة في قوله تعالى : « اني جاعل في الأرض خليفة » هو آدم أبو البشر ، وكل انسان وجد ، أو سيوجد من نسله في كل زمان ومكان .. ووجه تسميته بالخليفة ان الله سبحانه أوكل للانسان زمام هذه الأرض، والكشف عما فيها من قوى ومنافع ، والاستفادة منها .

ويظهر من قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، يظهر منه ان الله سبحانه قد أعلم ملائكته بطريق من الطرق ، وقبل أن يخلق آدم،أعلمهم بأن الانسان لو وجد في هذه الأرض لعصى بالفساد وسفك الدماء[2] ومن هذا عظم الأمر عليهم ، وتعجبوا كيف يوجد الله من يعصيه،وهم يسبحون بحمده ، ويقدسون له .. فأبان لهم سبحانه الحكمة من خلق الانسان ، وان فيه

---

١ انظر فصل سارتر والمذهب المادي من كتابنا « فلسفة المبدأ والمعاد » الذي ألفناه للرد على الفلسفة المادية وابطالها .

٢ وقيل كان في الأرض العديد من الآدميين قبل آدمنا ، وانهم أفسدوا فيها كما أفسدنا ، ثم انقرضوا ... والملائكة على علم من ذلك .

استعداداً لعلم ما لم يعلموا،ولن فساده في الأرض لا يذهب بالفائدة من وجوده ، وعندها اقتنع الملائكة وأذعنوا .

هذا ، الى ان الله سبحانه لم يخلق الانسان ، ليرتكب المعاصي والرذائل ، بل خلقه للعلم والعمل النافع ، ونهاه عن الافساد والأضرار،فان خالف وعصى عوقب بما يستحق .

وتدل هذه الآية على ان للعلم ومعطياته مكانة عظمى عند الله وملائكته ، لأنه سبحانه قد برر خلق الانسان بقابليته للعلم والمعرفة .. وحين أطلع الملائكـة على ذلك اعتذروا قائلين : « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » . واذا كانت الغاية من خلق الانسان العلم والعمل فمن ترك وأهمل فقد نقض الحكمة من وجوده ، وخالف الفطرة التي فطره الله عليها .

وأخشى ان أقول : ان الملائكـة لو علموا حينذاك بتأثير القنبلة الذريـة والهيدروجينية ، وقنابل النابالم التي تستعملها أمريكا في فيتنام لما أقنعهم شيء .. وأستغفر الله الذي يعلم منا ما لا نعلمه نحن من أنفسنا .

درس بليغ :

والدرس البليغ الذي يجب أن نستفيده من هذه المحاورة بين الله وملائكته ان الانسان بالـغ ما بلـغ من العلم ونزاهة القصد ، والقوة والسلطان ليس بفوق ان يُجادَل ويُناقَش ، ويُشار عليه .. فالله سبحانه عـلا جلاله وعظمته قد فسح لملائكته مجال الحوار والمقال الذي هو أشبه بالاعتراض ؛ وهم بدورهم لم يحجموا عن ذلك ، بل أقدموا على علم منهم بعظمة الله وحكمته ، وقد تلطف سبحانه في جوابهم،وأبان لهم برفق الدليل المحسوس الملموس ، وأخذ اعترافهم بالرضى ، والاقتناع ، لا بالزجر والغلبة . بل ان الله سبحانه قد فتح باب الحوار معـه لابليس اللعين الذي راجعـه بقوله : خلقتني من نار ، وخلقته من طين .. كما يأتي .

فعلى الذين يرون أنفسهم فوق الاعتراضات ان يتعظوا ويستفيدوا من هـذا

الدرس البليغ .. انهم اذ يتنزهون أنفسهم عن الرد والمراجعة يرتفعون بهـا فوق مكانة العزيز الجبار ، من حيث لا يشعرون .. قال الإمام أمير المؤمنين (ع) في الخطبة ٢١٤ :

« لا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيـل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي ، فانه من استثقل الحق ان يقال له ، أو العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه،فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل » .

واذ قلنا للملائكة اسجدوا الآية ٣٤ :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ★

وابليس اسم ممنوع من الصرف ، للعلمية والعجمة .

أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود لآدم اظهاراً لمزيته عليهم ، وعلى جميـع مخلوقاته ، ولا تفسير ظاهر لهذه الميزة الا فضيلة العلم،والتعظيم من شأن حامله ، لأن العلم ، كما ثبت بالوجدان ، هو المقياس لكل خطوة تخطوها البشريـة الى الرقي والرخاء والكمال ، كما ان الجهل أساس الحاجة والتخلف ، وما تفوق من تفوق على غيره الا بالعلم .. فالعالم دائماً متبوع ، والجاهل دائماً تابع .. ومن أجل هذا فرض الاسلام العلم على كل مسلم ومسلمة .

وقال أكثر المفسرين : كان السجود لمجرد التحيـة ، تماما كالانحناء ورفع اليد ، لأن السجود لغير الله محرم .. وهذا غير صحيح على حد تعبير صاحب مجمع البيان ، لأنه لو كان كذلك لمّا امتنع ابليس عن السجود .. وبديهـة ان السجود بأمر الله تعالى طاعة لله ، لا لآدم .

وقد كان الأمر بالسجود للملائكة كافة دون استثناء ، حتّى لجبريل وميكائيل بدليل قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكـون من الساجدين — الحجر ٣١ » .

واختلفوا في حقيقة ابليس : هل هو من الملائكة ، أو من الجن ؟ والصحيح انه من الجن ، وعليه يكون الاستثناء منقطعاً ، والدليل قوله سبحانه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه – الكهف ٥١ » .

ولا طريق إلى معرفة ابليس والشياطين والجن إلا الوحي ، تماماً كما هو الشأن في الطريق الى معرفة الملائكة .. وسبق الكلام عن ذلك في الآية المتقدمة .

وتعرض المفسرون هنا لبحوث لا طائل تحتها .. لذا أعرضنا عنها مقتصرين على ما دل عليه ظاهر اللفظ .. وقد أشرنا في الصفحات السابقة الى بعض ما يُعزى الى ابليس من الأساطير ، لأنها صورة واضحة لأكثر أهل هذا العصر في مغالطاتهم وتلاعبهم بالألفاظ التي لا تمت بشيء إلى علم أو فن أو أي شيء سوى السفسطة والشعوذة .

وقلنا يا آدم اسكن الآية ٣٥ ــ ٣٩ :

وَقُلْنا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمينَ ★ فَأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ ★ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ ★ قُلْنا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ★

الإعراب :

زوجك معطوف على الفاعل ، ورغداً قائم مقام المفعول المطلق ، والتقدير أكلاً رغداً ، أي واسعاً ، والشجرة بدل من هذه ، وفتكونا منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء ، وبعضكم مبتدأ ، وعدو خبر ، ولبعض متعلق بعدو ، وإمّا مؤلفة من كلمتين انْ الشرطية ، وما الزائدة ، وانما زيدت للتوكيد ، وهي التي سوغت دخول نون التوكيد على يأتينّكم ، تماماً كقوله تعالى : فاما ترين ، وقوله : فاما ينزغنك .

المعنى :

أمر الله سبحانه آدم وحواء بسكنى الجنة ، وأباح لهما كل ما فيها ، ما عدا شجرة واحدة فانه جل وعز نهاهما عنها ، ولكن الشيطان أغراهما بالأكل منها ، ولما استجابا له اقتضت حكمته تعالى اخراجهما من الجنة الى الأرض ، وابتلاءهما بالتكليف والعمل ، والصحة والسقم ، والشدة والرخاء ، ثم الموت حين يأتي الأجل ، وشعر آدم بالنكبة فندم ، وسأل ربه مخلصاً أن يقبل توبته فقبل منه ، وغفر له ، لأن الله تواب رحيم .. واحسب ان حواء تابت أيضاً مع آدم ، ولكن الله سبحانه لم يشر الى توبتها ، ولا فرق عند الله بين الذكر والأنثى ، فمن أطاع وعمل صالحاً أسكنه الجنة وأرضاه ، ومن تمرد وعصى أدخله النار وأخزاه ذكراً كان أو انثى .

وقد تعرض كثير من المفسرين الى الجنة التي خرج منها : ما هي حقيقتها ؟ وأين كانت ؟ وإلى الشجرة : هل هي التين أو القمح ؟ وعن الحية التي دخل ابليس في جوفها ، وعن المكان الذي هبط عليه آدم : هل هو الهند أو الحجاز؟ إلى غير ذلك مما جاء في الاسرائيليات ، ولم يشر اليه القرآن الكريم ، ولا ثبت في السنة النبوية بالطريق الصحيح ، ولا يملك العقل معرفة شيء منها ، ولا تتصل بالحياة من قريب أو بعيد .. أجل لا بد من التنبيه الى الأمور التالية :

حواء وضلع آدم :

من الشائع ان حواء خلقت من ضلع آدم .. ولا مصدر صحيح لهذه الاشاعة.. والخبر الذي جاء به غير معتمد ، وعلى تقدير صحته فان المراد منه الاشارة الى المساواة وعدم الفرق بين الرجل والمرأة ، وانها منه ، وهو منها .. بل عن كتاب « ما لا يحضره الفقيه » ان الإمام الصادق (ع) حين سئل عن صحة هذه الاشاعة استنكرها ، وقال : تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .. هل عجز الله أن يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه .. حتى ينكح بعضه بعضاً ..

ضعف الارادة وسيلة للحرمان :

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يمكث آدم وزوجه في الجنة بعض الوقت ، ثم يخرجا منها لسبب ، هما اللذان أوجداه ، وأخذا به بملء ارادتهما واختيارهما ، ولولا ذلك لبقيا في الجنة الى الأبد ينعمان فيها من غير كد وعناء .

وأيضاً اقتضت حكمته تعالى أن يستقر آدم وحواء في هذا الأرض الى حين يتناسلان ويكدحان وكذلك النسل والذرية ، وفي الوقت نفسه يسأل الجميع عما يأتون من أقوال وأفعال .. كما اقتضت حكمته تعالى أن يعود آدم وزوجه الى الجنة بعد الموت ، ويخلدا فيها إلى ما لا نهاية [1] .

وتسأل : ما هي الحكمة من دخول آدم الجنة ، ثم الخروج منها الى الأرض، ثم خروجه وعودته ثانية الى الجنة بعد الموت ؟

الجواب : ربما كانت الحكمة أن يمر آدم بتجربة ينتفع بها ، ويستفيد منها هو وأبناؤه من بعده ، وان يعود الى هذه الأرض مزوداً بهذه التجربة المفيدة النافعة ، وأعني بها ان الانسان لا يستطيع أبداً أن يعيش في فوضى ، وكما يريد من غير مقاييس ومعايير ، وان من راعاها مالكاً لارادته غير مندفع مع ميوله عاش في هناء وسعادة لا تحديد لها ولا نهاية ، وان من استخف بالقيم وضعف

---

[1] جاء في الاخبار ان آدم يكنى في الجنة بأبي محمد توقيراً وتعظيماً ، ولا يكنى في الجنة انسان غيره .

أمام شهوته أصاب ما أصاب آدم من العناء والندم ، وابتلي بالمشقة والمصاعب .

عصمة الأنبياء :

اتفق المسلمون على ان آدم من الأنبياء ، والأنبياء كما هو المرتكز في الذهن منزهون عن الزلل .. اذن فما معنى قوله تعالى : « فأزلهما الشيطان » ؟. من أجل هذا رأى العلماء انهم بحاجة ماسة الى البحث عن عصمة الأنبياء ، ثم تفسير هذه الآية وما اليها في ضوء ما ينتهون اليه من النتائج .. ونحن نجمل القول عن ذلك فيما يلي ، ليكون كالأصل في كل ما يتصل بهذا الموضوع .

ومعنى عصمة النبي تنزيهه بحكم العقل عن الخطأ والخطيئة في كل مـــا يتصل بالدين وأحكامه ، بحيث يبلغ النبي من الطهر والقداسة ، والعلم والمعرفة بالله وما يريده من عباده – مرتبة تستحيل معها المخالفة عمداً وسهواً ، فمن أثبت العصمة للانبياء بهذا المعنى ، وبشتى أقسامها الآتية أوّل الآيات التي تتنافى بظاهرهـا مع هذا المبدأ تمشياً مع القاعدة الكلية ، وهي وجوب تأويل النقل بما يتفق مع صريح العقل . ومن نفى العصمة عن الأنبياء أبقى الظاهر على ظاهره .. ولعلماء المذاهب في العصمة أقوال تختلف باختلاف هذه الأقسام :

١ – العصمة في العقيدة وأصول الدين ، أي تنزيه النبي عن الكفر والالحاد، وما اليه .. وهذه ثابتة لكل نبي بالبديهة والاتفاق ، إذ لا يعقل أن يكفر النبي بالذي اختاره للنبوة .

٢ – العصمة في التبليغ عن الله تعالى ، فاذا قال : ان الله يأمر بهـــذا ، وينهى عن ذاك فالأمر على ما قال .

واتفق الشيعة الإمامية على ثبوت هذه العصمة لكـــل نبي ، لأن الغرض من التبليغ حمل المكلفين على الحق ، فان أخطأ المبلـــغ انتقض الغرض من تبليغه ، ويؤيده قوله تعالى : ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . وقوله : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وبكلمة ان القول بعصمة الأنبياء لا ينفك أبداً عن القول بأن قولهم وفعلهم وتقريرهم حجة ودليل .

وبعد ان قال الرازي في تفسيره : « اتفقوا – أي المسلمون – على ان الخطأ

في التبليغ لا يجوز عمداً ولا سهواً» . قال : «ومن الناس من جوز ذلك سهواً». ولا أدري من عنى بهؤلاء الناس ؟.

٣ - العصمة في الفتيا ، ومعنى الفتيا ان يفتي النبي بشيء عام ، كتحريم الربا ، وتحليل البيع ، ذكر هذا القسم الرازي في تفسيره ، وقال : « اجمعوا على ان خطأ الأنبياء لا يجوز في ذلك على سبيل العمد ، أما على سبيل السهو فجوزه بعضهم ، ومنعه آخرون » .

ويلاحظ ان هذا القسم يرجع الى القسم الثاني ، أي التبليغ .. وينبغي أن يُجعل القسم الثالث العصمة في الحكم لا في الفتوى[1] .

واتفق الإمامية على ان النبي معصوم عن الخطأ في الحكم ، كما هو معصوم في التبليغ ، مع انهم نقلوا عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « انما أقضي بينكم بالبينات والايمان .. أنا بشر وانكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض - أي أفطن من خصمه - فاحكم له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فانما أقطع له قطعة من نار » .. اللهم الا أن يكون الخطأ في حكمه - على تقديره - انما هو في البينة ، أو في يمين الحالف ، أو ما أشبه ، أي في مستند الحكم لا في الحاكم .

٤ - العصمة في أفعال الأنبياء ، وسيرتهم الخاصة .. وقال الايجي في الجزء الثامن من المواقف : « ان الحشوية أجازوا على الأنبياء فعل الذنوب الكبائر ، كالكذب عمداً وسهواً ، ومنعه جمهور الأشاعرة - أي السنة - عمداً لا سهواً ، أما الصغائر فتجوز عليهم عمداً فضلاً عن السهو » .

وقال الإمامية : ان الأنبياء معصومون في كل ما يقولون ويفعلون ، تماماً كما هم معصومون في العقيدة والتبليغ .. ويستحيل عليهم فعل الصغائر فضلاً عن الكبائر ، ولن تصدر منهم اطلاقاً لا على سبيل القصد ، ولا على سبيل السهو ، لا قبل النبوة ولا بعدها .

---

١ الفرق بين الحكم والفتوى ان موضوع الحكم لا يكون إلا خاصاً ، كحكم القاضي بأن هذا العقد الذي جرى بين زيد وبكر باطل ، أما موضوع الفتوى فعام كأحل الله البيع ، وحرم الربا .

وقد أوّلوا كل آية لا يتفق ظاهرها مع هذا المبدأ ، وقالوا في أكل آدم من الشجرة ان النهي عنها لم يكن نهي تحريم وتعبد ، كما هو الشأن في « لا تزنِ .. لا تسرق » بل نهي ارشاد ونصيحة، تماماً كقولك لمن تريد له الخير : لا تشترِ هذا الثوب ، لأنه ليس بجيد ، فاذا لم يسمع منك لم يفعل محرماً ، ولم يظلم أحداً ، وانما ظلم نفسه ، وفعل ما كان الأولى به ان لا يفعله .. وبديهة ان الأكل من الشجرة لم يترتب عليه ظلم أي انسان سوى الآكل ، وعليه يكون معنى التوبة من آدم التوبة من فعل المرجوح والمفضول، وترك الأفضل والأرجح.. هذا ، الى أن أمر التوبة سهل يسير ، فان الأنبياء والأبرياء دائماً يرددون قول: « أستغفر الله وأتوب اليه » .. وكفى دليلاً على ذلك دعاء الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية المعروف بدعاء التوبة الذي جاء فيه : اللهم اني أعتذر اليك من جهلي ، واستوهبك سوء فعلي .

أهل البيت :

وبالمناسبة قال محيي الدين المعروف بابن عربي في كتابه الكبير الفتوح المكية ج ١ ص ١٩٦ الطبعة القديمة : « ان الله سبحانه طهر نبيه وأهل بيته بدليل قوله تعالى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً – الأحزاب ٣٣ » .. والرجس في اللغة القذر ، ولا شيء أقذر من الذنوب.. وعليه فلا يضاف لأهل البيت إلا مطهر مقدس ، بل هم عين الطهارة » .. ثم قال ابن عربي : ان سلمان الفارسي معصوم أيضاً ، لأن أهل البيت معصومون بشهادة الله ، وقد ثبت عن رسول الله انه قال : سلمان منا أهل البيت ، فيكون سلمان معصوماً بشهادة الله ورسوله .

وقال في الجزء الثاني من الكتاب المذكور ص ١٢٧ : « لا يبقى في النار موحد ممن بعث اليه رسول الله لأن النار ترجع على الموحدين برداً وسلاماً ببركة أهل البيت في الآخرة ، فما أعظم بركة أهل البيت ! » .

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الآية ٤٠ – ٤٦ :

يا بَني إسْرائيلَ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأوْفُوا بِعَهْدِي أوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإيّايَ فَارْهَبُونِ ★ وآمِنُوا بِما أنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإيَّايَ فَاتَّقُونِ★ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★ وَأقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ★ أتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وَأنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أفَلَا تَعْقِلُونَ ★ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ ★ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأنَّهُمْ إلَيْهِ رَاجِعُونَ ★

ذكر الله سبحانه اليهود في العديد من آي الذكر الحكيم، وبينتْ هذه الآيات نعم الله على اليهود،وجحودهم بها وقتلهم الأنبياء بغير الحق ، ومعاندتهم لموسى وهارون ، وعبادتهم العجل ، واستعباد الفراعنة لهم ، ثم تحريرهم من العبودية والاضطهاد ، ونجاتهم من الغرق ، وانزال المـن والسلوى عليهم ، ثم كرههم ومؤامراتهم ضد محمد (ص) وعداءهم الشديد للمسلمين ؛ وللحق وأهله الى غير ذلك من المواقف والمشاهد التي يأتي بيانها بالتفصيل .. وقد حوت سورة البقرة التي ذبحوها ، وما كادوا يفعلون ، حوت الكثير من صفاتهم وأعمالهم .

الاعراب :

اسرائيل مجرور بالاضافـة ، ومنع من الصرف للعجمة والتعريف ، وإياي

ضمير منصوب على انه مفعول لفعل محذوف دل عليه الموجود أي ارهبوا إياي، ولا يجوز أن يكون مفعولاً لما بعد الفاء ، لأن ما بعدها لا يعمل بما قبلها ، وترهبون تقديره ترهبوني ، حذفت الياء للتخفيف ، وموافقة رؤوس الآيات ، ومثله فاتقون ، وأنزلت مفعوله محذوف تقديره أنزلته ، ومصدقاً حال منه .

مظاهر الحياة :

ان أكثر مظاهر الحياة التي يعيشها الانسان هي نتاج حتمي لتاريخ طويل ، فكيفية اللباس الذي نلبسه ، وطهي الطعام الذي نأكله ، وهندسة البيت الذي نسكنه ، كل أولاء ، وما اليها نتيجة لتصميم سابق ، حتى مركب البخار إن هو إلا امتداد للمركب الهوائي بعد مروره بمراحل التطور .. ان التقاليد التاريخية تفعل فعلها تماماً كسنن الطبيعة ، كأمواج البحر تطفو على سطحه نتيجة للمد والجزر .. فالوقائع الجزئية التي تحدث في حياتنا اليومية ، ونوع العلاقات التي نقيمها مع الآخرين حسنة كانت أو سيئة كلها أو جلها امتداد للماضي البعيد أو القريب ، ومن هنا قال بعض الفلاسفة بحق : ان التاريخ طريق من طرق المعرفة، وصورة من صورها .

وهذه الآيات التي خاطب الله بها اليهود ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخهم ، كما سنرى .

اسرائيل :

اسرائيل اسم ثان ليعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن (ع) ، فاسحق أخ لاسماعيل جد نبينا محمد (ص) ، ويلتقي اليهود والعرب جميعاً في ابراهيم ، قال تعالى : « ملة أبيكم ابراهيم » .. وجاء في مجمع البيان ان العرب كلهم من ولد اسماعيل ، وأكثر العجم ، أي غير العرب ، من ولد اسحق .

ومعنى اسرائيل في اللغة العبرية عبدالله ، لأن « اسرا » هو العبد ، و«ايل» هو الله .. وقد تلطف سبحانه في خطابه مع اليهود ، حيث أضافهم الى النبي الكريم اسرائيل ، ليذكرهم بهذا النسب الشريف ، عسى أن يحرك فيهم شعور

الكرامة ، ان كان في نفوسهم شيء منها ، تماماً كما تقول : يا ابن الأبرار ، كن كآبائك وأجدادك .. وقد ذكّر أهل مريم ام عيسى (ع) بآلها وأرحامها .

أما وجه تسميتهم باليهود فلأن سبطاً منهم ينتمي الى يهوذا،وهو الابن الرابع للنبي يعقوب .

وفي الفقرة التالية نعرض عرضاً موجزاً لتاريخ اليهود لصلته بالآيات الكريمة التي نحن بصددها .

تاريخ اليهود :

سيأتي في سورة يوسف ان النبي يعقوب (ع) هاجر بأولاده من فلسطين الى مصر ، حيث يقيم ولده يوسف (ع) وزير فرعون في ذاك العهد ، فأقطعهم فرعون اكراماً ليوسف أرضاً خصبة في مصر ، وظلت سلالة يعقوب هناك أمداً غير قصير .. ولكن الفراعنة الذين جاءوا فيما بعد اضطهدوا اليهود ، وساموهم الخسف والعذاب ، فذبحوا الأبناء ، واستحيوا النساء،واتخذوا منهم خدماً وعبيداً، ثم أرسل الله نبياً منهم ولهم ، وهو موسى بن عمران (ع) ، فحررهم من الظلم والاستعباد ، ثم طلب منهم العودة الى فلسطين ، وقتال أهلها،ووعدهم النصر ، فتقاعسوا جبناً وخوراً ، فكتب الله عليهم ان يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة .. ويأتي التفصيل .

وفي هذه البرهة توفي هارون ، ثم أخوه موسى ، فخلفه ابن اخته يوشع ابن نون. وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بهم يوشع على أرض فلسطين، فاحتلوها ، وأبادوا معظم أهلها ، وشردوا البقية الباقية ، تماماً كما صنع نسلهم الصهاينة في فلسطين سنة ١٩٤٨[١] . وبعد يوشع أرسل الله منهم الكثير من الأنبياء. وفي سنة ٥٩٦ ق. م. أغار على فلسطين ملك بابل ، وهو « بختنصر » ، فأزال ملكهم من فلسطين ، وذبح منهم كثيراً ، وأسر كثيراً .

---

١ نذكر من ذلك مثلين : الأول جمع الصهاينة في قرية دير ياسين ٢٥ امرأة حاملا، وبقروا بطونهن بالمدى والحراب .. الثاني جمعوا أهل قرية الزيتونة في المسجد ، ثم نسفوه بالديناميت على رؤوسهم .

وظلوا في حكم بختنصر الى سنة ٥٣٨ ق. م. ، حيث تغلب ملك الفرس على بختنصر ، فتنفس اليهود الصعداء ، واستمروا تحت سيطرة الفرس زهاء مائتي عام ، وبعدها وقعوا تحت حكم خلفاء الاسكندر الكبير ،ثم تحت سيطرة الرومان.. وفي سنة ١٣٥ ق. م. ثار اليهود على الرومان ، ولكن هؤلاء تغلبوا على اليهود، وأخمدوا ثورتهم ، ثم أخرجوهم من فلسطين ، فهاموا على وجوههم في مختلف بقاع الأرض شرقاً وغرباً .. شرذمة في مصر ، وأخرى في لبنان وسورية ، وثالثة في العراق ، ورابعة في الحجاز ، أما اليمن فقد عرفها اليهود ، ورحلوا اليها للتجارة في عهد سليمان الذي تزوج ملكة اليمن بلقيس .

أما نِعَم الله عليهم التي أشار اليها بقوله : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » فكثيرة ، منها اختيار الأنبياء منهم كموسى وهارون ويوشع وداود وسليمان وأيوب وعزير وزكريا ويحيى وغيرهم ، ومريم ام عيسى اسرائيلية ينتهي نسبها الى داود،ولكن اليهود لا يعترفون بالسيد المسيح ابن مريم (ع) ، ويزعمون ان المسيح المذكور بالتوراة لم يأت بعد .

محمد ويهود المدينة :

حين هاجر الرسول (ص) من مكة الى المدينة كان فيها من اليهود ثلاث عشائر : بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ، وقد أنشأوا فيها معاصر للخمور ، وبيوتاً للدعارة ، ومراعي للخنازير ، وكانوا يحتكرون صياغة الذهب والفضة ، وصناعة الأسلحة ، ويتاجرون بالربا .. وبالاجمال كانوا هم السادة للحياة الاقتصادية بالمدينة .. شأنهم في ذلك اليوم شأنهم اليوم ، حيث حلوا .. وبعد مكوث النبي (ص) بالمدينة شعروا بالخطر المباشر على أرباحهم وامتيازاتهم، لأن شباب المدينة لن يترددوا بعد اليوم على حوانيتهم ومواخيرهم ، وأهلها لن يأكلوا لحوم الخنازير .. ومعنى هذا ان اليهود يفقدون جميع مصادر الثراء والأرباح .. ومن أجل هذا أخذوا يكيدون للرسول الأعظم (ص) ، ويتآمرون مع المشركين ضد المسلمين ، تماماً كما تتآمر اليوم القوى الرجعية حرصاً على مصالحها الشخصية .

وكأنّ النبي يوم دخل المدينة ، وعرف أوضاعها قد تنبأ بذلك ، وحسب له فأراد أن يلقي الحجة عليهم ، ويأخذهم بأقوالهم .. فترفق بهم ، وتلطف معهم ، فأجرى عهداً بينه وبينهم ، موقعاً منه ومنهم ، على ان لهم الحرية التامة في دينهم ، وأموالهم ومعابدهم آمنين عليها ، وعلى أنفسهم ، على شريطة أن لا يعينوا عليه عدواً ، واذا اختاروا القتال معه فلهم نصيب من المغنم .. وعليهم أن يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة تحقيقاً للوحدة الوطنية ، لأن البلد للجميع ، لا لفئة دون فئة .. ولكن سرعان ما نكثوا العهود ..

ومتى صمدت العهود والمواثيق أمام تهديد المصالح ؟ وهل من المعقول أن يقوم تعايش سلمي بين الغش والتغرير ، وبين لا ضرر ولا ضرار ، وكيف يعيش الذئب والحمل تعايشاً سلمياً ؟ وأي جدوى من التذكير بالنعم ، ومن التحذيرات والنصائح اذا اصطدمت مع المصالح الشخصية ، والصفقات التجارية ؟.

جاء في كتاب محمد رسول الحرية : «أشار النبي (ص) على التجار المسلمين أن ينشئوا سوقاً جديدة في المدينة .. فأنشأوها ، ونشطت المعاملات فيها ، وأقبل التجار الغرباء عليها ، وآثروها على سوق اليهود ، لأن قواعد التعامل فيها كانت أكثر عدلاً ، وأوفر ضماناً للبائع والمشتري » .

وهذا وحده كاف لأن يملأ قلوب اليهود حقداً وغيظاً على محمد ، ويحملهم على نقض العهد ، والانتقام منه ومن الاسلام بكل سبيل .

المعنى :

ابتدأ الله سبحانه خطابه مع اليهود بالتذكير بنعمه عليهم .. ومن هذه النعم كثرة الانبياء فيهم ، وتشريفهم بالتوراة والزبور ، وتحريرهم من فرعون ، ونجاتهم من الغرق ، وانزال المن والسلوى عليهم ، واعطاؤهم الملك والسلطان في عهد سليمان ، وغير ذلك مما يستوجب الإيمان والشكر ، لا الجحود والكفر .

وتسأل : ان الخطاب موجه بظاهره الى يهود المدينة ، مع العلم بأن النعم المشار اليها منحها الله لآبائهم ، لا لهم ؟.

الجواب : ان النعمة على الآباء نعمة أيضاً على الأبناء ، حيث يكتسب الابن شرفاً من أبيه .. هذا ، إلى أن الجميع أمة واحدة .

وبعد أن ذكّرهم الله بنعمه خاطبهم بقوله سبحانه : « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم » وعهد الله هو الأخذ والعمل بما دلت عليه الفطرة ، ونزلت به الكتب من الإيمان بالله ورسله والعمل بأحكامه ، وقال صاحب مجمع البيان : « ان الله تعالى عهد اليهم في التوراة انه باعث نبياً ، يقال له محمد .. وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبه يشهد القرآن » .

أما عهد اليهود فهو عهد الله لهم ، ولكل من آمن وعمل صالحاً فانه يجزيه بالأجر والثواب يوم القيامة ، وقيل : انه تعالى أعطاهم ان اتقوا أن يرفع من شأنهم في هذه الحياة ، وسنتعرض لفكرة الجزاء في الدنيا في المكان المناسب ان شاء الله .

ثم أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن ، ولا يسارعوا الى الكفر به وبمحمد ، ويموهوا على البسطاء ابتغاء المصالح الخاصة .. وان عليهم اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، لتطهر نفوسهم وأموالهم . أما قوله تعالى : « أتأمرون بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب » فهو موجه إلى الأحبار والكبار ، لا إلى السواد ، لأن هؤلاء تابعون ، والعلماء متبعون ، وهم الذين يكتمون الحق على معرفة منه، ويعظون ولا يتعظون .

ومرة ثانية نقول ونكرر ان المواعظ والنصائح لا تصمد أبداً أمام تهديد المصالح، ومحال أن تترك أثراً إلا في نفس من لا مصلحة له ، ولا هدف إلا الحق . أما قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة فقد تكررت في الآية ١٥٣ من هذه السورة ، وهناك التفصيل .

أيضاً يا بني اسرائيل الآية ٤٧ – ٤٨ :

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ★ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ★

اللغة :

لا يكون التفاضل الا بين طرفين ، وترجيح أحدهما على الآخر في الخير . ومعنى الوقاية الصيانة والحذر ، والمراد بهـا في كلام الله الخوف منه . ومعنى الجزاء المكافأة ، والمراد بها في الآية الكفاية والاستغناء . والشفاعـة مأخوذة من الشفع ضد الوتر ، وقد اريد بها هنا الوسيلة الى الله ، ونتكلم عنها قريباً في فقرة مستقلة ، بالنظر لأهميتها . والعَدل بالفتح ضد الجور ، والمراد به هنا الفدية ، أما العِدل بكسر العين فمعناه المساوي .

الاعراب :

(يوماً) قائم مقام المفعول به بعد حذفه ، أي اتقوا عذاب يوم ، أو شر يوم . و (شيئاً) أيضاً مفعول به ، وقيل يجوز جعله مفعولاً مطلقاً،لأن معنى الشيء هنا الجزاء .

المعنى :

(يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي) هذه الآية تأكيد للآية السابقة ، وتمهيـد لما يأتي بعدها من الآيات ، ونشير في فقرة تأتي الى الحكمة من التكرار،والمراد بالذكر هنا الشكر ، أي اشكروا نعمتي عليكم بالسمع والطاعة .

(واني فضلتكم على العالمين) .. فضلهم الله على شعوب ذاك العصر . واللام في العالمين للعموم العرفي ، لا للعموم الحقيقي ، ويكفـي في صحة التفضيل أن تكون لهم الأفضلية من جهة واحدة ، لا من جميع الجهات ، وهذه الجهة التي امتاز بها بنو اسرائيل ان الله أرسل منهم العديد من الأنبيـاء والرسل : فموسى وهارون ويوشع وعزير وزكريا ويحيى ،وغيرهم كثير،وكلهم من بني اسرائيل[1] .

ومهما يكن ، فان تفضيلهم على أهل زمانهم من وجه لا يدل على فضلهم

---

[1] انظر فقرة : « لا قياس على اليهود » في تفسير قوله تعالى : وإذ أخذنا ميثاقكم .

وتفضيلهم على أهل ذاك الزمان من كل وجه،ولا على ان كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم،بل ان تضخم عدد الأنبياء فيهم ومنهم حجة عليهم ، لا لهم ، لأنه يدل على انهم كانوا لشدة ضلالهم في أمسّ الحاجة الى كـثرة التحذير والانذار .

(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس) أي ان كل انسان وما عمل ، فلا ظاهر ولا باطن ، ولا تعاون ولا تعاطف : « يوم يفر المرء من أخيه ، وامه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه — عبس » .

(ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أي ان الشأن في يوم القيامة ، تماماً كالموت لا تجدي معه واسطة من أي كان ، ولا تنفع فدية وان غلت ، ولا تمنع قوة مهما عظمت .. لا شيء على الاطلاق الا رحمة الله : « لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » .

التكرار في القرآن :

مرة ثانية يذكّر الله بني اسرائيل بنعمته ، وقد أعاد الآية بلفظها بعد خمس آيات ، وليست هي الآية الوحيدة التي أعادها القرآن فلقد كرر العديد من آياته في أكثر من سورة بخاصة ما يتصل منها ببني اسرائيل ، وسيرتهم مع كليم الله موسى (ع) .. وقد تساءل الكثيرون عن الحكمة من التكرار ؟ واتفق المفسرون على ان الغرض من التكرار هو التأكيد .

وبمضي الأيام تكتشف الأحزاب ، وأرباب الأهـداف من الساسة والتجار وأصحاب الشركات ان التكرار من اجدى الوسائل للترغيب والاقناع ، وترويج السلع والآراء ومن أجل هذا تفننوا في الاعلانات ، وتخصصوا بها ، ورصدوا لها المبالغ .

قال غوستاف لوبون في كتـاب الآراء والمعتقدات : « من يكرر لفظاً أو صيغة تكراراً متتابعاً يحوله الى معتقد » .. وقال الدكتور جبسون في كتاب كيف تفكر : « للعبارات حين تكرر أمام أعيننا ، وعلى مسامعنا مرة ومرة فعل مغناطيسي

ينوم عقولنا تنويماً » . ولبلوغ هذه الغاية يكرر القرآن المغنى بأسلوب آخر ، مع زيادة الوعد أو الوعيد ، وما اليها ، حسبما تستدعيه الحكمة .

الشفاعة :

لا بد للشفاعة من أطراف ثلاثة : مشفوع لديه ، ومشفوع له ، وشفيع هو واسطة بين الاثنين يتوسل لدى الأول أن يعين الثاني ، سواء أأذن المشفوع لديه بالشفاعة ، أو لم يأذن بها .. هذا في الشفاعة لدى المخلوق ، أما الشفاعة لدى الخالق تعالى فان معناها العفو والغفران للمذنب ، ولن تكون الشفاعة عند الله إلا بإذن من الله .

وقال صاحب مجمع البيان : « الشفاعة عندنا مختصة بدفع الضار ، واسقاط العقاب عن مذنبي المؤمنين » .

وأنكر المعتزلة والخوارج شفاعة محمد (ص) في أهل الكبائر من أمته بهذا المعنى الذي نقلناه عن صاحب مجمع البيان .. وأثبتها الامامية والأشاعرة .

والعقل لا يحكم بالشفاعة من حيث الوقوع ، لا سلباً ، ولا ايجاباً ، أما من حيث الامكان فان العقل لا يرى أي محذور من وجود الشفاعة ، وعليه يتوقف وقوعها وثبوتها على صحة النقل عن الله ورسوله ، فمن ثبت لديه هذا النقل وجب عليه أن يؤمن بالشفاعة ، وإلا فهو معذور .. وبهذا يتبين معنا ان الشفاعة ليست أصلاً من أصول الدين ، وان من انكرها مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر فهو مسلم بلا ريب .

وإذا رجعنا الى الآيات القرآنية وجدنا ان منها ما ينفي الشفاعة بوجه عام ، كقوله تعالى : في الآية ٢٥٤ من سورة البقرة : « أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » .. والنكرة في سياق النفي تفيد العموم ، ومنها ما أثبتت الشفاعة بشرط ، كقوله تعالى : « لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى – النجم ٢٦ » .

وإذا عطفنا هذه الآية على الآية السابقة ، وجمعناهما في كلام واحد تكون النتيجة هكذا : ان الله يقبل الشفاعة من الشفيع بعد أن يأذن هو بها .. وليس

من الضروري أن يصدر اذناً خاصاً من الله الى نبيه باسم كل واحد واحد لمن يرتضي الشفاعة له ، بل يكفي ان يعلم النبي بأن الشفاعة تحل ولا تحرم اذا لم يكن المشفوع له من أهل الالحاد والكفر بالله، ولا من مثيري الحروب وسفاكي الدماء ، ولا من مضطهدي العباد السالبين الناهبين للأقوات والمقدرات ، وانما هو — أي المشفوع له — فرد من الأكثرية الغالبة الذين يرتكبون الذنوب العادية المتفشية .. وبكلمة ان المراد بإذن الله بالشفاعة أن يوحي الى نبيه باني قد أبحت لك أن تشفع لمن شئت من أفراد أمتك الذين اقترفوا نوعاً خاصاً من الذنوب .. وعندها يكون أمر هؤلاء بيد الرسول الأعظم (ص) .. وهذا أقل ما يمنحه الله لمحمد (ص) غداً .. وهو بدوره يشفع لمن هو أهل للشفاعة ، فقد ثبت انه قال: « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » .

ونحن على يقين من ثبوت الشفاعة في الاسلام من حيث هي ، ولكنا نجهل التفاصيل ولا نقطع فيها برأي ، وفي الوقت نفسه نؤمن ايماناً جازماً بأن أفضل شفيع للانسان هو عمله ، وان أنجح ما يستشفع به المذنبون هو التوبة .. ان الله سبحانه لا يعطي حجراً لمن استجار مخلصاً برحمته ، ولاذ منكسراً بجوده وكرمه .

واذ نجيناكم الآية ٤٩ — ٥٠ :

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ★ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ★

اللغة :

الآل مأخوذ من آلَ يؤول بمعنى رجع ، فكل من رجع الى غيره بنسب ، أو رأي ، أو عقيدة فهو من آلِ مَن يرجع اليه ، ثم كثر استعمال الآل في أهل

بيت الرجل الذي هم منه ، حتى اختص عرفاً بهذا المعنى .. بل لا يقال آل فلان الا اذا كان لهذا الفلان مكانة وشأن،بعكس الأهل ، فانها أعم من ذلك ..

والمراد بآل فرعون هنا أتباعه الذين كانوا يباشرون التنكيل بالاسرائيليين بأمر منه . وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره الكبير البحر المحيط : « لم يكن لفرعون ابن ولا بنت ولا عم ولا خال ولا عصبة » .. ولا أعرف الدليل الذي اعتمده لقوله هذا .

وفرعون لقب لملك مصر في ذاك العهد ، ككسرى الفرس ، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة ، وتُبع اليمن ، وخاقان الترك .. وقد أصبحت هذه الألقاب المالكة في خبر كان ، ولله الحمد ، ومعنى البلاء الاختيار والامتحان بما ينفع أو يضر ، قال تعالى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون — الاعراف ١٦٧ » .

الاعراب :

فرعون ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، وسوء العذاب مفعول مطلق ، لأن معنى يسومونكم يعذبونكم .

المعنى :

بعد أن ذكّر الله سبحانه بني اسرائيل بنعمه عليهم بنحو الاجمال ذكّرهم بها على سبيل التفصيل ، وأولى هذه النعم التي أشار اليها هي نجاتهم من فرعون وأتباعه الذين أذاقوا اليهود أشد العذاب ، وفسر الله سبحانه هذا العذاب بقوله : (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أي يقتلون الذكور من نسلكم ، ويستبقون الأناث أحياء ليتخذوهن خدماً [1] ..

---

١ قال صاحب مجمع البيان : ان فرعون رأى في منامه ما أخافه وأزعجه ، وان السحرة فسروا له المنام بغلام من بني اسرائيل يقتله ، ومن أجل هذا فعل فرعون بالاسرائيليين ما فعل .. وهذا جائز في نفسه ، ولكن لا دليل يعتمد عليه .

هذا ، الى ان المصريين كانوا يسخّرون اليهود في قطع الأحجار ونقلها ، وحفر الأقنية ، وما الى ذلك من الأعمال الشاقة .

وجاء الخطاب لليهود المعاصرين لمحمد (ص) لأنهم على دين أسلافهم ، وراضون بعملهم ، ومن أحب عمل قوم شاركهم فيه .

(وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أي ان الله سبحانه قد اختبركم – يا بني اسرائيل – في السراء والضراء معاً ، لتُعرفوا : هل تجاهدون وتصبرون في الجهاد صبر الكرام في الأولى ، وتشكرون على الثانية ، أو انكم تخضعون وتستسلمون في الشدة ، وتكفرون وتطغون في الرخاء شأن كل جبان لئيم .

وتجدر الاشارة الى ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم ما هو عليه .. كلا ، فانه يعلم بكل كائن قبل أن يكون .. ولكنه يختبر العبد ، لاقامة الحجة عليه ، اذ لا دعوى لمن لا حجة له،حتى ولو كان المدعى به ثابتاً في علم الله تعالى .

وأشار سبحانه الى النعمة الثانية على بني اسرائيل بقوله : (واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون) أي فصلنا البحر وجعلناه اثني عشر طريقاً على عدد الاسباط ، والباء من (بكم) للسببية أي بسببكم ، والسبط هو ولد الولد ، والاسباط من بني اسرائيل عشائر من نسل يعقوب .

والخلاصة لقد كان اليهود في غاية الضعف والمذلة ، وكان خصمهم في غاية القوة والعزة ، فعكس الله الآية على يد نبيه موسى (ع) فصاروا هم الأعزاء ، وخصمهم الذليل ، وعاينوا (وأنتم تنظرون) ذل من بالغ في اذلالهم ، وهلاك من حاول اهلاكهم ، وبهذا لزمتهم الحجة ، ووجب عليهم أن يتعظوا ويعتبروا ولا يعاملوا غيرهم بما كان يعاملهم الغير .

وما أشبه معاملة اليهود اليوم لعرب فلسطين بمعاملة الفراعنة لليهود من قبل .. وستنعكس الآية ، وتدور الدائرة على اليهود كما دارت على فرعون لا محالة ، وعليهم في يد بختنصر والرومان .. ان للباطل جولة ، ثم يضمحل .. وأعجب ما في الانسان انه يقع في الشدائد ، فاذا أنجاه الله منها طغى وبغى ، ونسي كل شيء .

وقال كثير من أهل التفسير : ان البحر المذكور هو بحر القُلْزُم أي البحر الأحمر .

واذ واعدنا موسى الآية ٥١ – ٥٣ :

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ★ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ★ وإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ★

اللغة :

مصدر واعدنا المواعدة ، أي المفاعلة بين اثنين ، كما لو تواعدا اللقاء في مكان معين ، ووجه المفاعلة – هنا – ان الله سبحانه وعد موسى الوحي ، وموسى (ع) وعد الله المجيء .. أما الوعد فهو مصدر وعد ، ويكون من طرف واحد ، ويصح استعمال واعدنا بمعنى وعدنا .

ولفظة موسى تطلق على آلة الفولاذ التي يحلق بها الشعر ، وتُذكّر وتؤنث. والجمع مواسٍ ومواسيات ، وهي بهذا المعنى عربية لا أعجمية .. أما لفظة موسى التي يراد بها ابن عمران (ع) فهي أعجمية لا عربية ، مركبة من كلمتين في اللغة القبطية،وهما (مو) اسم للماء و (سى) اسم للشجر .. وفي اللغة العبرية (شي) .. ويكون معنى موسى ماء الشجر .. أما وجه تسمية موسى بماء الشجر فهو – على ما جاء في مجمع البيان – ان جواري آسية امرأة فرعون خرجن للاغتسال بماء الشجر فوجدن التابوت الذي فيه موسى عند ماء الشجر ، فصحبنه معهن .. والفرقان ما يفصل بين شيئين ، والمراد به هنا الذي يفصل بين الحق والباطل .

الاعراب :

الذي يتبادر الى الفهم للوهلة الأولى ان (اربعين) ظرف مفعول فيه .. وليس كذلك .. لأن الاعراب يتبع صحة المعنى ، ولو كان (اربعين) مفعولاً به

للزم تعدد الوعد من الله لموسى بتعدد الليالي ، لأن الوعد هو العامل بالليالي .. ومعلوم ان الله سبحانه لم يصدر منه لموسى الا وعد واحد موقت بانقضاء أربعين ليلة ، وعليه تكون كلمة انقضاء المحذوفة مفعولاً به ثانياً لواعدنا ، وبعد حذفها اقيمت (اربعين) مقامها ، واعربت اعرابها ، تماماً كما تقول : اليوم ثلاثة من الشهر ، أي تمام الثلاثة ، لأن الواحد غير الثلاثة . وليلة تمييز .

المعنى :

بعد ان أهلك الله فرعون ومن معه تنفس الاسرائيليون الصعداء ، وعادوا الى مصر آمنين ، كما في المجمع ، ولم تكن التوراة قد نزلت بعد على موسى ، فسألوه ان يأتيهم بكتاب من ربهم ، فوعده الله أن ينزل عليه التوراة ، وضرب له ميقاتاً ، فقال لهم موسى : ان ربي وعدني بكتاب،فيه بيان ما يجب عليكم أن تفعلوه ، وتذروه ، وضرب لهم ميقاتاً أربعين ليلة ، وهذه الليالي — على ما قيل — هي ذو القعدة ، وعشر ذي الحجة .

وذهب موسى الى ربه ليأتي قومه بالكتاب ، واستخلف عليهم أخاه هارون، وقبل أن يمضي الميقات الموعود على غيابه عبدوا العجل من دون الله ، وظلموا بذلك أنفسهم ، وهذا هو المعنى الظاهر من قوله سبحانه : « واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .

وبعد ان رجع موسى الى قومه تابوا من شركهم ، ورجعوا الى ربهم، فقبل الله توبتهم .. وهذه نعمة ثالثة من الله عليهم ، واليها أشارت الآية : « ثم عفونا عنكم بعد ذلك » .

أما النعمة الرابعة فهو كتاب الله : « واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » . وهذا الكتاب هو التوراة الجامعة لبيان الحق والباطل،والحلال والحرام، أما عطف الفرقان على الكتاب فهو من باب عطف الصفة على الموصوف، كقوله سبحانه في الآية ٤٨ من الأنبياء : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين » .

واختصاراً ان الله جل وعز ذكّر الاسرائيليين في الآيات المتقدمة بأربع نعم :

انجائهم من ذبح الأبناء واستحياء النساء ، ثم هلاك فرعون ، ثم العفو عنهم ، ثم ايتاء موسى التوراة . ومن أحسن ما قرأته في هذا الباب – وأنا أتتبع الـ ١٧ تفسيراً التي لدي – هو قول أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط : « انظر الى حسن هذه الفصول التي انتظمت انتظام الدر في أسلاكها ، والزهر في أفلاكها ، كل فصل منها – أي من النعم – قد ختم بمناسبة ، وارتقى في ذروة فصاحته أعلى مناصبه ، وارداً من الله على لسان محمد أمينه دون أن يتلو من قبل كتاباً ، ولا خطه بيمينه » .

يشير أبو حيان بهذا الى ان تلك الصور المتلاحقة المنتظمة هي من معجزات محمد ، لأنه أخبر بها من غير تعلُّم .. رحم الله السلف وغفر لهم ، وأجزل عليهم النعم والعطية ، فإنهم ما رأوا ظاهرة يستشم منها تأييد هذا الدين ونبيه الأكرم الا مدوا اليها الأعناق بلهفة واشتياق ، وبادروا اليها شرحاً وتفصيلاً ، واستخراجاً وتدليلاً ، فأين أين نحن علماء هذا الزمان الذين نتكالب على الدنيا ، ولا نرى هماً الا همّ أنفسنا ، ولا مشكلة الا مشكلة أولادنا .. أين نحن من اولئك الأعاظم الذين ضحوا بكل شيء من أجل اعزاز الاسلام ونبي الاسلام ؟.
عفا الله عنهم ورفعهم وكل من خدم الدين الى أعلى الدرجات .

واذ قال موسى الآية ٥٤ – ٥٧ :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ★ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ★ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ★ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ

ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ★

اللغة :

البارىء هو الخالق ، والمنّ مادة لزجة تشبه العسل ، والسلوى السُّمان طائر معروف ، والغمام اسم جنس مفرده غمامة ، فالتاء للإفراد ، لا للتأنيث ، تماماً كحمام وحمامة .

الاعراب :

يا قومي منادى مضاف الى ياء المتكلم ، ثم حذفت الياء ، واجتزىء عنها بالكسرة ، وجهرة قائم مقام المفعول المطلق ، وكلوا فعل أمر ، والجملة محل نصب مفعول لفعلٍ محذوف،تقديره قلنا كلوا .

المعنى :

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم) .. كل معنى يسبق الى الفهم بمجرد سماع اللفظ لا يحتاج الى تفسير ، بل تفسيره وشرحه ضرب من الفضول .. وهذه الآية من هذا الباب .

(فاقتلوا أنفسكم) .. القتل ظـاهر في ازهاق الروح ، ولا سبب موجب لصرفه وتأويله بمخالفة الهوى ، وتذليل النفس بالاعتراف بالذنب والخطيئة ، أو التشديد والمبالغة في طاعة الله – كما قيل – والمراد بالأنفس هنا بعضها ، أي ليقتل بعضكم بعضاً ، فيتولى البريء منكم الذي لم يرتد عن دينه بعبادة العجل قتلَ من ارتد عن دينه ، تماماً كقوله تعالى : «فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم». أي فليسلّم بعضكم على بعض،وكقوله : « فلا تلمزوا أنفسكم » . أي لا يغتب بعضكم بعضاً .

وقال الطبرسي في مجمعه — من الامامية — والرازي في تفسيرة الكبير — من السنة قالا : ان الله سبحانه جعل توبتهم بنفس القتل ، بحيث لا تتم التوبة ، ولا تحصل إلا بقتل النفس ، لا انهم يتوبون أولاً ، ثم يقتلون أنفسهم بعد التوبة .

ولهذا الحكم نظائره في الشريعة الاسلامية ، حيث اعتبرت القتل حداً وعقوبة على جريمة الارتداد ..

وتمضي الآيات في تعداد مساوىء الاسرائيليين : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) . حين جاءهم موسى بالتوراة قال له جماعة منهم : لا نصدقك في ان هذا الكتاب من عند الله ، حتى نرى الله عياناً لا حجاب بيننا وبينه ، ويخبرنا وجهاً لوجه انه أرسلك بهذا الكتاب .

ولست أدري ان كان الذين ينكرون وجود الله في هذا العصر ، لا لشيء إلا لأنهم لم يشاهدوه جهرة ، لست أدري : هل استند هؤلاء في انكارهم الى كفر أولئك الاسرائيليين وعنادهم ؟.

قال اليهود لموسى : لن نؤمن حتى نرى الله جهرة .. وقال من قال في هذا العصر : لا وجود إلا لما نراه بالعين ، ونلمسه باليد ، ونشمه بالأنف ، ونأكله بالفم .. وهكذا يكرر التاريخ صورة المكابرة ومعاندة الحق في كل جيل.

(فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) . أي ان عذاباً من السماء أحاط بالذين قالوا لموسى : لن نؤمن حتى نرى الله ، وأهلكهم على مرأى من أصحابهم الذين لم يعاندوا ، ويسألوا مثل ذلك .

(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . قال بعض المفسرين ، ومنهم الشيخ محمد عبده ، كما في تفسير المنار ، قالوا : ان الله سبحانه لم يُرجعهم الى هذه الحياة ثانية بعد أن أخذتهم الصاعقة ،وان المراد ببعثهم كثرة النسل منهم.

وقال آخرون : كلا ، ان الآية على ظاهر دلالتها ، وان الذين أعيدوا هم الذين أخذتهم الصاعقة بالذات .. وهذا هو الحق ، حيث يجب الوقوف عند الظاهر إلا مع السبب الموجب للتأويل ، ولا سبب ما دامت الاعادة ممكنة في نظر العقل ، وقد وقع نظير ذلك لعزير ، كما دلت الآية ٢٥٩ من سورة البقرة: « فأماته الله مئة عام ثم بعثه » . وبديهة ان الذي وقع لا يكون مستحيلاً .

وتجدر الاشارة إلى أن المراد من قوله تعالى : فأخذتكم الصاعقة،وقوله بعثناكم، المراد من كان في عصر موسى (ع) الذين قالوا له : « حتى نرى الله جهرة » فلا يشمل الخطاب موسى ، ولا من لم يقل لـــه ذلك .. وبالأولى أن لا يشمل حقيقة اليهود الذين كانوا في عهد محمد (ص) وانما وجــه الخطاب اليهم تجوزاً وتوسعاً في الاستعمال بالنظر الى أنهم من نسل الذين قالوا : حتى نرى الله جهرة .

(وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى) . جرى ذلك حين خرج الاسرائيليون من مصر ، وتاهوا في صحراء سيناء ، حيث لا بنيان ولا عمران ، فشكوا الى موسى حـر الشمس ، فأنعم الله عليهم بالغمام يظللهم ، ويقيهم حر الهاجرة ، وأنعم عليهم أيضاً بالمنّ والسلوى ، يأكلون منها بالاضافة الى ما تيسر لهم من الأطعمة ، ويأتي في تفسير الآية ٦٠ ان الماء تفجّر لهم من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه .

وغريب أمر بعض المفسرين ، حيث يفسر من تلقائه ما سكت الله عن بيانه وتفسيره ، ويحصي عدد الذين قتلوا أنفسهم للتوبة من عبادة العجل ، يحصيهم بسبعين ألف نسمة ، كما أحصى عددَ الذين أخذتهم الصاعقة بسبعين رجلاً ، أما المنّ فلكل فرد صاع ، وأما السلوى فكانت تنزل من السماء حارّة يتصاعد منها البخار ، وما إلى ذلك مما لا نص قطعي ولا ظني يدل عليه ، ويبعّد ولا يقرب .. وقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) : ان الله سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً ، فلا تتكلفوها رحمة من الله لكم .

وفي نهج البلاغة :

ان الله افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها ، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فــلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ، ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها .

(وما ظلمونا ولكن أنفسهم كانوا يظلمون) . ونفي المظلومية عن الله سبحانه، تماماً كنفي الولد والشريك عنه من باب السالبة بانتفاء الموضوع على حد تعبــير أهل المنطق ، لأن الثبوت محال عقلاً .. فهو أشبه بقولك عن الأعـزب : انه لا ولد له ، وعمن يجهل اللغة العربية لم يؤلف فيها قاموساً .. أما ظـلم اليهود لأنفسهم فلسفههم ، وجحودهم بأنعم الله الـذي لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا

تضره معصية من عصى ، وانما منفعة الطاعة تعود الى الطائع ، ومضرة المعصية الى العاصي .. قال أمير المؤمنين علي (ع) : يا ابن آدم اذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره .

واختصاراً ان هذه الآيات تضمنت الاشارة الى عبادة الاسرائيليين للعجل ، وتوبتهم بقتل أنفسهم ، وطلبهم رؤية الله ، وهلاكهم وبعثهم ، وتظليل الغمام لهم ، واطعامهم المنّ والسلوى .. وسنعرض قصة موسى مع الاسرائيليين في سورة المائدة ان شاء الله ، حيث حكى الله قولهم لكليمه ونجيّه : « اذهب أنت وربك انّا ههنا قاعدون » وانها لكلمة تعبر عن خبث اليهود ولؤمهم أدق تعبير ، وأول من اكتشف هذا اللؤم والخبث آل فرعون الذين ذبحوا الأبناء ، واستحيوا النساء .

رؤية الله :

وحيث جاء في الآية الكريمة : « حتى نرى الله جهرة » نشير الى النزاع القائم بين أهل المذاهب الاسلامية وفرقها من ان العقل : هل يجيز رؤية الله بالبصر أو يمنعها ؟.

قال الأشاعرة — السنة — : ان رؤية الله بالبصر جائزة عقلاً ، لأنه موجود ، وكل موجود يمكن رؤيته .

وقال الامامية والمعتزلة : لا تجوز الرؤية البصرية على الله بحال ، لا ديناً ولا دنيا ، لأنه ليس بجسم ، ولا حالاً في جسم ، ولا في جهة .

وبعد أن منعوا الرؤية عقلاً حملوا الآيات الدالة بظاهرها على جواز الرؤية ، حملوها على الرؤية بالعقل والبصيرة ، لا بالعين والبصر ، وبحقائق الإيمان ، لا بجوارح الأبدان على حد تعبير الفيلسوف الشهير الكبير محمد بن ابراهيم الشيرازي المعروف بالملا صدرا ، وبصدر المتألهين .

ومما استدل به الملا صدرا على امتناع الرؤية قوله : « ان الاحساس بالشيء حالة وضعية للجوهر الحاس ، بالقياس الى المحسوس الوضعي ، ففرض ما لا وضع له انه محسوس ، كفرض ما لا جهة له انه في جهة » .

يريد بقوله هذا - على ما أرى - ان العين لا ترى الشيء إلا بشرطين : الأول أن تكون أهلاً للنظر ، الثاني أن يكون الشيء أهلاً لأن ينظر بالعين .. وهذا شيء بديهي ، فإذا فقدت العين أهلية النظر ، أو لم يكن الشيء مؤهلاً للنظر بالعين انتفت الرؤية قهراً .. والعين أصغر وأحقر من ان ترى الذات القديسة الاحدية ، كما انه جل وعلا أعظم من أن يُرى بالعين .

وانتقل ذهني ، وأنا أقرأ عبارة هذا العظيم ، الى الفيلسوف الانكليزي جون لوك القائل بالواقعية النقدية ، وملخصها ان للشيء صفات أولية ثابتة له واقعاً ، ولا تنفصل عنه اطلاقاً ، سواء أوجد من يدركها ، أم لم يوجد ، كالعناصر المقومة المكونة للشيء .. وأيضاً له صفات ثانوية نسبية لا توجد مستقلة عن ذات تحسها وتدركها ، كاللون والصوت والطعم ، فاللون ليس صفة للشيء كما يتراءى وانما هو موجات ضوئية خاصة بين الشيء والعين عند العلماء ، وأيضاً الصوت موجات هوائية ، والطعم لا وجود له لولا الفم ، ومن هنا يختلف باختلاف الذائق صحة ومرضاً .. واختصاراً انه لا لون بلا عين ، ولا صوت بلا اذن ، ولا طعم بلا فم . وليس من شك أن نور الله سبحانه يطغى على الموجات الضوئية وغيرها ، وإذا انتفت هذه الموجات انتفت الرؤية .

واذ قلنا ادخلوا الآية ٥٨ - ٥٩ :

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ★ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ★

اللغة :

للقرية في اللغة معنيان : المكان الذي يجتمع فيه الناس ، أي مكان لا يختص في بر ولا بحر ، والمعنى الثاني مسكن النمل ، وعلى هذا تكون المدينة من معاني القرية حقيقة ، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير ، فتغلب هذا المعنى على غيره من المعاني ، بحيث اذا اطلق لفظ القرية فلا يفهم منه عرفاً الا البلد الصغير .. وقيل : ان المراد بالقرية هنا بيت المقدس . ومعنى الحط النزول والهبوط ، ومعنى السجود وضع الجبهة على الأرض ، والمراد به هنا معناه المجازي ، وهو الخضوع والتواضع ، لأن دخولهم الباب ، وجبهتهم على الأرض ، متعذر ، فتعين الحمل على الخشوع ، والرجز بكسر الراء الشيء القذر ، والمراد به هنا العذاب .

الاعراب :

القرية عطف بيان من هذا ، ورغداً نائب عن المفعول المطلق ، أي أكلا رغداً ، وسجداً حال من واو الجماعة في ادخلوا ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، كعدل بمعنى عادل ، وحطة خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير مسألتنا أو امرنا حطة ، تماماً مثل « صبرٌ جميل » أي حالنا صبر جميل ، مع العلم بأن النصب جائز أيضاً .

المعنى :

(واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً) . قال صاحب مجمع البيان : « أجمع المفسرون على ان المراد بالقرية هنا بيت المقدس ، ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر : ادخلوا الأرض المقدسة » .

(وادخلوا الباب سجداً) أي ادخلوا ناكسي الرؤوس خاضعين خاشعين لله ، وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : « الباب هو أحد أبواب بيت المقدس ، ويدعى باب حطة . (توفي هذا العالم الأندلسي سنة ٧٥٤ هـ) .

(وقولوا حطة) . بعد أن أمرهم الله سبحانه أن يدخلوا بخضوع وخشوع أيضاً أمرهم أن يقرنوا الخشوع بقول التضرع والتذلل مثل نستغفر الله ، ونسأله التوبة،ليحصل التوافق والتلاؤم بين القول والفعل ، تماماً كما تقول في ركوعك : « سبحان ربي العظيم » . وفي سجودك : « سبحان ربي الأعلى » .

وليس من الضرروري أن يتلفظوا بلفظ (حطة) بالذات وعلى سبيل التعبد ، كما قال كثير من المفسرين ، ولا أن يكون المراد من حطة العمل الذي يحط الذنوب كما في تفسير المنار نقلاً عن محمد عبده،حيث قال : ان الله لم يكلفهم بالتلفظ ، اذ لا شيء أيسر على الانسان منه .

ويلاحظ بأن الله قد كلف عباده بالكلام والتلفظ في الصلاة ، وأعمال الحج، وفي الأمر بالمعروف ، ورد التحية ، وأداء الشهادة ، بل وباخراج الحروف من مخارجها في بعض الموارد .

(فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) . أي انهم أمروا أن يقولوا ما يستحقون به العفو والصفح والثواب ، ولكنهم خالفوا وقالوا ما يستوجبون عليه المؤاخذة والعقاب .

وقد استلفت انتباهي ان بعض المفسرين الكبار ، ومنهم الفيلسوفان : الرازي والملا صدرا،قد تعرضوا هنا الى مسألة الوقوف على لفظ الادعية والاذكار المأثورة، وانه هل يجب الجمود عليها حرفياً ، أو يجوز ابدال لفظ بلفظ مع المحافظة على المعنى ، ولم يتعرضوا ، وهم يفسرون قوله : « فبدل الذين ظلموا » الى من اتخذ الدين سلعة للكسب والربح ، مع العلم بأن هؤلاء أمناء على دين الله، وانهم قد خانوا الأمانة ، وحرفوا الآيات والروايات ، تماماً كما فعل الاسرائيليون .

(فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء).تقدم ان المراد بالرجز العذاب.. وقد سكت الله سبحانه عن نوع العذاب وحقيقته،ولم يبين لنا : هل هو الطاعون، كما قال البعض ، أو الثلج كما ذهب آخرون .. وأيضاً سكت عن عدد الذين هلكوا بهذا العذاب : هل هم سبعون ألفاً ، أو أكثر ، أو أقل ؟ وعن أمد العذاب ومدته : هل هي ساعة أو يوم ؟ لذلك نسكت نحن عما سكت الله عنه، ولا نتكلف بيانه كما تكلفه غيرنا اعتماداً عن قول ضعيف، أو رواية متروكة .

واذ استسقى موسى الآية ٦٠ :

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ★

اللغة :

الاستسقاء طلب الماء ، والانفجار والانبجاس بمعنى واحد ، لأن الله استعملها في قصة واحدة،والمشرب مكان الشرب كالمأكل مكان الأكل ، والمسكن مكان السكن . والعثي قيل معنـــاه مجاوزة الحد في كل شيء ، ثم كثر استعماله في الفساد ، فتغلب على غيره من سائر الأفراد .

الاعراب :

اثنتا عشرة كلمتان نزلتا منزلة الكلمة الواحدة ، اعرب الصدر لمكان الألف رفعاً ، والياء جراً ونصباً ، وبني العجز لأنه بمنزلة نون الاثنين ، هكـــذا قال النحاة ، وعينا تمييز .

المعنى :

(واذ استسقى موسى لقومه) . لا تأويل في هذه الآية ، فان المراد منها هو نفس المعنى المتبادر الى الفهم من ظاهرها ، وقال الرازي : « أجمع جمهور المفسرين على ان ذلك كان في التيه » أي صحراء سينـاء .. ومهما يكن ، فان الله سبحانه بعد أن ظللهم بالغمام،وأطعمهم من المنّ والسلوى سقاهم الماء أيضاً ، فأجرى لهم اثني عشرة عيناً بقدر عشائرهم ، فاختصت كل عشيرة بعينها حتى لا يقع بينهم التشاجر والتنازع على الماء .

حول الرأسمالية والاشتراكية :

لقد تم لبني اسرائيل الظل والطعام والشراب بلا كلفة ومشقة، فلا غني وفقير، ولا جائع ومتخم، ولا كادح ومترف، لا ملكية لوسائل الانتاج، ولا اجحاف في التوزيع، ولا من كلٍ حسب طاقته، ولكل حسب عمله، لا شيء اطلاقاً سوى المساواة في العيش، دون مقابل من مال أو عمل أو أي شيء آخر[1] .

وهذا أول وآخر شعب يسعد بهذا النوع من العيش، بالاضافة الى الوحدة لغة وثقافة وتاريخاً .. وسنثبت ان الله عامل هذا الشعب معاملة خاصة دون الناس أجمعين .

واذا لم يكن من سبب اقتصادي أو قومي للتشاحن والتطاحن، ولا للجريمة والفساد فلماذا أفسدوا وتمردوا على الناصح الأمين موسى بن عمران (ع) ؟ وكيف ملّوا حياة التساوي في الغنى، وقالوا : لن نصبر عليها أبداً، ونريد أن يستعين بعضنا ببعض، وقابلوا النعم المتتالية بالكفران والعصيان ؟.

وقال الاشتراكيون كلهم، أو جلهم : ان الرأسمالية امّ الرذائل والشقاء، والاشتراكية مصدر الفضائل والهناء .. وقال الرأسماليون : المهم التجانس في العقلية، والصفات الروحية ..

وقال هتلر : لا شيء على الاطلاق الا الجنس الآري .

ولكن أكثر أعداء هتلر كانوا مثله آريين، وبالتالي أودت نظريته بحياته، وأذلت شعب ألمانيا، وأهلكت الملايين من سائر الشعوب، ودمرت المدن والعواصم، ومنشآت المدنية والحضارة ..

أما الدول الرأسمالية فقد بلغ التنافس بينها غايته، ونزاع موسكو وبكين قطع كل أمل في الوفاق والوئام، ومن قبله النزاع الستاليني التيتوي .

ان في الانسان قوى غريبة وغامضة قد تجاوزت العد والاحصاء، أما الظروف

---

[1] من الطريف ما جاء في بعض التفاسير ان الطفل الصغير منهم كان يلبس الثوب على مقدار جسمه، وكلما ازداد الطفل نمواً ازداد الثوب تلقائياً طولا وعرضاً قدراً بقدر دون زيادة أو نقصان .. وقد يكون هذا ممكناً في ذاته، ولكن لا دليل عليه .

التي تحيط به من الخارج فأكثر وأوفر ، ومن حاول احصاء هذه أو تلك فقد طلب المحال ، ولكل منها أثره وعمله ، والانسان معها جميعاً بين مد وجزر ، فحصر المؤثرات بالمادة وحدها ، تماماً كحصرها بالقوى الروحية ، أو بالعرق .. الكل باطل وغير صحيح .. أجل ، ان الفقر باعث قوي على الرذيلة والإثم ، وربما كان أقوى البواعث على الاطلاق ، لذا قال علي أمير المؤمنين (ع) : كاد الفقر أن يكون كفراً.

ولكن اذا تم للانسان ما يحتاج اليه في حياته فلن تتم له السكينة والاستقرار الا اذا آمن بمبادىء انسانية ، يلائم بينها وبين سلوكه ، وركن الى دين قويم يعصمه عن الخطايا والذنوب[1] .

شيء من لا شيء :

وتسأل : كيف تدفقت العيون من حجر يحمله الانسان في يده ؟ وهل يكون المحال ممكناً ؟ هل يوجد شيء من لا شيء ، أو الكثير من القليل ؟ يحفر الانسان آلاف الأمتار في الأرض ، ومع ذلك لا يخرج الماء اذا لم يكن موجوداً في مكان الحفر ، فكيف نبع الماء من حجر لا عين ولا أثر فيه للماء ؟.

الجواب : لا تفسير من العلم والطبيعة لهذا اطلاقاً ، لا تفسير الا بالمعجز وخوارق العادات ، والا بقوله جلت قدرته : كن فيكون ، تماماً كانفلاق البحر ، ووقوف مائه كالجبال ، ونزول المنّ والسلوى من السماء ، وجعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم ، وولادة عيسى بلا دنس ، واحيائه الموتى ، وخلقه الطير من الطين ، الى غير ذلك .. فمن آمن بالله وقدره حق قدره اقتنع مكتفياً بهذا، ومن جحد وعاند فلا كلام في الفرع بعد أن أنكر الأصل .. واني على يقين ان الذين يطلبون تفسيراً علمياً ودقيقاً لكل شيء ، ان هؤلاء قد مر في حياتهم

---

[1] في سنة ١٩٣٦ تنازل ادوار الثامن عن عرش الامبراطورية البريطانية التي لم تغب الشمس عن سلطانها آنذاك تنازل عن العرش من أجل امرأة ، اسمها واليس ، تزوجت قبله مرتين وطلقت ، وفضل أن يعيش معها مشرداً، ينتقل من بلد إلى بلد بحثاً عن عمل، ولا حجة أقوى من هذه الحادثة على خطأ من حصر البواعث كلها بالمادة .

العديد من الحوادث التي لا يجدون لها تفسيراً في شيء الا في الغيب وارادة الله.. ولكنهم لا يشعرون .

وتجدر الاشارة هنا الى الملا صدرا الفيلسوف العظيم الذي سبق زمانه عثات السنين ، حيث لا أدوات ومختبرات ، فانه قال فيما قال عند تفسير هذه الآية ما نصه بالحرف الواحد : « ان مادة العناصر قابلة لأن تكون منها صورة غير متناهية على التعاقب ، فيجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء » .

ومحل الشاهد الذي يجب الوقوف عنده هو قوله جازماً : « يجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء » . يشير بهذا الى التأكيد على نظرية التطور التي اكتشفها هو واهتدى اليها قبل داروين بثلاثة قرون[1] ، على ان داروين خصص النظرية بالأعضاء العضوية فقط .. أما صدر المتألهين فقد عممها لجميع الكائنات ، حتى الجماد ، كما رأيت من جواز استحالة الحجر الى ماء .. وكم لهذا العظيم من اكتشافات ! ولو كان غربياً لما كان انشتين أشهر وأعرف،ولكن انشتين غربي، بل يهودي أيضاً .. والملا صدرا شرقي ، بل شيعي أيضاً .

لقد سبق هذا العظيم الى نظرية التطور بأوسع معانيها ، وزادته هذه النظرية ايماناً على ايمانه بالله واليوم الآخر ، وأضاف بسبب اكتشافها أدلة جديدة على وجود الله لم يسبقه اليها أحد من أرباب الفلسفة الإلهية ، حتى سمي بحق صدر المتألهين ، وجاء برهاناً قاطعاً على جهل جلادستون والملايين من اتباعه في زعمه: « ان كيان الله كخالق هذا الكون قد انتهى بنظرية التطور » . بل العكس هو الصحيح .

واذ قلتم يا موسى الآية ٦١ :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا

[1] الملا صدرا من عظماء القرن السادس عشر الميلادي ، وكان داروين في أواخر القرن التاسع عشر .

قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ★

اللغة :

البقل نبت لا ساق له ، كالنعناع والكراث ، والقثاء بالكسر نوع من الخيار معروف ، والفوم الحنطة،والأدنى الأقرب ، والمراد به هنا الخسيس من الدناءة، والمصر البلد الكبير ، وضربت ، أي فرضت .

الاعراب :

يخرج مضارع مجزوم جواباً لفعل الأمر ، وهو ادع ، وذلك مبتدأ وخبره بأنهم كانوا ، ومثله ذلك بما عصوا .

المعنى :

(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) . أي قاله أسلافكم لموسى ، وهم في التيه ، حيث سئموا من المواظبة على أكل المنّ والسلوى ، وتشوّقوا إلى عيشهم الأول في مصر .

وليس في هذا الطلب معصية ، فان كل انسان يطلب التنوع في الطعام، لأنه يفتح الشهوة ، والرغبة في الاستكثار ، والله سبحانه قد أحلّ الطيبات من الرزق لعباده .. وعلى هـــذا فان الآية لم تسق للذم ، بل للتعجب من تركهم العيش الحاصل عفواً صفواً ، وطلبهم العيش الذي لا يحصل إلا بالكد والجد .

(قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) . الباء في هذا المورد تدخل على الأفضل ، تقول : لا تبدل النحاس بالذهب ، ولا يجوز أن تقول: لا تبدل الذهب بالنحاس ، والدليل هذه الآية الكريمة .. ولكن الناس يعكسون . وعلى أية حال فان المهم معرفة المراد ، ووضوح القصد .

(اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم) . أي قال موسى لهم ذلك .. والظاهر ان المراد مصر من الأمصار يحقق لهم هذه الأمنية ، لأن سبحانه لم يبين ويعين مصراً خاصاً .. وتفسير القرآن الكريم غير التعليلات النحوية التي يصحح بها كلام سيبويه ونفطويه .

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة) . كانوا أعزاء مستقلين يأتيهم رزقهم رغداً، فأبوا إلا الزراعة والصناعة والتجارة ، وكل ذلك يستدعي التنافس والحروب ، وهي تستدعي الفشل وذهاب الريح .

(ويقتلون النبيين بغير الحق) . وبديهة ان قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق ، وكأنّ الله سبحانه أراد بذكر القيد التشنيع بهم ، وان القتل منهم لم يكن عن خطأ واشتباه ، بل عن اصرار وتعمد للباطل والضلال . فلا بدع إذا أساء يهود المدينة الى محمد (ص) .. لأنهم امتداد لذاك الأصل والعرق .

ان الذين آمنوا والذين هادوا الآية ٦٢ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارَى وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ★

اللغة :

المراد بـ (هادوا) اليهود نسبة الى يهوذا أكبر أبناء يعقوب ، واسرائيل اسم يعقوب بالذات ، وقد تقدم ، والنصارى جمع ، ومفرده المذكر نصران ،

والمؤنث نصرانة ، كسكارى جمع لسكران ، وسكرانة ، وعن سيبويه ان المفرد من نصارى لا يستعمل الا مع ياء النسبة ، فيقـــال : نصراني ونصرانية ، أما المنسوب اليه فهو بلدة الناصرة في أرض فلسطين ، فعن الإمام الرضا (ع) : انما سُمي النصارى بهذا الاسم لأن عيسى وامه مريم (ع) من قـرية اسمها الناصرة في بلاد الشام .. وكثيراً مـــا يطلق لفظ الناصري على السيد المسيح (ع) .. وقال صاحب الكشاف : الياء في النصراني والنصرانية للمبالغة ، والأول أقرب .

والصابئون قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء ، ولكنهم يعتقدون بتأثير بعض النجوم في الخير والشر ، والصحة والمرض ، ومنهم طائفة تقيم في العراق الآن ، والصابئة مأخوذ من صبأت النجوم ، أي طلعت،وأول من عبد الكواكب قوم النمرود الذين أرسل اليهم ابراهيم الخليل (ع) .. فهم أقـــدم الأديان في التاريخ .

الاعراب :

مَنْ من قوله تعالى : (من آمن بالله واليوم الآخر) بدل بعض من كل من الأصناف الثلاثة ، وهم اليهود والصابئة والنصارى ، وقوله (فلهم أجرهم) مبتدأ وخبر ، والجملة خبر انّ ، ودخلت الفاء على الخبر لمكان الموصول المتضمن لمعنى الشرط ، وخوف مبتدأ وخبره عليهم ، وأهملت (لا) عن العمل لمكان التكرار .

المعنى :

في معنى هذه الآية أقوال أنهاها بعض المفسرين الى ثمانية ، وأصحها قولان :

الأول : ان الغرض من الآية أن يبين سبحانه انه لا يهتم بالأسماء اطلاقاً ، سواء أكانت من نوع مسلم ، أو مؤمن ، أو يهودي ، أو صابئي،أو نصراني ، لأن الألفاظ بما هي لا تضر ولا تنفع ، ولا تضع ولا ترفع ، وانما المهم عند

الله العقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ، ففـاد الآيـة ما جـاء في الأخبار من ان الله لا ينظر الى الصور ، وانما ينظر الى الأعمال .

وليس من شك ان هذا المعنى صحيح في نفسه ، ولكن اللفظ لا يعطيه صراحة .. وقد دأب البعض أن يتملق الى أهل الأديان الأخرى مستدلاً بهـذه الآية على انه لا فرق بين المسلمين وغيرهم عند الله ، وهو يعلم علم اليقين بأنهم ينكرون نبوة محمد (ص) . بل ويفترون عليه الأكاذيب ، وينسبون اليه ما يهتز منه العرش .

المعنى الثاني : ان أفراداً لم يدركوا محمداً (ص) ، ومـع ذلك قد اهتدوا بصفاء فطرتهم الى الايمان بالله ، وتركوا المحرمات ، كالكذب وشرب الخمـر والزنا ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وزيد بن عمـرو ، وورقة بن نوفل ، وغيرهـم ،ويسمون الحنيفين ، وكأنّ سائلاً يسأل عن حكم هؤلاء عند الله . فأجابت الآيـة بأن هؤلاء لا بأس عليهم ، وكذلك اليهود والصابئة والنصارى الذين لم يدركوا محمداً (ص) ، كي يأخذوا عنه التفاصيل ، انهم جميعاً لا خوف عليهم ، ما داموا على الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح .. ونحن نميل الى هذا المعنى .

وتسأل : ان المعنى الظاهر من هذه الآية أشبه بتحصيل الحاصل ، لأن قوله تعالى: من آمن بالله واليوم الآخر بعد قوله : ان الذين آمنوا، يجعل الكلام هكذا: ان الذين آمنوا من آمن منهم ، وهـذا تماماً كقول القائل : ان المسلمين من أسلم منهم ، والقائمين من قام منهم .. فما هو الجواب ؟

وجوابه : ان هذا التساؤل انما يتجه إذا أعربنا مَنْ مِن قوله تعالى : من آمن بالله واليوم الآخر .. إذا أعربناها مبتدأ . أما إذا جعلناها بدلاً من الأصناف الثلاثة فقط ، أعني اليهود والصابئة والنصارى فيسقط التساؤل من أساسه ، حيث يكون المعنى على هذا : ان الذين آمنوا بالله من غير اليهود والصابئة والنصارى لا خوف عليهم ، وكذلك مَن آمن مِن هذه الأصناف الثلاثة لا خوف عليهم، فحكم الجميع واحد .

واذ أخذنا ميثاقكم الآية ٦٣ ـ ٦٦ :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ★ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ★ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ★ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ★

اللغة :

المراد بالميثاق هنا العهد بأن يلتزموا ويعملوا بأحكام التوراة ، وبالقوة العزم والجد ، والطور الجبل الذي ناجى الله عليه موسى (ع) ، والخاسىء المطرود ، والنكال الارهاب والعقاب .

الإعراب :

خاسئين صفة للقردة ، وقيل خبر بعد خبر لكونوا ، وقيل حال ، واللام في لقد هي لام التوكيد ، وتسمى أيضاً لام الابتداء والضمير ، وهو الهاء من جعلناها عائد إلى الأمة الممسوخة ، لأن التقدير كونوا أمة ، ونكالاً مفعول ثان لجعل .

المعنى :

(واذ أخذنا ميثاقكم) . أي أخذنا الميثاق من أسلافكم أن يعملوا بالتوراة ، ولما نقضوه رفع الله الجبل فوقهم ، وقال : اعملوا بما فيها ، وإلا أسقطت هذا

الجبل عليكم ، فاذعنوا وتابوا ، فاستقر الجبل في مكانه ، ولكنهم عادوا الى التمرد والعصيان .

وإذا كان هذا شأن اليهود في عهد الكليم (ع) ، وقد شاهدوا عياناً ما شاهدوا من الخوارق ، ولا حجة أقوى وأبلغ من العيان،فلا عجب – اذن – من يهود المدينة إذا أنكروا نبوة محمد (ص) ، ونقضوا العهد والميثاق المبرم بينه وبينهم ، انظر فقرة « محمد ويهود المدينة » عند تفسير آية : يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته) . أي لولا لطف الله وتفضله بامهاله لكم لحل بكم العذاب في الدنيا قبل الآخرة ، قال الملا صدرا :

« ان هذه الآية من أرجا الآيات ، وأقواها دلالة على رحمته وتجاوزه عن سيئات عباده العاصين ، لأن قوله : فلولا فضل الله عليكم بعد ان عدد قبائحهم من عبادة العجل ، وكفران النعم ، وجحود الأنبياء وقتلهم ، ونقض الميثاق المؤكد ، وغير ذلك يدل على كمال رأفته وعفوه » .

ثم نقل الملا صدرا عن القفال ما يتلخص بأن الله سبحانه بعد أن رفع عنهم عذاب الجبل حرفوا التوراة ، وجاهروا بالمعاصي ، وخالفوا موسى ، ولقي منهم كل أذى ، وكان الله سبحانه يجازيهم في الدنيا ، ليعتبروا ، حتى انه خسف الأرض ببعضهم ، وأحرق بالنار آخرين ، وعوقبوا بالطاعون .. كل هذا ، وغير هذا منصوص عليه في توراتهم التي يقرون بها ، والتي هي الآن في متناول كل طالب وراغب .. ثم فعل الخلف ما فعل السلف من الجرائم ، فكفروا السيد المسيح (ع) ، وصمموا على قتله..فغير عجيب انكارهم ما جاء به محمد (ص) ، وجحودهم لحقه .

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) . لقد أمرهم الله سبحانه بترك العمل يوم السبت ، وحرم عليهم صيد الأسماك فيه ، فكانت الحيتان تتجمع في هذا اليوم آمنة مطمئنة ، ولكن ثلة من اليهود احتالوا وتأولوا .. حيث حبسوا الحيتان يوم السبت وحصروها في مكان لا تستطيع تجاوزه ، وأخذوها يوم الأحد، وقالوا : ان الله نهى عن صيد الحيتان في هذا اليوم ، ولم ينه عن حبسها ، وفرق بعيد بين الحبس وبين الصيد .

ويُذكرني هذا الدجل والاحتيال بنفاق محترفي الدين والوطنية الذين يتلاعبون بالألفاظ ، ويشوهون الحقائق ، ليوقعوا بعض السذج في شباكهم .. ومن الطريف ان بعض الشيوخ ألّف كتاباً خاصاً في الحيل الشرعية ، حتى كأنّ الله طفل صغير تخفى عليه التمويهات ، ولا يعلم الصادقين من الكاذبين .. واذا لم يمسخ الله هؤلاء قردة خاسئين في هذه الحياة ، كما فعل باليهود من قبل فسيحشرهم غداً على هيئة الكلاب والقردة والخنازير .. واذا لم يُمسخ الكاذبون الآن في الظاهر فانهم ممسوخون في الباطن .. ولا حجة أقوى من الأفعال التي تنبىء بمسخ نفوسهم .

(فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . اختلف المفسرون : هل كان المسخ لمن اعتدى في السبت من اليهود مسخاً حقيقياً ، بحيث صارت أجسامهم وصورهم على هيئة القرود ، أو ان المسخ كان في الطبع ، لا في الجسم، تماماً مثل : ختم الله على قلوبهم ، ونظير كمثل الحمار يحمل أسفاراً ؟.

ذهب أكثر المفسرين الى الأول ، وان المسخ كان حقيقة ، عملا بالظاهر الذي لا داعي الى تأويله ، وصرفه عن دلالته ، لأن تحول الصورة الى صورة أخرى جائز عقلاً ، فاذا جاءت آية أو رواية صحيحة على وقوعه أجريناها على ظاهرها ، حيث لا حاجة الى التأويل .

وذهب قليل منهم مجاهد في القديم، والشيخ محمد عبده في الحديث الى الثاني، وان المسخ كان في النفس ، لا في الجسم ، قال الشيخ عبده ، كما في تفسير المراغي : « ان الله لا يمسخ كل عاصٍ ، فيخرجه عن نوع الانسان، اذ ليس من سنته في خلقه .. وسنة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحالية بمثل ما عامل به القرون الخالية » .

ونحن نميل الى ما عليه جمهور العلماء والمفسرين ، وان المسخ كان حقيقة ، لا مجازاً ، أما قول عبده فصحيح في نفسه ، كمبدأ عام ، وقاعدة كلية ، ولكن لهذه القاعدة مستثنيات ، تستدعيها الحكمة الإلهية ، كالمعجزات ، وما اليها من الكرامات .. ومعاملة الله مع بني اسرائيل في ذاك العهد من هذه المستثنيات ، كما يتضح من الفقرة التالية :

لا قياس على اليهود :

من يدقق النظر في آي الذكر الحكيم التي نزلت في الاسرائيليين خاصة ، وفي الذين كانوا منهم على عهد موسى الكليم (ع) بوجه أخص ، ان من يستقرىء هذه الآيات يخرج بنتيجة واضحة كالشمس ، وهي انه سبحانه قد عاملهم معاملة لا تشبه شيئاً ، ولا يشبهها شيء مما هو معروف ومألوف .. وغير بعيد أن يكون قوله تعالى : « واني فضلتكم على العالمين » اشارة الى هذه المعاملة الخاصة .

فلقد حررهم الله من نير فرعون وطغيانه بانفلاق البحر، لا بالجهاد والتضحية، وأطعمهم المنّ والسلوى ، وسقاهم الماء بمعجزة ، لا بالكد والعمل ، ورفع فوقهم الجبل ليطيعوا ، ويسمعوا ، وأحيا قتيلهم ، ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل .. كل ذلك ، وما اليه يدل دلالة صريحة واضحة على ان مشاكل اليهود في ذلك العصر لم تحل بطريقة طبيعية مألوفة، بل لم يفكروا هم أنفسهم في العمل من أجل حلها .. فكلما اصطدموا بمشكلة قالوا : يا موسى ادعُ لنا ربك يفعل ويترك .. وكان موسى يدعو ، والله يستجيب .

وبهذا يتبين معنا ان قياس سائر الأجيال على الجيل الاسرائيلي آنذاك في غير محله ، وان قول الشيخ محمد عبده : « ان الله يعامل القرون الحاضرة بمثل القرون الخالية » يصح في جميع الناس الا في اولئك الناس[1] .

وأيضاً يتبين ان الله قد أراد برفع الجبل أن يُكرههم ويُلجئهم الى الأخذ بما في التوراة ، وان قول السيد الطباطبائي في كتاب الميزان : « ان رفع الجبل لا يدل على الالجاء والاكراه ، لأنه لا اكراه في الدين » ان هذا القول بعيد عن الواقع بالنسبة الى قوم موسى الذين عاملهم الله معاملة أبعد ما تكون عن الضوابط والقواعد .

أما الحكمة الإلهية لذلك فلا مصدر لديّ أعتمده لمعرفتها . وقد يكمن السر

---

1 لقد وصم القرآن والانجيل اليهود بأنهم أعداء الإنسانية ، وتاريخهم يشهد بهذه الحقيقة ، ومن أجل هذا يحرصون كل الحرص على التأكيد بأنه لا فرق بين القوميات ، ولا بين الاديان ، وألفوا لهذه الغاية الكتب ، وأسسوا المعاهد ، وبثوا الدعايات ، وأنشأوا الجمعيات ، ومنها الجمعية الماسونية العالمية التي أضفوا عليها ثوب الانسانية .

في ان الله جل وعلا أراد أن يضرب من أولئك اليهود مثلاً على ان الحياة لا تطيب وتحلو الا بالكد والكفاح ضد الطبيعة ، وبه وحده تُكتشف الحقائق ، وتُعرف الأسرار ، وترتقي الانسانية في مدارج الرقي والحضارة ، ولو عاش الانسان اتكالياً ، وعلى مائدة تنزل من السماء لـما تميز في شيء عن الحيوان المربوط على المعلف ، ولم يكن بحاجة الى العقل والادراك .. ان الاتكالية جمود وموت ، والجهاد حيوية ونشاط ، ومهما يكن ، فان تاريخ اليهود بوجه العموم يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ هؤلاء الاسرائيليين الذين كانوا على عهد موسى ، فهم أقدم العناصر ، والأصل المباشر لسلالة من وجد بعدهم من اليهود .

وبمناسبة الحديث عن اليهود نشير الى جماعة من الصهاينة تقيم في أمريكا ، وبالتحديد في الحي المعروف بـ (بروكلين) بنيويورك ، واسم هذه الجماعة : « جماعة شهود يهوه » .. وهدفها الأول والأخير اشاعة الفوضى ، واثارة الفتن الدينية في جميع أقطار العالم، بخاصة العالم العربي ، والتنبؤ بفناء العالم .. وتصدر هذه الجماعة العديد من النشرات والكتب بجميع اللغات ، وبأغلفة ملونة ، تسرب الكثير منها الى بلادنا ، كما تُصدر مجلة باسم برج المراقبة ، ومن الكتب التي نشرتها كتاب في الطعن بمحمد (ص) والقرآن ، واسم هذا الكتاب « هل خدم الدين الانسانية » وكتاب ليكن الله صادقاً ، وكتاب نظام الدهور الالهي، والحق يحرركم ، والمصالحة ، وملايين من الذين هم أحياء لن يموتوا أبداً ، وقد طبع هذا الكتاب ببيروت .

واكتشفت حكومة القاهرة بعض أعضاء جماعة شهود يهوه ، وكانوا يعقدون اجتماعات سرية ، فقبضت عليهم وشرعت بمحاكمتهم في الشهر الرابع من سنة ١٩٦٧ .

ومن تعاليم هذه الجماعة انه جرى صراع طويل ومرير بين الله والشيطان دام ستين قرناً ، ثم اعتزل الله ، وسلم دفة الحكم والادارة للشيطان يتصرف كيف شاء ، لأن الشيطان أبقى الله وحيداً فريداً لا أحد معه إلا أمة اسرائيل ، ومن أجل هذا قال الله للشيطان : خذ الناس ، كل الناس ، واترك لي هذه الأمة .. وهكذا تم الاتفاق بين الله والشيطان .. ولكن الآية ستنعكس في النهاية ، لأن أمة اسرائيل ستملك من النيل الى الفرات ، وسيخرج الأنبياء من قبورهم ،

ويتولون أعلى المناصب في دولة اسرائيل ، وبالتالي يخضع العالم كله لهذه الدولة، ويُخذل الشيطان ، وينتصر الرحمن .. ولهذه الجماعة أنصار وعملاء في بيروت وعمان وبغداد ودمشق والقاهرة والسعودية والمغرب[1] .

والغرض من هذه الاشارة التنبيه الى رأس الحية ، وإلى الأصابع التي تحرك في الخفاء بعض المؤلفين ومحرري الصحف ، وتضع لهم الخطط لاشاعة للفوضى والفساد ، واثارة النعرات الطائفية ، والفتن الدينية في بلادنا .

ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الآية ٦٧ – ٧٣ :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ★ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ★ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ★ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ★ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ★ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا

---

١ هذا بعض من كل ، وقد استقيت معلوماتي عن جماعة شهود يهوه من صحف كثيرة ، آخرها « صباح الخير » المصرية ، تاريخ ١٣–٤–١٩٦٧ ، و « المصور » المصرية ، تاريخ ١٤ منه .

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ★ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ★

اللغة :

الفارض المسنة التي انقطعت ولادتها ، والبكر الصغيرة التي لم تحمل ، والعوان وسط بينهما ، لا كبيرة ولا صغيرة ، والفاقع شديد الصفرة ، يقال : أصفر فاقع ، وأخضر ناضر ، وأحمر قان ، وأبيض ناصع وبقق ، واسود حالك ، وكلها صفات مبالغة في الألوان ، كما في مجمع البيان، والذلول الريّض الذي زالت صعوبته ، والمراد بالذلول هنا البقرة التي لم تعتد العمل في الأرض ، والمسلّمة بتشديد اللام السالمة من العيوب ، والشية بكسر الشين العلامة ، والمراد بها هنا أن يكون لون البقرة واحداً لا لون يخالف الصفرة ، وهو مأخوذ من وشي الثوب اذا زيّن بخطوط مختلفة . واصل ادارأتم تدارأتم على وزن تفاعلتم ، ومعنى التدارؤ التدافع ، أي كان البعض يدفع خصمه بيده ، وخصمه يفعل به مثل فعله ، أو ان كلاً يتهم الآخر بدم القتيل .

الإعراب :

ما هي مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول يبين ، لا فارض صفة للبقرة، والصفة اذا كانت منفية بلا وجب تكرارها، فلا يجوز أن تقول : مررت برجل لا كريم وتسكت ، بل لا بد أن تعطف عليه ولا شجاع ، وما أشبه ، وعوان خبر لمبتدأ محذوف ، أي هي عوان ، وفاقع صفة للبقرة ، ولونها فاعل لفاقع .

ملخص القصة :

ان هذه الآيات الكريمة يتوقف فهمها على معرفة الحادثة التي نزلت الآيات من أجلها ، وخلاصة هذه الحادثة :

ان شيخاً غنياً من بني اسرائيل قتله بنو عمه طمعاً في ميراثه ، ثم ادعى القتلة على أناس أبرياء انهم قتلوه ، وطالبوهم بديته ، ليدفعوا عنهم تهمة القتل ، فوقع الاختلاف بينهم والشجار ، فترافعوا الى موسى (ع) ، وحيث لا بينة تكشف عن الواقع سألوا موسى – كالمعتاد – أن يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل ، فأوحى الله اليه أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القتيل ببعضها ، فيحيا ، ويخبر بقاتله ، وبعد أخذ ورد ، وان الأمر : هل هو هزل أو جد ، وبعد السؤال عن أوصاف البقرة أولاً وثانياً وثالثاً فعلوا ، وعاد القتيل الى الحياة وأخبر بما كان .

المعنى :

(قالوا أتتخذنا هزواً) . أي نسألك عن أمر القتيل ، فتأمرنا بذبح البقرة؟ ان هذا هزؤ ، وليس بجد .

(قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . أي اني لا استعمل الهزؤ والسخرية في غير التبليغ عن الله ، فكيف في التبليغ عنه جلت كلمته ؟

وكان يجزيهم أن يذبحوا بقرة أية بقرة ، لأن المأمور به بقرة مطلقة والاطلاق يفيد الشمول ، ولكنهم (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) . قال : هي من حيث السن وسط ، لا بالكبيرة ، ولا بالصغيرة ، فاذهبوا ، وامتثلوا ولا تتوانوا في ذبحها .

ولكنهم عادوا ثانية الى التنطع والسؤال (وقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) .

قال : هي صفراء .. ولكنهم زادوا في الالحاف ، واعادة السؤال ثالثاً ، لأن البقر في هذا اللون والسن كثير .. قال : هي سائمة لا عاملة ، وسالمة لا معيبة .. فطلبوها حتى وجدوها ، وذبحوها ، وضربوا الميت ببعضها ، فعاد الى الحياة ، وانكشف السر بعد أن أخبر عن قاتله .

(كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) . أي ان احياءنا لهذا القتيل شاهد عيان ، وبرهان حسي على البعث بعد الموت ، لأن من قدر على

احياء نفس واحدة قدر على احياء الأنفس كلها ، لعدم الاختصاص ، فهل بعد هذا الشاهد الحسي العياني تنكرون وتشككون وتعصون ؟.. أجل برغم ذلك وغير ذلك قست قلوبهم ، بل كانت أشد قساوة وصلابة من الحجارة ، كما نطقت الآية التالية .

وبعد الذي بيناه في تفسير قوله تعالى واذ أخذنا ميثاقكم ، في فقرة : « لا قياس على اليهود » لا يبقى أي مجال للتساؤل : لماذا لم يحي الله القتيل ابتداء ، وهو القادر على كل شيء ؟ وكيف يحيا الميت اذا ضرب بجزء البقرة ؟ ولماذا كانت هذه البقرة دون غيرها ؟ ثم ما هي الفائدة من ضرب المقتول ببعضها ؟. كل هذه التساؤلات ، وما اليها لا تتجه بحال بعد أن أثبتنا ان الله عامل اولئك الاسرائيليين معاملة خاصة دون الناس أجمعين ، وانه من هذه الجهة فضلهم على الناس أجمعين .

ثم قست قلوبكم الآية ٧٤ :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ★

الإعراب :

أو هنا للتقسيم ، أي ان بعض قلوبهم كالحجارة ، وبعضها أشد قسوة منها ، وأشد خبر مبتدأ محذوف ، وقسوة تمييز ، والضمير في (منه) يعود الى (ما) ، وفي (منها) يعود الى الحجارة .

المعنى :

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) . أي كان الواجب على أسلافكم – يا يهود المدينة – أن يعتبروا ، وتلين قلوبهم بعد أن شاهدوا ما شاهدوا من الخوارق والمعجزات ، ومنها احياء القتيل .. ولكنهم لخبثهم فعلوا عكس ما تستدعيه هذه الخوارق ، فأفسدوا وقست قلوبهم ، حتى كأنها قُدّت من صخر ، بل ان بعضها أشد قساوة وصلابة ، ذلك : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء » .

وتسأل : ان الأنهار ماء ما في ذلك ريب ، فكيف صح تقسيم الماء إلى أنهار وماء ؟ وهل هذا الا كتقسيم البناء الى بيت وبناء ؟.

الجواب : ان الآية الكريمة قسمت الماء الى قسمين : كثير ، وهو الأنهار ، وقليل وهو العيون والآبار ، وقد عبرت عن هذا القسم القليل بلفظ الماء .. ولذا اسندت التفجير الى الكثير ، لأنه يشعر بالكثرة ، والتشقق الى الماء ، لأنه يشعر بالقلة .

ومهما يكن ، فان الغرض ان الله سبحانه قد فضل الصخور والحجارة بشتى أقسامها وأنواعها على قلوب اليهود ، لأن الصخر قد يتصدع ، فيخرج منه الماء ، وان الحجر قد يتخلخل ويتحرك عن موضعه ، أما قلوب اليهود فانها لا تندى بخير ، ولا يحركها جمال ، ولا تتجه الى هداية .

وتسأل : ان الحجارة لا حياة فيها ولا ادراك ، حتى تخشى الله ، فما الوجه في قوله تعالى : (وان منها لما يهبط من خشية الله) ؟

وقد أجيب على ذلك بأجوبة كثيرة ، أقربها جوابان : الأول ، ان هذا مبني على الافتراض ، أي لو كان في الحجارة فهم وعقل كاليهود لهبطت من خشية الله . ومثل هذا كثير في كلام العرب .

الجواب الثاني : ان الحجارة من شأنها أن تخشع وتخضع لله الذي تنتهي اليه جميع الأسباب الطبيعية وغيرها ، قال تعالى : « تسبح له السموات والأرض ومن فيهن وانْ من شيء إلا يسبح بحمده – الاسراء ٤٥ » . ويأتي التوضيح حين نصل الى هذه الآية ان شاء الله .

اختلاف الأمزجة :

قد يسأل سائل : هل في داخل الانسان قوة تحركه ، وتتدخل في شؤونه ، أو ان المحرك الأول له هي الأحداث الخارجية وأشباؤها ، وان كان من باعث داخلي فان هذا الباعث ينبع ويتولد من الخارج ، بحيث يكون الداخل فرعاً ، والخارج أصلاً ، أو ان كلاً منهما أصل في نفسه ، ومستقل عن غيره ، وان الانسان يتحرك تارة بدافع من هذا ، وأخرى بدافع من ذاك ، وحيناً بدافع منهما معاً .. وعلى افتراض ان في داخل الانسان قوة تحركه وتبعثه مستقلة عن غيرها ، فهل يشترك جميع أفراد الانسان في هذه القوى الروحية ، بحيث لا يتباين فيها فرد عن فرد ، أو ان لكل فرد مزاجاً خاصاً ، وقوى لا يشاركه فيها أحد سواه ؟.

والجواب عن السؤال الأول ان الانسان انما يكون انساناً بغرائزه وقواه الروحية، ولو جردناه منها ، أو سلبنا عنها العمل والتأثير لكان الانسان مجرد هيكل من ورق ، أو ريشة في مهب الريح .. أجل،ان القوى الداخلية تتفاعل مع التيارات والأحداث الخارجية ، فتؤثر فيها ، وتتأثر بها ، ولكن التفاعل شيء،والاستقلال في التأثير شيء آخر — مثلاً — ان غريزة التطلع والتشوف تخلق مع الانسان ، ومن هنا كان الطفل سؤولاً بفطرته،بل ان هذه الغريزة من خصائص الانسان .. ثم تنضج وتنمو هذه الغريزة برؤية الأحداث الخارجية ، وبالبحث والاكتشاف ، وبنموها ونضوجها يستطيع الانسان أن يؤثر في الأشياء الخارجية، ويطورها حسب حاجاته وأغراضه ، مع العلم بأنها مستقلة في وجودها عن الوعي والادراك .. فمحركات الانسان — اذن — تنبع من الداخل والخارج ، أي من نفسه ، ومن الأحداث .

وهناك قسم ثالث اكتشفته من تجاربي الخاصة ، واطلق عليه اسم « التوفيق الى الخير والفلاح » .. وهذا القسم لا ينبع من النفس ولا من الأحداث ، بل من قوة خفية ، وطاقة خيرة لا حد لها تكمن في عالم المجهول ، ولكنها تمهد سبيل الخير الى بعض الأفراد ، وتتدخل مباشرة في توجيههم الى ما يرضي الله سبحانه ، من حيث لا يشعرون ..

وطبيعي ان لا يوافقني على هذا الا من يؤمن بالله وحكمته ، ويقدّره حق قدره ، وأعترف بأنه ليس لدي ضابط عام لهذا القسم ، لأني اهتديت اليه – كما قدمت – من تجاربي الخاصة [1] .

أما الجواب عن السؤال الثاني، وان الناس هل يشتركون في الغرائز والصفات النفسية....أما الجواب عن هذا السؤال فانه يستدعي التفصيل،فان من الصفات النفسية ما يتحقق فيه المشاركة ، كالوجدان والإدراك الذي نميز به بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وبين القبح والجمال .. ولولا هذه المشاركة لما امكن بحال اثبات الفضيلة والرذيلة ، ولا جاز لنا أن نذم أو نمدح أحداً على فعلٍ أو ترك، أو نُلزم جاحداً بحجة على الاطلاق .. وكذلك غريزة حب الذات ، وعاطفة الأبوة والبنوة ، وما اليها فانها مشاع بين الجميع ، وان تفاوتت شدة وضعفاً .

ومن الصفات النفسية ما يختلف أفراد الانسان باختلافها ، كالشجاعة والجبن، والكرم والشح ، والقساوة واللين ، وضعف الارادة وقوتها ، والميل الى الخير ، أو الشر ، فان الناس في هذه الصفات وما اليها متفاوتون متباينون ، فما كل انسان بكريم ، أو بخيل ، أو جبان ، أو شرير ..

وتسأل : ان قولك يخالف الشائع الذائع « ما من شخص إلا وفيه جانبان حسن وغير حسن » وقد ركزت قولك على جانب واحد ، وأغمضت الطرف عن الجانب الآخر ؟.

الجواب : ان نفحة الخير التي نراها بعض الحين من الشرير انما جاءت فلتة، ومن غير تصميم سابق .. على ان هذه القضية،وهي « ما من شخص إلا وفيه جانبان » انما تصح في حق غير اليهود ، أما في حق اليهود فلا .. لأن كل ما فيهم سيء وقبيح،ولا جانب فيهم للحسن اطلاقاً .. والدليل على ذلك توراتهم

---

[1] من غرائب الصدف اني بعد أن كتبت هذه الكلمات قرأت ان القائد العسكري الانكليزي الشهير منتجمري ، وصف نفسه بقوله « انه جندي صغير تحت قيادة قوة جبارة ، وانه لم ينتصر في المعركة ، وانما شاءت الاقدار أن ينتصر ، وانه بغير الايمان بهذه القوة العاقلة الكبرى لا يمكن ان ينتصر في أي ميدان » يشير إلى انتصاره في معركة العلمين الشهيرة الفاصلة في الحرب العالمية الثانية .. فهو يؤمن بأن القوة الخفية ، مهدت له سبيل النصر على روميل الذي كان يسمى ثعلب الصحراء ، وهو أعظم القادة العسكريين اطلاقاً آنذاك .

والقرآن الكريم ، والتاريخ الصحيح ، وعملهم في فلسطين ، وغير فلسطين الذي دل دلالة واضحة على ان الدين والأخلاق ، وجميع العلاقات البشريــة عندهم ان هي إلا عملية تجارية ، ومنافع شخصية .. وسنعود الى هــذا الموضوع كلما دعت المناسبة .

أفتطمعون أن يؤمنوا الآية ٧٥ :

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★

المعنى :

كل صاحب رسالــة يحرص كل الحرص على أن يؤمن الناس بها ، فيبث الدعوة لها في الأوساط أملاً أن يكثر أتباعها وأنصارها ، ويتحمل في سبيل ذلك المتاعب والمصاعب ، وهكذا فعل رسول الله (ص) وأصحابه .. بثوا الدعوة الى الاسلام في كل وسط رجوا أن يكون لها فيه أتباع وأنصار ، وكان بين الأنصار ويهود المدينة علاقة جوار ورضاعة وتجارة ، فدعوهم الى الاسلام بأمر النبي ، وناظروهم بالحجة الدامغة ، والمنطق السليم ، وطمعوا أن تتحرك فيهم العاطفــة الانسانية ، بخاصة وانهم أهل كتاب ، وبوجه أخص ان أوصاف محمــد (ص) قد وردت في توراتهم تصريحاً أو تلميحاً .

ولما أصر اليهود على رفض الدعــوة ، والاستمرار في الكفر ومعاندة الحق خاطب الله نبيه الكريم وأصحابه بقوله : «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم» وقد كان أسلاف هؤلاء اليهــود يسمعون كلام الله من موسى مقترناً بالآيات والمعجزات فيحرفونه ويتأولونه حسب أهوائهم، على علم منهم بالحق ، وتصميم على مخالفته ، وما حال يهــود المدينة إلا كحال أسلافهم .. حرّف السلف ، وجعل الحلال حراماً ، والحرام حلالاً تبعاً لهواه ، وحرف الخلف أوصاف محمد (ص) الواردة في التوراة ، كي لا تقوم عليهم الحجة .

وقال صاحب مجمع البيان: « في هذه الآية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع ، وهو عام في اظهار البدع في الفتيا والقضايا، وجميع أمور الدين » .

ونزيد على قول صاحب المجمع أن في هذه الآية دلالة أيضاً على ان من اتبع الضلال لا يسيء الى نفسه فقط ، بل يمتد أثر اساءته الى الأجيال ، ويتحمل وزر عمله ، وعمل من اتبعه على الغواية والضلالة، كما جاء في الحديث الشريف .

واذا لقوا الذين آمنوا الآية ٧٦ – ٧٧ :

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ★ أَوَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ★

اللغة :

الفتح في الأصل يستعمل للشيء المغلق ، والمراد به هنا الحكم ، يقال : اللهم افتح بيني وبين فلان ، أي احكم بيني وبينه .

الإعراب :

ليحاجوكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام .

المعنى :

كان بعض يهود المدينة ينافقون ويكذبون علي المسلمين ، ويقولون لهم : نحن مؤمنون بالذي آمنتم به ، ونشهد ان محمداً صادق في قوله ، فلقد وجدناه في التوراة بنعته وصفته، واذا خلا هؤلاء المنافقون برؤسائهم أخذ الرؤساء في لومهم وتوبيخهم ، وقالوا لهم فيما قالوا : كيف تحدثون المسلمين بما حكم الله به عليكم

من أتباع محمد ؟.. ألا تفقهون بأن هذا اقرار منكم على أنفسكم بأنكم المبطلون ، وهم المحقون ؟.

(أو لا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) . أي مهما حرص المنافقون على اخفاء نفاقهم،والرؤساء الضالون على توجيه أتباعهم فان الله سبحانه لا تخفى عليه خافية .. فأنتم أيها اليهود تتكتمون في دسائسكم ومؤامراتكم ، والله سبحانه يُعلم بها رسوله الأعظم (ص) ، ويذهب كيدكم هباء .

ومنهم أميون الآية ٧٨ — ٧٩ :

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتابَ إلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ★ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبونَ ٱلْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبونَ ★

اللغة :

الأميُّون واحده أمي ، ومعناه معروف ، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، أما وجه النسبة الى الأم فلأنه في الجهل كما ولدته امه ، والأماني واحدها امنية، ومن معانيها تمني القلب ، وهو أظهرها وأكثرها استعمالاً ، وتستعمل في التلاوة أيضاً ، والمراد بها هنا التخرص بلا دليل ، والذي يؤيد هذا المعنى ويقويه قوله تعالى : « ان هم الا يظنون » والويل معناه الفضيحة والحسرة،والخزي والهوان، ومثله ويح وويس وويب . والأيدي جمع ، واحدها يد،والأيادي جمع الجمع، ويكثر استعمالها في النعم .

الإعراب :

ويل مبتدأ ، وخبره للذين ، ويجوز نصبه على تقدير جعل الله الويل للذين، لأن ويلاً لا فعل له ، قال هذا صاحب تفسير البحر المحيط ، وقال أيضاً : اذا أضفت ويلاً مثل ويل زيد فالنصب أرجح من الرفع ، واذا أفردته مثل ويل لزيد فالرفع أرجح .

المعنى :

(ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب) . أي ان من اليهود جماعة اميين لا يعرفون شيئاً من دين الله ، وان قصارى أمرهم التخرص والظن دون أن يعتمدوا على علم .

وبديهة ان هذا الوصف وان ورد في حق أولئك اليهود ، ولكن الذم عام يشمل كل جاهل يتسم بسمة أهل العلم ، ويتصدى الى ما ليس له بأهل ، لأن المورد لا يخصص الوارد ، كما قيل .

للتفسير اصول وقواعد :

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن تفسير الكتاب والسنة لا يجوز بالتخرص والظن ، بل لا بد قبل كل شيء من العلم بقواعد التفسير وأصوله ، ومراعاة هذه القواعد في بيان مراد الله ورسوله حذراً من الكذب عليهما ، والنسبة اليهما دون مبرر شرعي .

وأول الشروط لصحة التفسير القراءة والكتابة ، ثم العلوم العربية بشتى أقسامها من معرفة مفردات اللغة ، والصرف والنحو ، وعلم البيان ، والفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، والالمام ببعض العلوم الأخرى التي يتصل بها تفسير بعض الآيات، على ان هذه يمكن للمفسر أن يرجع في معرفتها لأهل الاختصاص .

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) . هدد الله سبحانه بهذه الآية كل من ينسب اليه ما ليس من عنده. لا لشيء إلا ليقبض

الثمن من الشيطان،وليس من الضروري أن يكون الثمن مالاً فقط ، فقد يكون جاهاً ، أو غيره من الشهوات والملذات الدنيوية [1] .

وكرر الله سبحانه الويل للمزوّرين ثلاث مرات في آية واحدة ، للتأكيد على ان الافتراء عليه ، وعلى نبيه من أعظم المعاصي وأشدها عقاباً وعذاباً : « ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ، فيُسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى – طه ٦١».

العالم لا يحكم بالواقع :

ونشير بهذه المناسبة الى ان العالم مهما بلغت مكانته من العلم فعليه أن لا ينسب أي شيء الى الله ورسوله على انه هو الواقع المسطور في اللوح المحفوظ ، فاذا أفتى بالتحليل أو التحريم ، أو حكم بشيء على انه حق ، أو فسر آية أو رواية، فعليه اذا فعل شيئاً من ذلك أن يفعله بتحفظ ملتفتاً الى أن حكمه ، أو فتواه ، أو تفسيره ما هو إلا مجرد رأي ونظر يخطىء ويصيب ، لا صورة طبق الأصل عن الواقع ، وبهذا وحده يعذر عند الله إذا اجتهد وأفرغ الوسع ، أما اذا قصر في الاجتهاد والبحث ، أو بحث ونقب ولم يقصر ولكنه جزم بأن قوله هو قول الله ورسوله بالذات دون سواه ، أما هذا فشأنه شأن الذين يفترون على الله الكذب ، حتى ولو كان أعلم العلماء ، لأن العالم لا يفتي ولا يحكم بالحق واقعاً، بل بما يعتقد انه الحق ، وهذا يحتمه مبدأ عدم العصمة .

وقالوا لن تمسنا النار الآية ٨٠ – ٨٢ :

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً

---

[1] أثبت أهل الاختصاص بتاريخ اللغات والعادات ان التوراة الحالية التي يعتقد اليهود انها نزلت من الله على موسى ، أثبتوا انها الفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير ، واستخرج الباحثون هذه الحقيقة من ملاحظة اللغات والأساليب ومن الاحكام والموضوعات ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس في التوراة ، ولا تمت إلى عصر موسى بسبب ، وسنحاول العودة ثانية إلى هذا الموضوع بصورة أوسع ان شاء الله .

فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لَا تَعْلَمُونَ ★ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★

اللغة :

المس واللمس والجس اللفظ متعدد . والمعنى واحد ، ويستعمل اللمس كثيراً فيما يكون معه احساس بالحرارة والبرودة وما اليها .

الإعراب :

بلى حرف جواب لاثبات ما بعد النفي ، يقال : ما فعلت كذا ؟ فتجيب : بلى ، أي فعلت . ونعم جواب الايجاب ، يقال : فعلت كذا ؟ فتجيب : نعم ، أي فعلت .

المعنى :

(وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة) . يزعم اليهود انهم أبناء الله ، وشعبه المختار ، وان الناس ، كل الناس – غيرهم – أبناء الشيطان ، وشعبه المنبوذ ، فالله لا يخلد اليهود في النار ، ولا يقسو عليهم ، بل يعذبهم عذاباً خفيفاً ، ووقتاً قصيراً ، ثم يرضى عنهم ، اي انه سبحانه يدللهم ، تماماً كما يدلل اليوم الاستعمار عصابة الصهاينة التي احتلت أرض فلسطين .

(قل اتخذتم عند الله عهداً) . أي قل لهم يا محمد : ان زعمكم هذا جرأة وافتئات على الله بغير علم .. والا فأين العهد والوعد الذي أخذتموه من الله سبحانه على ذلك ؟ وان دل زعمهم هذا على شيء فانما يدل على استهتارهم واستخفافهم

بالذنوب وارتكاب القبائح ، قال الرسول الأعظم (ص) : ان المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه ، وان الكافر ليرى ذنبه كأنه ذباب مرّ على أنفه .. وقال علي أمير المؤمنين (ع) : أشد الذنوب ما استهان بـه صاحبه ، وقول الرسول الأعظم (ص) : « كأن الذنب ذبابة تمـر على أنف المذنب » ينطبق كل الانطباق على اليهود الذين يزعمون انهم أبناء الله المدللون .. وعسى ان يتعظ بهذا من يستهين بذنوبه اتكالاً على شرف الأنساب .

ومن يثق بنفسه ، ولا يتحسس خطاياها ، ولا يقبل النصح من غيره محال أن يهتدي الى خير . ان العاقل لا ينظر الى نفسه من خلال غرورها وأوهامها، بل يقف منها دائماً موقف الناقد لعيوبها وانحرافها ، ويميز بين ما هي عليه ، وبين ما ينبغي أن تكون عليه،ويحررها من الأفكار الصبيانية،والنزوات الشيطانية، وبهذا وحده ينطبق عليه اسم الانسان بمعناه الواقعي الصحيح .. وفي الحديث الشريف من رأى انه مسيء فهو محسن .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). السيئة تعم الشرك وغيره من الذنوب ، ولكن المراد منها هنا خصوص الشرك ، بقرينة قوله تعالى : « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . قال صاحب مجمع البيان : ان ارادة الشرك من السيئة يوافق مذهبنا ــ أي مذهب الامامية ــ لأن غيره لا يوجب الخلود في النار ، والتوضيح في فقرة « مرتكب الكبيرة » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . وتدل هذه الآية الكريمة على ان النجاء من عذاب الله غداً منوط بالايمان الصحيح، والعمل الصالح معاً ، وقد جاء في الحديث الشريف : ان سفيان الثقفي قال : يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . فقال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم .

يشير الرسول الأعظم (ص) بقوله هذا الى الآية ٣٠ حم السجـدة : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعـدون » . والمراد بالاستقامة في الحديث الشريف والآية الكريمة ، العمل بكتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) .

المسلم والمؤمن :

ينقسم المسلم بالنظر الى معاملته ، وترتب الآثار على اسلامه الى قسمين :

الأول : أن يقر لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة بغَضّ النظر عن اعتقاده وأعماله .. أجل ، يشترط فيه أن لا ينكر ما ثبت بضرورة الدين ، كوجوب الصلاة ، وتحريم الزنا والخمر ، وهذا المقر المعترف له عند المسلمين ما لهم ، وعليه ما عليهم ، من حيث الارث والزواج والطهارة وواجبات الميت ، كتغسيله ، وتحنيطه ، وتكفينه والصلاة عليه ، ودفنه في مقابر المسلمين ، لأن هذه الآثار تلحق نفس الاقرار بالشهادتين ، وتترتب على مجرد اظهار الاسلام ، سواء أوافق الواقع ، أو لم يوافقه .

الثاني : أن يؤمن ويلتزم بالاسلام أصولاً وفروعاً ، فلا يجحد أصلاً من أصول العقيدة الاسلامية ، ولا يعصي حكماً من أحكام شريعتها ، وهذا هو المسلم حقاً وواقعاً عند الله والناس ، بل هو المسلم العادل الذي تترتب عليه جميع آثار العدالة الاسلامية في الدنيا والآخرة ، ومن الآثار الدنيوية قبول شهادته ، وجواز الائتمام به في الصلاة ، ونفوذ حكمه ، وتقليد الجاهل له في الأحكام الشرعية ، ان كان مجتهداً ، أما الآثار الاخروية فعلو المنزلة والثواب .

أمـــا المؤمن فهو من أقر بلسانه وصدق بجنانه الشهادتين ، ولا يكفي مجرد الاقرار باللسان ، ولا مجرد التصديق بالجنان ، بل لا بد منهما معاً ، وعليه يكون كل مؤمن مسلماً ، ولا عكس .

وبهذا يتبين معنا ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان ومفهومـــه بدليل ان الله سبحانه عطف الذين عملوا الصالحات على الذين آمنوا ، والعطف يستدعي التعدد والتغاير .. أجل ، ان العمل الصالح يدخل في مفهوم العدالة كما أشرنا ، ويأتي الكلام عنها حين تستدعي المناسبة .

وتجمل الاشارة الى ان فقهاء الإمامية يطلقون في كتب الفقه لفظ المؤمن على خصوص الاثني عشري ، فاذا قالوا : تُعطى الزكاة للمؤمن ، ويُقتـــدى في الصلاة بالمؤمن ، وما الى هذا فانهم يريدون بالمؤمن الاثني عشري فقط ، وهذا اصطلاح خاص بالفقهاء وحدهم ، حتّى الفقيه الإمامي نفسه اذا تكلم عن المؤمن

في غير المسائل الفقهية فانما يريد كل من أقر وصدق بالشهادتين ، حتى ولو لم يكن اثني عشرياً .

وعلى أية حال ، فان كلاً من الاسلام والايمان بالمعنى الذي بيناه لا يستلزم حتماً النجاة من عذاب الله غداً ، بل لا بد معه من الاستقامة التي هي العمل بكتاب الله ، وسنة نبيه (ص) .

مرتكب الكبيرة :

قسّم الفقهاء الذنوب الى كبائر ، كشرب الخمر ، وصغائر كالجلوس على مائدة الخمر دون الشرب ، ويأتي تحديد الكبيرة والصغيرة مفصلاً ان شاء الله عند تفسير الآية ٣٢ من سورة النجم : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللمم »[1] .

واختلف أهل القبلة فيمن أقر بالشهادتين ، وأتى بالكبيرة : هل هو كافر يخلد في النار ، أو انه مؤمن فاسق يعاقب على الذنب بما يستحق ، ثم يدخل الجنة ؟.

ذهب الخوارج الى الأول ، وقال الإمامية والأشاعرة وأكثر الأصحاب والتابعين بالثاني ، وأحدث المعتزلة قولاً ثالثاً ، وأثبتوا المنزلة بين المنزلتين ، أي لا هو بالكافر ، ولا بالمؤمن .

واستدل العلامة الحلي في شرح التجريد على صحة القول بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق لا يخلد في النار ، استدل « بأنه لو خلد هذا في النار للزم أن يكون مَنْ عَبَدَ الله مدة عمره ثم عصى آخر عمره معصية واحدة ، مع بقائه على ايمانه ، لزم أن يكون هذا مخلداً في النار ، تماماً كمن أشرك بالله مدة عمره ، وذلك محال لقبحه عند العقلاء » .

وليس من شك ان سيئة واحدة لا تحبط جميع الحسنات ، بل العكس هو الصحيح ، لقوله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين — هود ١١٥ » .. وعلى الأقل أن يكون كل شيء بحسابه .

---

١ هذه الآية الكريمة تصلح رداً على من قال : ليس في الذنوب كبائر وصغائر ، بل كلها كبائر ، ووجه الرد ان لفظ اللمم معناه القلة ، يقال : ألم بالطعام إذا أكل منه قليلا .

ومن أجل هذا يجب حمل السيئة على الشرك في قوله سبحانـــه : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . كما ان هذه الآية التي جاءت بعدها ، وهي (والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . ان هذه الآية تدل على ان مرتكب الكبيرة يدخل الجنة ، ولا يخلد في النار ، لأنها تعم من آمن وعمل صالحاً، ثم أتى بعد ذلك بالكبيرة ولم يتب .

أيضاً اليهود :

ان زعم اليهود بأنهم أبناء الله ، وشعبه المختار مبعثه ان الدين والأخلاق في عقيدتهم عملية تجارية ، ومنافع شخصية ، وكل ما عداها هراء وهباء .

وتقول : ان هذا لا يختص باليهود ، بل أكثر الناس على ذلك ؟.

الجواب : أجل ، ولكن الفرق ان اليهود يحقدون على البشرية جمعاء ، وان هدفهم النهائي هو ابادة الناس ، كل الناس غيرهم .

واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل الآية ٨٣ :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ★

اللغة :

اليتيم من الناس من مات أبوه الى أن يبلغ الحلم ، وعن الأصمعي ان اليتيم من الحيوان من لا ام له ، ومن الانسان من لا أب له .

الإعراب :

لا تعبدون انشاء في صيغة الخبر ، أي لا تعبدوا ، وقد يأتي الأمر بصيغة الخبر أيضاً ، مثل : تؤمنون بالله ، أي آمنوا بالله ، قال صاحب المجمع : ويؤكد ذلك انه عطف عليه بالأمر ، وهو قوله : وبالوالدين احساناً،أي احسنوا بالوالدين احساناً ، وقوله : واقيموا الصلاة . وتتضمن هذه الآية أموراً :

١ – البر بالوالدين :

ان الله سبحانه قرن شكر الوالدين بشكره ، وأوجب البر بهما ، والاحسان اليهما ، تماماً كما أوجب التعبد له ، ومن هنا أجمع الفقهاء قولاً واحداً على ان عقوق الوالدين من أعظم الكبائر ، وان العاق بهما فاسق لا تقبل له شهادة ، وفي الحديث الشريف : « ان العاق بوالديه لا يجد ريح الجنة » ، والمراد بالاحسان للوالدين طاعتهما ، والرفق بهما قولاً وعملاً .

حكي ان امرأة حملت أباها من اليمن الى مكة على ظهرها ، وطافت في البيت العتيق ، فقال لها قائل : جزاك الله خيراً ، فلقد وفيت بحقه . فقالت : كلا، ما أنصفته ، لقد كان يحملني ، وهو يود حياتي ، وأنا أحمله الآن،وأود موته .

٢ – القربى واليتامى والمساكين :

لقد أوجبت الآية صلة الرحم،لصلته بالوالدين ، كما أوجبت الحرص والمحافظة على اليتيم وأمواله على من كان ولياً أو وصياً عليه ، وأيضاً أوجبت للفقير نصيباً في أموال الأغنياء .

٣ – أصل الصحة :

إذا صدر من الانسان عمل من الأعمال ، أو قول من الأقوال يمكن حمله على

وجه صحيح ، وعلى وجه فاسد ، فهل يحمل على الصحة ، أو على الفساد ، أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيء إلا بدليل قاطع ، ومثال ذلك أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدري : هل هي زوجته أو أجنبية عنه ، أو تسمع كلاماً ، وأنت لا تدري : هل أراد به المتكلم النيل منك ، أو لم يرد ذلك ؟ وقد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك وأمثاله ، واستدلوا فيما استدلوا بقوله تعالى : « وقولوا للناس حسناً » وبقول علي أمير المؤمنين : ضع أمر أخيك على أحسنه .. وبقول الإمام جعفر الصادق : كذّب سمعك وبصرك عن أخيك ، فان شهد عندك خمسون قامة انه قال،وقال هو لك : اني لم أقل ، فصدقه وكذبهم .

وهذا مبدأ انساني بحت ، لأنه يكرس كرامة الانسان ، ويؤكد علاقة التعاون والتعاطف بين الناس ، ويبتعد بهم عما يثير الكراهية والنفور .. وبهذا يتبين ان الاسلام لا يقتصر على العقيدة والعبادة ، وانه يهتم بالانسانية وخيرها ، ويرسم لها الطرق التي تؤدي بها الى الحياة المثمرة الناجحة .

ولكن الذين باعوا دينهم للشيطان استغلوا هذا المبدأ الانساني ، وانحرفوا به عن هدفه النبيل ، وبرروا به أعمال القراصنة والمرابين .. وبديهة – كما أشرنا – ان مبدأ الحمل على الصحة لا ينطبق على أعمال السلب والنهب ، والاحتيال والتضليل ، وما الى ذلك مما نعلم علم اليقين انه من المحرمات والموبقات .. وانما ينطبق على ما نحتمل فيه الصدق والكذب ، والصحة والفساد .

لا تسفكون دماءكم الآية ٨٤ – ٨٦ :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ★ ثُمَّ أَنْتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ★ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ★

اللغة :

التظاهر التعاون ، وفداء الأسير دفع العوض بدلاً عن اطلاقه .

الاعراب :

لا تسفكون انشاء بصيغة الخبر ، مثل لا تعبدون في الآية السابقة ، وأنتم مبتدأ ، وجملة تقتلون خبر ، وهؤلاء منادى ، ويجوز أن تكون تأكيداً لأنتم ، كأنه قال : أنتم أنتم ، كما تقول : أنت أنت مؤكداً بأنه لا أحد سواه .

تمهيد :

لم ينته الحديث عن اليهود ومشاكلهم،والآتي كثير .. والصورة التي نستخلصها لليهود من آيات القرآن انهم يضاعفون النشاط لنشر الفساد في الأرض ، ويتمادون في الغي كلما دعاهم داع الى الهداية والاستقامة ، حتى كأنهم فطروا على معصية الله ، ومخالفة الحق .. تأمرهم توراتهم بعبادة الله ، فيعبدون العجل ، ويقول لهم موسى : هذه التوراة من عند الله ، فيقولون له : أرنا الله جهرة .. ويقول لهم : اذكروا نعمة الله عليكم ، واسألوه العفو والصفح ، فيسخرون ويهزؤون .. وإذا كان هذا شأنهم مع موسى الكليم (ع) ، وهو من بني اسرائيل فكيف يكون حالهم مع غيره ؟ لقد طردهم الملك أدوار الأول من انكلترا ؛ ونكل بهم هتلر في المانيا بعد الاختبار والعلم بحقيقتهم ، وانهم مستحقون لأكثر من ذلك ،

وأشرنا فيما سبق إلى ما فعل بهم فرعون وبختنصر والرومان .

وعلى أية حال ، فان من جملة المواثيق التي أخذها الله على اليهود في التوراة أن لا يقتلوا أنفسهم ، أي لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرجوا أحداً من دياره، واليهود لا ينكرون هذه المواثيق،بل ليس في وسعهم أن ينكروها ، لأنها موجودة في التوراة التي يؤمنون بصدقها ، وبأنها وحي من الله .. ومع ذلك خالفوها عن عمد وتصميم ، فقامت الحجة عليهم ، وناقضوا أنفسهم .. وبهذا التمهيد يتضح المراد من الآيات :

المعنى :

(واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) . عاد سبحانه الى بني اسرائيل،يذكرهم بالعهود والمواثيق التي قطعت على لسان موسى والأنبياء من بعده ، ومن هذه المواثيق ان لا يريق بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم .. وقوله تعالى دماءكم وديارکم تماماً كقوله : اذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ، أي ليسلم بعضكم على بعض .

(ثم أقررتم وأنتم تشهدون) . أي أقررتم بالميثاق ، وشهدتم بأنفسكم على أنفسكم .

وتسأل : ان الاقرار والشهادة على النفس شيء واحد ، فكيف صح عطف الشيء على نفسه ؟.

الجواب : يجوز من باب التأكيد، وأيضاً يجوز أن يكون المراد بالاقرار اقرار السلف من اليهود،وبالشهادة شهادة الخلف بأن السلف قد أقر ، واعترف بالميثاق .

(ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) أي انسكم بعد أن أقررتم بالميثاق نقضتموه ، وقتل القوي منكم الضعيف ، وأخرجه من دياره .

(تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) . أي تتظاهرون ، والتظاهر هو التعاون، وتشير الآية الى انقسام اليهود ، وتعاون كل فريق منهم مع العرب ضد الفريق الآخر من اليهود .. وملخص الحكاية :

ان الأوس والخزرج عشيرتان عربيتان تنتميان الى أصل واحد ، لأن الأوس والخزرج اخوان ، وكان بين هاتين العشيرتين عداء وقتال قبل الاسلام ، وكانوا من أهل الشرك لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً .

وأيضاً كان اليهود ينقسمون الى ثلاث عشائر : بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ، وكان بينهم عداء وقتال ، كما كان بين الأوس والخزرج رغم ان هؤلاء اليهود ينتمون الى أصل واحد ، ودينهم واحد .. وكانوا جميعاً ، أي العشائر الثلاث اليهودية والأوس والخزرج ، من سكان المدينة .. وكان فريق من اليهود ، وهم بنو قينقاع، يتعاونون مع الأوس ضد بني النضير وقريظة مع انهم اخوانهم في الدين ، كما ان بني النضير وبني قريظة تعاونوا مع الخزرج ضد بني قينقاع .. فكان كل فريق من اليهود يتعاون مع كل فريق من العرب ضد بعضهم البعض ، وكان اليهودي إذا دارت رحى الحرب يقتل أخاه اليهودي ، ويخرجه من دياره إذا تمكن من ذلك .. ولكن اذا أسر العرب بعض اليهود فدى الأسرى اليهود الآخرون من العرب ، مع العلم بأن الذين دفعوا فدية اليهود الأسرى كانوا يحاربون هؤلاء الأسرى مع العرب .. وهذا عين التناقض ..

واختصاراً ان اليهودي لا يرى مانعاً أن يقتل يهودياً مثله ، بل ويتعاون مع العرب على قتله ، ولكن اذا أسر العرب يهودياً تحركت عاطفة اليهودي الآخر ، ودفع فدية للآسر ، وفك الأسير ، وهو من ألد أعدائه .. فاليهودي يحل قتل أخيه اليهودي ، وتشريده ، ولكنه يحرم أسره .. وكان اليهود يعتذرون عن هذا التهافت بأن التوراة أمرتهم بفداء أسرى اليهود إذا أسروا ، فرد الله عليهم بأن التوراة أيضاً أمرتهم بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرجه من دياره ، فكيف عصيتم التوراة في القتل ، واطعتموها بالفداء من الأسر ؟.

وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . والذي كفروا به هو النهي عن القتل ، والتظاهر بالأثم والعدوان ، والاخراج من الديار ، والذي آمنوا به هو الفداء من الأسر .. وهذا عين اللعب والاستهزاء بالدين .

وتسأل : ان المحرم عليهم هو القتل والتظاهر والاخراج ، فلماذا ذكر الله سبحانه خصوص الاخراج في هذه الآية ؟.

الجواب : أجل ، انها جميعاً محرمة ، ولكن الله خص الاخراج بالذكر ثانية لتأكيد التحريم لأن شر الاخراج من الديار يطول ويمتد بخلاف القتل على حد تعبير بعض المفسرين .

(فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا) . يطلق الجزاء على الخير والشر ، ومن الأول قوله تعالى : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً» . ومن الثاني : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » .. والخزي الفضيحة والعقوبة .

(اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب وهم لا ينصرون) . ان الله سبحانه لم يحرم بهذه الآية ولا بغيرها الطعام الطيب ، واللباس الفاخر ، وانما هدد من باع دينه بدنياه ، وعاش على البغي والاستغلال.. ان الله ينهى عن الفساد في الأرض ، ولا ينهى عن زينة الحياة ونعيمها .. بل انه جل وعز أنكر أشد الانكار على من حرم التنعم والتلذذ في هذه الحياة : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا » . أي انها حلال لمن اكتسبها من حل ، وحرام لمن ابتغاها عوجاً من السلب والنهب ، والغش والاحتيال .

واختصاراً ان المبدأ الاسلامي القرآني هو ان يعيش الناس، كل الناس، متعاونين على ما فيه سعادة الجميع ، أما المبدأ الصهيوني الاستعماري فهو « ما دمت أعيش أنا فليهلك العالم » .. وكل من سار على هذا المبدأ فهو صهيوني لعين ، شعر بذلك أو لم يشعر ، ولا بد أن تلاحقه عدالة السماء والأرض ، وتنزل به النكال والوبال .

اليهود والشيوعية والرأسمالية :

يظهر من آيات الذكر الحكيم ان انقسام اليهود الى فريقين ، وانضمام كل فريق الى حلف خطة قديمة وموروثة عن الآباء والأجداد ، ليزيدوا النار تأججاً من جهة ، ويضمنوا مصالحهم من جهة ثانية ، كما ان تقلبهم بين الخصمين من خططهم التاريخية، وعاداتهم التقليدية .. فقبل نصف قرن كانوا من دعاة الشيوعية، وهم اليوم يمالئون الرأسمالية ، ولا هدف لهم إلا تقسيم العالم ، واثارة الحروب

والفن ، لتنفيذ سياستهم الجهنمية ، ونجاحهم في امتصاص دماء الشعوب .

ولقد آتينا موسى الكتاب الآية ٨٧ – ٨٨ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ★ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ★

اللغة :

قفينا أصله من القفا ، يقال : قفوت فلانا إذا صرت خلف قفاه ، والمراد به هنا ان الله أرسل الأنبياء الواحد تلو الآخر ، ومريم بالعبرية معناها الخادم ، لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس ، والمراد بالروح القدس جبرائيل ، ويطلق عليه أيضاً الروح الأمين ، وغلف جمع أغلف ، أي عليها غشاوة ، والمراد انهم لا يفقهون .

الإعراب :

قليلاً قائم مقام المفعول المطلق ، أي ايماناً قليلاً يؤمنون ، وجيء بما لمجرد التوكيد .

المعنى :

(ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) . أي أعطينا موسى التوراة ، ثم أرسلنا من بعده رسولاً بعد رسول .. وقيل : لم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر انبياء بني اسرائيل الا وكان فيه نبي مرسل،أو انبياء متعددون

يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وفي تفسير الرازي ، وأبي حيان الأندلسي ان من هؤلاء الرسل : يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشيعاء وارمياء وعزير وحزقيل واليسع ويونس وزكريا ويحيى .

(وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) . عيسى (ع) هو آخر أنبياء بني اسرائيل ، وبينه وبين موسى حوالى أربعة عشر قرناً .. والمراد بالبينات الدلائل والمعجزات التي دلت على صدقه ونبوته ، أما روح القدس فقد ذهب جمهور المفسرين الى انه جبرائيل ، ونميل نحن اذا لم يوجد نص على التعين ، نميل الى ان المراد به الروح المقدسة ، وان الله سبحانه قد وهب عيسى روحاً نقية قوية أهلته للرسالة الإلهية ، والتوسط بين الله وعباده ، وقيادتهم في طريق الخير والهداية .

(أفكلما جاء رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم) . الخطاب عام لجميع اليهود ، لأنهم أمة واحدة ، وعلى طبع واحد ، ولأن من رضي عن الظالم فقد شاركه في ظلمه .

(ففريقاً كذبتم) كعيسى ومحمد (ص) . (وفريقاً تقتلون) كزكريا ويحيى .. (وقالوا قلوبنا غلف) . أي قال اليهود للنبي : ان على قلوبنا غلافاً يمنعها من تفهم دعوتك والاستماع اليها ، فهو تماماً كهذه الآية : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعوننا اليه وفي آذاننا وقر » ..

جاء في بعض الروايات : « الحكمة ضالة المؤمن » . والمراد بالمؤمن هنا من يؤمن بالحق ، ويطلبه لوجه الحق .. وبديهة ان من كان كذلك يقتنع بمجرد قيام الحجة والدليل ، وعلى العكس من لا يؤمن بالحق ، ولا بالقيم، ولا بشيء إلا بذاته واهوائه وشهواته .. ولا شيء لدى هذا إلا المكابرة والعناد اذا دمغته الحجة ، وافحمه البرهان . وقد يحاول اخفاء عجزه باظهار الاستخفاف وعدم الاكتراث .. ويقول للمحق : لا أفهم ما تقول ، فأنا في شغل شاغل عنك وعن أدلتك ، وهو في قوله هذا كاذب عند الله ، وعند نفسه ، ومستحق للعن والعذاب .

(فقليلاً ما يؤمنون) . أي لم يؤمن من اليهود بمحمد (ص) إلا القليل ، مثل عبدالله بن سلام وأصحابه ، واختار صاحب مجمع البيان ان معنى « قليلاً

ما يؤمنون » انه ما آمن احـد منهم اطلاقاً لا قليلاً ولا كثيراً ، يقال : قلما يفعل ، بمعنى لا يفعل البتة .. والأول أصح ، لقوله تعالى : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً – النساء ١٥٦ » .

المصلح الصادق والمزيف الكاذب :

وينبغي الوقوف قليلاً عند قوله تعالى: أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم الخ.. ان هذه الآية الكريمة كما تضمنت التوبيخ لمن يعصي الرسل ، ويرفض الحق اذا لم يوافق هواه فانها أيضاً تتضمن التوبيخ لمن يتساهل مع النـاس ، ولا يجابههم بكلمة الحق تزلفاً اليهم ، وطمعاً في المكانة عندهم .. ان المصلح الصادق يقول الحق ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، لأن هدفه الأول والأخير هو مرضاة الله وحده ، ومن أجلها يستشهد ويضحي بالنفس ، ويقدم للأجيال مثلاً أعلى في اتباع الحق والجهر به، أما المزيف الكاذب فيستهدف مرضاة الناس لترويج بضاعته عندهم ، قال أمير المؤمنين (ع) : لا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فان في الله خلفاً عن غيره ، وليس من الله خلف في غيره .

ولما جاءهم كتاب الآية ٨٩ – ٩١ :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ★ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ

مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★

اللغة :

يستفتحون أي يستنصرون ، ومعنى اشتروا واضح ، وهو قبول المبيع ، ولكن المراد به هنا الايجاب ، أي باعوا به أنفسهم .

الاعراب :

مصدق صفة كتاب ، وجواب لما الأولى محذوف دل عليه جواب لما الثانية ، وهو كفروا به . بئس للذم ، ونعم للمدح ، واذا كان الاسم بعدهما محلّى بالألف واللام فهو فاعل أبداً ، نحو نعم الرجل زيد ، وبئس الرجل زيد ، وزيد مبتدأ ، خبره جملة بئس الرجل ، أو نعم الرجل . واذا كان ما بعدها نكرة ، مثل نعم رجلاً ، وبئس رجلاً فهو منصوب أبداً على التمييز ، وفاعل نعم وبئس ضمير مستتر يفسره التمييز . وان اتصلت بهما (ما) مثل نعما وبئسما فان كانت (ما) بمعنى الشيء فهي فاعل ، وان كانت بمعنى (شيئاً) فهي تمييز .

وعليه يجوز أن تكون (ما) في بئسما في الآية اسماً موصولاً مرفوعاً على انها فاعل بئس ، وجملة اشتروا صلة ، ويجوز أن تكون (ما) نكرة بمعنى (شيئاً) وجملة اشتروا صفة ، وعلى التقديرين فان المصدر المنسبك من (أن يكفروا) محله الرفع بالابتداء ، وجملة بئسما خبر .. وبغياً مفعول من أجله ، والمصدر من (ان ينزل) منصوب بنزع الخافض ، أي لأن ينزل .

المعنى :

كان يهود المدينة يستنصرون على الأوس والخزرج بمحمد (ص) قبل مبعثه ،

ويقولون لهم : غداً يأتي النبي الذي وجدنا صفاته في التوراة ، ويتغلب على جميع العرب والمشركين ، وكانوا يعتقدون انه اسرائيلي ، لا عربي ، فلما بعث الله محمداً من العرب،لا من شعب اليهود استنكفوا وأخذتهم العنصرية والعصبية ، وجحدوا نبوته ، وأنكروا ما كانوا يقولونه فيه .. فقال لهم بعض الأوس والخزرج : يا معشر اليهود كنتم بالأمس تهددوننا بمحمد (ص) ، ونحن أهل الشرك وتصفونه ، وتذكرون انه المبعوث ، فها نحن آمنا به ، ونكصتم أنتم وتراجعتم ، فما عدا مما بدا ؟. فأجاب اليهود : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم ، فأنزل الله سبحانه :

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) . أي لما جاءهم القرآن كفروا به ، فحذف جواب لما هذه ، وهو كفروا به لدلالة جواب لما الثانية عليه ، والقرآن الذي كفروا به فيه تصديق لما تضمنته توراتهم من التبشير بمحمد (ص) .. فهم في النتيجة يكذبون بذلك من يصدقهم بل يكذبون أنفسهم بأنفسهم،وليس هذا بغريب ولا عجيب على من يتخذ من عاطفته وذاته مقياساً للتحليل والتحريم ، والتصديق والتكذيب .. وكل من يحلل لنفسه ما يحرمه على الغير فهو من هذا النوع ، اللهم اكفنا شر الجهل بأنفسنا .

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) . كان اليهود قبل البعثة يستنصرون وينذرون الأوس والخزرج بمحمد (ص)، فلما جاء انعكست الآية ، فآمن به الأوس والخزرج ، وناصروه على أعدائه ، حتى سموا الأنصار،وكفر به اليهود ، فكان هلاكهم وتشريدهم على يد الأنصار بواسطة محمد ، وهو نفس المصير الذي كانوا يرقبونه وينذرون به الأنصار على يدهم بواسطة محمد (ص) .. وهكذا يحيق المكر السيء بأهله ، وتنزل الويلات على رأس من تمناها لغيره .

وتسأل : ولماذا انقلب اليهود ، وتحولوا من الايمان بمحمد (ص) قبل البعثة الى الكفر به بعدها ؟

الجواب : كانوا يعتقدون أنه يأتي اسرائيلياً من نسل اسحق قياساً على كثرة ما جاء من الأنبياء الاسرائيليين ، فلما رأوه عربياً من نسل اسماعيل أنكروه حسداً وتعصباً للعنصرية اليهودية .. وكل من أنكر الحق تعصباً للعرق أو لغيره فهو تماماً

كهؤلاء اليهود الذين رفضوا الاعتراف بمحمد لا لشيء إلا لأنه عربي[1] .

(بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) . يستعمل القرآن الكريم كثيراً لفظ البيع والشراء والتجارة في العمل الصالح والطالح .. ذلك ان الانسان إذا آمن وعمل صالحاً فكأنه قد دفع الثمن لخلاص نفسه ونجاتها وإذا كفر وانحرف لمنفعة عاجلة فكأنه قـــد باع نفسه للشيطان بأبخس الأثمان .. واشتروا هنا بمعنى باعوا ، أي ان اليهود باعوا أنفسهم للشيطان ، وألقوا بها الى التهلكة ، ولا ثمن لنفوسهم الهالكة إلا الحسد والتعصب للجنسية اليهودية .. ولذا قال سبحانه :

(بغياً أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده) . أي كفروا بمحمد(ص) لا لشيء إلا لأنهم يريدون أن يحصروا الوحي والفضل فيهم وحدهم، ولا يقبلون من الله،ولا من غيره إلا ما يوافق أهواءهم ومنافعهم .. فهم — اذن — يستحقون عقابين وغضبين : عقاباً على كفرهم ، وآخر على أنانيتهم وتعصبهم .

(وإذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله) . أي آمنوا بالوحي من حيث هو وحي بصرف النظر عن شخصية المبلّغ ونسبه ، لأن الرسول ما هو إلا وسيلة للتبليغ ، أما شرطكم للايمان بالوحي أن ينزل على شعب اسرائيل فقــط ، واذا أنزل على غيره فلا تؤمنون به — أما هذا الشرط فيكشف عن عدم ايمانكم بالوحي كمبدأ، بالاضافة الى أنه تحكمٌ على الله وتقييد لارادته بأهوائكم ، ومعنى هذا انكم تريدون من الله أن يخضع لكم ، وتأبون الخضوع له .

(قالوا نؤمن بما انزل علينا) . وهـذا اعتراف صريح بأنهم لا يؤمنون ، ولن يؤمنوا إلا بالوحي على شريطة أن ينزل عليهم ، ولا يؤمنون بما ينزل على غيرهم ، ولو قام عليه ألف دليل ودليل .

(قل فلم تقتلون أنبيـــاء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) . ولا إلزام أقوى وأبلغ من الالزام بهذه الحجة .. أي قل يا محمد لليهود : أنتم كاذبون في زعمكم ودعواكم الايمان بخصوص الوحي المنزل على شعب اسرائيل ، بل انتم لا تؤمنون

---

١ هذا مـا ذكره المفسرون تمشياً مع ظاهر الآية ، ويأتي قريباً عند تفسير الآية ٩٦ بيان السبب الحقيقي لكفرهم بمحمد (ص) وانه المنفعة الخاصة ، والكسب عن طريق الدعارة والغش والربا ، وما إلى هذا ممـا حرمه الاسلام .

بالوحي اطلاقاً ، حتى بما أنزل عليكم بالخصوص ، والدليل ان الله أرسل منكم ولكم وفيكم أنبياء ، وفرض عليكم تصديقهم وطاعتهم ، ومع ذلك فريقاً كذبتم كعيسى ، وفريقاً تقتلون كزكريا ، ويحيى ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على كذبكم ، ومناقضة أفعالكم لأقوالكم ، وتكذيب أنفسكم لأنفسكم .. وصح توجيه الخطاب بالقتل الى يهود المدينة ، ومشافهتهم به ، مع ان القاتل أسلافهم لمكان وحدة الأمة ، ومشاركة الراضي بالقتل لفاعله ، كما تقدم .

لليهود أشباه ونظائر :

أنكر اليهود محمداً (ص) لأنه غير اسرائيلي ، وأيضاً أنكره أبو سفيان، وقاد الجيوش لحربه ، لأنه يأبى أن تفوز هاشم بشرف النبوة دون أمية ، وأنكرت قريش خلافة علي أمير المؤمنين (ع) لأنها كرهت ان تجتمع النبوة والخلافة في بيت هاشم،ويثقل على بعض الأعاجم ان المرجع الديني الأول من العرب ، كما يثقل على بعض العرب أن يكون من الأعاجم .. بل اني أعرف أفراداً لو خيّروا بين أن تهتدي الألوف الى دين الحق عن طريق غيرهم ، وبين أن تبقى على ضلالها لاختاروا الضلالة على الهدى ، والكفر على الايمان .. وأيضاً لو خيّروا بين أن يسمعوا الثناء على يزيد بن معاوية ، وبين أن يسمعوا الثناء عن واحد من صنفهم لفضّلوا ألف مرة الأول على الثاني .. ومن أجل هذا يبحث الواحد منهم جاهداً ليجد عيباً لأخيه ، فان وجد خردلة اذاعها جبلاً ، وان لم يجد اخترع وافترى .

ان من يُكبر الفضيلة كمبدأ يكبرها أينما كانت وتكون ، وعن أي طريق تحققت ، ويراها في غيره ، تماماً كما يراها في نفسه ، بل يعمل ويكافح من أجل بثها وانتشارها ، أما من يدعيها لنفسه ، وينكرها في غيره فانه يستعمل نفس الاسلوب الذي استعمله اليهود عناداً لله وأنبيائه ورسله .

ولقد جاءكم موسى بالبينات الآية ٩٢ ــ ٩٦ :

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ

ظَالِمُونَ ★ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ★ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ★

المعنى :

هذه الآيات واضحة الدلالة ، ظاهرة المعنى ، وأيضاً فيها تكرار لما سبق ، ولذا نكتفي بذكر المعنى العام لها .

أمر الله نبيه أن يجادل المخالفين بالحسنى : ومعنى الجدال بالحسنى مخاطبة القلب والعقل ، وكل حجاج القرآن من هذا النوع .. فلقد دعا الجاحدين الى التفكر في أنفسهم ، وفي خلق السموات والأرض ، وقال لمن نسب السيد المسيح الى الألوهية : انه وامه كانا يأكلان الطعام ،وخاطب قلوب اليهود بهذه الآيات ، حيث ذكرتهم بنعمة الله عليهم بالتوراة ، فيها الهدى والنور ، كما ذكرتهم آيات سابقة بخلاصهم وتحررهم من فرعون ، وما الى ذاك ، ثم وبخهم الله بعبادة العجل كفراً وجحوداً لنعمته،وكرر ذكر رفع الجبل فوقهم لتمردهم وعصيانهم ، وكذّب بمنطق العقل دعواهم انهم أبناء الله وأحباؤه ، وان الجنة خالصة لهم لا

يدخلها أحد غيرهم ، وأمرهم - ان كانوا صادقين - بتمني الموت ، لأن من اعتقد انه للجنة قطعاً آثر الموت المريح على حياة البلاء والشقاء .

ثم أخبر القرآن ان اليهود أشد الناس حرصاً على حياة الدنيا ، بل هم أحرص عليها من الذين لا يؤمنون بجنة ولا نار ، بل ان الواحد منهم يتمنى لو عاش ألف سنة ، ولكن تعميره لا يجديه شيئاً ، ولا ينجيه من العذاب .. والغرض من الجدال بهذا المنطق العقلي السليم هو الزام اليهود الحجة بأنهم كاذبون في دعواهم الايمان بالتوراة ، وفي زعمهم بأنهم شعب الله المختار .

قال الشيخ المراغي في تفسيره: « جاء في الأخبار ان عبدالله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة باردة شرابها

وان عمار بن ياسر في حرب صفين قال :

غداً نلقى الأحبه محمداً وصحبه

فان لم يتمن اليهود الموت فما هم بصادقي الايمان ، وهذه حجة تنطبق على الناس عامة ، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزاناً يزنون بها دعواهم اليقين بالايمان ، والقيام بحقوق الله ، فان ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل الله كانوا مؤمنين حقاً ، وان ضنوا بها اذا جد الجد ودعا الداعي كانوا بعكس ما يدعون » .

المصلحة هي السبب لا الجنسية :

ونحن لا نشك أبداً بأن مسألة تكذيب اليهود لمحمد (ص) ليست مسألة ايمانهم بخصوص ما ينزل عليهم من الوحي تعصباً لجنسيتهم ، كلا ، والف كلا .. ان الدافع الوحيد للتكذيب هو مصالحهم الشخصية ، ومنافعهم المادية ، انهم يعيشون على الغش والربا والدعارة ، ومحمد (ص) يحرم ذلك ، فكيف يؤمنون به ؟. والدليل انهم كفروا بتوراتهم ، وقتلوا أنبياءهم ، ولا سبب الا حرصهم على المنفعة الذاتية ، وكل من حرص على منفعته لا يجدي معه جدال بالحسنى ، وفي

قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » اشعار بهذه الحقيقة . وما عدا هذه الآية الكريمة من المحاجة انما جرت معهم مجرى النقاش ، والالزام بالحجة ، تماماً كما تقول : لو سلمنا جدلاً .

قل من كان عدواً لجبريل الآية ٩٧ ــ ١٠٠ :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ★ مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ★ وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفَاسِقُونَ ★ أَوَ كُلَّما عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ★

اللغة :

قيل : معنى جبريل عبد الله ، ومعنى ميكال عُبيد الله .. ومعنى النبذ الطرح.

الإعراب :

جبريل وميكال ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة .. وقال صاحب مجمع البيان ، وصاحب البحر المحيط : (ان جواب من كان عدواً لجبريل) محذوف تقديره فهو كافر ، أو ما أشبه وقد دل عليه الموجود، وعلله صاحب البحر بأن الجواب لا بد أن يكون فيه ضمير يعود على (من) التي هي اسم الشرط ، وقوله تعالى: (فانه نزله على قلبك) ليس فيه ضمير يعود على من ، لأن ضمير (فانه) عائد على جبريل ، وضمير (نزله) عائد على القرآن .. ومصدقاً حال

من الضمير في نزله ، وهدى وبشرى معطوفان عليه .. والهمزة في (اوكلما) للتوبيخ ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف تقديره أكفرتم بالبينات .. وقيل : بل الواو زائدة،لأن المعنى مستقيم بدونها ، وكلما منصوب على الظرفية ، واكتسبت هذه الظرفية من (ما) التي هي اسم بمعنى وقت ، كما في مغني اللبيب ، والتقدير كل وقت عاهدوا فيه ، والظرف متعلق بنبذه .

المعنى :

(قل من كان عدواً لجبريل) .. أي فهو كافر عليه لعنة الله .. وأجمع أهل التفسير على ان سبب نزول هذه الآية ان اليهود سألوا النبي (ص) عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ؟. فقال : هو جبريل . قالوا : ذاك عدونا ، لأنه ينزل بالشدة والحروب ، وميكال بالسلام والرخاء ، ولو كان ميكال هو الذي يأتيك بالوحي لآمنا بك .

لقد جعلوا النزاع في ظاهره أولاً حول شخصية محمد (ص) ، وانهم يريدون نزول الوحي على واحد من شعب اسرائيل ، لا من شعب العرب – كما زعموا – ولما ألزمهم الله ونبيه بالحجة حوّلوا النزاع الى شخص جبريل ، لا محمد .. والحقيقة – كما قدمنا – انه لا نزاع على محمد وجبريل،ولا عرب وعروبة ، ولا يهود ويهودية ، لا شيء أبداً الا مصالحهم الذاتية .. الا الدعارة والخمر والربا والاحتكار .. ولكنهم ينافقون ، ويتسترون بالأكاذيب والأباطيل .

ومن باب النقاش والإلزام بالحجة قال سبحانه : (فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه) . أي ان عداوتكم لجبريل لا وجه لها ، لأنه مجرد أداة وواسطة لتبليغ الوحي من الله الى محمد .. وهذا الوحي يشتمل على تصديق ما تضمنته توراتكم من صفات محمد وعلامات نبوته ، وفي الوقت نفسه هو هدى وبشرى للمؤمنين ، وعليه يكون معنى عدائكم لجبريل عداء لله وللوحي وللتوراة، ولهدى الله لخلقه ، وبشراه للمؤمنين .

(ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون) . أي ان ما أتى به محمد (ص) لا يقبل الشك بعد ان اقترن بالحجج والبراهين ، ولا ينكره

الا كافر بالله ، معاند للحق . والمراد بالفسق هنا فسق العقائد ، أي الكفر ، لا فسق الأفعال الذي يجتمع مع الايمان .

(أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) . والعهود التي نبذها ونقضها اليهود كثيرة : منها الايمان بمحمد ، ومنها عدم اعانة المشركين عليه ، ومنها تصديق الأنبياء وعدم قتلهم ، ومنها ان لا يعبدوا الا الله ، وغير ذلك .. فكذّبوا محمداً ، وأعانوا عليه أهل الشرك أعداءه وأعداءهم ، وكذّبوا الأنبياء ، وصلبوا السيد المسيح ، وعبدوا العجل ، وفعلوا الأفاعيل .

(بل أكثرهم لا يؤمنون) . أي ان فريقاً منهم عبدوا العجل ، وقتلوا الأنبياء ، وغير ذلك ، والأكثر لم يفعلوا شيئاً من هذا النوع ، ولكنهم مع ذلك هم الكفرة الفجرة .

واختصاراً ان المبطل يستطيع أن يدعي الحق لنفسه ، والمجرم البراءة لها ، وأيضاً يستطيعان أن يبررا الباطل والجريمة بالأقاويل والأباطيل ، ولكن سرعان ما يفتضحان اذا دمغتهما البراهين التي لا مفر منها ، ولا ملجأ ، كما افتضح اليهود في كذبهم ودعواهم العمل بما أنزل الله عليهم من الوحي والعداء لجبريل .

التعايش السلمي ، والايمان بالله :

يهدف الداعون الى التعايش السلمي – فيما يهدفون اليه – ان تحل الخلافات بين المتخاصمين بالمؤتمرات والمفاوضات .. ولكن قد علمتنا التجارب ان المنطق السليم ، والمحاجة بالحسنى لا تجدي شيئاً مع أرباب الامتيازات والمنافع الشخصية .. فمحال أن يتنازل أهل الأطماع عن أطماعهم الا بوسائل الضغط والتخويف .. ان التعايش السلمي يحتاج الى عقل متفتح ، وخلق كريم .. وأي خلق كريم عند من لا يؤمن الا بالمادة ، والا بالاحتكار والاستثمار .. وأية حجة تقنع أهل الطمع والجشع !

يقال : ان كلاً من الكتلتين : الشرقية والغربية ، تدعو الى التعايش السلمي فيما بينهما ، وفي الوقت نفسه تتسلح كل منهما ، وتتحصن خوفاً من الأخرى .. ان أقل ما يفرضه هذا التعايش ان تتفقا معاً على التسليم فعلاً لا قولاً بما قامت

عليه الأدلة والبراهين ، تماماً كما يتفق المتناظران المنصفان ويسلمان بما توافرت الأدلة على ثبوته .. وقد ثبت بالفطرة وبديهة العقل ان لكل شعب الحقّ الكامل في تقرير مصيره ، لا يسوغ لأحد أن يتدخل في شأن من شؤونه ، فأين العمل بهذا المبدأ ؟.

ان التفاوض بالطرق السلمية ، والرضوخ للحق لا يتحقق على وجهه الأكمل الا اذا كانت جميع الأطراف المعنية مؤمنة بالحق لوجه الحق .. ومحال أن يهتدي الى خير ، ويرجى منه الخير مَنْ لا يؤمن الا بذاته ، ولا يهمّ الا بمنافعه .

ولما جاءهم رسول من الله الآية ١٠١ :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ★

الإعراب :

لمّا على ثلاثة أوجه : الأول أن تختص بالمضارع ، فتجزمه . الثاني ان تكون حرف وجود لوجود ، مثل لما جئتني أكرمتك ، وقيل : بل هي في مثل ذلك اسم بمعنى حين . الثالث أن تكون حرف استثناء ، مثل كل نفس لما عليها حافظ ، أي الا عليها . وهي في الآية حرف وجود لوجود ، وقيل : بل اسم بمعنى حين . والواو في اوتوا نائب فاعل ، والكتاب مفعول لاوتوا ، وكتاب الله مفعول نبذ .

المعنى :

(ولما جاءهم رسول من عند الله) . وهو محمد (ص) الذي أرسله الله سبحانه للناس كافة ،ومنهم اليهود الذين كانوا في عصره . (مصدق لما معهم) .

أي مصدق لما في التوراة من أصول التوحيد ، والبشارة بمحمد . (نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب) ، وهم علماء اليهود ، (كتاب الله وراء ظهورهم). المراد بكتاب الله القرآن ، وقيل : بل التوراة،لأن كفرهم بمحمد كفر بالتوراة التي بشرت بمحمد (ص) .. ولا فرق في هـذا الحكم بين اليهود والنصارى ، لأن كلاً منهما قد حرّف كتابه فيما يتعلق بالبشارة بمحمد (ص) بل لا فرق بين اليهود ، وبين معمم يحرّف كلام الله تبعاً لأهوائه .

واتبعوا ما تتلو الشياطين الآية ١٠٢ :

وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ★

اللغة :

بابل بلد بالعراق ، له شهرة تاريخية قديمة ، والخلاق النصيب من الخير ، وشروا هنا بمعنى باعوا ، وللاذن ثلاثة معان : العلم ، مثل فاذنوا بحرب من الله ، أي فاعلموا ، والرخصة ، والأمر ، والمراد بـه هنا في قوله تعالى : (الا باذن الله) علم الله الذي لا تخفى عليه خافية .

الإعراب :

هاروت وماروت بدل مفصل من مجمل من الملكين ، وهما ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة . ومن زائدة ، أي ما يعلمان أحداً ، وما هما بضارين به أحداً .

المعنى :

تكلم المفسرون هنا وأطالوا ، ولا مستند لأكثرهم سوى الاسرائيليات التي لا يقرها عقل ولا نقل،وسوّد الرازي حوالى عشرين صفحة في تفسير هذه الآية ، فزادها غموضاً وتعقيداً ، ونفس الشيء فعل صاحب مجمع البيان ، أما السيد قطب فأخذ يشرح التنويم المغناطيسي ، والأحلام ، والتأثير والانفعالات بالايحاء وما اليه ، وهذا هو الهروب بعينه . وبقيت أمداً غير قصير أبحث وأنقب في الكتب والتفاسير ، فما شفى غليلي شيء منهـا ، حتى تفسير الشيخ محمد عبده وتلميذيه المراغي وصاحب المنار ، وخير ما قرأته في هذا الباب ما جاء في كتاب « النواة في حقل الحياة » للسيد العبيدي مفتي الموصل ، لأنه قد اعتمد على قول جماعة من علماء الآثار ، وهذا ما قاله بالحرف :

« ما زلت أجهل معنى الآية الكريمة ، لا يشفي غليلي فيها مفسر ،حتى وقفت على تاريخ جمعية البنائين ، فتبينت معناها . وحيث اضطربت كلمة المفسرين ، حتى عرضوا الآية للجمع بين النقيضين ، وحتى دخلها شيء من الأساطير التي تنبو عنها مغازي الشريعة الغراء رأيت من واجب الخدمة لكتاب الله أن أثبت هنا كلمة في ذلك :

« لما عظم ملك سليمان (ع) استراب ملك بابل الطامع في سورية وفلسطين ، وحل منه الجزع محل الطمع ، فأوفد الى بيت المقدس رجلين من دهاة بطانته ، يبثان من التعاليم ما عسى أن يفسد على سليمان ملكه ، فاعتنقا اليهودية ، وأظهرا الزهد باسم الدين ، فالتف من حولها الناس ، كما هو شأن العامة ، واستهويا الرأي العام ، فشرعا يفسدان الأفكار ، ويوغران الصدور على سليمان ، حتى رمياه بالكفر ، فكان هذا الرجلان بظاهر حالها من الزهد والتقشف كملكين – بفتح اللام – ، ولكنهما في الواقع شيطانان ، وكانت تعاليمهما كالسحر بما

يعضدها من حسن البيان ، وطالما استعمل لفظ الملك في الرجل الصالح ، ولفظ الشيطان في الرجل الطالح،ولفظ السحر في العبارة الفاتنة .. من ذلك قوله تعالى عن يوسف حكاية عن صويحباته : « ان هذا الا ملَك كريم ..» وقوله سبحانه: « شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم لبعض زخرف القول غروراً » .. وقوله حكاية عن الوليد : « ان هذا إلا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر » .. وفي الحديث : « ان من البيان لسحراً » .

« وقد أنبأنا التاريخ بما كان من شأن بختنصر ملك بابل من غزوه فلسطين بعد سليمان ، وتخريبه بيت المقدس ، ونرى القرآن يؤيد حوادث التاريخ بقوله في سورة الاسراء : « وقضينا الى بني اسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » .

« اذا عرفت هذا فنقول : ان الضمير في قوله تعالى : (واتبعوا) عائد الى يهود المدينة الذين تقدمت هذه الآية اثنتان وستون آية متتابعة في حقهم .. ومتى عرفت هذا ، ثم تدبرت الآيات المتصلة بآية سليمان ، ووقفت وقفة تدقيق وامعان عند قوله : (على ملك سليمان) وما اكتنفها من مضامين ودلالات علمتَ ان معنى الآية الكريمة ان يهود الحجاز كانوا يكيدون للنبي العربي بالمكائد والدسائس المقنّعة، والدعاية المزوقة اقتداء بالمارقين من أسلافهم الذين أعانوا رسل بابل في تقويض ملك سليمان » .

الايضاح :

ونفسر الآية على أساس فهم العبيدي لها : (واتبعوا) . أي اتبع يهود المدينة الذين كانوا على عهد محمد (ص) . (ما تتلو الشياطين). المراد بالشياطين المشعوذون ، ومنهم الرجلان البابليان اللذان ظهرا بمظهر القداسة ، وهما في الواقع من الأبالسة . (على ملك سليمان) . أي ان يهود المدينة استعملوا الدسائس والمكائد ، ضد محمد ، تماماً كما استعمل ذلك أسلافهم اليهود ضد ملك سليمان .

(وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) . أي كل ما كانوا ينسبونه الى

سليمان فهو بريء منه ، وانما هو من عنـد الدساسين واختراعاتهم . (يعلمون الناس السحر) . أي يلقنون الناس الأشياء الباطلة الكاذبة . (وما أنزل عـلى الملكين) . أي الرجلين اللذين هما من بابل وتظاهرا بالقداسة والتقوى .. وليس المراد من الانزال الوحي من الله ، كالوحي للأنبياء ، بل مجرد الالهام أو التعلم، وما اليه . (وما يعلمان من أحد ، حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر). كانوا يقولون ذلك دجلاً ونفاقاً ، ليوهموا الناس ان علومهـم إلهية ، وان صناعتهم روحانية ، وانهم صحيحو النية ، تماماً كما يقول الدجال لمن يعلمه كتابة البغض والمحبة : اياك أن تكتب هذا لتفريق الزوجين الشرعيين ، أو لمحبة امرأة متزوجة بغير زوجها .

(فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) . أي ما يحسبون انه يفرق بين المرء وزوجه على نحو ما يأخذ الانسان من الدجال كتابة الحب والبغض معتقداً الصدق والتأثير .. وتجمل الاشارة الى ان الآية لا تدل على ثبوت التأثير ولا نفيه، لأن قوله : (يتعلمون ما يفرقون به) ليس حكماً جازماً بتحقق التفريق بين الزوجين على كل حال،بل معناه يتعلمون ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين ، تماماً كقولك شرب الشفاء ، أي ما وضع لأجل الشفاء .. واختصاراً ان الآية من حيث ترتب الاثر مجملة سلباً وايجاباً . وكثيراً ما تقتضي الحكمة الإلهيـة البيان من جهة ، والاجمال من جهة ، بخاصة في غير العقائد .

(وما هم بضارين من أحد الا باذن الله) . أي لا يستطيعون اضرار واحد من الناس أياً كان بسبب القراءة والكتابة،فاذا تضرر فانما ذلك من باب الصدفة والاتفاق مع سبب من الأسباب الخارجية ، فالمراد باذن الله السبب الخارجي الذي يترتب عليه الضرر .

(ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) . لأنه مجـرد شعوذة ، والشعوذة تضر ولا تنفع . (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خـلاق) . أي انهم عالمون بأن من اختار الشعوذة على الحق لا نصيب له عنـد الله . (ولبئس ما اشتروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) . أي انهم قـد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ومر تفسيره في الآية ٦١ .

ولو انهم آمنوا الآية ١٠٣ :

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمونَ ★

اللغة :

المثوبة معناها الثواب المرادف للاجر .

الإعراب :

تسبك ان وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف ، تقديره لو ثبت ايمانهم ، ويجوز ان يكون المصدر مبتدأ محذوفاً خبره ، أي ايمانهم ثابت ، واللام في مثوبة للابتداء ومثوبة مبتدأ ، ومن عند الله متعلق بمحذوف صفة لمثوبة ، والتقدير كائنة من عند الله ، وخير خبر ، وجواب لو محذوف تقديره لأثيبوا .

المعنى :

بعد ان عدّد الله مساوىء اليهود ، ودسائسهم ضد محمد (ص) قال : ما كان أغناهم عن هذا الكفر والجحود ، ولو آمنوا بمحمد كما أمرتهم التوراة لاراحوا واستراحوا ، ونالوا عند الله الدرجات العلى ، قال أمير المؤمنين (ع) : ان التقوى دار حصن عزيز ، والفجور دار حصن ذليل ، لا يمنع أهله ، ولا يحرز من لجأ اليه ، ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى.

السحر وحكمه :

تكلم فقهاء الامامية في السحر ، وأطالوا الكلام عن معناه وأقسامه ، والممكن منها ، والممتنع ، وعن جواز تعليمه وتعلمه ، والعمل به . والسحر الذي ذكره

القرآن هو نوع من الخديعة والشعوذة، وتصوير الباطل بصورة الحق، قال تعالى: « فاذا حبالهم وعصيهم يخيّل اليه من سحرهم انها تسعى —٦٦ طه »..«وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله — ١٠٢ البقرة » . وعن الإمـام الصادق ان السحر على أنواع ، منها خفة وسرعة ، ومنها احتيال ، لأن المحتالين قد جعلوا لكل صحة آفة ، ولكل عافية سقماً ، ولكل معنى حيلة .

أما الكتابات والرقى والعزائم ، والنفث في العقد ، وما اليه مما قيل انهـا تحدث أثراً ملموساً ، كعقد الزوج عن زوجته ، أو غيرها ، بحيث يعجز عن وطئها ، والقاء المحبة والبغضاء بين اثنين،واستخدام الملائكة والشياطين في كشف المغيبات ، وعلاج المصابين بالصرع ، أما هــذه فقال الشهيد الثاني في المسالك باب التجارة :

ان أكثر علماء الامامية يعتقدون انها وهم وخيال لا أساس له من الصحة ، وان البعض منهم يراها حقيقة واقعة ، وهو من القائلين بحقيقتها .

وروى البخاري في الجزء الرابع من صحيحه « باب قصة ابليس وجنوده » ان النبي سُحر ، حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء ، ومـــا يفعله .. وأنكر ذلك الجصاص أحد أئمة الحنفية في الجزء الأول من أحكام القرآن ص ٥٥ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ ، وأيضاً أنكره الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الفلق .

ونحن مع الذين لا يرون للسحر واقعاً . قال الإمام الصادق: « السحر أعجز وأضعف من أن يغير خلق الله .. ولو قدر الساحر لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض ، ولنفى البياض عـــن رأسه ، والفقر من ساحته ، وان من أكبر السحر النميمة يفرق بها بين المتحابين ، ويجلب العداوة بين المتصافين » .

ومهما يكن ، فقد اتفقت كلمة الامامية على ان عقاب الساحر القتل والاعدام ان كان مسلماً ، والتأديب بما يراه الحاكم من الجلد والسجن ان كان غير مسلم[1] .

---

١ من أحب التفصيل في حكم السحر فليرجع إلى الجواهر باب التجارة وباب القصاص ، وإلى مكاسب الشـيخ الانصاري . ومما قاله صاحب الجواهر : « وليس مطلق الأمر الغريب سحراً ، فان كثيراً من العلوم لهـا آثار عجيبة غريبة ، ويكفيك ما يصنعه الافرنج في هذه الازمنة من الغرائب » . نحن الآن في سنة ١٩٦٧ م. وقد مضى على وفاة هذا المؤلف العظيم ١٢١ سنة ، ولو كان في هذا العصر لم ير شيئاً عجباً ، لأن كل ما فيه عجيب ، وسيأتي عصر يكون حاضرنا بالقياس اليه ، كعصر الشيخ بالقياس إلى يومنا .

يا أيها الذين آمنوا الآية ١٠٤ ـ ١٠٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★ ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ★

اللغة :

المراعاة التفقد ، ونقيضها الاغفال .

الإعراب :

المصدر من ان ينزل في محل نصب ، لأنه مفعول ما يود ، ومن خير من زائدة ، وخير مرفوع ، لأنه نائب فاعل لينزّل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) . قال صاحب المجمع : « كان المسلمون يقولون : يا رسول الله راعنا ، أي استمع منا ، فحرف اليهود هذه اللفظة،وقالوا : يا محمد راعنا ، وهم يلحدون الى الرعونة ، يريدون به النقيصة والوقيعة ، فلما عوتبوا قالوا : نقول كما يقول المسلمون ، فنهى الله عن ذلك بقوله : لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا » .

والمراد بانظرنا في الآية الكريمة ان ينظر الرسول الى حالهم حين يتكلم،فيتمهل كي يفهموا ويستوعبوا جميع كلامه .

تنبيه :

أول نداء جاء في سورة البقرة للناس أجمعين ، وأريد به الدعوة الى الاسلام وعبادة الله ، هو قوله تعالى في الآية ٢١ : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » . والنداء الثاني كان لبني اسرائيل الطائفة الكبيرة التي تفرعت عنها الطائفة النصرانية ، وجاء النداء الثاني تذكيراً برفع النقم عن بني اسرائيل ، واغداق النعم عليهم ، وهو قوله تعالى في الآية ٣٩ : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » . والنداء الثالث جاء لأمة محمد (ع) في هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا » . وهي تعلّم المسلمين آداب الشريعة بعد ان أسلموا وآمنوا بالله ، وهذا الترتيب بين النداءات الثلاثة ترتيب طبيعي يستدعيه الواقع والاتساق من دعوة الناس أولاً كل الناس الى الايمان بالله ، ثم تذكير من آمن قبل البعثة بفضل الله ، ثم تعليم من آمن بعدها آداب الله، وهذا ضرب من بلاغة القرآن في الابتداء بالمرحلة الأولى ، ثم الانتقال الى ما بعدها من غير فاصل ..

(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) . ليس غريباً ولا عجيباً ان يكره المشركون واليهود والنصارى، ومعهم المنافقون ـ أن يكرهوا جميعاً نزول القرآن على محمد، وأن يخصه الله والذين معه بالفضل والهداية ، والصلاح والاصلاح ، وانما العجيب ان لا يكرهوا ذلك. (والله يختص برحمته من يشاء) . قال أمير المؤمنين (ع) : المراد بالرحمة هنا النبوة .

الحسد والحاسد :

الحسد بما هو من لواحق طبيعة الانسان الا من عصم الله،لا يختص بالمشركين ، ولا باليهود والنصارى ، بل يشمل كثيراً من المسلمين ، بل ومن علماء الدين ، بل وبعض من يتصدى لمنصب المرجعية الدينية الأعلى ، مع العلم بأن هذا المنصب أقرب المناصب كلها الى منصب المعصوم .. وقد قال الله والأنبياء والأئمة والحكماء

كثيراً عن الحسد،من ذلك قول الإمام الصادق (ع) : الحسد أصله عمى القلب، والجحود بفضل الله ، وهما جناحان للكفر . وأبلغ ما رأيت في وصف الحساد قول سيد البلغاء ، وإمام الحكماء علي أمير المؤمنين (ع) حيث عبر عنهم : « بحسدة الرخاء ، ومؤكدي البلاء » . وقال : « بكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك » .

ولعل من المفيد أن ننقل هذه الصورة الرائعة للحاسد بقلم بعض الحكماء،قال: ان مثل الحاسد مثل من يصوب حجراً الى مقتل عدوه ، فيعود الحجر الى عين الرامي اليمنى فيقتلعها ، فيغتاظ ، ويرميه ثانية بأشد من الرمية الأولى ، فيعود الحجر الى اليسرى ويعميها ، فيمتلىء حقداً وحنقاً ، ويرمي بالحجر الثالث بقوة وحماس ، فيرجع الى رأسه فيشجه ، وعدوّه في حصن حصين .

ومحال أن يتوب الحاسد من حسده ، لأن الحسد تماماً كالجبن والبخل ، فكيف يتوب البخيل.والجبان ؟. ومن أجل هذا أمر الله نبيه الكريم أن يقول للحساد : « قل موتوا بغيظكم » .

ما ننسخ من آية الآية ١٠٦ ـ ١٠٧ :

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ★

اللغة :

النسخ في اللغة الازالة ، يقال نسخت الشمس الظل ، أي أزالته ، ويأتي الكلام عن معناه الشرعي في الفقرة الآتية ، وننسها من غير همزة من النسيان والمراد به إرجاء الانزال أو النسخ ، وسنذكر المعنى المختار .

الإعراب :

(ما) اسم شرط بمعنى إنْ تجزم فعلين ، ومحلهـا النصب بننسخ ، وننسخ مجزومة فعل الشرط ، وننسها مجزومة أيضاً لمكان العطف على ننسخ،ومن آية بيان وتفسير لِما المبهمة ، ونأت فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للشرط .

النسخ :

نشير أولاً الى معنى النسخ في الاحكام الشرعية بوجه عام ، ثم الى النسخ في القرآن بوجه خاص..ومعنى النسخ في الأحكام الشرعية ان يرد دليل يدل بظاهره على ثبوت حكم شرعي ثبوتاً دائماً ومستمراً [1] في كل وقت ، وبعـد العمل بهذا الحكم بعض الحين يأتي دليل آخر يثبت ان ذاك الحـكم الذي كنا نقطع بدوامه واستمراره هو في واقعه حكم خاص بأمد معين ، وان مصلحةً اقتضت العمل به في آن محدود ، لا في كل آن ، ولكن الحكمة الإلهية استدعت اظهـاره بمظهر الدوام والاستمرار ، تماماً كما لو رأى الطبيب ان من مصلحـة المريض الامتناع عن أكل اللحم اسبوعاً واحداً فقط .. وأيضاً رأى من مصلحته أن لا يُعلمـه بتحديد الوقت ، فنهاه عن اللحم على هذا الأساس من غير قيد ، وبعد مضي الاسبوع اذن له بأكل اللحم ، وعلى هذا ينحصر معنى النسخ في محـو ما ظهر من ارادة الدوام ، لا محو الارادة الواقعية الذي يستلزم البداء والجهل .

وليس من شك ان النسخ بهذا المعنى ثابت في الشريعة الاسلامية ، فانها قـد نسخت بعض أحكام الشرائع السابقة،كالشريعة الموسوية والعيسوية ، بل ان أحكام القرآن قد نسخ بعضها بعضاً كتحويل الاتجاه بالصلاة الى الكعبة بعد الاتجاه الى بيت المقدس .

أما النسخ في القرآن فيمكن تقسيمه الى أوجه ثلاثة :

---

١ إذا كان الأمر الأول مطلقاً غير مقيد بالدوام ، ثم ورد أمر آخر على عكسه فلا يكون الثاني ناسخاً للأول ، لأن الأمر لا يقتضي الفعل أكثر من مرة ، لأن اطلاق الأمر يدل على مجرد وجود الطبيعة ، وكفى بغض النظر عن الكثرة والقلة ، والطبيعة تتحقق بالمرة .

الأول : ان تُنسخ الآية تلاوة وحكماً بحيث يرتفع لفظها وحكمها .
الثاني : ان تُنسخ تلاوة لا حكماً ، أي يرتفع لفظها ، ويبقى حكمها .
الثالث : ان تُنسخ حكماً لا تلاوة ، أي تتلى ، ولكن لا يؤخذ بظاهرها بعد النسخ ، والعمل بعض الوقت .

والقسم الأول والثاني لا وجود لها ، لأنهما يستلزمان النقصان وتحريف القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. والقسم الثالث هو الجائز والثابت أيضاً ، وعليه أكثر المسلمين ، وجمهور المفسرين ، وفيه كتب خاصة ، وفي أيامنا صدر كتاب ضخم باسم «الناسخ والمنسوخ» للدكتور مصطفى زيد المصري .

وتجمل الاشارة إلى ان الحكم الشرعي إذا ثبت بالطريق الصحيح فلا يجوز نسخه إلا بآية قرآنية ، أو بسنة متواترة .. ذلك ان النسخ من الأمور العظيمة الهامة ، وكل ما كان كذلك لا يثبت بأخبار الآحاد ، لأن كل مهم لا بد ان ينتشر ويشتهر على الألسن بحكم العادة ، فاذا نقل الحادث العظيم فرد واحد ، او أكثر دون أن يبلغ النقل حد التواتر كان ذلك دليلاً على كذب الناقل .. الا ترى ان موت الرجل الشهير ينقله أكثر الناس ، وكذلك الثورات والانقلابات أما موت الرجل العادي فلا يعرفه إلا بعض الجيران والارحام . والتفصيل في علم الأصول .

المعنى :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) . قال كثير من المفسرين : ان اليهود قالوا : ان محمداً يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه ، ويقول اليوم قولاً ، وغداً يرجع عنه ، ولو كان ما يقوله وحياً لما كان فيه هذا التناقض ، فنزلت هذه الآية رداً عليهم .

والمراد آية من آي الذكر الحكيم ، لأن هذا المعنى هو المتبادر الى الافهام هنا ، ونقل الشيخ المراغي في تفسيره عن استاذه الشيخ محمد عبده ان المراد بالآية المعجزة الدالة على نبوة النبي ، وان المعنى ان الله يعطي معجزة لنبي من الأنبياء ، ثم يتركها كلية ، ويعطي غيرها لنبي آخر .. وهذا المعنى صحيح في

ذاته ، ولكن سياق الآية ينفيه ويعين ما ذهب اليه العلماء وجمهور المفسرين من ان المراد آية من القرآن .

ومعنى نسخ الآية القرآنية بقاؤها لفظاً وتلاوة ، مع الغاء حكمها التي دلت عليه ، وعُمل به آناً ما .

أما (ننسها) فان قُرئت من غير همزة فهي من النسيان ، ويتعين أن يكون المعنى الترك لا الذهول ، أي نتركها على ما هي بلا تغيير وتبديل ، حيث يصح أن تقول : نسيت الشيء ، وأنت تريد تركه على حاله .. وان قُرئت بالهمزة (ننسأها) فهو من الارجاء والتأخير ، أي نترك انزالها الى وقت ثان ، ومهما يكن فان الآية بدليل وجود (ما) الشرطية لا تدل على وقوع النسخ بالفعل ، بل تدل على انه لو افترض وقوعه لأتى الله بخير من المنسوخ .

(ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض) . قيل : ان الخطاب في (تعلم) للنبي ، والمراد به المسلمون الذين تضايقوا من اعتراض اليهود وغيرهم على النسخ . والحق انه خطاب لكل من يستبعد النسخ ، أو يؤلمه الاعتراض عليه ، والمعنى ان النسخ ليس بالغريب المستبعد ، لأنه لا يخرج عن كونه تكليفاً للعباد ، ومحو حكم ، واثبات حكم مماثل أو أصلح مكانه . وبديهة ان الله يملك كل شيء ، ويدبره ويجريه على ما يشاء من نسخ أو بقاء بلا نسخ . أما ذكر السموات والأرض بالخصوص فهو اشعار بالعموم والشمول ، لأنهما يشتملان على جميع المخلوقات العلوية والسفلية .

(وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) . أي لا تبالوا أيها المؤمنون بمن اعترض أو يعترض على النسخ ، أو على أي شيء في دينكم ، فليس باستطاعة مخلوق أن يضركم ، ما دام الله هو المؤيد والمناصر .. واختصاراً ان النسخ حق ، ولا مانع عنه من العقل ولا من الشرع خلافاً للمنكرين والمعترضين .

ام تريدون ان تسألوا رسولكم الآية ١٠٨ – ١٠٩ :

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ

يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ★ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

اللغة :

الحسد مذموم ، لأنه عبارة عن كراهية النعمة للغير ، وحب زوالها عنه ، أما الغبطة فغير مذمومة ، لأنها الرغبة في أن يكون للانسان من النعمة مثل ما لأخيه ، دون أن يتمنى زوالها عنه .

الاعراب :

أم هنا منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام ، أي بل أتريدون الخ ، ودخلت الباء على الإيمان،لأنها تدخل دائماً في البدلية على الأكمل ، ومن أهل الكتاب متعلق بمحذوف صفة لكثير ، وحسداً مفعول من أجله ، ومن عند أنفسهم متعلق بحسد وجواب لو محذوف تقديره لسروا بذلك .

المعنى :

(أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى) . بعد ان قال الله سبحانه للمؤمنين : لا تبالوا باعتراض من اعترض على النسخ وغيره من أحكام دينكم ، لأن الأمور كلها بيده ، ويختار منها الأصلح لكم ولغيركم ، بعد هذا قال لهم: مـاذا تبتغون من رسولكم محمد (ص) ، وقد جاءكم بالبراهين الكافية الوافية ؟ أتريدون أن تتعنتوا كما فعل اليهود مع موسى ، وسألوه ما لا يجوز سؤاله ؟.. ان الانسان قد يشك ، ويطلب الدليل المقنع الذي يزيل الشك ، اما ان يطلب

جعل الجبل ذهباً ، والصحراء الجرداء رياضاً فهذا مجرد معاندة ومكابرة ، فلا تكونوا أيها المسلمون من المكابرين المعاندين .

(ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) . ان كل من يقف من الحق موقفاً مجرداً ، ويطلب الدليل المعقول على اثباته فهو مؤمن بالحق، كمبدأ، وكل من يقف من الحق موقف المكابر المتعنت ، ويطلب فوق المعقول ، وأكثر مما يستدعيه الاستدلال والاثبات فهو كافر بالحق .. ومن لم يثق بما جاء به محمد (ص) ، وطلب الزيادة فقد اختار العناد على الانصاف،والكفر على الايمان .

(ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) . كل انسان يود أن يكون الناس ، كل الناس على دينه ، قال أحد الفلاسفة : ان أسعد يوم عندي أن أرى من يوافقني على رأيي .. ولكن جماعة من اليهود كانوا يبذلون جهوداً كبيرة لفتنة المسلمين ، وارتدادهم عن دينهم الى الجاهلية الأولى ، لا لشيء إلا بغياً وحسداً ، مع العلم انهم يستطيعون الاسلام كما فعل غيرهم ، ولكنهم خافوا على أسواقهم وأرباحهم من الخمر والميسر والدعارة .

وقد استغل اليهود انكسار المسلمين يوم أحُد للدس على النبي ، فقد جاء في الأخبار انهم بعد وقعة أحد كانوا يدعون شباب المسلمين الى بيوتهم ، ويقدمون لهم الخمر ، ويغرونهم ببناتهم ، كما يفعلون اليوم ، وفي كل يوم ، ثم يشككون المسلمين بالقرآن ونبوة الرسول الأعظم (ص) . وأحس النبي بهذا التدبير الرهيب، فنهى عن مجالس اللهو ، وشدد النكير على من يتعاطى الزنا والخمر والميسر ولحم الخنزير ، فامتنع المسلمون عن الذهاب الى بيوت اليهود التي فتحوها لهذه الغاية.. وهي المسماة اليوم بالبار والكازينو .

(من بعد ما تبين لهم الحق) . أي ان اليهود قد حاولوا ارجاع المسلمين الى الكفر والضلال على علم منهم ان الاسلام هو الحق ، وان الشرك وانكار نبوة محمد هو الباطل ، ولا يختص هذا باليهود ، فان أكثر الناس تجحد الحق وتعانده ، لا لشيء الا لأنه لا يتفق مع مطامعهم ، فان الانسان مسير بوحي من عاطفته ومنافعه ، لا بوحي من دينه وعقله ، قال أمير المؤمنين (ع) : أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

(فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) . أي أعرضوا الآن،ولا تتعرضوا لعقابهم وتأديبهم ، حتى يأمركم الله بذلك ، فان الأمور رهن بأوقاتها، وفي كثير من التفاسير ان الله سبحانه أمر المسلمين بالاعراض عنهم الى ان نزل قوله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . وغير هذه الآية من آيات القتال ، وقال الرازي : ان الإمام محمد الباقر (ع) قال : ان الله لم يأمر نبيه بالقتال ، حتى نزل جبريل بقوله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وان الله على نصرهم لقدير » وقلده سيفاً .

مخالفة الحق :

كل ما في الحياة من كفر وإلحاد ، وفسق وفجور ، وتهتك وفساد ، وظلم وطغيان ، وحروب ومشاحنات ، وفقر وبؤس ، كل ذلك ، وما اليه من أوباء وأدواء يرجع في النهاية الى سبب واحد ، هو مخالفة الحق .. ولو أنصف الناس لسعد واستراح كل الناس ، لا القاضي فقط .. وان في قوله تعالى : « فماذا بعد الحق الا الضلال » اشارة الى هذه الحقيقة .. أجل،ان الحق لا يعدم نصيراً في كل زمان ، ولكنه قليل ، ولو وجد الحق أنصاراً كما يجد الباطل لكان العالم في هناء وأمان .. بل لو طالب كل ذي حق به ، وقام بواجبه لما رأينا للظلم والباطل عيناً ولا أثراً .

وقد أقام الله للحق دليلاً يهدي اليه ، ويدل عليه من الفطرة وكتاب الله ، ومن نبيه الأكرم ، وأهل بيته الأطهار الذين ساوى صاحب البيت بينهم وبين القرآن بأمر من الله ، كما جاء في حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه ، فمن عاند هذا الدليل على علم به فقد عاند الله ورسوله، تماماً كما فعل اليهود والمشركون.

واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة الآية ١١٠ :

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ★

الاعراب :

(ما) من قوله تعالى (ما تقدموا) اسم شرط تجزم فعلين ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وخبرها جملة تجدوه ، وتقدموا مجزوم بما ، فعل الشرط ، وتجدوه مجزوم أيضاً لأنه جواب الشرط ، وبصير خبر ، و (بما) متعلق ببصير .

المعنى :

تضمنت هذه الآية اموراً ثلاثة :

١ – الأمر باقامة الصلاة [1] .

٢ – الأمر بايتاء الزكاة .

٣ – الترغيب في الخير بوجه العموم ، وفي تفسير المنار ان الآية تضمنت أولاً حكماً خاصاً ، وهو الأمر بالصلاة والزكاة، ثم حكماً عاماً مستقلاً بنفسه ، ولكنه شامل بعمومه للحكم الخاص المتقدم ، وهذا من أساليب القرآن التي لا تجد لها نظيراً في غيره . وقوله تعالى : « تجدوه عند الله » المراد به وجدان جزائه وثوابه لا وجدان العمل بالذات ، كما قيل ، لأن الأعمال لا تبقى .

ونسأل : لقد رأينا القرآن يقرن دائماً الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة ، فما هو السر ؟.

وأجيب عن هذا السؤال بأن الصلاة عبادة روحية ، والزكاة عبادة مالية، فمن جاد بها ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله .

الصلاة وشباب الجيل :

ان أكثر شباب هذا الجيل يستخفون بالدين وأهله ، فمنهم من يقول صراحة وعلانية : لا شيء وراء الطبيعة .. ومنهم من يقول : ان وراءها مدبراً حكيماً،

---

١ انظر فقرة يقيمون الصلاة الآية ٣ من هذه السورة .

ولكنه لم يوجب صوماً ولا صلاة .. والاثنان عند الله سواء في الكفر والجحود .. لأن من ترك الصلاة جازماً بعدم وجوبها فهو تماماً كمن كفر بالله دون خلاف بين علماء المسلمين .

ونعينا نحن علماء الدين على شباب الجيل كفرهم واستخفافهم، وحكمنا عليهم بالتمرد على دين الحق ، دون أن نقوم بأي عمل ، أو نقدم لهم الاسلوب المقنع . وأعني بالعمل ، العمل الجماعي المثمر الذي ينبغي التمهيد له بالاجتماعات وعقد المؤتمرات للتداول والتدارس ، ثم انشاء المدارس والكليات لعلوم القرآن والسنة ، وفلسفة العقيدة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامي ، وعلم النفس ، والتدريب على الوعظ والدعوة الى الدين بالحسنى والسبل الحديثة المجدية .. أجل ، لقد قام البعض بجهود أدت الى نتائج مشكورة،ولكن المطلوب توحيد الجهود، والاخلاص في النية والتضحية من الجميع .. ولكن كيف توحّد الجهود ، والمتكسبون باسم الدين كثيرون ، ولا يهمهم من أمره إلا بمقدار ما يعود عليهم بالجاه والمال .

وبالتالي ، فنحن علماء الدين مسؤولون أمام الله عن شباب الجيل ، تماماً كما هم مسؤولون عن التهاون وترك التصدي لمعرفة دين الحق ، والعمل بأحكامه .

وقالوا لن يدخل الجنة الآية ١١١ ـ ١١٣ :

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ★ بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ★

اللغة :

هود جمع ، ومفرده المذكر هائد ، والمؤنث هائدة ، ومعنى الهائد التائب الراجع إلى الحق ، ونصارى جمع ، ومفرده نصران ، ولكنه لا يستعمل إلا مع ياء النسبة ، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٦٢ ، والأماني جمع ، واحدها أمنية من التمني ، واسلام الوجه لله الاخلاص له في العمل ، والقيامة مصدر مثل القيام ، ولكن هذه الكلمة كثر استعمالها في يوم البعث ،حتى صارت علماً عليه .

الاعراب :

(وقالوا) عطف على (ودّ كثير من أهل الكتاب) والضمير في قالوا عائد على كثير ، وكل من الجنة وجهنم ظرف مكان ، و (مَنْ) اسم موصول ، وهي هنا بمعنى الذين ، وافرد ضمير كان بالنظر الى اللفظ ، لا الى المعنى ، وجمع عليهم بالنظر الى المعنى لا الى اللفظ ، وتلك اسم اشارة يشار بها الى المفردة المؤنثة ، والى جمع التكسير ، وهي مبتدأ ، وأمانيهم خبر ، والجملة لا محل لها من الاعراب ، لأنها معترضة بين (قالوا) وبين هاتوا . وهو محسن جملة حالية ، وكذلك جملة وهم يتلون الكتاب ، و (مثل) قائم مقام المفعول المطلق ، أي قالوا قولاً مثل قولهم .

المعنى :

(وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى) . قال صاحب مجمع البيان : « هذا ايجاز ، وتقدير الكلام قالت اليهود : لن يدخل الجنة الا من كان يهودياً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة الا من كان نصرانياً .. وانما قلنا : ان الكلام مقدر هذا التقدير ، لأن من المعلوم ان اليهود لا يشهدون للنصارى بالجنة ، ولا النصارى يشهدون بذلك لليهود ، فعلمنا انه أدرج الخبر

عنها للايجاز من غير اخلال شيء من المعنى ، فان شهرة الحال تغني عن البيان المفصل » .

احتكار الجنة :

يظهر من هذه الآية الكريمة ان اليهود والنصارى يؤمنون بنظرية الاحتكار منذ القديم ، وانها عندهم تشمل نعيم الدنيا والآخرة .. وأيضاً يظهر ان احتكار الجنة مختص برجال الدين ، وعلى هذا الأساس كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران للعصاة والآثمين بعد أن تقبض الثمن ، وقد كسبت بذلك أموالاً طائلة ، ولكن على حساب تشجيع الجرائم ، وانتشار الفساد .. ومما كانت تكتبه الكنيسة للعاصي في صك الغفران انه: « يغلق أمامك – الخطاب للعاصي – الباب الذي يدخل منه الخطاة الى العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذي يؤدي الى فردوس الفرح ، وان عُمِّرتَ سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن وروح القدس » .

(تلك أمانيهم) جمع الأماني ، لأنها كثيرة ، منها أمنيتهم أن يرجع المسلمون كفاراً ، ومنها ان يعاقَب أعداؤهم ، ومنها ان الجنة لهم وحدهم .

(قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) . كل دعوى تحتاج الى دليل ، وأيضاً كل دليل نظري يحتاج الى دليل ، حتى ينتهي الى أصل عام ثبت بالبديهة والوجدان ، ومعنى ثبوته كذلك أن يتفق على صحته جميع العقلاء ، ولا يختلف فيه اثنان ، تماماً كهذا الأصل : « كل دعوى تحتاج الى دليل » .. اللهم الا اذا كانت الدعوى بديهية ، على ان الدعوى البديهية لا يسمى القائل بها مدعياً ، لأن الدعوى مأخوذ في مفهومها الافتقار الى الدليل ، أما القضية الواضحة بذاتها فدليلها معها ، وملازم لها لا ينفك عنها بحال ، والا لم تكن بديهية .. واختصاراً لا يسوغ أن تقول : أين الدليل لمن قال : العشرة أكثر من الواحد – مثلاً – .

وجاء في تفسير المنار عند ذكر هذه الآية ما يتلخص بأن السلف الصالح من المسلمين كانوا يسيرون على هذا الأصل ، فيقيمون الدليل على ما يقولون ، ويطلبونه من الناس على ما يدعون ، ولكن الخلف الطالح – على حد تعبير

صاحب التفسير ، عكسوا الآية ، فأوجبوا التقليد ، وحرّموا الاستدلال إلا على صحة التقليد فقط ، ومنعوا العمل بقول الله ورسوله ، وأوجبوا العمل بقال فلان، وقال علان » . كما عبر صاحب تفسير المنار .

(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) . هذا تكذيب لدعواهم بأن الجنة لهم وحدهم دون الناس أجمعين ، والمراد بالوجه في الآية النفس والذات ، قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » . والمعنى ان كل من آمن بالله مخلصاً له في أعماله اخلاصاً لا يشوبه شرك ولا رياء فهو من المكرمين عند الله ، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، أما قوله سبحانه: «وهو محسن» فاشارة الى أن التقرب الى الله انما يكون بالعمل الصالح ، لا بالأعمال القبيحة الضارة ، لأن الله سبحانه لا يطاع من حيث يُعصى .

(وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) . قال صاحب مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس ان نصارى نجران تنازعوا مع اليهود عند رسول الله (ص) ، فقال رجل من اليهود للنصارى : ما أنتم على شيء ، فأجابه رجل من النصارى : ليست اليهود على شيء ، فنزلت هذه الآية، تسجّل قول كل من الفريقين في حق الآخر .

الدين المصلحة عند اليهود والنصارى :

وبالمناسبة ، فان المعروف عن الدين المسيحي انه ينص صراحة على ان اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلب « الإله » .. ومع ذلك فان بابا روما بذل جهد المستميت عام ١٩٦٥ لتبرئة يهود الجيل الحالي والأجيال السابقة من تبعة صلب المسيح ، وعقد من أجل ذلك أربعة مؤتمرات ، واصطدم مع الكنيسة الشرقية ، وبلغت تكاليف المؤتمرات ٢٠ مليون دولار ، والهدف الأول والأخير سياسي بحت،وهو تقوية «دولةاسرائيل»،وتدعيم مركزها في فلسطين ، وسياستها في العالم .. وعلى الأصح تقوية الاستعمار ، وتدعيم قواعده في الشرق بعامة ، والبلاد العربية بخاصة .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الدين عند بعضهم ، منافع مادية ، وكفى[١] .

١ انظر فقرة : « المصلحة هي السبب لا الجنسية » عند تفسير الآية ٩٦ من هذه السورة .

(وهم يتلون الكتاب) . أي ان اليهود عندهم التوراة ، وهي تبشر بعيسى ، وتعترف بنبوته .. وأيضاً النصارى عندهم الانجيل يعترف بموسى وتوراته .. وعلى هذا يكون اليهود والنصارى في حكم الطائفة الواحدة ، لأن دينهم واحد ، وكل من التوراة والانجيل جزء متمم للآخر ، ومع ذلك فقد كفّر بعضهم بعضاً .

أيضاً المسلمون يكفر بعضهم بعضاً :

وإذا كان اليهود بحكم الطائفة الواحدة ، لأن التوراة تعترف بعيسى ، والانجيل يعترف بموسى ، فبالأولى أن تكون السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعاً ، لأن كتابهم واحد ، وهو القرآن ، لا قرءانان ، ونبيهم واحد ، وهو محمد ، لا محمدان ، فكيف – اذن كفّر بعض من الفريقين اخوانهم في الدين ؟.. ولو نظرنا الى هذه الآية « قالت اليهود ليست النصارى على شيء ،وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » لو نظرنا اليها بالمعنى الذي بيناه ، واتفق عليه جميع المفسرين ، ثم قسنا من يرمي بالكفر أخاه المسلم – لو نظرنا الى الآية ، وقسنا هذا بمقياسها لكان أسوأ حالاً ألف مرة من اليهود والنصارى.. لقد كفّر اليهود النصارى ، وكفّر النصارى اليهود ، (وهم يتلون الكتاب) أي التوراة والانجيل .. فكيف بالمسلم يكفّر أخاه المسلم ، وهو يتلو القرآن ؟!. فليتق الله الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب ، وقلوبهم عمي عن معانيه ومراميه .

(كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) . المراد بالذين لا يعلمون في هذه الآية مشركو العرب ، حيث قالوا تماماً كما قال اليهود والنصارى : انهم وحدهم يدخلون الجنة دون المسلمين والناس أجمعين .

وأجاب القرآن أولاً : ما أجاب به اليهود والنصارى من ان الحق لا يتقيد بالأشخاص ، ولا بالأسماء والألقاب ، وان دخول الجنة منوط بالايمان والعمل الصالح . ثانياً : ان الله سبحانه يعلم المحق من المبطل،وانه سيجزي كلاً بأعماله. (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

كل يعزز دينه :

وتسأل : ان كلاً من أهل الأديان والأحزاب يدعي انه هو المحق ، وغيره المبطل ، تماماً كما ادعت اليهود والنصارى ومشركو العرب ، فكيف يتهيأ لنا ان نعرف الكاذب من الصادق ؟.

وقبل الجواب نمهد بالاشارة الى هذه الحقيقة ، وهي : كل من يدعي الحق لا بد أن يكون واحداً من اثنين ، اما ان يجزم مسبقاً منذ البداية برأيه ، ويصر عليه ، ولا يحتمل فيه الخطأ ، ولا يصغي الى بينة العكس أياً كان نوعها، واما أن يكون مجرداً للحق يبحث عنه ويمحص وينقب جهده ، حتى اذا رأى ما اعتقد انه الدليل اعتمده عازماً على أن الحق اذا تبين في الجانب الآخر تبعه وعدل عن رأيه ، لأنه ينشد الحكمة أينما كانت وتكون .. ولا بد أن نفصل بين هذين لأن الأول لا سبيل الى اقناعه بالحجة ومنطق العقل ، بل لا دواء له الا الاعراض عنه ، والثاني يسهل معه التفاهم ، وكلنا يعلم ان هناك قضايا واضحة بذاتها لا يختلف فيها اثنان ، مثل الرخاء سعادة وهناء ، والفقر بلاء وشقاء ، والحب خير من البغض،والتعاون أفضل من التنازع ، والسلم أعود من الحرب ، والعلم نور ، والجهل ظلام ، والعدل حق ، والجور باطل ، وان الشيء الواحد لا يتصف بصفة ونقيضها ، وما الى ذلك من الحقائق الانسانية البديهية .

اذا تمهد هذا ، وكنا على علم منه ، ثم ادعى مدع انه هو المحق دون سواه قسنا قوله بتلك الحقائق المتسالم عليها ، وتحاكمنا اليها ، فان اتفق معها فهو حق ، وان ناقضها ، واستدعى قوله الضرر والشر فهو باطل .. وبهذا يتبين معنا ان قول من قال : « كلٌ يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح ؟.» ان هذا القول لئيم وخطير ، يهدف الى اشاعة الفوضى والجهل ، ولو صدق لوجب اقفال المعاهد والمعابد والمحاكم،حيث لا قيم عقلية،ولا قانونية،ولا أخلاقية .

والذي يهون الخطب ان قول : « يا ليت شعري ما الصحيح » كلام شعري جاء من وحي العاطفة التي تستمد منطقها من اللامنطق .. وصدق الله العظيم حيث يقول : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

منع مساجد الله الآية ١١٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها
أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ ★

الاعراب :

اتفقوا على ان المصدر المنسبك من أنْ والفعل الذي دخلت عليه محله النصب، ثم اختلفوا في اعرابه على أربعة أقوال ذكرها الرازي وأبو حيان الأندلسي ، وأظهرها — كما نرى — ان المصدر منصوب بنزع الخافض ، والتقدير منع من ذِكر الله فيها ، كما تقول منعه من كذا،وخائفين حال من الواو في يدخلوها .

المعنى :

هذه الآية من الآيات التي تعددت الأقوال في تفسيرها ، وظاهرها يدل على التهديد والوعيد لمن لا يحترم المساجد ، أو مطلق المعابد ، ويمنع من عمارتها ، أو من التعبد فيها لله ، أو يعمل على هدمها ، أو اهمالها ، أو تعطيل الشعائر الدينية فيها .. وان الواجب الإلهي والانساني يفرض على كل انسان أن يقدس المعابد ، ويدخلها معظماً لها ، وخاشعاً لجلالها ، وخائفاً من عقاب الله راجياً لثوابه ، لا مستهتراً ومستخفاً ، لأنها انشئت لهذه الغاية ، ثم بيّن سبحانه ان من تعرّض بسوء للمعابد فان الله سبحانه يهينه ويذله في هذه الحياة ، ويعذبه غداً بعذابه الأكبر .

وبالاختصار ان الآية بحسب ظاهرها مجرد بيان ان من يفعل كذا يفعل الله به كذا وعليه فهي قضية كلية لا تستدعي وجود واقعة خاصة قد حدثت في

الماضي ، أو في زمن الخطاب ، أو منتظرة الحدوث .. ولكن المفسرين قالوا : انها اشارة الى حادثة خاصة ، ثم اختلفوا فيما بينهم : هل الحادثة المشار اليها قد وقعت قبل بعثة محمد (ص) ، أو بعد البعثة ؟ ثم ان الفريق الذين قالوا : انها إخبار عن شيء وقع قبل البعثة اختلفوا فيما بينهم أيضاً في تعيين ذاك الشيء الذي وقع ، فنهم من قال : ان الآية تخبر عما وقع من تيطس الروماني ، إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة ، وخربها ، حتى لم يبق حجراً على حجر ، وهدم هيكل سليمان ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك ، وقيل : ان تيطس خرب بيت المقدس بتحريض المسيحيين انتقاماً من اليهود .

ومن القائلين بأنها إخبار عما وقع قال : انها تخبر عما صنعه بختنصر البابلي من تخريب بيت المقدس ، وجاء في تفسير صاحب المنار ما نصه بالحرف : « ومن الغريب ان ابن جرير الطبري قال في تفسيره : ان الآية تشير الى اتحاد المسيحيين مع بختنصر البابلي على تخريب بيت المقدس، مع ان حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بستمائة وثلاث وثلاثين سنة »[1] .

وأيضاً من القائلين بأن الآية اخبار عما وقع من يرى : انها نزلت في مشركي قريش، حيث منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية .

أما الذين قالوا : ان الآية إخبار عن أمر منتظر الوقوع فأيضاً اختلفوا فيما بينهم ، فنهم من قال : انها اشارة الى اغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين .. ومنهم من قال : انها اخبار عما حدث من القرامطة من هدم الكعبة ، ومنع الناس من الحج ، ثم قال هذا الفريق بكلا قسميه : ان هذه الآية من معجزات القرآن ، لأنها أخبرت عن الغيب .

هذا ملخص ما قاله المفسرون .. ونحن لا نعتمد شيئاً منها ، حيث لا دليل

---

١ وتشاء الصدف ان اقرأ هذه السقطة للطبري في نفس اليوم الذي قرأت عنه مقالا مطولا في ملحق جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٥ مايو ، ايار ، سنة ١٩٦٧ ، وقد جاء فيه : « والطبري بلا شك عميد مؤرخي الإسلام ... وكتابه رئيسي في التفسير » . توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ أي منذ أكثر من الف وخمسين سنة ، وإذا كان هذا حال اسبق المؤرخين والمفسرين وأوثقهم ، فكيف يثق الإنسان بغيره ؟ وعلى من يعتمد ؟..

من العقل أو النقل تطمئن اليه النفس ، ونعتمد الظاهر من الآية التي لا يتنافى مع العقل،ولا دليل يصرفه الى غيره من النقل ، وهو وجوب احترام المعابد ، وتحريم التعرض لها ، ومجازاةُ من يقصدها بسوء .

من أحكام المساجد :

يستحب بناء المساجد ، واعمارها بذكر الله ، وتنظيفها ، واضاءتها ، ويحرم هتكها ، ودخول الجنب والحائض اليها ، ويستحب عند دخولها صلاة ركعتي التحية ، ويكره بناؤها في مكان مشرف ، لأن علياً أمير المؤمنين (ع) رأى مسجداً في مكان مشرف فقال كأنه بيعة ، أي معبد اليهود ، وفي الحديث : « تبنى المدائن شرفاً – أي في مكان مرتفع – والمساجد جماً » أي غير مشرفة من جمت الشاة ، وأيضاً يكره اتخاذ المحاريب فيها ، لأن أمير المؤمنين (ع) كان اذا رآها قال : كأنها مذابح اليهود[1] .. والمراد بهذه المحاريب المكروهة المحاريب البارزة بروزاً يضايق المصلين ، بل قال جماعة بتحريمها ، أما المحاريب في جوف فلا بأس بها ، والسيرة عليها .

ولله المشرق والمغرب الآية ١١٥ – ١١٧ :

وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ★ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ★ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ★

---

١ نقل صاحب مفتاح الكرامة عن جماعة من العلماء كراهية تعلية المساجد ، وقالوا : بل تبنى وسطاً ، كما نقل عن سبعة كتب فقهية كراهية المحاريب البارزة في المساجد ، والذي أحسبه ان المسلمين لم يهتموا بضخامة المساجد ، وفخامتها إلا تنافساً مع الكنائس والبيع ، وفي قول أمير المؤمنين (ع) : (كأنه بيعة) اشارة إلى ذلك .

اللغة :

الشرق والمشرق معناهما واحد ، وهو مطلع الشمس والقمر ، والغرب والمغرب والمغيب بمعنى واحد أيضاً ، وهو موضع الغروب ، وخص الله الشرق والغرب بالذكر دون الجنوب والشمال ، لأن الشرق والغرب يشملان الجميع ، إذ ما من مكان إلا وتشرق الشمس والقمر عليه ، أو يغيبان عنه ، ومن هنا كان تقسم الكرة الأرضية الى الشرق والغرب فقط ، لا إليها وإلى الجنوب والشمال . وثم في الآية بمعنى هناك . والقنوت معناه الدوام ، ثم استعمل بمعنى الطاعة والانقياد، وهذا المعنى هو المراد هنا .

المعنى :

(ولله المشرق والمغرب فأين مـا تولوا فثم وجـه الله) . أي ان الأرض والجهات والأشياء كلها لله ، فأينما تعبدتم ، وانّى اتجهتم قاصدين بالعبادة وجه الله فالله يتقبل منكم ، فمن مُنع من العبادة في المساجـد ، فليتعبد حيث شاء ، ويتجه الى أية جهة أراد ، فان الأرض كلها مسجد ، والجهات كلها قبلة ، وقال بعض المفسرين : ان التعميم في الآية للجهة فقط دون المكان، لقوله سبحانه « ولله المشرق والمغرب » .. وقد ذهل هذا المفسر عن قوله تعالى : (ان الله واسع عليم) معللاً به تعميم الجهة .. ومن المعلوم ان تعميم علة الحكم تستدعي تعميم الحكم بداهة تبعية المعلول لعلته ، والمسبب لسببه ، وبكلمة ما دامت الجهات والأماكن كلها لله فيصح التعبد له في كل مكان ، والاتجاه بالعبادة الى جميع الجهات .

وتسأل : ان ظاهر الآية يدل على ان المكلف مخير في أن يتجه بصلاته الى جميع الجهات ، ولا يتعين عليه التوجه الى خصوص الكعبة ، مع العلم بأن هذا خلاف ما أجمع عليه المسلمون ؟.

الجواب : أجل ، ان ظاهر الآية يدل على ذلك ، ويشمل الصلاة المفروضة والمستحبة في جميع الحالات ، ولكن ثبت عن النبي وأهل بيته (ص)، وبالاجماع

أيضاً ان المفروضة لا تصح مع الامكان إلا الى الكعبة ، وان المستحبة تصح حال المشي والركوب على الراحلة الى أية جهـة تكون ، وكذلك المتحير الذي يجهل جهة الكعبة تصح منه المكتوبة حيث يتجه بها مع عجزه عن الاحتياط ، وبهذه الأحاديث والاجماع نخصص قوله تعالى: «فأينما تولوا فثم وجه الله» نخصصها بالصلاة المستحبة حال المشي والركوب ، وبصلاة المتحير . وأيضاً بالأحاديث والاجماع نخصص الآية ١٤٩ من سورة البقرة : « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » نخصصها بالصلاة المكتوبة مع الاختيار،والنافلة مع الاستقرار [1] .

وبهذا يتبين الخطأ والاشتباه في قول من قال : ان قوله تعالى : فول وجهك شطر المسجد الحرام ناسخ لقوله سبحانه : فأينما تولوا فثم وجـه الله ، لأن من شروط النسخ التنافي والتعارض بين الناسخ والمنسوخ ، بحيث يرد الاثبات والنفي على موضوع واحد ، وقد عرفت ان موضوع فول وجهك شطر المسجد خصوص صلاة الفريضة والنافلة مع الاستقرار،وان موضوع أينما تولوا فثم وجه الله ــ ما عدا ذلك .

(وقالوا اتخذ الله ولداً) . قدمنا في تفسير الآية ١١٣ ان كلاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب قالوا : انهم وحدهم على حق،وغيرهم ليس بشيء ، أو ليس على شيء ، وعليه يكون الضمير في قوله تعالى : « وقالوا » راجعاً الى هذه الطوائف الثلاث ، وقد جاء في القرآن الكريم ان اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وان النصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وان مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله ، فلا جرم صحت هذه الحكاية عنهم جميعاً .

(سبحانه) كلمة تنزيه ، وفي آية ثانية : « سبحانه أن يكون له ولد » . لأن وجود الولد لله تعالى يستلزم العديد من المحاذير :

« منها » : ان التي تلد منه لا بد أن تكون من جنسه ، ليمكن الاستيلاد، والله لا جنس له ولا ند .

و « منها » : ان الولادة تستدعي المقاربة ، والمقاربـة تستدعي الجسمية ، والله ليس بجسم .

---

١ انظر تفسير الآية الآتية ١٤٢ ، فقرة « لماذا الصلاة إلى جهة معينة » فانها متممة لهذا التفسير .

و « منها » : ان السبب الموجب للولد هو الاحتيـاج له ، والمفروض ان الله غني عن العالمين .

و « منها » : ان الذي يلد لا بـد أن يكون مولوداً ، والمفروض ان الله غير مولود . قال أمير المؤمنين (ع) : « لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً أي يكون أبوه مشاركاً له في العز — ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً » أي يموت الأب فيرثه الابن . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

و « منها » : ان كل ما في السموات والأرض مخلوق ومملوك لله،والمخلوق المملوك لا يكون ابناً للخالق المالك ، ولا الخالق المالك أباً للمخلوق المملوك .. وبهذا يتضح وجه الاستدلال على نفي الولد عنه تعالى في قوله : « بل له ملك السموات والأرض » .

(كل له قانتون) . أي مطيعون منقادون .

وتسأل : ان (ما) تستعمل فيما لا يعقل ، و (قانتون) تستعمـل فيمن يعقل ، لأنه جمع بالواو والنون ، والمراد بـ (ما) هو عين المراد بـ (قانتون) فكيف صح التعبير عن الشيء الواحد بما لا يعقل تارة ، وبمن يعقل أخرى ؟.

الجواب : ان الأرض والسموات تشتمل على من يعقل ، وما لا يعقل ، وقد تضمنت الآية جملتين : احداهما أثبتت ملك الله لما حوته الأرض والسموات ، والثانية أثبتت طاعته لله .. وحين أراد الله سبحانه التعبير عن الملك غلب ما لا يعقل ، لأن الملك يتعلق به ، وحين أراد الطاعة غلب من يعقل،لأنها لا تصدر إلا عن عقل واختيار .

(بديع السموات والأرض) . المبدع هو المخترع والمبتكر الذي لم يأخذ من غيره ، ومنه قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها » ، وعليـه يكون المعنى:اذا كان الله هو منشىء السموات والأرض ومبدعها فكيف يُنسب اليه شيء مما فيها على انه ولد له ؟.

(واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) . هذا كناية عن عظمة الله وقدرته ، وانه بمجرد أن يريد يتحقق المراد ، سواء لم يكن شيء فيوجده بارادته من لا شيء ، أو كان شيئـاً ، وأراد تحويله الى شيء آخـر ، فيتحول .. وذكرنا في تفسير الآية ٢٦ — ٢٧ فقرة « التكوين والتشريع » ان لله ارادتين :

ارادة التكوين ، وارادة التشريع ، فراجع ان شئت .. ومن ارادة التكوين قوله تعالى في الآية ٥٩ سورة آل عمران : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

لولا يكلمنا الله الآية ١١٨ – ١٢٠ :

وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ★ إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ★ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ★

اللغة :

الملة الديانة ، ومثلها النحلة ، وفي الحديث : « الكفر ملة واحدة » . وجاء في تفسير روح البيان : « ان الطريقة المشروعة تسمى ملة باعتبار أن الأنبياء الذين أظهروها قد أملوها لأمتهم ، وتسمى ديناً باعتبار تدين العباد بها ، وتسمى شريعة باعتبار كونها مورداً للمتعطشين الى ثوابها » .

الاعراب :

تأتي لولا للامتناع ، وتدخل على جملتين : اسمية ، وأخرى فعلية ، نحو لولا زيد لأكرمتك،أي لولا زيد موجود ، فخبر المبتدأ يكون في الغالب مقدراً،

قال ابن مالك : « وبعد لولا غالباً حذف الخبر » . وأيضاً تأتي للتحضيض ، أي للحض على الفعل ، وتختص بالدخول على المضارع أو ما في معناه – كما قال ابن هشام في المغني – مثل لولا تستغفرون ، أي هلا تستغفرون .

المعنى :

(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) . ان الذين تمادوا في العتو والعناد ، قالوا لرسول الله (ص) : لن نؤمن لك ، حتى يقول الله لنا مشافهة : انك نبي ، أو يرسل الينا ملكاً يخبرنا بذلك ، أو تأتي بما نقترحه عليك من الآيات ، مثل ما حكاه الله عنهم في الآية ٩٠ وما بعدها من الاسراء: « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً – الى قوله – أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه » .

وقد أجاب الله عن ذلك بقوله : (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) . أي ان هذا التمادي في اقتراح الأباطيل لا يختص بمن اقترحها على رسول الله (ص) . فانْ قوم موسى قالوا له: (أرنا الله جهرة) . وقالوا أيضاً : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . وقالت النصارى لعيسى : (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) .. وهذا هو وجه الشبه بين من اقترح على محمد (ص) ، وبين من اقترح على موسى وعيسى (ع) ، الشبه الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (تشابهت قلوبهم) .

والمعقول الذي تجب اجابته اذا طُلب هو ان يؤيد الله رسوله بالبينات والدلائل التي لا تدع مجالاً للشك في نفس من خلصت نفسه من الشوائب والكدورات ، وتجرد للحقّ لوجه الحق ، وقد فعل الله ذلك ، وبين الدليل الكافي الوافي على نبوة محمد ، أما طلب الزيادة فتعنتٌ ومكابرة .. وبديهة ان المعاند اللجوج لا تجب اجابته .. بل يُهمل ويُعرض عنه .. والقوم الموقنون هم الذين يطلبون اليقين من وجهه والطريق الذي من شأنه أن يؤدي اليه .

المدلول ونوع الدليل :

قدمنا عند تفسير الآية ١١١ : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) ان كل دعوى تحتاج الى دليل، وإن الدليل يحتاج الى دليل ، حتى ينتهي الى أصل عام واضح بذاته ، لا يختلف فيه اثنان ، ونتكلم في هذه الفقرة عن نوع الدليل :

وهو يختلف باختلاف طبيعة الشيء المتنازع عليه ، فاذا أردنا – مثلاً – أن نعرف المواد التي يحتوي عليها جرم من الأجرام الطبيعية اعتمدنا التجربة والمختبر، وإذا أردنا أن نثبت وجود مدبر حكيم وراء الكون رجعنا الى العقل ، أو معرفة حكم من أحكام الشريعة الاسلامية استندنا الى الكتاب والسنة ، أو معرفة اللغة ومداليل الألفاظ تحتم الرجوع الى العرف واصطلاح العرب الأوائل ، وإذا كان هناك مسألة قانونية رجعنا الى القانون ، أو تاريخية رجعنا الى علماء الآثار والرواة الثقات .. وهكذا تختلف نوعية الدليل باختلاف طبيعة الحادثة التي يراد اثباتها ، وليس لأحد كائناً من كان أن يقترح من عندياته نوع الدليل ، أو يطلب المزيد من الاثبات بعد أن استكمل الاستدلال جميع العناصر الموجبة لليقين والاقناع .

وعلى هذا ، فإذا قام الدليل الكافي الوافي الذي استدعته طبيعة المدلول ، ثم اقترح مقترح دليلاً سواه ، أو المزيد من الاستدلال فهو مكابر لجوج يضرب بطلبه واقتراحه عرض الحائط..وقد تحدى محمد (ص) بالقرآن المشككين والمعاندين وثبت عجزهم وخذلانهم ، وتمت الحجة عليهم ، فاذا طلبوا الزوائد بعد العجز الفاضح كان طلبهم هذا من باب العناد واللجاج ، إذ لو كان غرضهم الحق بما هو حق لاقتنعوا به ، وأذعنوا له بعد أن ظهر بأكمل صوره وأجلاها .

(إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) . هذا تحديد لوظيفة النبي ومهمته ، وانه معلم ، لا مسيطر ، ومبين للحق ، لا مكره عليه ، فالآية تجري مجرى قوله تعالى : « قل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر – الكهف ٢٩ » . وفي الآية تسلية للنبي (ص) لئلا يضيق صدره بكفر من كفر ، وعناد من عاند .

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . قال صاحب مجمع البيان :

« سأل اليهود والنصارى محمداً (ص) ان يهادنهم ، وأظهروا له انه اذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه وآمنوا به فآيسه الله منهم ومن موافقتهم . وهذا يدل على انه لا يصح ارضاء اليهود والنصارى بحال من الأحوال ، لأنه تعالى علق رضاهم بأن يصير يهودياً أو نصرانياً ، واذا استحال ذلك استحال ارضاؤهم » .

والحقيقة ان أكثر أهل الأديان والأحزاب على هذه النزعة ، ولا خصوصية لليهود والنصارى في ذلك ، بل ان بعض الناس لا يرضى عنك الا اذا جعلت من نفسك عبداً له ، وقد استنكر القرآن الكريم هذه النزعة البغيضة ، ودعا الى التعايش الديني مع جميع أهل الأديان ، وقدس جميع الرسل والأنبياء،وذكرهم بكل خير ، وأوجب على أتباعه الاعتراف بهم والايمان بنبوتهم، وهذا من أقوى البواعث للتآخي بين أهل الملل والنحل ، وتعاون بعضهم مع بعض .

وعلى أية حال ، فان الله خص اليهود والنصارى بالذكر ، كي ييأس النبي ويقنط من متابعتهم له ، كما قال صاحب المجمع .

(قل ان هدى الله هو الهدى) . قدمنا عند تفسير الآية ٢٦ : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » فقرة « الهدى والضلال » ان الهدى يطلق على معان : منها بيان الحق ، ومنها التوفيق الى الهداية وعمل الخير ، ومنها الثواب الخ .. والمراد بالهدى هنا الاسلام الذي أوحاه الله الى نبيه محمد (ص) ، وما عداه هوى ، لا هدى .. والمعنى قل يا محمد لليهود والنصارى : ان ما أنا عليه هو الحق ، وما أنتم عليه باطل وضلالة ، فكيف أترك الحق ، واتبع الضلال ؟.

أعداء الدين والمبدأ :

أخبر الله جل وعز نبيه الكريم بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه ، حتى يتبع ملتهم ، ومع علمه سبحانه بعصمة نبيه محمد (ص)،وانه لن يتبع أهواءهم بحال فقد وجه اليه هذا التحذير : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير) .

وذكر المفسرون لصحة هذا النهي والتحذير وجهين : الأول ان المعصية ممكنة الصدور من النبي ذاتاً ، ممتنعة عرضاً ، أي انه يترك المعصية مع قدرته على فعلها ، والا لم يكن له فضل في تركها ، وجاء النهي والتحذير بالنظر الى ما هو ممكن بالذات ، بغض النظر عما هو ممتنع بالعرَض ، أي بلحاظ العصمة .

الوجه الثاني : ان الخطاب هنا من باب « اياك أعني واسمعي يا جارة » . أي هو موجه للنبي في الظاهر ، وللناس في الواقع .

وقد تصورت وجهاً ثالثاً : وهو ان النبي ربما دار في خلده أن يتقرب من اليهود إلى حد ما .. عسى أن يهتدوا ، أو يستعين بهم على ما يبتغيه من الخير ، أو يخفف من غلوائهم ، ويكفّ بعض شرورهم .. فبين الله له ان اعداء الدين والمبدأ لا يرضيهم منك شيئاً إلا أن تترك ما أنت عليه من الحق ، وتتبع ما هم عليه من ضلال .. ثم نهاه عن مهادنتهم والتقرب منهم ، لأن ذلك يساعدهم ، ويشد من عضدهم من حيث لا يريـد ، وهذه التقوية والمساندة محرمة عليك يا محمد ، وعلى غيرك ، تماماً كما يحرم اتّباع دينهم .. هذا ، الى أن اليهود قد جُبلوا على الشر والفساد ، ومعاندة الحق وأهله ، والاساءة إلى من أحسن اليهم ، ولا تجدي معهم أية محاولة للسلم ، وكف الأذى .. وخير الأجوبة ان الله أن يأمر وينهى المعصوم كما يأمر وينهى غير المعصوم، بالنظر لجلاله سبحانه ، وإذا كان من فرق بين المعصوم وغيره فهو بالنسبة الى غيره تعالى لا بالنسبة اليه.

ثم ان هذا النهي والتحذير يدمغ من يتملق لأعداء الدين والوطن متذرعاً انه يريد استغلالهم لمصلحـة المؤمنين .. ولكن العكس هو الصحيح فان عدو الدين والمبدأ والوطن لا يسالم إلا على أساس التجارة والمساومة، وان يكون هو الرابح دائماً وشعاره الوحيد خذ ولا تعطِ ، فان لم تستطع فخذ أكثر مما تعطي .. ولقد بين الله جل وعز حقيقة هؤلاء التجار بأوضح بيان وأبلغه ، حيث قال : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة – ٩٦ البقرة » .

يتلونه حق تلاوته الآية ١٢١ – ١٢٣ :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ

يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ★ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ★ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ★

الاعراب :

جملة يتلونه حال من الضمير في آتيناهم ، وحق قائم مقام المفعول المطلق ، أي يتلونه تلاوة حقاً ، وهم في (فأولئك هم الخاسرون) ضمير فصل لا محل له من الاعراب عند النحاة ، مثل كان زيد هو القائم .

المعنى :

(والذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به) . بعد أن بين الله لنبيه محمد (ص) ان النصارى واليهود لن يؤمنوا به ، بل لن يرضوا عنه ، حتى يتبع ملتهم استثنى الطيبين المنصفين منهم ، وهم الذين أسلموا وآمنوا بمحمد (ص) ، وعبر عنهم بالذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، والمراد بالكتاب كل كتاب أنزله الله ، سواء في ذلك القرآن ، والتوراة والانجيل – كما أنزلها الله – لأنه سبحانه لم يعين كتاباً خاصاً ، وعدم التخصيص والتعين دليل العموم ، ومعنى يتلونه حق تلاوته يتدبرون معانيه ، ويعملون بأوامره ونواهيه ، لا مجرد تجويد القراءة ، وضبط الكلمات ، واخراج الحروف من مخارجها ، فان هذه ليست بشيء إذا لم يكن معها تدبر واتعاظ ، وفي الحديث الشريف: ما آمن بالقرآن من استحل محارمه .

وجملة القول ان كلاً من التوراة والانجيل قد بشر بنبوة محمد (ص) ، كما ان القرآن قد دل على صدقه ، وبالفعل قد أسلم كثير من اليهود والنصارى والمشركين الذين تدبروا الآيات ، وتجردوا للحق بما هو حق .

(ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون) . أي من كفر بما أنزل الله الذي يستلزم الكفر به الكفر بمحمد (ص) فهو من الخاسرين لا محالة ، لأنه تماماً كمن كفر بالله .. وبديهة انه لا خسران أعظم من خسران الآخرة ونعيمها الباقي ببقاء الله سبحانه .

(يا بني اسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) . مضى تفسيرها في الآية ٤٠ ، وقد كرر الله سبحانه تذكير اليهود بنعمته في العديد من الآيات ، والغرض تقريعهم وتوبيخهم بأبلغ أسلوب وأحكمه .. ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) . مرّ تفسيرها في الآية ٤٨ .

بين مجتهد ومقلد :

دعا الشيخ محمد عبده الى الاجتهاد ، ونعى على أهل التقليد ، وكان له حلقة في الأزهر يفسر فيها القرآن ،وعندما وصل الى قوله تعالى : « يتلونه حق تلاوته » قال :

« ان الذي يتلو القرآن لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، لاحظ له من الايمان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسراره ، ولا يعرف هداية الله فيه ، وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية ، حتّى ولو فهم القارىء مدلولاتها ،لأن هذا الفهم من قبيل التصور ،والتصور خيال يلوح ويتراءى ،ثم يغيب ،وانما الفهم الصحيح فهم الايمان والتصديق ممن يتدبر الكتاب مستهدياً مسترشداً ملاحظاً انه مخاطب بآياته ليهتدي بها ، ويسترشد بمعانيها » .

فاعترض عليه بعض الشيوخ المقلدين قائلاً : ان العلماء قالوا : القرآن يُتعبد بتلاوته .

فأجابه الشيخ عبده : ولكن الله قال : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب – ص ٢٩ » . ومن رأي الشيخ عبده ، كما في تفسير المنار : ان على كل مسلم أن يقرأ القرآن ، أو يسمعه كله ، ولو مرة واحدة في عمره .

لا ينال عهدي الظالمين الآية ١٢٤ :

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ★

اللغة :

الابتلاء الاختبار ، والمراد به هنا التكليف ، والكلمات مفردها كلمة، والمراد بها الأوامر والنواهي ، ومنها تكليفه بذبح ولده ، والمراد باتمهن هنا الطاعة والاستجابة ، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) ان الله ابتلى ابراهيم بذبح ولده اسماعيل ، فعزم على ذلك .

الاعراب :

ابراهيم مفعول مقدّم ، وربه فاعل مؤخر ، والضمير عائد على ابراهيم، وهو مؤخر لفظاً متقدم رتبة ، لأن رتبة الفاعل متقدمة على رتبة المفعول ، وقال النحاة : لا يجوز تقديم الضمير لفظاً ورتبة ، لأن من شأنه أن يعود على سابق اما لفظاً واما رتبة ، ولا يجوز أن يعود على متأخر لفظاً ورتبة .

المعنى :

(واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) . ابراهيم الخليل (ع) أبو الأنبياء تقرّ وتعترف بنبوته الديانات السماوية الثلاث : الاسلام والمسيحية واليهودية ، ويعظمه مشركو العرب ، لانتسابهم الى ولده اسماعيل (ع) ، ولأنهم خدمة الكعبة وحماتها التي بناها ابراهيم وولده اسماعيل[1] .

---

١ قال صاحب البحر المحيط : ان ابراهيم هو الجد الحادي والثلاثون لمحمد ، وهو ابراهيم بن تارح بن ناجور ابن ساروغ بن ارغو بن فالغ بن عابر ، وهو هود النبي ، ومولده بأرض الاهواز .

بيّن الله سبحانه انـــه أمر ابراهيم ببعض التكاليف كذبحه ولده – مثلاً – فوجده أميناً وفياً ، فعنى اتمهن امتثل وأطاع ، وقد وصف الله ابراهيم بالوفاء في الآية ٣٧ من النجم : « وابراهيم الذي وفّى » .

(قال – أي الله – اني جاعلك للناس إماماً) . هذه بشارة من الله لابراهيم بالتفضل عليه بالأمامة ابتـــداء ، ومن غير طلب منه ، جزاء لاخلاصه ووفائه وتضحيته .

(قال – أي ابراهيم – ومن ذريّتي) . هذا رجاء ودعاء من ابراهيم (ع) ان يمن الله سبحانه على بعض ذريته – لأن من هنا للتبعيض – بالامامـة ، كما منّ عليه .. وهنا تتجلى عاطفة الوالد للولد ، حيث طلب ابراهيم السعادة العظمى لبعض ذريته ، ولم يطلبها من الله لنفسه ، بل تفضل الله عليه بها ابتداء .

(قال – أي الله – لا ينال عهدي الظالمين) . وهـــذا القول استجابة من الله لابراهيم ان يتخذ أئمة من ذريته ، على شريطة أن يكونوا مثله أوفياء أتقياء لأن الهدف من الامام أن يمنع المعصية ، فكيف يكون عاصيـــاً .. ولست أرى كلمة أدل على عدل الإمام ورحمته بالمحكومين من قول علي (ع) ، وهو خليفة المسلمين : « لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي » .. حاكم يخاف ظلم المحكومين له ، وقوي يخشى استبداد الضعفاء به .. علي الذي لا يبالي أسقط على الموت ، أم سقط الموت عليه .. علي ، وقد أصبح مصدر القوة والسلطة يخاف من رعيته .. وكان ينبغي العكس .. كما هو المألوف المعروف.. ان هذا خارق للمعتاد ، وكل خلاله من الخوارق والمعجزات .

الإمامة وفكرة العصمة :

يطلق لفظ الإمام في اللغة على معانٍ : منها الطريق : لأنـه يقود السائر الى مقصده ، ومنها ما يقتدي الناس به في هداية ، أو ضلالة ، قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » .. وقال في آية أخرى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » . وقد يكون الانسان إماماً إذا كان متبوعاً في شيء ، ومأموماً تابعاً في شيء آخر.. هذا بحسب اللغة ، أما بحسب الدين والشرع فان الإمام يطلق على من يؤم الناس

في الصلاة إلا أنه لا يستعمل في ذلك إلا مقيداً ، فيقال إمام الجمعة والجماعة .. وإذا كان مطلقاً غير مقيد فانه يستعمل في معنيين : الأول في النبي ، ومرتبته أعلى مراتب الإمامة . الثاني يستعمل في وصي النبي .. والإمام بمعنى إمامة النبوة والرسالة ، وامام الوصاية والخلافة متبوع في كل شيء غير تابع لغيره في شيء في زمن إمامته .

والإمام بمعنى النبي يفتقر الى النص من الله بواسطة الروح الأمين ، وبمعنى الوصي لا بد فيه من النص من الله سبحانه على لسان نبيه الكريم ، وشرط هذا النص أن يكون بالاسم والشخص ، لا بالصفات وصيغة العموم فقط ، كما هي الحال في المجتهد والحاكم الشرعي ، بل بالنص الخاص الذي لا يقبل التأويل ، ولا التخصيص ، ولا مجال فيه اطلاقاً للبس ، أو احتمال العكس ، ومن هنا يتبين ان اطلاق لفظ الإمام من غير قيد على غير النبي ، أو غير الوصي محل توقف وتأمل ، وغير بعيد أن يكون محرماً ، تماماً كاطلاق لفظ وصي النبي على غير الإمام المعصوم .

ومهما يكن ، فان قول هذا الإمام نبياً كان ، أو وصياً هو قول الله ، وهداه هدى الله ، وحكمه حكم الله الذي لا يحتمل العكس .. ومن ادعى شيئاً من ذلك لنفسه دون أن يثبت النص القطعي عليه بالخصوص فهو مفتر كذاب.. وخير ما قرأته في صفة الإمام قول الإمام الأعظم زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية : « اللهم انك أيدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ، ومناراً في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك ، وجعلته الذريعة الى رضوانك ، وافترضت طاعته ، وحذرت معصيته ، وأمرت بامتثال أوامره ، والانتهاء عند نهيه ، وان لا يتقدمه متقدم ، ولا يتأخر عنه متأخر - أي يبقى متابعاً له - فهو عصمة اللائذين ، وكهف المسلمين ،وعروة المؤمنين ، وبهاء رب العالمين » .

هذه هي أوصاف من يختاره الله إماماً لعباده .. وبديهة ان الإمامة بمعنى النبوة والوصاية تستدعي العصمة ، ولا تنفك عنها بحال ، بل هي هي ، لأن الأعمى لا يقود أعمى مثله ، والأقذار لا تطهر أقذاراً مثلها ، ومن كان عليه الحد لا يقيم على غيره الحد .

واستدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى : (جاعلك للناس إماماً) على ان الإمامة

لا تكون الا بجعل من الله سبحانه ، ويؤيده طلب ابراهيم منه جل وعز ان يجعل أئمة من ذريته ، واذا كانت الإمامة بالجعل منه تعالى احتاجت بحكم الطبيعة الى النص منه .

وأيضاً استدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى : « لا ينال عهدي الظالمين » على وجوب العصمة للنبي والوصي ، ووجه الدلالة ان الله قد بيّن صراحة انه لا يعهد بالإمامة الى ظالم ، والظالم من ارتكب معصية في حياته مهما كان نوعها ، حتى ولو تاب بعدها ، حيث يصدق عليه هذا الاسم ، ولو آناً ما ، ومن صدق عليه كذلك فلن يكون إماماً .

وتشاء الصدف والظروف أن ينشأ غير علي في حجر الشرك والرجس ، وعبادة الأصنام ، وان ينغمس في أرجاس الجاهلية الى الآذان ، وان لا ينطق بالشهادة الا بعد أن عصيّ عوده ، وبعد أن شبعت الأصنام منه ، ومن سجوده لها ، وشاء الله لعلي بن أبي طالب أن ينشأ في حجر النبوة والطهر ، وان يُكيّفه محمد (ص) وفقاً لارادة الله ، وهو طري ندي ، وان ينزل الأصنام من على عروشها ، ويلقي بها تحت أقدام محمد .

وهنا سؤال نلقيه على كل عاقل منصف ، ليجيب عنه بوحي من عقله ووجدانه ، وهو :

مال لقاصر ورثه عن أبيه ، ولا بد له من ولي يحرص ويحافظ عليه ، ودار الأمر بين ان نولي عليه رجلاً لم يعص الله طرفة عين مدى حياته ، لا صغيراً ، ولا كبيراً ، وبين أن نولي عليه رجلاً عصاه أمداً طويلاً ، وهو بالغ عاقل ، ثم تاب وأناب ، فأيهما نختار : الأول أو الثاني ؟.

ويكفي دليلاً على عصمة أهل البيت (ع) شهادة الله لهم بالعصمة في الآية ٣٣ من الأحزاب : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيراً» .. وتكلمنا عن العصمة مفصلاً عند تفسير الآية ٣٩ فقرة « عصمة الأنبياء » . وفقرة « أهل البيت » فراجع ، وهذه الفقرة تتمة للفقرتين السابقتين .

وفكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم ، فان السنة قالوا بها ، ولكنهم جعلوها للامة ، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » .. والمسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس

ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة انطون سعـــادة ، والاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا ، وكل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليلاً فقد قال بعصمته من حيث يريد أو لا يريد .

وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماو تسي تونـغ – نحن الآن في سنة ١٩٦٧ – ويشيدون بتعاليمه،واذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فانهم يختلفون في تفسير أقوال الرؤساء والمراد منها،لا في وجوب العمل بها ، والولاء لها، تماماً كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن،والمسيحيون في تفسير الانجيل .. ومن خص العصمة بالشيعة فهو واحد من اثنين : اما جاهل مغفل ، واما مفترٍ متآمر .

واذ جعلنا البيت مثابة الآية ١٢٥ – ١٢٦ :

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَـــةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ★ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـــرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ★

اللغة :

البيت بوضعه واطلاقه يشمل كل بيت،ولكنه أصبح علماً على الكعبة المشرفة ، لكثرة استعماله فيها من غير قيد ، وثاب معناه رجع ،ومثابة اسم لمكان الرجوع، والتاء في مثابة للمبالغة ، لا للتأنيث ، والطواف الدوران ؛ والعكوف والاعتكاف الاقامة على الشيء والملازمة له .

الإعراب :

رب منادى مضاف الى ياء المتكلم ، أي يا ربي ، وحذف حرف النداء ، والياء للتخفيف ووضوح المعنى ، وكسرت الباء للدلالة على ياء المتكلم المحذوفة، ومن في قوله تعالى: «من آمن منهم» بدل بعض من كل وهو أهله .. ومن في قوله: « ومن كفر » يجوز أن يكون محلها النصب على أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره قال الله : وارزق أيضاً من كفر، وفأمتعه معطوف على الفعل المحذوف ، ويجوز أن تكون مَن هذه مرفوعة بالابتداء ، وجملة فامتعه خبر ، وجاز دخول الفاء على الخبر لشبه اسم الموصول باسم الشرط .

المعنى :

(واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) . واذ جعلنا عطف على قوله : واذ ابتلى ، والمعنى ان الله سبحانه قد جعل بيته مقصداً للناس تؤمه أفواج منهم لاداء المناسك ، وبعدها يتفرقون الى بلادهم ، ثم يرجع اليه أفواج أخرى ، وهكذا دواليك .. وأيضاً جعله آمناً في الآخرة ، لأن الانسان متى بلغه وأدى المناسك رجع الى نفسه وانقطع الى ربه وتاب اليه من ذنوبه ، وبهذا يكون البيت وسيلة للخلاص من العذاب والعقاب ، كما جعل الله بيته امناً في الدنيا ، لأن ساكنه يأمن على نفسه ، ولا يتعرض له أحد بسوء ، وقد كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه ، فيتجاهله ، وهذه عادة موروثة منذ عهد اسماعيل (ع) الى يومنا هذا .

التجاء الجاني الى الحرم :

جاء في كتاب الجواهر ، وهو أعظم مصدر لفقه الجعفرية، ما نصه بالحرف: « لا يقام الحد اطلاقاً في الحرم على من التجأ اليه ، لقوله تعالى : « من دخله كان آمناً » بل يضيق عليه في المطعم والمشرب ، ويُقتصر على ما يُسد الرمق، ليخرج ويقام عليه الحد، فقد جاءت الرواية الصحيحة عن الإمام جعفر الصادق(ع)

في رجل يجني في غير الحرم ، ثم يلجأ الى الحرم قال : لا يقام عليه الحد ، ولا يطعم ، ولا يسقى ، ولا يكلم ، فإنه إذا فُعل به ذلك يوشك أن يخرج ، فيقام عليه الحد ، وان جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم ، لأنه لم يرَ للحرم حرمة » .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز قتل من التجأ الى الحرم ، واستدل بقوله تعالى: « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » .

(واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) . واتخذوا بكسر الخاء،وهو أمر بالصلاة في مقام ابراهيم ، لأن معنى مصلى مكان الصلاة .. وقد أجمع الفقهاء على أنه يستحب الاتيان بركعتي الطواف فيه مع الإمكان ، والمفهوم من مقام ابراهيم المقام المعروف الموجود الآن في المسجد ، أما قول من قال : ان المراد به المسجد بكامله فيحتاج الى دليل .

(وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود). أنْ في قوله تعالى : (ان طهراً) مفسرة لعهدنا،فهي بمعنى أي ، ولا محل لها من الاعراب ، والمعنى وصينا ابراهيم واسماعيل بأن يحترما البيت ، ويبعدا عنه كل ما لا يليق به من الأصنام والنجاسات والأوساخ واللغو والرفث والفسوق والجدال ، ونحو هذه ، وأن يأمرا الناس بذلك ، و (الطائفين) الذين يدورون حول البيت ، و (العاكفين) أو المعتكفين من أقاموا في المسجد ولازموه ، أو جاوروه للعبادة ، و (الركع السجود) هم المصلون ، جمع راكع وساجد .

(واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً) . هذا دعاء ورجاء من ابراهيم الى الله أن يجعل مكة المكرمة من الأمكنة الآمنة ، أي يأمن أهلها من الغزاة والجبابرة ، ومن الزلازل والعواصف ، ونحو ذلك .. وقال جماعة من المفسرين: ان الله قد استجاب دعاء ابراهيم ، حيث لم يقصد أحد مكة بسوء إلا قصم الله ظهره ، ومن تعدى عليها لم يطل زمن تعذيبه .

(وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) . لما بنى ابراهيم البيت في أرض مقفرة لا ماء فيها ولا كلأ دعا الله سبحانه لهذه الأرض بالأمن والأمان ، وبأن تجبى اليها الأرزاق ، ولم يعين نوعها ، ولا أرضها ، إذ المهم وصول الرزق كيف كان ، ومن أين كان .. وقد استجاب الله دعوة ابراهيم،

فجبي الرزق الى مكة من شتى الأنواع والأقطار ، وكانت ممراً للقوافل ، ومقراً للتجارة .. وإلى هذا أشارت الآية ٥٧ من القصص: « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء » . وانما خص ابراهيم طلب الرزق للمؤمنين فقط ، لأن الله كان قد أعلمه ان في ذريته قوماً ظالمين ، وانه سبحانه لا يعهد بالإمامة الى من ظلم .

(قال ومن كفر فأمتعه قليلاً) . أي قال الله لابراهيم : اني أرزق أيضاً الكافرين ، وبالأولى الفاسقين ، لأن الرزق شيء ، والامامة شيء آخر ، فان الإمامة سلطة دينية وزمنية ، وهذه تستدعي الإيمان والعدالة ، بل العصمة : أما الرزق فيكون للبر والفاجر ، تماماً كالماء والهواء .. والذنوب والمعاصي لا تأثير لها في الأعمار والأرزاق في هذه الحياة ، وانما يظهر تأثيرها غداً يوم القيامة ، حيث يلاقي العصاة جزاء أعمالهم .

واذ يرفع ابراهيم القواعد الآية ١٢٧ - ١٢٩ :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ★ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ★ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ★

تاريخ الكعبة :

اختلف المفسرون والمؤرخون في تاريخ الكعبة : هل كانت قبل ابراهيم (ع) ثم عرض لها الخراب ، فجددها هو وولده اسماعيل بأمر الله تعالى ، أو ان

تاريخ بنائها وانشائها يبتدىء بابراهيم ؟.

ذهب أكثر أهل التفسير والتاريخ من المسلمين الى انها أسبق بكثير من ابراهيم، وقال البعض : بل ولدت الكعبة على يد ابراهيم (ع) ، وتوقف آخرون ، ولم يحكموا بشيء ، وقالوا : الله أعلم . ونحن مع هؤلاء .. ذلك ان العقل لا مجال له في هذا الباب سلباً ولا ايجاباً،والطريق الى معرفته ينحصر بالآثار والحفريات ، أو بآية قرآنية ، أو سنة قطعية .

ولم أطلع على أقوال الباحثين في الآثار والحفريات ، والقرآن لم يحدد صراحة تاريخ البناء ، وكل ما جاء فيه ان ابراهيم وولده اسماعيل قد باشرا بناء البيت ، وتعاونا معاً على اقامته ، وهذا أعم من عدم وجوده اطلاقاً من قبل ، أو كان موجوداً ، ولكن عرض له الخراب والدمار ، ثم جدده ابراهيم وولده اسماعيل.

والسنة القطعية منتفية ، والأخبار الواردة في هذا الباب كلها آحاد ، والخبر الواحد حجة في الأحكام الشرعية فقط[1] ، أو فيها وفي موضوعاتها على قول ، أما في العقائد ، والمسائل التاريخية ، والموضوعات الخارجية البحتة فليس بحجة الا مع قرينة توجب ركون النفس واطمئنانها ، وعندها يكون الخبر بحكم السنة القطعية .

ومهما يكن ، فنحن غير مسؤولين أمام الله سبحانه ، ولا مكلفين بمعرفة تاريخ بناء الكعبة ، وزمن انشائها وولادتها ، وانها : هل هي جزء من الجنة ، أو قطعة من الأرض ؟. وان آدم والأنبياء من بعده قد حجوا اليها ، أو لا ؟. وانها عند الطوفان : هل ارتفعت الى السماء ، ثم نزلت بعده الى الأرض ؟. وان الحجر الأسود : هل جاء به جبريل من السماء ، أو صحبه آدم معه من الجنة،أو تمخض عنه جبل أبي قبيس ؟. وانه : هل اسودّ من ملامسة المذنبين؟. الى غير ذلك مما لا سند له الا خبر واحد ، أو قصّاص مخرف .

---

[1] أغرب ما قرأت في هذا الباب قول السيد الطباطبائي في تفسير الميزان ج ١ ص ١٩٦ : « ان عدم صحة أسانيد الأخبار لا يوجب طرحها ما لم تخالف العقل أو النقل الصحيح » .. ومن المعلومات البديهية أن عدم مخالفة العقل والنقل الثابت شرط لما ثبت صحته من الاخبار سنداً ، لا لما لم يثبت منها ، فان عدم ثبوت صحة السند كاف لطرح الخبر ، من غير اضافة شرط آخر .. والا لزم العمل بكل خبر غير صحيح إلا إذا خالف العقل أو النقل الثابت .. وفساده ظاهر بالبديهة .

نحن غير مسؤولين عن شيء من هذه الأشياء ، ولا مكلفين بمعرفتها وجوباً ولا استحباباً ، ولا عقلاً ولا شرعاً .. ولا فائدة في بحثها دينية ولا دنيوية ، وقد عاشت هذه الأبحاث وما اليها حيناً من الدهر ، ثم ذهبت مع الريح .. ومن أراد احياءها فانه تماماً كمن يحاول ارجاع عقارب الساعة الى الوراء .

ان الشيء الذي نُسأل عنه ، ونطالب به - فيما يعود الى الكعبة - هو قصدها للحج والعمرة من استطاع الى ذلك سبيلاً ، واحترامها وتقديسها ، والمحافظة عليها ، والذب عنها بالنفس والنفيس اقتداء بالرسول الأعظم وأهل بيته (ص) ، وأصحابه والتابعين والعلماء وجميع المسلمين .. فانهم يؤمنون ايماناً لا تشوبه شائبة بأن تعظيم بيت الله تعظيم لله ، والحرص عليه حرص على حرمات الله ، والذب عنه ذب عن دين الله .. قال أمير المؤمنين (ع) :

« فرض الله عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام يردونه ورود الانعام ، ويألهون - أي يفزعون - اليه ولوه الحمام ، جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته ، واذعانهم لعزته .. جعله سبحانه للاسلام علماً ، وللعائذين حرماً » .

(ربنا تقبّل منا) . هذا دعاء من ابراهيم واسماعيل أن يثيبهما الله على هذا العمل ، لأن معنى القبول عند الله هو الثواب على العمل الذي يقبله ، كما ان عدم الثواب على العمل معناه رده ورفضه ، ولا تفكيك بموجب كرم الله وجوده ، وليس من شك ان الله قد قبل دعاءهما ، وأجزل لهما الثواب على هذه الطاعة ، لأنه هو الذي فتح باب الدعاء ، وما كان ليفتح على عبد باب الدعاء ، بخاصة المتقي ، ويغلق عنه باب الاجابة ، كما قال أمير المؤمنين (ع) .

(ربنا واجعلنا مسلمين لك) . المسلم ، والمسلّم ، والمستسلم بمعنى واحد ، وهو الذي يذعن وينقاد ، والمراد به هنا من أخلص لله في عقيدته وأعماله ، وليس من شك ان السعيد الحميد هو الذي يسلم لله جل وعز جميع أموره وشؤونه .

(ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقد استجاب الله دعاءهما ، وجعل في ذريتهما ملايين الملايين من المسلمين .

الشيعة وأجداد النبي :

اختص الشيعة من دون جميع الطوائف الاسلاميـة ، اختصوا بالقول : ان آباء محمد وأجداده ، وأمهاته وجداته كانوا جميعاً موحدين ، ما اشرك أحدهم بالله شيئاً ، وان محمداً منذ الخليقة كان ينتقل من الاصلاب الطاهرة الى الأرحام المطهرة حتى ساعة ولادته (ص) .

قال شيخ الشيعة الشهير بالمفيد في شرح عقائد الصدوق طبعة ١٣٧١ هـ ص٦٧ : « ان آباء النبي (ص) من أبيه الى آدم كانوا موحدين على الإيمان بالله ، وعليه اجماعنا . قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً : « وتقلُّبك في الساجدين – الشعراء ٢١٩» . وقال الرسول الأعظم (ص) : ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحـام المطهرات ، حتى أخرجني الله تعالى في عالمكم هذا .. فدل قول النبي على ان آباءه كلهم كانوا مؤمنين ،اذ لو كان بعضهم كافراً لما استحق الوصف بالطهارة ، لقوله تعالى : انما المشركون نجس ، فحكم على الكفار بالنجاسة ، فلما قضى رسول الله (ص) بطهاره آبائه كلهم ووصفهم بذلك دل على انهم كانوا مؤمنين » .

(وأرنا مناسكنا) . أي علمنا مناسك الحج ، وغيرها من العبادات .

(وتب علينا) . وليس من الضروري أن يلازم طلب المغفرة وجود الذنب ، بخاصة اذا كان الطلب من الأنبياء والأوصياء ، لأن هؤلاء الكرام يرون أنفسهم مقصرين في حق الله مهما اجتهدوا في العبادة لله ، وأخلصوا لجلاله ، لأنهم أدرى الناس بعظمته ، وبأن عبادة الانسان بالغة ما بلغت فلن تفي ببعض الحق لتلك العظمة التي لا بداية لها ، ولا نهاية .

(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) . واستجاب الله هذه الدعوة بخاتم النبيين وسيد المرسلين ، فلقد جاء في أحاديث السنة والشيعة ان النبي قال : « انا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى » .. وفي سورة الجمعة : « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .. وقال أمير المؤمنين (ع) : « بعث الله محمداً (ص) وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ، ولا يدعي نبوة ولا وحياً » .

البشارة بالمهدي المنتظر :

وكما بشر الأنبياء بمحمد (ص) فقد بشر هو بالمهدي المنتظـر من ولده ، ووضعت أنا كتاباً في ذلك ، أسميته « المهدي المنتظر والعقل » نقلت فيه أحاديث كثيرة من طرق السنة والشيعة ، ونفدت نسخ الكتاب ، فأعادت « دار العلم للملايين » طبعه مع كتاب الله والعقـل . الآخرة والعقـل . النبوة والعقـل ، وجمعت الأربعة في كتاب واحد باسم « الاسلام والعقل » ، واجمع ما قرأته في هذا الباب كتاب : « منتخب الاثر في الإمام الثاني عشر » للسيد لطف الله الصافي ،بلغ أكثر من خمسمئة صفحة بالقطع الكبير ،وهو أفضل المصادر اطلاقاً .. وبعد أن طبع كتاب « المهدي المنتظر والعقل » اطلعت على كلام طويل لمحي الدين الشهير بابن عربي حول المهدي أنقل طرفاً منه فيما يلي :

قال في الجزء الثالث من الفتوحات المكية طبعة دار الكتب العربية ص ٣٢٧ وما بعدها :

« ان لله خليفة يخرج ، وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملأها قسطاً وعدلاً .. وهذا الخليفة من عترة رسول الله (ص) من ولد فاطمة (ع) يواطىء اسمه اسم جده رسول الله .. يُبايَع بين الركن والمقام،يشبه رسول الله في خلقه.. وهو أجلى الجبهة ، أقنى الأنف .. يؤم الناس بسنة رسول الله (ص) .. وقال عنه جده النبي يقفو أثري لا يخطىء ، وهذه هي العصمة » .

ومن يرغب عن ملة ابراهيم الآية ١٣٠ ـ ١٣٤ :

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ★ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّـهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ★ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ★ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ★ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★

اللغة :

أصل السفه الاستخفاف والاستهتار ، وكـل من تصرف في نفسه أو ماله تصرفاً مضراً به ، وخارجاً عما هو مألوف عند العقلاء فهو سفيه مستهتر ، ولكن ضرر السفيه يختص به وحده . والاصطفاء الاختيار والانتقاء ، والمراد بحضور الموت حضور دلائله وشواهده .

الاعراب :

من يرغب استفهام ، يتضمن النفي والاستنكار ، أي لا أحد يرغب ، والذي يدل على ان من معناها النفي وجود الا بعدها ، ومن سفه من اسم موصول في محل رفع بدل كل من كل من الضمير المستتر في يرغب ، ويجوز نصب من عـلى الاستثناء ، ولفظ نفسه منصوب على التمييز ، مثـل فان طبن لكم عن شيء نفساً ، ويجوز أن يكون مفعولاً لسفه المخففة على أن يراد بها سفه المشددة ، أي صير نفسه سفيهاً ، (واذ حضر) اذ ظرف متعلق بشهداء ، و (اذ قال) اذ متعلق بحضر ، وما تعبدون (ما) استفهام مفعول لتعبدون ، وابراهيم واسماعيل واسحق بدل من آبائك ، ويقال له بدل مفصل من مجمل

المعنى :

(ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) . هـذا توبيـخ من الله

لليهود والنصارى ومشركي العرب الذين لم يؤمنوا بمحمد ، وسر التوبيخ والتقريع ان اليهود يفتخرون بنسبتهم الى اسرائيل ، واسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، والنصارى يفتخرون بعيسى ، وعيسى يتصل نسبه من جانب الأم باسرائيل أيضاً ، أما مشركو العرب فسائرهم عدنانيون يرجعون بنسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم ، بالاضافة الى انهم نالوا الخير في الجاهلية ببركة البيت الذي بناه ابراهيم .. فالكل – اذن – يفتخرون بابراهيم ، وملة ابراهيم ، والمعلوم ان محمداً (ص) من نسل ابراهيم ، وعلى ملة ابراهيم ، وعليه فمن كفر بمحمد وملته فقد كفر بابراهيم وملته .. وليس من شك ان من يكفر بمصدر عزه وافتخاره فهو سفيه ، تماماً كمن تصرف في نفسه تصرفاً يودي به الى الهلاك .

(ولقد اصطفيناه في الدنيا) . أي جعلناه صافياً خالصاً من الأرجاس ، على حد قوله تعالى : (يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) .

(وانه في الآخرة لمن الصالحين) . بديهة ، لأنه في الدنيا كذلك ، فان الاسلام يربط الآخرة بأعمال الدنيا ، ولا يفصل بينهما أبداً ، فمن كان في هذه مبصراً صالحاً ، فهو في تلك كذلك ، ومن كان في الدنيا أعمى شقياً فهو في الآخرة أعمى وأشقى .

(واذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) . وتسأل : متى طلب الله الاسلام من ابراهيم ؟ هل طلبه منه قبل النبوة ، أو بعدها ؟ والأول غير ممكن ، لأن الله لا يطلب بطريق الوحي ممن ليس بنبي ، والثاني تحصيل حاصل ، لأن الله لا يُنزل الوحي على انسان إلا بعد أن يسلم .

والجواب : ان قوله تعالى : (أسلم قال أسلمت) كناية عن ان ابراهيم هو من صفوة الصفوة ، وانه أهل للنبوة والرسالة .. ذلك انه استجاب لجميع أوامر الله ونواهيه ، وقام بأعباء النبوة والرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فالمقصود بالآية مجرد الثناء على ابراهيم ، لإخلاصه وطاعته وانقياده ، وفي الوقت نفسه توبيخ لليهود والنصارى والمشركين الذين يفتخرون بابراهيم ، ثم يعصون ويتمردون على من جاء لاحياء ملة ابراهيم ، ونشر سنته وعقيدته .

(ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب). الضمير في (بها) يعود الى ملة ابراهيم .

(فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) . أي أثبتوا على الاسلام ، حتى الموت ، كي تُبعثوا عليه ، وتقابلوا الله به .

حق الولد على الوالد :

وتشعر هذه الآية بأن الوالد مسؤول عن تربية ولده وارشاده الى دين الحق ، قال الإمام زين العابدين (ع) : « أما حق ولدك فان تعلم انه منك ، ومضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره وشره ، وانك مسؤول عنه من حسن الأدب ، والدلالة على ربه عز وجل ، والمعونة له على طاعته ، فاعمل في أمره عمل من يعلم انه مثاب على الاحسان اليه ، معاقب على الاساءة اليه » .

(أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموتُ) . حضره الموت معناه احتضر ، ونزلت به أمارات الموت . قال صاحب مجمع البيان : ان اليهود زعموا ان يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية .. فأبطل الله هذا الزعم بقوله لهم : انكم لم تشهدوا يعقوب عند موته ، فكيف تدعون عليه الأباطيل ؟. والحقيقة أن يعقوب قال لبنيه في تلك اللحظة : (ما تعبدون من بعدي) ؟ .

وتسأل : ان (ما) تستعمل لغير العاقل ، فكيف استعملت هنا في المعبود الحق ؟.

الجواب : ان الناس آنذاك كانوا يعبدون الأصنام فَتَنُزّل السؤال على معبود الناس ، لا على معبود الحق ، وعليه تكون (ما) بمعنى أي شيء تعبدون ؟.

(قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق) .. وتسأل : ان يعقوب هو ابن اسحق ، واسماعيل عمه أخو أبيه ، فكيف صح ادخال اسماعيل مع الآباء ؟.

الجواب : ان العم بمنزلة الأب ، لأنه أخوه ، ويُعظم كما يُعظم ، وفي الحديث الشريف ان رسول الله (ص) قال : « رُدوا عليّ أبي » يعني عمه العباس.

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) . هذه الآية تشير الى مبدأ عام ، وهو ان نتائج الأعمال وآثارها تعود غداً على العامل وحده ، لا ينتفع بها من ينتسب اليه ، ان تكن خيراً ، كما لا يتضرر بها غيره ان تكن شراً ، وقرر الاسلام هذا المبدأ بأساليب شتى ، منها الآية ١٦٤ من سورة الانعام :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » ومنها الآيـة ٣٩ من سورة النجم : « وان ليس للانسان إلا ما سعى » .. ومنها قول الرسول الأعظم (ص) لوحيدته فاطمة: يا فاطمة اعملي،ولا تقولي : اني ابنة محمد ، فاني لا أغني عنك من الله شيئاً .. وأمثال ذلك .. والتبسط في هذا الموضوع ان دل على شيء فانما يدل على اننا حتى اليوم نجهل أوضح الواضحات ، وأظهر البديهيات .

وقالوا كونوا هوداً أو نصارى الآية ١٣٥ — ١٣٨ :

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *

اللغة :

الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، ومعنى هذا في النتيجة ان الحنيف هو المستقيم ، وقيل للأعرج : احنف ، تفاؤلاً بالسلامة ، كما قيل للديغ : سليم ، وللبادية المهلكة مفازة . والاسباط واحدها سبط ، وسبط الرجل حفيده ولد ولده ، والاسباط من بني اسرائيل اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً ليعقوب ، وهم بمنزلة القبائل العربية من ولد اسماعيل . والشقاق المنازعة

مأخوذ من الشق ، وهو الجانب ، أي ان كل واحد أصبح في شق غـــير شق صاحبه ، وصبغة مأخوذة من الصبغ ، قال صاحب مجمع البحرين : ان النصارى كانوا اذا ولد لهم مولود غمسوه في ماء أصفر ، يسمونه المعمودية ، ويعتبرون ذلك تطهيراً له ، وهو بمنزلة الختان عند المسلمين ، فقال الله سبحانه : التطهير هو صبغة الله ، أي ان المطهر الحقيقي للعقول والقلوب هو الدين الحق .

الإعراب :

تهتدوا مجزوم بجواب الأمر ، وهو كونوا ، لان فيه معنى الشرط ، أي إنْ تكونوا على اليهودية والنصرانية تهتدوا ، ولفظ ملة منصوب بفعل محذوف ، أي نتبع ملة ابراهيم،وحنيفاً حال من ابراهيم،ولفظ صبغة الله منصوب على المصدر ، أي صُبغنا صبغة الله،وصبغة من قوله تعالى (ومن أحسن من الله صبغة) تمييز محول عن المبتدأ ، أي ومن صبغته أحسن من صبغة الله .

المعنى :

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) . الضمير في قالوا يعود الى أهل الكتاب ، والمعنى قال اليهود ، كونوا يهوداً تهتدوا ، لأن الهداية بزعمهم تنحصر بهم وحدهم،وقال النصارى مثل قول اليهود..وقال الله لنبيه الأكرم محمد (ص) : (قل بل ملة ابراهيم) ، أي لا نتبع اليهودية ، ولا النصرانية ، بل نتبع ملة ابراهيم . وقد ذكرنا في تفسير الآية ١١١ – ١١٣ ما يلقي ضوءاً على هذه الادعاءات وما اليها .

المنطق الجدلي :

ورُبَّ قائل يقول : اليهود قالوا : نحن المحقون فقط ، والنصارى قالوا : بـــل نحن فقط .. ومحمد (ص) قال : بـــل ابراهيـم هو المحق لا اليهود ولا النصارى . وكل هذه الأقوال مصادرات وادعاءات بظاهرها ، واذا صح لليهود

والنصارى أن يستعملوا هذا النحو من المنطق الباطل ، فانه لا يصح نسبة مثله الى الله ورسوله ، فما هو الوجه ؟.

الجواب : ان الغرض من قوله : (بل ملة ابراهيم) هو النقض على اليهود وافحامهم ، لا اثبات الحقيقة بالذات ، ويجوز للانسان أن ينقض على خصمه بشيء لم يكن حجة في نفسه ، بل حجة عند الخصم فقط ، أو ينقض عليه بمثل ما هو حجة عنده ، كالنقض على النصارى بآدم الذي لا أب له ، حيث قالوا: المسيح رب ، لأنه من غير أب ، فينقض عليهم بأن آدم من غير أب ، فينبغي أن يكون رباً أيضاً ، مع انكم تنفون عنه الربوبية .. ويسمى هـذا النوع من المنطق بالمنطق الجدلي ، ووجه النقض عـلى اليهود والنصارى ، وافحامهم فيما نحن فيه :

ان اليهود والنصارى مختلفون ديناً وعقيدة ، وكل طائفة تكفّر الأخرى،وهم في الوقت نفسه متفقون على صحة دين ابراهيم ، وبديهة ان ابراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، بل كان (حنيفاً — أي موحداً — وما كان من المشركين) . أي لم يكن ابراهيم يهودياً ، لأنه لم يقل : عزير ابن الله ، ولا جعل لله شبيهاً كما زعم اليهود بأن الله شيخ أبيض الرأس واللحية ، ولم يكن نصرانياً ، لأنه لم يقل المسيح ابن الله، لأن ذلك هو الشرك واقعاً .. وما دام كل من اليهود والنصارى يعترفون بدين ابراهيم فيلزمهم أن يكونوا موحدين،بل ويحجوا أيضاً الى بيت الله الحرام ، تماماً كما كان يعتقد ويفعل ابراهيم ، وكما اعتقد وفعل محمد ، مع العلم بأنهم لم يوحدوا ولم يحجوا ، فاذن هم كاذبون بنسبتهم الى دين ابراهيم ، ومحمد (ص) هو الصادق الأمين على دين الله ، وملة ابراهيم .

وبتعبير ثانٍ ان الأخذ بالمتفق عليه،وهو دين التوحيد الذي كان عليه ابراهيم، وعليه الآن محمدّ أولى من الأخذ بالمختلف فيه ، وهو اليهودية المشبهة،والنصرانية المثلثة .

(قولوا آمنا بالله) . الخطاب للمسلمين . (وما انزل الينا) . وهو القرآن .

(وما انزل الى ابراهيم) . وهي صحف إبراهيم،وقيل : انها عشر . (واسماعيل وإسحق) . هما ولدا ابراهيم ، واسماعيل أكبر من اسحق ، وأمه هاجر ، وأم اسحق سارة . ويعقوب ، ابن اسحق ، والصحف لم تنزل اليهم جميعاً ، وانما

انزلت الى ابراهيم فقط ، ولكن صحّت نسبة الانزال الى الجميع بالنظر الى أنهم متعبلون بها ، وداعون اليها ، تماماً كما يصح لنا نحن المسلمين أن نقول : انزل القرآن الينا ، لأننا نؤمن ونعمل به ، وندعو اليه .

(والاسباط) . هم حفدة يعقوب من أبنائه الاثني عشر ، وهم بمنزلة القبائل العربية من ذرية اسماعيـــل ، وفي الأسباط أنبياء كثيرون كداود ، وسليمان ، ويحيى ، وزكريا ، وأيضاً فيهم المؤمنون اللذين تعبدوا بصحف ابراهيم (ع) .

(وما أوتي موسى وعيسى) . التوراة والانجيل ، (وما أوتي النبيون من ربهم). كالزبور المنزلة على داود ، (لا نفرق بين أحد منهم) . أي نؤمن بالجميع ، سواء من كان له كتاب يؤثر ، أو لم يكن ، ولسنا كاليهـود والنصارى الذين آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، بل الجميع عندنا سواء ، من حيث الاعتراف بنبوتهم .. وبديهة ان الايمان بجميع الأنبياء انما يجب بنحو الاجمال ، ولسنا مكلفين بالتفاصيل إلا بعد البيان من كتاب أو سنة .

(ونحن له مسلمون) . أي معترفون له بالوحدانية ، ومخلصون في العبودية .

(فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) . أي فان آمنوا ايماناً صحيحاً ، وهو التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، واعترفوا بجميع الأنبياء بما فيهم محمد، تماماً كما آمن المسلمون بجميع الأنبياء دون استثناء فعندها يكونون مهتدين .. وليس المراد أن يؤمنوا بدين مثل دين الاسلام ، إذ لا مثيل للاسلام اطلاقاً .

(وان تولوا فانما هم في شقاق) . كل من عاند الحق فقـد شق العصا ، وبدد الشمل . (فسيكفيكهم الله) إذ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

والكلمة الجامعة باختصار لكل ما قدمنـاه هي ان الاسلام يرفض التعصب ، ويدعو للتعاون على أساس الخير والعدل ، ويعترف بالحـــق أينما كان ويكون ، ويدعو أتباعه أن يفتحوا قلوبهم للناس ، كل الناس في مودة واخلاص .

(صبغة الله) وهي دين الحق الذي يطهّر القلوب والعقول من الأقذار والأكدار، لا الغمس بالماء الأصفر ، كما تفعل النصارى ، ولا غير ذلك . قال محيي الدين ابن عربي في تفسيره :

« ان كل ذي اعتقاد ومذهب باطنه مصبوغ بصبغ اعتقاده ، ودينه ومذهبه، فالمتعبدون بالملل المتفرقة مصبوغون بصبغ نيتهم،والمتمذهبون بصبغ إمامهم وقائدهم،

والحكماء بصبغ عقولهم ، وأهل البدع والأهواء المتفرقة بصبغ أهوائهم ، والموحدون بصبغة الله خاصة التي لا صبغ أحسن منها ، ولا صبغ بعدها » .

قل أتحاجوننا في الله الآية ١٣٩ - ١٤١ :

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ★ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ★ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★

المعنى :

(قل أتحاجوننا في الله) . سبق في تفسير الآية ٩٢ - ٩٦ فقرة « المصلحة هي السبب ، لا الجنسية » ان اليهود عارضوا النبي حرصاً على مصالحهم ، وعلى المال الذي كانوا يجمعونه من بذل العرض واباحته ، ومن الربا والغش ، والخمر والميسر ، وما اليه مما حرمه الاسلام ، وقد برروا المعارضة بأسباب لا تمت الى الواقع بشبه . من تلك الأسباب ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية من ان اليهود قالوا للنبي (ص) : انك لست نبياً ، لأن الله لا يرسل الأنبياء الا من اليهود . وبالمناسبة يزعم اليهود ان الله لهم وحدهم وانه إله قبيلة ، وليس إله العالم .

وأيضاً أنكر زعماء النصارى ، وصناديد قريش نبوة محمد (ص) خوفاً على مكانتهم ومصالحهم ، وتذرعوا بالأباطيل كما تذرع اليهود ، حيث قال النصارى

– كما جاء في التفاسير – : لو أرسل الله نبيــاً لكان منا لا من العرب ، أما صناديد قريش فقالوا : لو أرسله من العرب لاختاره من الطبقة الثرية القوية ، كما أشارت الآية ٣١ من الزخرف : « لولا نزل هـذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم »[1] . والآية ٨ من الفرقان : « أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها » .

وكل شيء يقبل الخصام والحجاج ، حتى وجود الله الا شيئاً واحداً فانه لا يقبل النقاش أبداً عند المعترفين بوجود الله ، ألا وهو تخصيص رحمة الله وانعامه على فرد دون فرد : « أم يقسمون رحمة ربك » .. ولذا أمر الله نبيه محمداً (ص) أن يقول للذين استنكروا انعام الله عليه بالنبوة أن يقول لهم : أتحاجوننا في الله، وأنتم تعلمون انه تعالى أعلم بمن يصلح للرسالة ، وبمن لا يصلح لها،فلا تعترضوا على ربكم ... وان علينا وعليكم التسليم لحكمه ، لا المجادلة في ارادته واختياره، وهذا معنى قوله تعالى : « هو ربنا وربكم » .

(لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) . هذا تماماً كقوله سبحانه : (لكم دينكم ولي دين) . أي ان خصامكم في اختيار الله وانعامه عليّ تعود آثاره عليكم وحدكم ، تماماً كما يعود ضرر الكفر على الكافر ، ونفع الايمان على المؤمن . (ونحن له مخلصون) من دونكم ، لأنكم تتحكمون عـلى الله ، وتريدونه أن ينـزل على رغبتكم ، أما نحن فنفوّض الأمر كلّه اليه ، ونستسلم لحكمه .

(أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى) . هذا عطف على أتحاجوننا في الله ، والمعنى بأي الأمرين تتشبثون ؟. أفي قولكم بأن الله لا يرسل من العرب نبياً ، أم بدين ابراهيم وبنيه وحفدته ؟. فان تشبثتم بالأول فان الله أعلم حيث يجعل رسالته،وان تشبثتم بالثاني فان ابراهيم كان حنيفاً مسلماً لا يهودياً ولا نصرانياً ، لأن اليهودية والنصرانيـة حدثتا بعده وبعد بنيه والاسباط .. فعلى كلا التقديرين قولكم باطل لا مبرر له .. ويرشدنا القرآن في هذه المحاورة الى الأسلوب الذي ينبغي أن نتبعه مع الخصم،وان نعتمد في حصاره وافحامه على منطق العقل الذي يقتنع به ويتسالم عليه جميع العقلاء .

---

[1] المراد بالقريتين مكة والطائف ، والرجل الذي عنوه في مكة الوليد بن المغيرة،وفي الطائف عروة بن مسعود.

(قل أأنتم أعلم أم الله) . قدمنا ان كلاً من اليهود والنصارى قالوا : نحن أولى بالنبوة .. فأمر الله نبيه الكريم أن يرد عليهم بقوله : أأنتم أعلم حيث يجعل رسالته،أم هو ؟.. ان الرسول لله ومن الله ، ومع هذا تريدون أنتم أن تختاروه ؟ وهل أنتم أوصياء عليه ؟ تعالى الله علواً كبيراً .. وهل أجهل وأسخف ممن يقول لك : أنا أعلم منك بما يعجبك ويرضيك ، وبما يغضبك ويؤذيك ؟ وهل أكثر حمقاً من جاهل لا يعرف شيئاً يقول لمن اخترع سفينة الفضاء – مثلاً – أنا أعرف بها منك ؟.. ولست أعرف قولاً أبلغ في التجهيل والتقريع من قوله تعالى: أأنتم أعلم أم الله .. نستغفره ونعوذ به مما يقول ويفعل المبطلون .

(ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) . من الله متعلق بشهادة ، أو بمحذوف صفة للشهادة ، تقديره شهادة كائنة من الله .. ومعنى الكلام ان عندكم يا معشر اليهود والنصارى شهادة من الله قرأتموها في التوراة والانجيل ، وهي ان الله سبحانه سيبعث نبياً عربياً من أبناء اسماعيل (ع) ، ومع ذلك كتمتم الشهادة، وتجرأتم على الله بتحريف كتابه تعصباً للباطل ، وعناداً للحق ، فاستوجبتم اللعنة والعذاب .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) . هذه الآية تقدم ذكرها بالحرف الواحد برقم ١٣٤ .. وردت هناك لبيان ان اخلاص ابراهيم (ص) وعظمته لا تجدي اليهود والنصارى شيئاً،وجاءت هذه الآية هنا لبيان ان أعمال اليهود والنصارى تباين عقيدة ابراهيم وعمله .. اذن دعواهم بأنهم على ملة ابراهيم كذب وافتراء، وتكلمنا عند تفسير الآية ٤٨ عن التكرار في القرآن .

الشهادة :

يجب على كل بالغ عاقل أن يستجيب ويلبي اذا دعي الى تحمل الشهادة ، ولا يسوغ له رفضها من غير عذر ، قال تعالى : « ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا – البقرة ٢٨٢ » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : إذا دعاك الرجل لتشهد على دين أو حق فلا يسعك أن تتقاعس عنه .

ووجوب تحملها يستدعي وجوب ادائها ، وتحريم كتمانها ، قال تعالى : « ولا

تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه – البقرة ٢٨٣ . وقال : ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده .. وقال الإمام الصادق (ع) : من كان في عنقه شهادة فلا يأبى إذا دعي لاقامتها ، وليقمها ، ولينصح فيها،ولا تأخذه فيها لومة لائم .

أجل ، يجوز له أن يتخلف عن اداء الشهادة مع خوف الضرر على نفسه ، أو على غيره من الابرياء ، لأنه لا ضرر في الاسلام بالاضافة الى الاجماع ، وأحاديث خاصة .

مخلصون وكفى :

نعى الاسلام على المبطلين ، وحاجّهم بالعقل والضمير ، ونصحهم بالحسنى ، وأمرهم بالمعروف ، ولكنه لم يجعل لأحد سبيلاً عليهم بغير الموعظة الحسنة إلا اذا تجاوزوا الحدود ، واعتدوا وضللوا الأبرياء والبسطاء عن الحق بالافتراءات والدعايات الكاذبة ، فان فعلوا شيئاً من هذا وجب ردعهم وتأديبهم ، وقد بيّن الله ذلك في العديد من آياته : منها الآية ١٩٣ من البقرة : « فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . ومنها ١٠٥ من النساء : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم الى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون».. ومنها ما نحن فيه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » .. أجل مخلصون لا أقل ولا أكثر – ان استقام التعبير بالأكثر – .

الجزءُ الثَّاني

في

سُورةُ البقرة

ما ولاهم عن قبلتهم الآية ١٤٢ :

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ★

اللغة :

تقدم الكلام عن معنى السفه في الآية ١٣٠ : « الا من سفه نفسه » . وقال ابن عربي في تفسيره : ان كل من لم يدرك حقيقة دين الاسلام فهو سفيه ، لأنه خفيف العقل .. والقبلة مأخوذة من الاستقبال ، وهي كل جهة يستقبلها الانسان .. وولاه عنه صرفه عنه .

الاعراب :

من الناس متعلق بمحذوف حال من السفهاء ، لأن الظرف والمجرور بعد المعرفة يتعلق بالحال ، وبعد النكرة بالصفة . وما استفهام إنكاري ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وخبرها جملة ولاهم ، والضمير في (هم) عائد على النبي (ص) والمسلمين .

المعنى :

(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) . كان الأنبياء السابقون يصلون الى بيت المقدس ، وقد صلى النبي (ص) اليه بأمر الله أمداً غير قصير ، ولكنه (ص) كان يتمنى لو يُحول الله القبلةَ الى الكعبة ، وحقق الله تعالى امنيته ، كما يأتي قريباً .

والمراد بالسفهاء اليهود ، لأنهم هم الذين عابوا على المسلمين رجوعهم في الصلاة عن بيت المقدس الى الكعبة ، ولفظة (سيقول) تدل بظاهرها على اعلام

الله سبحانه نبيه الأكرم بقول السفهاء قبل وقوعه منهم ، وصدوره عنهم ، أما قول من قال بأن لفظة (سيقول) وان كان ظاهرها الاستقبال ، ولكن المراد منها الماضي ، وان الله خاطب بها رسوله بعد ان قال السفهاء ، لا قبل أن يقولوا ، وجاءت بصيغة المستقبل ايماءً بأن ما قالوه كان مقدراً ومترقباً ، أما هذا القول فانه تأويل للظاهر من غير دليل يدل عليه ، أو ضرورة تدعو اليه .

وعلى كلٍ ، فلقد أمر الله سبحانه رسوله الأعظم محمداً (ص) أن يجيب هؤلاء السفهاء بأن (لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) . أي ان الجهات كلها لله ، والكعبة وبيت المقدس اليه سواء . ولكن الحكمة والمصلحة تارة تستدعي أن يهدي من يشاء من عباده الى بيت المقدس ، وتارة الى الكعبة .

لماذا الصلاة الى جهة معينة ؟

وهنا سؤال يردده كثيرون ، وهو : لماذا تجب الصلاة الى جهة معينة ، ولا تصح الا اليها ، مع العلم بأن الله سبحانه في كل مكان ، وانه قال صراحة : ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ؟. الآية ١١٥ البقرة .

الجواب : أولاً ان الله سبحانه قال أيضاً : فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وهذه الآية ١٤٤ من سورة البقرة تفسير وبيان للآية ١١٥ وان المراد بها التوجه الى أية جهة تكون في الصلاة المستحبة حال المشي والركوب ، وفي صلاة المتحير الذي يجهل القبلة ، والمراد بآية ١٤٤ الاتجاه في الصلاة الواجبة ، وتقدم بيان ذلك مفصلاً في الآية ١١٥ .

ثانياً : ان صحة الصلاة تتوقف على وجود الأمر بها من الله سبحانه ، وعلى هذا الأصل لا بد أن ننظر : هل تعلق الأمر بالصلاة الى أية جهة أردنا ، أو الى جهة خاصة ، فان كان الأول صحت الصلاة الى أية جهة تكون . وان كان الثاني فلا تصح الا إلى الجهة المأمور بها ، سواء أكانت الكعبة أو بيت المقدس ، أو غيرهما .. وبكلمة ان امتثال الأمر شيء ، ووجود الله في كل مكان شيء آخر .. ان العبادة من الأمور « التوقيفية » على تعبير الفقهاء ، أي تتوقف على بيان الله

لها بلسان نبيّه، ولا مجال فيها للظنون والاحتمالات ، ولا لأي شيء الا النص الصريح الصحيح .. وقد أمر الله المسلمين أولاً أن يصلوا الى بيت المقدس ، فلو صلوا الى الكعبة لم يقبل منهم ، ثم أمرهم أن يتحولوا الى الكعبة،ولو صلوا الى بيت المقدس بعد هذا لم يقبل منهم مع انها له ومنه .. ذلك ان معيار صحة الصلاة موافقتها للامر بجميع أجزائها وشروطها ، كما ان معيار فسادها مخالفة الأمر .

جعلناكم أمة وسطاً الآية ١٤٣ :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ★

اللغة :

الوسْط بسكون السين ظرف ، تقول جلست وسْط القوم ، والوَسَط بفتح السين الخير ، قال الرسول الأعظم (ص) : خير الأمور أوسَطها ، وقال : عليكم بالنمط الأوسط ، ويأتي الوسط بمعنى العدل ، تقول : فلان وسَط أو متوسط في أخلاقه ، أي معتدل فيها ، والعدل والخير متقاربان ، والمراد بالوسط هنا ان الله سبحانه جعل دين المسلمين معتدلاً في العقيدة والأخلاق ، أما العقيدة فلا شرك فيها ولا الحاد ، بل توحيد ، وأما الأخلاق فلا مادية فقط ، ولا روحية فقط ، بل من هذه وتلك بشرط التعادل والتكامل . وعقب الانسان في

اللغة نسله ، وأيضاً يطلق على مؤخر القدم ، وقد استعير هنا لمن يكفر بالله ورسوله ، لأن المنقلب على عقبه يترك ما بين يديه ، ويدبر عنه ، وحيث أن تارك الايمان هو بمنزلة المدبر عما بين يديه ، فوصف بذلك .

الإعراب :

كذلك الكاف بمعنى مثل ، ومحلها النصب نعتاً لمصدر محذوف متصيد من جعلناكم ، والتقدير جعلناكم جعلاً مثل ذلك .. وذلك اشارة الى الهداية ، ويأتي التوضيح عند التعرض للمعنى ، وجعلنا تحتاج الى مفعولين : والمفعول الأول هنا القبلة ، والثاني محذوف ، وهو الجهة ، والتي صفة للجهة ، والتقدير وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها إلا لنعلم .. وان كانت : (ان) مخففة من الثقيلة لا عمل لها . قال صاحب المغني : "تهمل كثيراً ، وتعمل قليلاً" ، وكبيرة خبر كان ، ودخلت اللام على كبيرة للفرق وعدم اللبس بين «ان» المخففة المهملة ، وبين «ان» النافية .

المعنى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) . هذه الجملة بيان لقوله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ووجه البيان ان الله سبحانه قد أنعم على أتباع محمد (ص) بالهداية ، وأبرز مظهر لهذه الهداية انه جعلهم في الدين معتدلين متوسطين بين الافراط الذي هو الزيادة ، كتعدد الآلهة ، وبين التفريط الذي هو النقص ، كالالحاد .. هذا من جهة العقيدة ، واما الاعتدال في الاخلاق فقد جمع لهم في تعاليمه وتوجيهاته بين حق الروح ، وحق الجسد ، فلا روحانية مقترة ، ولا مادية مسرفة ، بل تعادل وتوازن بينهما .

وقد استدل البعض بقوله تعالى : وجعلناكم أمة وسطاً ، استدل به على حجة الاجماع ، وهو استدلال في غير محله ، لأن الآية لم ترد لبيان الاجماع ، وانه حجة ، أو ليس بحجة ..

وقال آخرون : ان قوله سبحانه هذا يدل على ان كل مسلم عادل بطبيعته .. وهذا القول باطل من الأساس ، لأن العدالة من الموضوعات الـتي لا تثبت إلا بالحس أو البينة .

التكامل والتعادل في الاسلام :

لما كان الانسان مكوّناً من جسم ترابي فان ، ومن سر إلهي خالد ، وهو الروح ، « ويسألونك عن الروح قـل هي من أمر ربي » . ولما كان لكل منهما مطـالب وحاجات ، لذلك جاءت تشريعات الاسلام وتوجيهاته على أساس الأمرين وتنظيمهما معاً دون أن يطغى أحدهما على الآخر . وبكلمة : للانسان جزءان ، فإهمال أحدهما اهمال له بالذات .

لقد حرم الاسلام الرهبانية ، وارهاق النفس بالقضاء على الطبيعة ، كما حرم الخبائث والاسراف في الشهوات ، والترف على حساب الغير .. وأحل زينة الحياة ومتعها من الأكل الطيب ، واللبس الطيب ، وما اليهما .. ومن يستعرض آيات القرآن يجد ان الدنيا كلها خلقت من أجل حياة راضية مرضية عند الجميع ، وان الانكماش عنها انكماش عن الدين ، كما ان التكالب على احتكارها وحرمان الغير فساد في الأرض ، وخطر على المجتمع كله .. وأفضل الأرزاق كلها عند الاسلام ما كان بكدّ اليمين ، وعرق الجبين .

قال انس : كنا مع رسول الله (ص) في سفر ، ومنا الصائم ، ومنا المفطر ، فنزلنا منزلاً في يوم حار ، فسقط الصائمون ، وقام المفطرون بخدمتهـم . فقال رسول الله (ص) : ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله .

هذا هو الوسط والعدل الذي يرتكز عليه الاسلام ، ويدعو اليه ، لا عبادة تقعد بك عن السعي والعمل ، ولا شراسة في التكالب تصرفك عن الله وعبادته .

(لتكونوا شهداء على النـاس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . ان معاني الكلمات المفردة واضحة ، وكذا المعنى العام للمركب منها .. ولكن الاشكال والغموض في تعيين ما نشهد به نحن المسلمين عـلى غيرنا .. أي شيء هو ؟. ان الرسول يشهد غداً على من خالف منا بأنه لم يعمل بالاسلام وأحكامه ، فهل نشهد نحن

يوم القيامة على غير المسلمين بأنهم خالفوا الكتاب والسنة ؟.. وقد تعددت أقوال المفسرين في ذلك ، وتضاربت ، ولم تركن نفسي الى شيء منها .

والذي اميل اليه ان علماء المسلمين خاصة مكلفون ديناً بأن يبلغوا رسالة محمد (ص) على وجهها للناس ، سواء منهم المسلم الجاهل ، وغير المسلم .. فمن قام بهذا الواجب المقدس من العلماء يصبح شاهداً على من بلغه الرسالة ولم يعمل بها ، ومن أهمل من العلماء ولم يبلغ فان محمداً (ص) يشهد عليه غداً أمام الله أنه قد خان الرسالة بعد ان عرفها وحملها ..

وللتوضيح نضرب هذا المثل : رجل عنده مال،وله ولد لم يبلغ الرشد بعد ، وحين شعر صاحب المال بدنو أجله أوصى جاراً له يثق بدينه أن ينفق من المال على تربية ولده وتعليمه ، فان فعل ، ونجح الولد كما أراد الوالد فذاك ، وان اهتم الوصي بشأن الولد ، ولكنه تمرد ورفض التعلم كان الوصي شاهداً على الولد ، وان أهمل الوصي وقصر في الوصية كان الوالد شاهداً على الوصي ، والوصي مسؤولاً أمام الله والوالد .

وهكذا نحن العلماء مسؤولون أمام الله ورسوله عن بث الدعوة الاسلامية بين أهل الأديان بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعن تعليم الأحكام لمن يجهلها من المسلمين .. ومن قصّر في هذا الواجب شهد عليه غداً سيد الكونين شهادة صريحة واضحة بين يدي العزيز الجبار .. والويل كل الويل لمن يشهد عليه رسول الله ، ويحكم عليه الله .. هذا اذا أهمل ولم يبشر ، فكيف اذا أساء وكان هو السبب الباعث على التشكيك في الدين وأهله .

(وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) . بعد ان أمر الله نبيه الأكرم بالتحول من بيت المقدس الى الكعبة ارتاب بعض أتباع الرسول (ص) وقالوا : مرة ههنا ومرة ههنا، واستغل اليهود موقف هؤلاء الجهلة ، وأخذوا يشككونهم بالنبي . وقد كان اليهود ، وما زالوا ، ولن يزالوا أبداً ودائماً أرباب فتن وفساد ، وأداة مكر وخداع بطبيعتهم وفطرتهم ، يخلقون المشاكل ويضعون العقبات في طريق كل مخلص ، ويحولون المجتمعات ان استطاعوا الى جحيم .. وهكذا يلتقي أعداء الحق دائماً وفي كل عصر مع ضعاف العقول ، ويتخذون منهم أداة للكيد والتخريب والفوضى .. وقد

وصف الإمام علي هؤلاء أبلغ وصف بقوله : « همج رعاع ، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق » .

وأخبر الله نبيه العظيم بأن الذين شككوا وارتابوا ليسوا بمؤمنين في واقعهم ، بل كان ايمانهم زائفاً لا أصيلاً ، ولقد محصناهم بالبلاء ، ليظهروا على حقيقتهم لك ولغيرك . (وان كانت - القبلة الجديدة - لكبيرة الا على الذين هدى الله) . وهم أهل الإيمان المستقر الأصيل ، لا أهل الايمان المستعار المموه .

وتسأل : ان الله سبحانه يعلم الشيء قبل وقوعه ، فما هو الوجه في قوله لنعلم من يتبع الرسول ؟.

الجواب : ان المراد ليظهر الطائع والعاصي ، ويتميز لدى الناس كلٌ بما هو فيه وعليه .. وقال أكثر المفسرين ان علم الله بالنسبة الى الحادث على قسمين: علم به قبل ايجاده ، وهو في عالم الغيب ، وعلم به بعد ايجاده ، وهو في عالم الشهادة ، والمراد بالعلم هنا الثاني دون الأول ، أي ان الله يريد أن يعلم به حال وجوده ، كما علم به حال عدمه .. وهذا تحذلق ولعب بالألفاظ .. فان علم الله واحد ، وعالم الغيب بالنسبة اليه ، تماماً كعالم الشهادة .

(وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم) . هذه بشارة من الله لمن ثبت على ايمانه مع الرسول الأعظم (ص) في السراء والضراء ، ولم يرتب في أمر من أوامره ، ولا نهي من نواهيه .. وقال أكثر المفسرين ، أو الكثير منهم : ان السبب لنزول هذه الآية ان جماعة من الأصحاب صلوا مع النبي (ص) الى القبلة الأولى ، ثم ماتوا قبل التحول الى الثانية ، فسئل الرسول عن صحة صلاتهم ؟ فقال الله : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) .

ونحن لا نعتمد روايات أسباب النزول إلا القليل البالغ حد اليقين أو الاطمئنان، لأن العلماء لم يهتموا بغربلتها وتمحيصها ، كما فعلوا بأحاديث الأحكام ، فبقيت على سقمها وعللها .

قد نرى تقلب وجهك في السماء الآية ١٤٤ ـ ١٤٥ :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ★ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ★

اللغة :

يطلق الشطر ، ويراد به القسم من الشيء ، وقيل : اذا أطلق يفهم منه النصف ، فاذا قلت : شطرته شطرين معناه انك جعلته نصفين متعادلين، وأيضاً يراد بالشطر الجهة والنحو ، وهذا المعنى هو المقصود هنا .

الإعراب :

قد اذا دخلت على المضارع أفادت التقليل في كلام المخلوق ، وهي دائماً تفيد التحقق والثبوت اذا وردت في كلام الخالق . وحيث واذ لا تجزمان الا مع (ما) ، فاذا اقترنت ما باحدى اللفظتين فانها تجزم فعلين ، أحدهما فعل الشرط ، والآخر جوابه ، وكنتم في محل جزم فعل الشرط ، وفولوا جواب . ولئن اللام للقسم ، أي تالله لئن ، وان شرطية ، وكلٌ من اللام وان يحتاج الى جواب ، وقوله تعالى : (ما تبعوا) جواب القسم ، ومن أجل هذا دخلت عليه (ما) ، أما جواب ان فمحذوف دل عليه جواب القسم الموجود . وشطر منصوب على الظرف .

المعنى :

قال صاحب مجمع البيان : « روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قال: تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلى النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة الى بيت المقدس ، وبعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة أشهر ، ثم وجهه الله الى الكعبة، وذلك ان اليهود كانوا يعيرون رسول الله (ص) ، ويقولون له : أنت تابع لنا ، تصلي الى قبلتنا ، فاغتم رسول الله (ص) من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر الى آفاق السماء ، ينتظر من الله تعالى أمراً في ذلك، فلما أصبح وحضر وقت الظهر كان في مسجد بني سالم ، وصلى فيه من الظهر ركعتين ، فنزل عليه جبريل (ع) فأخذ بعضديه ، وحوله الى الكعبة ، وأنزل عليه : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فصلى ركعتين الى بيت المقدس ، وركعتين الى الكعبة » .

(فول وجهك شطر المسجد الحرام) . وصف المسجد بالحرام ، حيث يجب تقديسه ، ويحرم هتكه ، والكعبة جزء من المسجد الحرام ، وهو جزء من الحرم الذي يشمل مكة وضواحيها المحددة في كتب الفقه ، باب الحج ، مسألة محرمات الاحرام ، والصيد في الحرم .

والمعروف من طريقة القرآن الكريم ان كل تكليف شرعي موجه بظاهره لرسول الله (ص) يدخل فيه عموم المكلفين ، مثل : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل – هود ١١٤ » . ولا يختص التكليف به وحده إلا مع القرينة، كقوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك – الاسراء ٧٩ » . فان لفظة لك تدل على ان هذا التكليف لا يشمل سواه .. وأيضاً من طريقة القرآن ان التكليف الموجه الى المكلفين يدخل فيه محمد (ص) دون أدنى فرق من هذه الجهة بينه وبين غيره ، وعليه فان الأمة داخلة في قوله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) .

(وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) . أي أينما كنتم في بحر أو بر أو سهل أو جبل في الشرق أو في الغرب فعليكم أن تستقبلوا المسجد الحرام بمقدم البدن ، ولا يجوز أن تستدبروه في الصلاة ، أو تضعوه على اليمين أو الشمال ..

وعلى هذا تختلف قبلة المسلمين باختلاف الأقطار ، فقد تكون بالنسبة إلى أهل قطر في الغرب ، والى غيرهم في الشرق ، ومن أجل هذا اهتّم المسلمون بأمر القبلة ، ووضعوا علماً خاصاً يسمى بعلم « سمت القبلة » بخلاف النصارى الذين يلتزمون دائماً جهة الشرق ، واليهود جهة الغرب أينما كانوا ، حتى ولو استلزم ذلك ادبارهم لبيت المقدس .

وتسأل : اذا كانت الأمة تدخل في خطاب التكليف الموجه للرسول، وخطاب التكليف للأمة يشمل الرسول ، فلماذا الجمع بين الخطابين في آية واحدة، وموضوع واحد ، وبدون فاصل أيضاً ، حيث قال جل من قائل : فولِّ – يا محمد – وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم – أيها المسلمون – فولّوا وجوهكم شطره ؟.

الجواب : ان التحول كان من الحوادث العظيمة في الاسلام ، كما انه جاء وفقاً لرغبة الرسول الأعظم (ص) فأراد الله سبحانه أن ينبه الى ذلك ويؤكده بالتكرار ..

هذا ، الى ان التكليف هو بالأصالة لمحمد (ص) لأنه جاء مراعاة لرغبته ، وبالتبع لأمته .

متى يجب استقبال اهل القبلة ؟

الكعبة قبلة لمن هو داخل المسجد الحرام الذي تقع الكعبة فيه ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، أي لأهل مكة وضواحيها ، والحرم أو الجهة التي هو فيها قبلة لأهل المشرق والمغرب .

ويجب استقبال القبلة في الصلاة اليومية ، وركعات الاحتياط ، والأجزاء المنسية من الصلاة ، وسجدتي السهو ، ولكل صلاة واجبة بما في ذلك ركعتا الطواف ، والصلاة على الميت، ويجب الاستقبال أيضاً بالميت عند احتضاره ودفنه، وأيضاً عند الذبح والنحر .. أما الصلاة المستحبة فيجب الاستقبال بها حال الاستقرار، ولا يجب حال المشي والركوب .

اهل القبلة :

أهل القبلة ، وأهل القرآن ، وأهل الشهادتين ، والمسلمون ألفاظ تترادف على معنى واحد ، أما اسم المحمديين فقد اخترعه لنا ، وأطلقه علينا أعداء الاسلام ، يقصدون بذلك اننا أتباع شخص،لا أهل دين سماوي، تماماً كالبوذيين أتباع بوذا ، والزرادشتيين أتباع زرادشت .

ومهما يكن ، فان الغرض من هذه الفقرة التنبيه على ان الأمة الاسلامية على اختلاف بلادها ، وألوانها ، وألسنتها تجمعها وتوحد بينها أصول واحدة هي أعز وأغلى من حياتها ، لأن المسلمين جميعاً يستهينون بالحياة من أجل تلك الأصول، ولا يستهينون بها من أجل الحياة ، ومن تلك الأصول الايمان بالله وكتابه ، وبمحمد (ص) وسنته ، والصلاة الى القبلة .. فمن كفّر من يصلي الى القبلة ، وأخرجه من عداد المسلمين فقد أضعف قوة الاسلام ، وشتت كلمة المسلمين ، وأعان أعداء الدين على الدين ، من حيث يريد ، أو لا يريد .

(وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم) . المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، لا خصوص اليهود – كما قيل – لأن اللفظ عام ، ولا دليل على التخصيص .. واختلف المفسرون في ضمير (انه) هل يعود الى الرسول ، أو الى المسجد الحرام ، وسبب الاختلاف انه قد تقدم ذكر الرسول في قوله تعالى : « قد نرى تقلّب وجهك » . وأيضاً تقدم ذكر المسجد الحرام ، ونميل نحن الى اعادته الى المسجد ، لأنه أقرب لفظاً الى الضمير ، والضمير يعود الى الأقرب ، وعليه يكون المعنى ان أهل الكتاب يعلمون حق العلم بأن ابراهيم (ع) أبا الأنبياء وكبيرهم هو الذي رفع قواعد البيت ، ولكنهم رفضوه لا لشيء الا لأنه في يد العرب ، وهم سدنته وحماته ، ولو لم يكن في يد العرب لكان اليهود والنصارى أسبق الناس اليه ، وأكثرهم تقديساً له .

(ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) . فضلاً عن اتباع ملتك ، فأعرض عنهم ، حيث لا تجدي معهم حجة ولا منطق بعد ان أعماهم الجهل والتعصب .

(وما أنت بتابع قبلتهم) . ربما طمع بعض أهل الكتاب ان يعود النبي (ص)

الى القبلة التي كان عليها .. فحسم الله طمعهم بقوله : وما أنت بتابع قبلتهم ، كما حسم أمل النبي (ص) باتباع قبلته بقوله : ما تبعوا قبلتك .

(وما بعضهم بتابع قبلة بعض) . اليهود يصلون الى المغرب ، والنصارى الى المشرق ، ولا تترك طائفة ما هي عليه ، وتتبع الأخرى ، فكيف يتبعون قبلتك يا محمد ؟.. بل ان بين فرق اليهود بعضها مع بعض ، وبين فرق النصارى كذلك أكثر مما بينهم وبين المسلمين .. والمذابح التي حصلت بين الكاثوليك وبين البروتستانت لا مثيل لفظاعتها في جميع العصور .

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين) . ومحال أن يتبع النبي (ص) أهواءهم ، لأنه معصوم .. ولكن الغرض من هذا النهي أن يتشدد النبي (ص) في معاملته مع اليهود ، ويتصلب في موقفه منهم ، اذ لا خير في مهادنتهم ، ولا أمل في سلمهم ، ولا تجدي أية محاولة لردعهم عن الكيد والفساد ، لأنهم جبلوا على الشر ، ومعاندة الحق، والاساءة لمن أحسن اليهم ، وقد مر الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٢٠ فقرة « أعداء الدين والمبدأ » .

الاسلام وأهل الأديان المتعصبون :

من المعقول جداً أن يختلف العلماء من كل نوع وصنف في مسألة غير دينية، وبعد التذاكر والتدارس يتفقون على ما كانوا فيه مختلفين – ولقد وقع هذا بالفعل – أما إذا اختلف العلماء من أديان شتى في مسألة دينية فاتفاقهم بحكم المحال، حتى ولو قام ألف دليل ودليل ، وقد ثبت عند علماء النفس ان تحول الناس عن كيانهم أيسر بكثير من تحولهم عن دينهم .. ذلك ان أكثر الناس يعتمد دينهم على التعصب لدين الآباء والأجداد .. وما عرف عن دين من الأديان انه نعى على تقليد الآباء غير الاسلام .. فلقد استند في تثبيت أصوله الى العقل وحده . ومن استعرض آيات القرآن ، والأحاديث النبوية يرى انها تهتم بمتابعة العقل بقدر ما تهتم بالايمان بالله،لأن هذا الايمان لا ينفك أبداً عن الهداية بنور العقل السليم .

يعرفون كما يعرفون أبناءهم الآية ١٤٦ – ١٤٧ :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ★﴾

اللغة :

الامتراء الشك .

الإعراب :

الحق خبر مبتدأ محذوف، تقديره هو الحق ، ومن ربك متعلق بالحال المحذوف ، والنون في لا تكونن نون التوكيد ، يؤكد بها الأمر والنهي .

المعنى :

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) . أي ان الكثير من علماء اليهود والنصارى على معرفة صحيحة وجلية بنبوة محمد (ص) ، تماماً كمعرفتهم بأبنائهم التي لا شك فيها ، ولا ريب ، لأن التوراة والانجيل بشّرا به، وذكراه بنعوته وصفاته التي لا تنطبق على غيره .. قال تعالى في الآية ١٥٧ من الاعراف : « يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل » . وفي الآية ٦ من الصف : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » .

كان عبد الله بن سلام من أحبار اليهود ، ثم أسلم ، وقال فيما قال : أنا أعلم بنبوة محمد مني بابني .. فقيل له : ولمه ؟ قال اني لا أشك في محمد أنه نبي ، أما ولدي فلعل والدته قد خانت .

(وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أجل ، يكتمونــه حتى ولو قرأوا اسم محمــد (ص) في اللوح المحفوظ حرصاً على الرئاسة الدنيوية ، والمصالح الشخصية .. ولا يختص العنــاد للحق باليهود والنصارى ، لأن السبب عام ، والباعث واحد ، وقد رأينا بعض الشيوخ ينكر فضل زميله بغياً وحسداً .

(الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . النبي (ص) لا يشك أبداً فيما جاءه من ربه ، ومحال ان يشك ، والله سبحانه يعلم ان نبيه الأكرم لا يشك .. وانما الغرض بيان ان ما أنزل عليه (ص) غير قابل للشك والريب اطلاقاً ، فاذا ما أنكره منكر ، وجحده جاحد فما ذاك إلا تعصباً وعناداً .

بيني وبين مبشر :

في ١٥ / ٧ / ١٩٦٣ زارني في بيتي مستشرق ايطالي يتقن الحديث بالعربيـة ، ويبشر بالمسيحية ، وجرى بيني وبينه محاورات شفاهاً وكتابة ، وقال لي فيما قال : ان القرآن يعترف صراحة بالانجيل ، فلماذا ينكره المسلمون ؟.

فأجبته بأن القرآن يعترف بالانجيل الذي بشّر بنبوة محمد (ص) ، كما نطقت الآية ٦ من الصف : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ، والآيـة ١٥٧ من الاعراف : « يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيـل » . ثم ان القرآن يقول : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » . وانجيلكم يقول : ان عيسى إله ، فكيف تريدون منا أن نؤمن به ، وفي نفس الوقت نؤمن بالقرآن ؟.

وإذا كان النصارى يمنعون التناقض والتهافت بحكم العقل فقط ، ويجيزونه في الدين والعقيدة فان المسلمين يرونه محالاً وممتنعاً في العقل وفي الدين وفي كل شيء ، لأن أصول الدين الأساسية ترتكز عندهم على العقل وحده .

ولكل وجهة الآية ١٤٨ ــ ١٥٢ :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ

اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ★ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ★ كَمَا أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ★ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ★

الاعراب :

لكل متعلق بمحذوف خبر مقدم ، ووجهة مبتدأ مؤخر، والمضاف اليه محذوف تقديره لكل فريق أو واحد ، وهو موليها مبتدأ وخبر ، والخيرات منصوب بنزع الخافض تقديره الى الخيرات ، وما في قوله كما أرسلنا مصدرية، والمصدر المنسك مجرور بالكاف متعلق بمحذوف صفة لرسول ، لأنه وقع بعد النكرة ، وجملة يتلو صفة لرسول ، ومثلها يزكيكم ويعلمكم .

المعنى :

(ولكل وجهة هو موليها) . لما ذكر الله القبلة التي أمر المسلمين بالتوجه اليها ، وهي الكعبة ، وذكر تصميم كل من اليهود والنصارى على اتباع قبلتهم،

وتمسكهم بها بيّن ان السر لهذا التصميم والاصرار هو ان كل فريق قد اختار لنفسه جهة يتجه اليها ، لا يفارقها أبداً ، وان كان فسادها بيناً كالشمس ، فقوله : (لكل وجهة هو موليها) أشبه بقوله : كل حزب بما لديهم فرحون.

هذا ما فهمته من ظاهر اللفظ ،وقد تعددت في تفسيره الأقوال أنهاها صاحب مجمع البيان إلى أربعة .

(فاستبقوا الخيرات اينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير) . أي دعوا أهل الكتاب والمشركين المعاندين ، واتجاهاتهم ، واصرارهم على ضلالهم ، وانصرفوا الى عمل الخير ، والمبادرة اليه ، فان مرجعكم غداً اليه سبحانه ، فيثيب المحق المحسن ، ويعاقب المبطل المسيء .. وعلى حد تعبير المفسرين ان قوله تعالى : أينما تكونوا يأت بكم الله ،هو وعد بالثواب لأهل الطاعة، ووعيد بالعقاب لأهل المعصية . أما قوله : ان الله على كل شيء قدير بعد هذا الوعد والوعيد فهو دليل وتعليل لإمكان الاتيان بالخلق وبعثهم بعد الموت .

(ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) .

وتسأل : كرر الله الأمر هنا باستقبال المسجد الحرام ثلاث مرات ، وفي الآية ١٤٥ مرتين ، فالمجموع خمس مرات دون فاصل طويل .. فما هو الوجه ؟.

الجواب : ذكر صاحب المجمع في ذلك ثلاثة أقوال ، والرازي خمسة ، ومنها الجواب التقليدي الموروث ، وهو ان التكرار للتأكيد والاهتمام .. ولم تركن النفس الى شيء من تلك الأقوال .. وليس لدي شيء سوى ان التكرار هنا قد يكون لمناسبة خاصة استدعاها المقام آنذاك ، وقد خفيت علينا،وما أكثر المناسبات والملابسات التي لا تدخل تحت ضابط وحساب .. ومعلوم ان موارد الآيات وبواعثها منها خاص ومنها عام .. وليس لأحد أن يستنبط ويتأول من غير أصل ويعتمد على الحدس والظن .

(لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) . قال كثير من المفسرين : ان النبي (ص) حين كان يصلي الى بيت المقدس قال المشركون العرب : كيف يدعي محمد انه على دين ابراهيم ، ولا يصلي الى الكعبة التي كان يصلي اليها ابراهيم واسماعيل ؟. وان أهل الكتاب قالوا : ان الموجود في كتبنا ان النبي الذي يُبعث من ولد اسماعيل يصلي الى الكعبة،لا الى بيت المقدس،

فكيف نعترف بنبوته ؟. فكان لكل من المشركين وأهل الكتاب حجة يتذرع بها في زعمه .. فحول الله نبيه الى الكعبة ، وجعلها قبلة دائمة للنبي ولجميع المسلمين الى يوم الدين ، كي لا يبقى لهؤلاء ، ولا لأولئك ما يحتجون به .

وظاهر الجملة يدل على ان الصلاة الى الكعبة تدفع حجة المعترضين من الناس، أما من هم المعترضون من الناس فلم تتعرض الآية لبيانهم .. ومن الجائز أن يكون الوجه في قطع حجة المعترضين ان الكعبة بناها وصلى اليها ابراهيم (ع) ، وهو محل وفاق بين الجميع ، ومحمد (ص) على سنته .

(الا الذين ظلموا منهم) . أي لا حجة عليك لواحد من الناس إذا صليت الا للمبطل المعاند الذي لا يستند في اعتراضه وطعنه الى برهان عقلي ، ولا هدى سماوي ، بل لمجرد التعصب والتعنت .

(فلا تخشوهم واخشوني) . أي لا تخافوا في الحق لومة لائم ، فأنا وحدي أملك لكم النفع والضر . وقال ابن عربي في تفسيره : « معنى اخشوني اعرفوا عظمتي لئلا يعظم الكافر عندكم ، قال علي أمير المؤمنين (ع) : عظم الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في أعينهم » .

(ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) . أي أنعمت عليكم بالاسلام ،وأتممت النعمة باعطائي إياكم قبلة مستقلة توحد كلمتكم،وتجمع شملكم ، وتتجه اليها شعوب العالم من أقطار الأرض على اختلاف ألوانها وألسنتها ..

اواصر الأمة الاسلامية :

قال عالم مدقق : تربط الأمة الاسلامية ثلاث أواصر : إله واحد ، وكتاب واحد ، وقبلة واحدة ، يفد اليها المسلمون من أقطار الأرض كل عام، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة ، هي أرض الوطن الروحي .. وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، ووحدة الوطن الأعلى ، ليذكر المسلمون انهم وان تفرقت أقطارهم،واختلفت انسابهم وألسنتهم وألوانهم تجمعهم جامعة الدين والله والوطن.. وانه إذا جد الجد وجب ان يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة .

(كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) . للعلماء كلام كثير وطويل في معنى الحكمة .. والذي نفهمه نحن ان كل ما وضع في مكانه اللائق به من قول أو فعل فهو من الحكمة .. وعلى أية حال ، فان المعنى العام لهذه الآية ان الله سبحانه قد أنعم بالقبلة على العرب ، كما أنعم عليهم من قبل بمحمد (ص) ، فهو منهم وفيهم ، وقد أنشأهم خلقاً جديداً ، فطهرهم من أرجاس الشرك ، ومساوىء الأخلاق ، وأصبحوا بفضله أصحاب دين سماوي ، وشريعة إلهية ، أساسها العدل والمساواة، كما أصبحت لهم دولة بسطت جناحيها على نصف المعمورة ، حتى لغتهم عظمت وارتفع شأنها بالقرآن وبلاغته .

وليس من شك انه لولا محمد وآل محمد لم يكن للعرب تاريخ ، ولا تراث، ولا شيء سوى الوثنية وقذارتها ، والجاهلية وحميتها ، ووأد البنات تخلصاً من نفقتها ، بل ان محمداً العربي (ص) هو النعمة الكبرى على البشرية كلها ، فلقد تقدمت بفضله تقدماً هائلاً وسريعاً في ميدان العلم والحضارة ، واعترف بهذه الحقيقة . وسجلها المنصفون من علماء الغرب،ونقلنا طرفاً منها في كتاب «الاسلام والعقل » .

ومن أجل النعم الجلى التي أنعم الله بها على العرب دعاهم الى ذكره وشكره، وحذرهم من كفران النعم والاحسان بقوله : (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) . أي أذكروني بالطاعة أذكركم بالأجر والثواب، واشكروني على نعمة الاسلام ، وبعثة محمد (ص) الذي هو منكم وفيكم ، ولا تكفروا بمخالفة الله ورسوله .. وفي الآية ٧ من سورة ابراهيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » . وقال أمير المؤمنين (ع) : «ما كان الله ليفتح باب الشكر،ويغلق عنكم باب الاجابة . وقال : افيضوا في ذكر الله فانه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فان وعده أصدق الوعد .

شكر المنعم :

من بديهيات العقل الأولية ان الشكر لله واجب على كل بالغ عاقل ، حتى

ولو لم تنزل آية أو ترد رواية بوجوب شكره ، لأنه جل وعز هو الخالق الرازق، ومعنى شكره تعالى بعد الاعتقاد بأنه المبدىء والمعيد ، وانه على كل شيء قدير ان نطيع أمره ونهيه ، ونفوض الأمور اليه وحده .

هذا ، بالنسبة اليه سبحانه ، أما إذا أحسن انسان لانسان مثله بشيء مادي أو أدبي فهل على من أحسن اليه ان يشكر صاحب الاحسان ، بحيث اذا لم يشكره بنحو من الانحاء يكون عاصياً مستحقاً للعقاب ؟.

ليس من شك ان شكر الانسان المحسن على احسانه راجح في نفسه ، بل هو من شعار الطيبين الصالحين ، أما الوجوب وعدم جواز الترك فلا دليل عليه، وكل ما ورد في شكر المنعم – غير الله والنبي وأهل بيته – فمحمول على الاستحباب تماماً كقول الإمام أمير المؤمنين (ع) : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » . فان العفو عمن أساء اليك غير واجب قطعاً ، ولكنه مستحب اجماعاً .. أما الكلمة التي تتردد كثيراً على الألسن ، وهي : « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق » فانها حكم أخلاقي لا الزامي .. والا فأية ملازمة بين شكر الخالق ، وشكر المخلوق ؟.

أجل ، ان انكار النعمة ، وقولك لمن أحسن اليك : لم تحسن ، محرم – لأنه كذب ، وبالأولى تحريم الاساءة اليه ، لأنها حرام بذاتها ، حتى لغير المحسن .. ولكن وجوب الشكر شيء ، وحرمة الكذب والاساءة شيء آخر .

استعينوا بالصبر والصلاة الآية ١٥٣ – ١٥٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ★ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ★ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ★ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ

قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ★ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ★

الإعراب :

يا أيها أي منادى ، والهاء للتنبيه ، والذين عطف بيان لأي،لأنها من الأسماء المبهمة التي تحتاج الى بيان ، إما بالمضاف اليه مثل أي الرجلين ، أو بالوصف والبدلية ، وأموات خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم أموات . ولنبلونكم اللام واقعة في جواب قسم محذوف،والنون للتوكيد ، ومن الخوف متعلق بمحذوف صفة لشيء .

الصبر :

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) . جاء في تفسير المنار : « ان الصبر ذكر في القرآن سبعين مرة .. وهذا يدل على عظم أمره ، وقد جعل التواصي به في سورة العصر مقروناً بالتواصي بالحق ، اذ لا بد للداعي الى الحق منه » .

واشتط صاحب البحر المحيط ، حيث قال:ان الصبر والصلاة ركنا الاسلام .. وذهل عن حديث : بني الاسلام على خمس[1] .. وليس الصبر منها،كما ذهل عن ان التكاليف الاسلامية منها مولوية الزامية يلحظ فيها الصدور من الأعلى الى الأدنى ، ويحاسب المكلف ويعاقب غداً على مخالفتها ، كالأمر بالصلاة ووفاء الدين ، وما اليها .. ومنها تكاليف ارشادية وردت لمجرد النصيحة أشبه بالأمر من المساوي ، لا يعاقب المكلف على تركها ، كالأمر بالنظافة ، وغسل اليد قبل الأكل ، والنهي عن ادخال الطعام على الطعام،ونحو ذلك .. والأمر بالصبر من هذا النوع يراد به مجرد الارشاد والنصيحة ، وأين هذا من أركان الدين التي يستوجب تركها الخروج عن الدين ؟

---

١ وهذا هو الحديث : بني الإسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا .

ثم ان الصبر لا يحمد لذاته : ومن حيث هو ، وانما يحمد ويحسن اذا كان وسيلة لغاية نبيلة ، كالصبر في الجهاد المقدس ، والصبر على الفقر والعوز من أجل العلم وتحصيله ، والصبر على المكاره من أجل العيال . وتربية الأطفال ، أو لاغاثة ملهوف ، والصبر على كلمة من سفيه دفعاً للشر ، أو على فقد عزيز لا يرده الجزع والهلع ، بل يزداد المصاب تفاقماً ، قال أمير المؤمنين (ع) : من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها . اي ان تفاقم الجزع يوقع الرجل المصاب في ما هو أشد وأعظم .. وقيل لبزرجمهر : مالك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات ، ولا تفرح بما هو آت ؟.. فقال : ان الفائت لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة .. وقال آخر : لا أقول لشيء كان ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن ليته كان ..

وقد يكون الصبر قبيحاً مذموماً ، كالصبر على الجوع مع القدرة على العمل ، وعلى الاضطهاد .. ففي هذه الحال يحسن الصبر في كفاح الظالم ونضاله .

وتسأل : ما هي المناسبة بين الصلاة والصبر ، حتى قرنا معاً في آية واحدة ؟.

الجواب : ان معنى الصبر توطين النفس على احتمال المكاره ، ويحتاج هذا الى الثقة بالله ، والايمان بأنه « مع الصابرين » .. وليس من شك ان الصلاة تؤكد هذه الثقة ، وتثبت هذا الايمان .. بالاضافة الى ان مناجاة الله سبحانه تخفف من وطأة المصاب .

(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون).

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ومعلوم ان كل من يفارق هذه الحياة يرجع الى ربه لا محالة صالحاً كان أو طالحاً ، شهيداً أو غير شهيد ، سوى ان الصالح ينتقل من حياة أدنى الى حياة أعلى ، والطالح بالعكس .. وخص الشهيد بالذكر اما للتنبيه على مكانته عند الله ترغيباً في الاستشهاد ، واما لما نقل عن ابن عباس من ان الآية نزلت فيمن قتلوا يوم بدر ، وهم ١٤ من المهاجرين ، و ٨ من الأنصار ، فقيل مات فلان وفلان ، فنزلت الآية : ولا تقولوا الخ .. وهذا غير بعيد ، لأنّ لا تقولوا أموات ، تشعر بذلك .

ومهما يكن ، فان الذي يجب أن نؤمن به هو ان من استشهد دفاعاً عن

الاسلام ، أو عن أي شيء ينطبق عليه الحق والعدل والانسانية فانه ينتقل من عالم الشهادة الى عالم الغيب ، ويحيا هناك حياة طيبة ، وانه يمتاز عند الله عمن مات حتف امه ، قال أمير المؤمنين (ع) : والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش .. أما حقيقة حياة الشهيد بعد الموت ، وما هو الرزق الذي يتنعم به فأمر لا نعرفه ، ولا نبحث عنه ، لأننا غير مكلفين بمعرفته .

ثمن الجنة :

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) . ما اتبع الحق واحد الا دفع ثمنه من نفسه ، أو أهله ، أو ماله ، وكلما عظم الحق عظم الثمن المرير ، ولولا هذا لم يكن لأنصار الحق من فضل ، ولاتّبع الناس ، كل الناس الحق .. وبهذا نجد تفسير الحديث الشريف : « البلاء موكل بالمؤمن .. وان أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل » .. وأيضاً بلاء الأنبياء يأتي على قدر منزلتهم ، قال الرسول الأعظم (ص) : ما اوذي نبي بمثل ما اوذيت . وقال أمير المؤمنين(ع) ان الحق ثقيل مريء ، والباطل خفيف وبيء .. وكفى شاهداً قوله تعالى : « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء – البقرة ٢١٤ .

وتدل هذه الآية على ان الجنة محرمة إلا على من ضحى في سبيل الله ، ولا تنحصر التضحية في ميدان القتال،وجهاد أهل الشرك والكفر ، بل إن أيّ مكروه يتحمله الانسان من أجل الدفاع عن الحق والعدل لهو تضحية في سبيل الله ، وثمن لدخول الجنة ، حتى ولو كان الدفاع بكلمة يجابه بها مبطلاً،ويناصر محقاً .

بعد أن باشرت بكتابة التفسير تكوّن عندي يقين لا يشوبه ريب بأن الجنة محرمة إلا على من أوذي ، وتحمل صابراً ، ولو شيئاً من الضغط والبلاء في سبيل الحق والعدل ، وعلى الأقل أن يكبح نفسه عما تميل اليه من المحرمات ، أو يحملها على بذل ما لا تجود به طوعاً ، أو يجهد نفسه من أجل غيره ، ولو

كان الغير والداً ، أو ولداً . والمعيار أن يتحمل المشاق بصبر في سبيل مرضاة الله سبحانه ، اما ان يدخل الجنة على « البارد المستريح » كما يقول أهل جبل عامل فبعيد كل البعد .

(الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) . ومعنى انا لله الاعتراف له بالملك والعبودية ، ومعنى انا اليه راجعون الاقرار بالبعث بعد الموت .

ثم ان التمحيص بالبلاء هو المحك الذي يُظهر الانسان على حقيقته ، فالمؤمن العاقل لا يخرج عن دينه عند نزول المصيبة ، ولا يتفوه بكلمة الكفر والسفه والجهل ، بل يصبر ولا يذهب البلاء بعقله وايمانه ، أما ضعيف العقل والايمان فيستولي عليه الشيطان ، ويذهب به كل مذهب من الكفر والشتم والبذاءة ، وينحدر الى هوة الرذالة والسفالة ، وخير ما قيل في ذلك قول سيد الشهداء الحسين بن علي يوم الطفّ : الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون .

(اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) . الصلاة من الله التكريم وعلو المنزلة ، ورحمته تعالى لعبيده الرفق بهم ، والهداية الى خيرهم ، والانعام عليهم.

وفي الحديث : ما من مسلم يصاب بمصيبة فيفزع الى أمر الله بقوله : إنا لله وانا اليه راجعون ، اللهم عندك احتسب مصيبتي ، فأجرني فيها وعوضني خيراً منها ، إلا آجره الله عليها وعوضه خيراً منها .

أنواع أجر الصابرين :

ذكر بعض المفسرين ان الله سبحانه أعطى للصابرين ثمانية أنواع من الأجر والكرامة .

١ ــ المحبة ، قال تعالى : والله يحب الصابرين ــ آل عمران ١٤٦ .
٢ ــ النصر ، قال سبحانه : ان الله مع الصابرين ــ البقرة ١٥٣ .
٣ ــ غرفات الجنة : أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ــ الفرقان ٧٥ .
٤ ــ الأجر الجزيل : انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ــ الزمر ١٠ .

٥ – البشارة : وبشر الصابرين – البقرة ٥٥ .
٦ و ٧ – الصلاة والرحمة: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة – البقرة ١٥٧.
٨ – الهداية : وأولئك هم المهتدون – البقرة ١٥٧ .

الصفا والمروة الآية ١٥٨ :

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ★

اللغة :

الصفا والمروة جبلان صغيران ، وبالأصح ربوتان بمكة ، قريبتان من الكعبة، يسعى بينهما الحاج والمعتمر .. والشعائر جمع شعيرة ، وهي العلامة ، مأخوذة من الإشعار بمعنى الاعلام . والجناح بضم الجيم الميل ، تقول جنح اليه ، أي مال اليه ، والمراد به هنا الاثم . والتطوع ما تبرعت به تلقائياً دون أن يكون واجباً عليك .

الاعراب :

جناح اسم لا النافية للجنس ، والمصدر المنسبك من أن يطوف مجرور بفي المحذوفة، والمجرور متعلق بمحذوف خبر لا ، وخيراً صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره تطوعاً خيراً ، أو منصوب بنزع الخافض تقديره تطوع بخير .

المعنى :

(ان الصفا والمروة من شعائر الله) . العبادة على أقسام شكلاً وتوقيتاً ، وبالنظر الى التوقيت منها ما يجب في كل يوم، وهي الصلاة ، ومنها في كل سنة،

وهو صوم رمضان ، ومنها في العمر مرة ، وهو الحج للمستطيع ، والحج أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الاسلام ، وهي : شهـادة ان لا إله إلا الله ، وان محمـداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتـاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ..

والعمرة عادة كالحج ، ولكن لا وقوف فيها بعرفة ، ولا مبيت بالمزدلفة ، ولا رمي أحجار وجمار في منى ، ويأتي التفصيل في الآية ١٩٦ وما بعدها من هذه السورة ، وبقية السور التي تشير الى شيء من ذلك . وتجمـل الاشارة الى ان العبادة بشتى أنواعها بما فيها أعمال الحج لا مجال فيها للاجتهاد،ولا للتعليلات وغيرها ، وانما يقتصر فيها على نص الكتاب والسنة فقط ، وكل ما يتعدى ذلك لم يأذن الله به .

والذي تعرضت له هذه الآية ، ودل ظاهرها عليه هو ان الصفا والمروة من الأماكن التي يتعبد الانسان فيها لله بالطواف بهما ، وهـذا الطواف المشار اليه بقوله سبحانه :(فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما)ان هذا الطواف هو المعروف بالسعي بين الصفا والمروة .. أما كيفية السعي وعدد أشواطه، والابتداء بالصفا فيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى .

وتسأل : ان السعي بين الصفا والمروة في حجة الاسلام واجب بالاجماع، مع ان التعبير بعدم الجناح لا يفيد الا مجرد جواز الفعل ، وعدم الإثم فيه ، وهذا أعم من الوجوب والاستحباب والاباحة ، والعام لا يدل على الخاص ؟.

الجواب : ان قوله تعالى : فلا جناح عليه لم يرد لبيان حكم السعي ، وانه فرض أو غير فرض ، وانما ورد لبيان ان السعي مشروع ، وان الاسلام يجيزه ويقره .. أما معرفة حكمه ، وهل هو فرض أو ندب فيستفاد من دليل آخر ، وقد تواترت السنة النبوية ، وأجمع المسلمون عـلى وجوب السعي في حجة الاسلام .

وجاء في مجمع البيان : « ان الإمام جعفر الصادق (ع) قال: كان المسلمون يرون ان الصفا والمروة مما ابتدع أهل الجاهلية ، فأنزل الله هذه الآية » . أي ان الله سبحانه نفى هذا الوهم،وبيّن ان الصفا والمروة من الاسلام في الصميم ..

واذا تطوّف المشركون بهما تقربا الى الأوثان فان المسلمين يسعون بينهما طاعة لله، وامتثالاً لأمره .

(ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) . أي من تبرع بالسعي بين الصفا والمروة بعد ما أدى الواجب الـذي عليه فان الله يجزيه بالاحسان على احسانه .. والشاكر من صفات الله ، ومعنى شكر الله لعبده المطيع انه راضٍ عنه ، ويثيبه على شكره وطاعته .

ان الذين يكتمون ما أنزلنا الآية ١٥٩ ـ ١٦٢ :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ★ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ★ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ★ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ★

المعنى :

(ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) . ظاهر هذه الآية انها مستأنفة لا ترتبط بما قبلها .. ومحصل المراد منها ان كل من علم بحكم من أحكام الدين الـذي جاء بيانه في كتاب الله ، أو في سنـة رسول الله ، أو في حكم العقل وكتمه فهو ملعون عند الله وأهل السماء والأرض .. وقد أشار الله الى حكم العقل بلفظه

« الهدى » .. قال صاحب مجمع البيان : البينات هي الأدلة الشرعية ، والهدى الدلائل العقلية ..

ولا يختص اللعن على الكتمان بأهـل الكتاب فقط ، بل يشمل كل من كتم الحق ، لأمور :

١ – ان اللفظ لم يقيد بشيء .

٢ – لو افترض ان مورد نزول الآية ما فعله أهل الكتاب من تحريف التوراة والانجيل فان المورد لا يخصص الوارد على حد تعبير الفقهاء ، وهم يعنون بذلك ان الحادثة الخاصة لا تقتضي تخصيص اللفظ العام .

٣ – قد ثبت في علم الأصول ان ترتب الحكم على الوصف مشعر بأن الوصف علة له ، وقد ترتبت اللعنة هنا على الكتمان من حيث هو ، فيكون عاماً لكل كتمان .

وجاء في الحديث : من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامـة بلجام من نار .. واتفق الفقهاء كلمة واحدة على أن تعليم الجاهل احكام دينه الضرورية واجب كفاية عـلى كل عارف بها ، فان فعل البعض سقط عن الكل ، وان ترك الكل استحقوا جميعاً العقاب .

ومعنى اللعن من الله سبحانـه طرد الملعون من رحمته ، ومعناه من الملائكة والناس الدعاء عليه بالطرد من رحمة الله .

قبح العقاب بلا بيان :

ان مسؤولية البالغ العاقل أمام الله سبحانه تقاس بوصول التكليف اليه، ومعرفته به ، ولا أثر لمجرد التكليف في نفسه ، ولبيانه إذا لم يصل الى المكلف .. فان عدم وصول البيان تماماً كعدمه من الأساس .. أجل ، يجب عـلى المكلف أن يبحث وينقب عن البيان ودليل الحكم في مظان وجوده، ويسأل عنه أهل الاختصاص في الدين والشرع .. ولا يجوز له أن يقصر ويهمل ، ثم يعتذر بالجهـل ، لأن المقصر تماماً كالعامد ، بل هو هو ، لأنه تعمد عـدم البحث والدرس .. فإذا

بحث مجداً ، ولم يظفر بشيء فهو غير مسؤول ، حتّى ولو كان البيان موجوداً في الواقع .

وهذه الحقيقة من أولى البديهيات العقلية ، وأي عـاقل يعاتب غيره على أمر يجهله من غير تقصير ! وقد أجمع الفقهاء كلمة واحدة على هذا المبدأ ، وأقره الشرع في العديد من الآيات والروايات ، فمن الآيات ما نحن بصددها: (من بعد ما بيناه للنـــاس) . والآية ١٥ من الاسراء : (وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولاً) . ومن الروايات قول الرسول الأعظم (ص) : (رفع عـن أمتي ما لا يعلمون) وسنعود الى الموضوع كلما وصلنا إلى آية تشعر به .

(إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) . أي ان الذين يكتمون الحـق ملعونون إلا من تاب وندم على ما فرط ، وأصلح سريرته بالاخلاص في توبته عازماً على عدم العودة الى المعصية ، وان يبين صراحة ما كان قد كتمه من قبـل .. فان مجرد ندم السارق لا يكفي في توبته ما لم يُرجع الحق إلى أهله .

(فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) . التواب من صفات الله تعالى، ومعناه القابل توبة من تاب ، وهو مبالغة في القبول ، واقترن الرحيم بالتواب للتنبيه على ان السبب في قبول التوبة عمن أساء هو رحمته تعالى بعباده .

(ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) . حتّى من كفر بالله وجحده يقبل الله توبته إذا تاب وأناب، ويغفر له ، ويرحمه ، ولا يعذب إلا من مات مصراً على الكفر والمعصية ، لأنه،والحال هذه ، مستحق للعنة أهل السماء والأرض .

وتسأل : كيف قال الله سبحانه : والناس أجمعين ، مع العلم بأن في الناس من لا يلعن الكافر ، بخاصة أهل دينه الذين هم على شاكلته ؟.

الجواب : ان القصد من قوله : (والملائكة والناس أجمعين) ان من مات على الكفر هو أهل ومحل للعنة أهل الأرض والسماء ، سواء ألعنوه بالفعل أم لم يلعنوه ، حتّى ولو كانوا كفاراً مثله فهو أهل للعنتهم .. وقـد جاء في القرآن الكريم ان الكفار غداً يلعن بعضهم بعضاً : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً – العنكبوت ٢٥ » .

(خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) . ومعنى الخلـود

في اللعنة الخلود في أثرها ، وهو النار ، وقال الرازي : « معنى لا ينظرون انهم إذا استمهلوا لا يُمهلون ، وإذا استغاثوا لا يغاثون ، ويقال لهم : اخسأوا ولا تكلمونِ .. نعوذ بالله » .

حكم اللعن في الشريعة :

لعن الغير محرم ، ومن الكبائر ، لأنه أثم وعدوان ، تماماً كالتعدي على الأموال ، وفي الحديث : « ان اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت ، فان وجدت مساغاً ، وإلا رجعت على صاحبها .. وقد خرج عن هذا المبدأ أصناف أجازت الشريعة لعنهم ، وهم :

١ - الكافر ، والآيات كثيرة في ذلك ، ومنها الآية التي نحن بصددها ، أما الأحاديث فقد تجاوزت حد التواتر ، منها ما جاء في كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي بكر المعافري ، فقد ذكر عند تفسير الآية ١٦١ من سورة البقرة ان النبي (ص) قال : اللهم ان عمرو بن العاص هجاني ، وقد علم اني لست بشاعر ، فلعنه .

٢ - الظالم ، مسلماً كان ، أو غير مسلم ، لقوله تعالى : لعنة الله على الظالمين - الاعراف ٤٣ .

٣ - من كذب على الله ورسوله ، قال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يُعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين - هود ١٨ .. ومن الكذب على الله سبحانه الحكم بغير ما أنزل .

٤ - من يسعى في الأرض فساداً .

٥ - من يفتن بين الناس ، ويثير النعرات والحزازات .

أما لعن غير هؤلاء فحلّ إشكال ونظر .. أجل ، من تجاهر بمعصية غير مكترث تجوز غيبته فيما تجاهر به خاصة .. وبديهة ان جواز الغيبة شيء ، وجواز اللعن شيء آخر .. أما ما يستعمله العوام من لعن الحيوان ، وما اليه فهو من اللغو الذي يجمل تركه .

وإلهكم إله واحد الآية ١٦٣ ـ ١٦٤ :

وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ★ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ★

الإعراب :

إلهكم مبتدأ خبره إله ، وواحد صفة لإله ، ولا إله مبني على الفتح اسم لا النافية للجنس ، وخبرها محذوف تقديره لا إله موجود إلا هو ، والجملة خبر ثان ، وهو بدل من اسم لا ، ورفع تبعاً للمحل ، وقيل هو بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف ، وهو موجود ، والرحمن الرحيم خبر ثالث لإلهكم ، أو لمبتدأ محذوف تقديره هو الرحمن الرحيم .

المعنى :

(وإلهكم إله واحد لا إله الا هو) . قال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لولده الحسن (ع) : (واعلم يا بني لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته) ويأتي الكلام على نفي الشريك في تفسير قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً ــ الاسراء ٤٢ » . وقوله : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ــ الأنبياء ٢٢ » . وقوله : « وما كان معه من إله اذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ــ المؤمنون ٩١ » .

السماء :

(ان في خلق السموات والأرض) . ان في السماء من النجوم ما يفوق على حبات الرمل عدداً،وان أصغر نجم لهو أكبر حجماً من الأرض بأكثر من مليون مرة ، وان كل مجموعة من النجوم تؤلف مدينة عظمى ، اسمها المجرة ، تضم أكثر من مئة مليون نجمة ، وان عدد هذه المدن أكثر من مليوني مدينة تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة رسالة لاسلكية تصل بعد ثلاثة ملايين من السنين ، أي ان نسبة هذه المدن بمجموعها الى الفضاء الحالي ، تماماً كنسبة ذبابة تائهة في الكرة الأرضية ، وكل هذه النجوم والمجرات تسير بتوازن وانتظام .. هذا مثال من ملايين الملايين على قدرة الله وعظمته ، اكتشفها العلم الحديث .. وما زالت الآية الكريمة تخاطب العلماء المكتشفين،وتقول لهم : وما اوتيتم من العلم الا قليلا .

الارض :

الأرض كرة معلقة في الهواء،تدور حول نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة ، فيكون تعاقب الليل والنهار ، وتسبح حول الشمس مرة كل عام، فيكون تعاقب الفصول الأربعة ، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، ويحفظ هذا الغلاف من الغازات درجة الحرارة المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يتكاثف المطر .

ثم لو كان قطر الأرض أصغر مما هو عليه لعجزت عن الاحتفاظ بالتوازن، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت ، ولو كان قطرها أكبر مما هو لزادت جاذبيتها للاجسام ، وتؤثر هذه الزيادة أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض .

ولو بعدت الأرض عن الشمس أكثر من المسافة الحالية لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس ، ولو قربت منها أكثر مما هي الآن لزادت الحرارة ، وفي كلتا الحالتين تتعذر الحياة على الأرض .

فكروية الأرض ، والفراغ الذي يحيط بها ، ودوارنها حول الشمس ، واحاطتها بالغلاف الجوي ، ووضعها في مكانها الخاص ، وكون قطرها بهذا

المقدار الخاص ، كل اولئك تهيء للانسان أسباب الحياة على الأرض ، ولو فقد وصف واحد من هذه الأوصاف ، كما لو كانت الأرض مسطحة ، أو أصغر ، أو أكبر ، أو أبعد أو أقرب الى الشمس ، أو فقد الغلاف لاستحال أن يكون الانسان ابن الأرض بشهادة العلماء ، وليس من المعقول ان هذا النظام العجيب مجرد مصادفة .. بل بحكمة حكيم ، وتدبير مدبر .

وجود الله :

ذكرنا عند تفسير الآية ٢١ – ٢٢ من هذه السورة الادلة على وجود المدبر الحكيم ، ومن هذه الأدلة الدليل المعروف بالدليل الغائي ،وان النظام الدقيق المحكم بين الاجرام السماوية والعوالم الأرضية لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ، ولا تفسير مقنع له إلا وجود قادر حكيم . وقد اعتمد القرآن هذا الدليل ، وأشار اليه في العديد من الآيات ، منها هذه الآية . وبمناسبتها نعود الى الاستدلال على وجود الله ، ولكن بأسلوب غير الاسلوب الذي اتبعناه عند تفسير الآية ٢١ ، وقبل كل شيء نمهد بما يلي :

ان الماديين يحصرون سبب العلم والمعرفة بالمشاهدة والتجربة ، فكل ما تؤمن به عن طريق التجربة فهو علم ، وكل ما تعتقده عن غير هذا الطريق فلا يسمونه علماً ، ويسمونه عقيدة .. فالعلم والاعتقاد في اصطلاحهم مختلفان في مصدرهما ، ومتى استعان المرء بالتأمل والتجربة على صحة ما يعتقد يصبح المعتقد علماً .

وعلى أساسهم هذا يكون الايمان بوجود الله عقيدة لا علماً ، وكذا الايمان بعدم وجوده عقيدة لا علم ، لأن كلاً منهما لا يستند الى التجربة والاختبار ، وتكون المقارنة بينهما مقارنة بين عقيدة وعقيدة .. وبكلمة ان كل ما يتصل بالله سبحانه من الاعتراف أو الانكار فهو من شؤون الغيب ، فاذا كان المؤمن بوجود الله مؤمناً بالغيب ، لأنه لم يستند الى التجربة ، فكذا من كفر به لم يستند الى التجربة ، بل الى الغيب ، فاذن هما سواء في ذلك .

وبعد هذا التمهيد نعرض قول الماديين الجاحدين لوجود الله ، وقول المؤمنين بالله ، ونترك الخيار للقارىء .

قال الجاحدون : ان وجود الكون ، وما فيه من نظام وانسجام ، والانسان وما فيه من شعور وعقل – كل ذلك وما اليه لا يخضع لضابط ، ولا لمنطق ، وانما جاء وليد الصدفة ، فالكون وجد صدفة ثم حصل الترتيب، والنظام صدفة، وكل شيء أخذ محله اللائق به صدفة ، والمادة هي التي أعطت الحياة والعقل ، والسمع والبصر ، وبكلمة ان المادة العمياء هي الإله القادر على كل شيء ، ولكن جاءتها القدرة والحكمة والتدبير عن طريق الصدفة .

أما المؤمنون بوجود الله فيقولون : ان الكون ونظامه قد انبثق عن قصد وتصميم ، وحكمة وتدبير من إله قادر حكيم .

والآن أيها القارىء الق على نفسك هذا السؤال : ما هو مصدر الكون ، والنظام والتدبير فيه ؟ هل هو الصدفة كما يقول الجاحدون ، أو القصد والتدبير كما يقول المؤمنون ؟ الق هذا السؤال على نفسك أيها القارىء ، ثم أجب عنه بوحي من عقلك .. أما « فولتر » الشهير فقد أجاب عن هذا السؤال بقوله : « ان فكرة وجود الله فرض ضروري ، لأن الفكرة المضادة حماقات » .

أيهما أسبق: الليل أو النهار ؟

اختلف العلماء : هل النور سابق على الظلمة ، أو الظلمة سابقة على النور في الوجود ، وعلى الأول يكون النهار سابقاً على الليل ، وتكون ليلة اليوم هي الليلة التي تأتي بعد النهار ، وعلى الثاني يكون الليل سابقاً على النهار ، وتكون ليلة اليوم هي الليلة التي تأتي قبل النهار ، وذهب الأوائل الى هذا القول ، فليلة الجمعة عندهم – مثلاً – هي التي تدخل قبل فجر الجمعة ، وهكذا سائر ليالي الأيام ، ومما استدلوا به قوله تعالى : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار – يس ٣٧ .

يتخذ من دون الله أنداداً الآية ١٦٥ – ١٦٧ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ

آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ★ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ★ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ
حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ★

اللغة :

دون ظرف مكان ، تقول : قعد فلان دون زيد ، أي في مكان منحط عن مكانه ، ويستعمل لفظ دون بمعنى رديء ، وبمعنى غير مجازاً ، وهذا هو المراد من قوله تعالى من دون الله ، أي من غير الله . والأنداد جمع ند، وهو النظير والمماثل ، تقول : عامله معاملة الند للند ، أي النظير للنظير ، والمراد بالأنداد هنا بعض المخلوقات التي ينسب اليها جماعة من الناس ما لله من خصائص، كالنفع والضر ، والقدرة الخارقة ، والعلم بالغيب ، وما الى ذلك .

الإعراب :

كحب الله الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، تقديره يحبونهم حباً مثل حب الله ، وأشد خبر الذين آمنوا ، وحباً تمييز ، وان القوة لله بفتح همزة أن ، والمصدر المنسبك منها ومما بعدها مفعول يرى ، وجميعاً حال ، وان الله شديد العذاب عطف على ان القوة لله ، والتقدير لو يرى الذين ظلموا قوة الله ، وشدة عذابه ، وجواب لو يرى محذوف دلّ عليه سياق الكلام ، والتقدير لعلموا ان الله لا شريك له ولا ند .

المعنى :

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) . أي ان بعض الناس يشركون بالله ، لأنهم قد جعلوا لـه نظراء في بعض خصائصه ، كالنفع والضرر .. وعن الإمام الباقر (ع) انه قال : الانداد الذين اتخذوهم ، وأحبوهم كحب الله هم أئمة الظلمة ، وأشياعهم .

وقيل : ان معنى حب الله سبحانه هو حب الكمال : لأنـه الكمال المطلق . وقيل : بل هو العلم بعظمته وقدرته وحكمته . وقيل:الايمان بأنه المبدىء المعيد ، وان كل شيء في يده .. ونحن عـلى الطريقة التي التزمناها من اختيـار المعنى الملائم الواضح القريب الى كل فهم ، وعلى هذا الأساس نقول : ان الذي يحب الله هو الذي يخالف هـواه ، ويطيع مولاه ، كما قال الإمام الصادق (ع) في تعريف من يؤخذ الدين عنه ، وبكلمة:ان معنى حبك لله ان تترك ما تريد لما يريد ، كما ان معنى محبة الرسول (ص) العمل بسنته ، أما حب الله لعبـده فاجزال الثواب له ، وجاء في الحديث : « سأعطي الراية غداً الى رجل – وهو علي بن أبي طالب – يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » . أي ان علياً يطيع الله ، والله يجزل له الثواب ، والرسول يكرمه ويقدمه .

وبعد ، فان كل من يؤثر طاعة المخلوق على طاعة الخالق فقد اتخذ من دون الله انداداً ، من حيث يريد ، أو لا يريد .

(والذين آمنوا أشد حباً لله) . لأنهم لا يشركون أحداً في طاعته ، والثقة به ، والتوكل عليه ، أما غير المؤمنين فيثقون بالعديد من الانداد ، ويشركونهم مع الله في الطاعة ، وطلب الخير ، ودفع الشر .

(ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعـاً) . أي لو علم المشركون الذين ظلموا أنفسهم ان لا سلطان في يوم الحق والفصل لأحـد سوى الله ، وانه وحده يستقل بعذاب العاصين ، وثواب الطائعين – لو علمـوا ذلك لأيقنوا ان الذي يستقل غداً في شؤون الآخرة هو وحده الذي يدبر هـذا العالم .. فجواب لو محذوف دل عليه سياق الكلام .

(واذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) .

ما زال الكلام في الذين اتخـذوا انداداً من دون الله ، وهؤلاء هم المرؤوسون والتابعون ، والأنداد هم الرؤساء والمتبوعون .. وغداً إذا انكشف الغطـاء تبرأ الرئيس من المرؤوس ، والمتبوع من التابع ،لشدة ما وقع به من العذاب ،وتقطعت الروابط والعلاقات بين الاثنين ، قال صاحب مجمع البيان : « يزول بينهم كل سبب يمكن التعلق به من مودة وقرابة ومنزلة وحلف وعهد ، وما إلى ذلك مما كانوا ينتفعون به في هذه الدنيا ، وذلك غاية الاياس » . وتجري هـذه الآية مجرى قوله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون – الأعراف ٣٧ » .

(وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا) . يتمنى غداً كل عاص ان يعود الى الدنيا ليصلح ما كان أفسد ، بخاصة التابع لأهل البغي والضلال ، ليتبرأ من المتبوع المضل ، ولا شيء أبعد من هـذه الأمنية ، بل هي حسرة تحرق النفس، تماماً كما تحرق النار الجسد .. وهكذا تكون الحسرات ثمرة لاتباع الهوى والتفريط .

وظاهر لفظ الآية يدل على انها مختصة بالكفار ، ولكن السبب الموجب للحكم يشمل كل من اتبع وناصر أهل الجور والفساد ، ومن اعتقد ان غير الله ينفع ويضر ، ومن أخذ دينه عن أهل الجهل والضلال ، ان هذه الآية تشمل هؤلاء جميعاً ، حتى من نطق بكلمة التوحيد ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة .. اللهم الا الجاهل القاصر الذي يعجز عن معرفة الحقيقـة ، وادراك ما تدركه العقول السليمة .

التقليد والأئمة الأربعة :

جاء في تفسير المنار نقلاً عن الشيخ محمد عبده ان الأئمة الأربعة : أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وابن حنبل نهوا عن تقليدهم والأخذ بأقوالهم ، وانهم قد أمروا بتركها لكتاب الله وسنة رسوله ، وبعد ان نقل قول كل إمام في ذلك قال : ولكن الكرخي – هو أحد فقهاء الحنفية – صرح قائلاً بأن الأصل قول الحنفية ،

فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك،والا وجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول الحنفية .

ومعنى هذا ان قول الحنفية حاكم ومقدم على القرآن والسنة ، وهما محكومان له ، وهذا القول هو الكفر بعينه ، وأي كفر أعظم من طرح قول الله ورسوله بقول أبي حنيفة وأصحابه ؟ وأي فرق بين من يقول هذا ، وبين من أشار الله اليهم بقوله : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » . وقد بحثنا التقليد بصورة أوسع عند تفسير الآية ١٧٠ من هذه السورة فقرة « التقليد وأصول العقيدة » ، فراجع .

هذا ، الى ان العمل بأقوال الأئمة الأربعة عمل بلا اجتهاد ولا تقليد ، لأن الأربعة قد منعوا من تقليدهم والعمل بأقوالهم .

كلوا مما في الأرض الآية ١٦٨ ـ ١٧٠ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ★ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ★

اللغة :

الحلال كل ما لم يثبت النهي عنه في الشريعة ، والحرام ما ثبت النهي عنه ، والطيب هو الحسن ، تقول : حياة طيبة ، وكلمة طيبة ، أي حسنة ، ومأكول طيب أي حسن ، والمراد بالطيب هنا ما تميل النفس اليه وتستلذه على شريطة ان

لا يكون منهياً عنه .. والسوء كـل ما تسوء عاقبته ، والفحشاء من الفحش ، وهو قبح المنظر ، ثم استعمل في كل قبيح من قول أو فعل .

الاعراب :

حلالاً حال من الموصول المجرور بمن ، وهو قوله : (مما في الأرض) ، وطيباً صفة لحلال ، وألفينا لم تتعد هنا الى مفعولين ، لأنها بمعنى وجدنا .

المعنى :

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) . هذا الخطاب عام لجميع الناس ، سواء منهم من حرّم على نفسه بعض الأطعمة ، أو لم يحرّم ، وسواء منهم المؤمن والكافر ، لأن الكافر يُحرم من نعيم الآخرة ، لا من متاع الدنيا، وفي الحديث القدسي : « أنا أخلق ، ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري» .
ولما كان المأكول منه حلال ومنه حرام ، فقد أباح الله الأول دون الثاني، وكل ما لم ينه الشرع عنه فهو حلال : جاء في الحديث: « ان الله سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً فلا تتكلفوها رحمة من الله بكم » . وقد يحرم بالعارض الشيء الذي هو حلال بالأصل ، كالمال المأخوذ بالربا والغش والرشوة والسرقة .
(ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) . بعد أن أباح الله للناس الحلال حذرهم من التعدي الى الحرام ، وعبّر عن هذا التحذير بالنهي عن اتباع الشيطان ووسوسته التي تزين للانسان ما لا يحل له.. وكل خاطر يغري بارتكاب الحرام ، كالخمر والزنا والكذب والرياء ، أو يحذر من فعل الواجب، كالخوف من الفقر اذا أدّى ما عليه من حق ، أو من الضرر إذا جاهد او قال الحق ، كل ذلك وما اليه هو من وحي الشيطان .. وقد حكى الله عن الشيطان قوله : « لأضلنهم ولأمنينهم » . وقوله : «لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين—الأعراف١٥» .
(انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) . هـــذا

بيان للآثار والنتائج التي تترتب على اتباع دعوة الشيطان وخطواته ، وهي أمور ثلاثة : السوء ، وهو كل فعل تسوء عاقبتـه ، والفحشاء ، وهي أقبح أنواع المعاصي ،والقول على الله بغير علم من أن له انداداً وأولاداً ، ومن تحليل الحرام، وتحريم الحلال ، ومنه العمل بالرأي والقيـاس والاستحسان لاستخراج الاحكام الشرعية .

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليـه آباءنا) . الضمير في (لهم) يعود على كل من قلد الغير بلا حجـة ودليل ، وترك قول الله والرسول بقول الآباء،والمراد بما انزل الله كل ما قامت عليه الدلائل والبراهين، وآمنت به العقول السليمة .

(أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . الهمزة للتوبيخ ، والواو للحال ، والمعنى أيتبعون الآباء حال كونهم لا يعقلون شيئاً من أمـور الدين .. فليس المراد من قوله (لا يعقلون شيئاً) نفي العقل والفهم عنهم في كل شيء، وان كان الظاهر يعطي ذلك ، بل المراد نفي التعقل في أمور الدين فقط ، لأن الكلام في خصوص الأمور الدينية.وسنشير في الفقرة التالية الى ان هذه الآية تدل على قبح التقليد في الضلال ، أما التقليد في الهدى فانه من القدوة الحسنة .

التقليد وأصول العقائد :

ان التقليد كفكرة ، ومن حيث هو،لا يُذم ولا يُمدح ، ولا يحكم عليـه بحسن ولا بقبح بوجه عام ، بل يختلف باختلاف أنواعه التالية :

١ ــ التقليد الذي يرجع الى العدوى النفسية،والغريزة التي تشاهد في الانسان، والحيوان على السواء ، من ذلك صياح الديكة حين تسمع صوت أحدها ، ونهيق الأحمرة حين ينهق واحد منها .. وكذلك الحال بالنسبة الى الانسان ، يصفق واحد للخطيب ، فيقلده الآخرون من غير شعور ، حتى ولو لم يفهموا شيئاً مما أراد، وينظر شخص الى جهة معينة ، فيصوب النظر اليها كل من يراه من غير قصد، وهذا النوع من التقليد لا يوصف بحسن ولا بقبح، لأنه خارج عن دائرة الشعور والارادة .

٢ – ما جرت عليه العادة في طريقة المحاورات والمجاملات ، وفي كيفية اللباس ، وما الى ذلك مما تستدعيه الحياة الاجتماعية،ويشترك فيه الكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، وهذا النوع من التقليد يوصف بالحسن والقبح تبعاً لما يراه الناس .

٣ – تقليد الجاهل للعالم في الشؤون الدنيوية ، كالطب والهندسة ، والزراعة والصناعة ، وما اليها من الرجوع الى أهل الخبرة والاختصاص ، وهذا التقليد حسن ، بل هو ضرورة لازمة تفرضها الحياة الاجتماعية ، ولولاه لاختل النظام، وتعطلت الأعمال ، اذ ليس في مقدور الانسان أن يعلم كل شيء ، ويحيط بكل ما يحتاج اليه ، وقد كان الانسان وما زال بحاجة الى التعاون ، وتبادل الخدمات .

٤ – تقليد المجتهد لمجتهد مثله في الأمور الدينية ، فانه مذموم عقلاً وعرفاً، ومحرّم شرعاً ، لأن ما علمه هو حكم الله في حقه ، فلا يجوز تركه بقول غيره .. وأي عاقل كفؤ تقوم الحجة لديه فينكرها بحجة سواه ؟.. وأي عالم يرغب عن قول الله ورسوله المعصوم الى قول من يخطىء ويصيب ؟.

٥ – تقليد الجاهل للمجتهد العادل في المسائل الدينية الفرعية ، كأحكام العبادات ، والحلال والحرام ، والطهارة والنجاسة ، وصحة المعاملات ، وما اليها ، وهذا التقليد واجب عقلاً وشرعاً ، لأنه تقليد لمن أخذ علمه من الدليل والحجة،تماماً كتقليد المريض الجاهل بدائه ودوائه للعالم بهما .. ان الجاهل مكلف بالاحكام ، ولا طريق له الى الامتثال إلا بالرجوع الى العالم : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

أجل ، إذا صلى الجاهل وصام تبعاً لآبائه ومن اليهم ، لا تقليداً للمجتهد العادل ، وطابقت عبادته الواقع صحت منه وقبلت ، لأن التقليد ليس جزءاً ولا شرطاً من المأمور به ، وانما هو مجرد وسيلة .. وبالأولى ان تصح معاملاته إذا وقعت على وجهها .

أما قول من قال : ان العبادة تفتقر الى نية القربة ، ونية القربة لا تتحقق إلا من المجتهد أو المقلد له .. أما هذا القول فجرد دعوى،لأن معنى نية القربة الاتيان بالمأمور به بدافع الأمر المتعلق به خالصاً من كل شائبة دنيوية .. وليس

من شك ان هذا يتحقق من غير المقلد للمجتهد ، وقوله تعالى : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » يشعر بأن الأب إذا كان على هدى، وقلده الابن صح عمله .. فالعبرة ، اذن ، بالمطابقة وكفى .

٦ – التقليد في أصول الدين والعقيدة ، كمعرفه الله وصفاته ، ونبوة محمد وعصمته ، والبعث والنشر .. وقد منع أكثر علماء السنة والشيعة هـذا النوع من التقليد ، وقالوا بعدم جوازه ، لأن التقليد قبول الشيء بلا دليل ، وهـذا هو الجهل بعينه ، أي ان القائل بوجود الله تقليداً ، تماماً كمن يجهل وجوده من الأساس .. وقال هؤلاء : انمـا أجزنا التقليد في الفروع والمسائل العملية دون الأصول العقائدية ، لأن المطلوب في الفروع مجرد العمل على مقتضى قول المجتهد وهذا ممكن بذاته ، بخلاف الأصول العقائدية فان المطلوب فيها العلم والاعتقاد.. والعلم لا يجتمع مع التقليد ، لأنه جهل محض ، والاعتقاد خارج عـن الاختيار والارادة ، فلا يتعلق التكليف به .

وقال المحققون من السنة والشيعة : إذا اعقب التقليد تصديق جـازم مطابق للواقع صح ، لأنه هو المطلوب ، والاجتهاد ليس شرطاً ولا جزءاً من الايمان والتصديق ، وانما هو وسيلة ، لا غاية .

وهذا هو الحق ، لأن العبرة في اصول العقائد بالايمان الصحيح المطابق، ومن أجل هـذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به ، واطمأنت نفسه لصدقه ونبوته ، دون أن يجتهد ويستعمل النظر .. أما الآيات التي وردت في ذم اتباع الآباء فان سياقها يدل على ان المراد منهـا التقليد في الباطل والضلال ، لا في الحق والهداية .. وتظهر هذه الحقيقة لكل من أمعن الفكر في قوله تعالى: « أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . وقوله : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » . وقولـه : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . فان المفهوم من هذه الآيات ان آباءهم إذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جـاز اتباعهم ، لأن المطلوب هو اتباع ما انزل الله ، فاذا اتبعوه فقد امتثلوا وأطاعوا ، ولا يسألون بعد الطاعة عن شيء .

واختصاراً ان كل من اتبع قول الله والرسول فقد اتبع الحق الثابت بالدليل،

سواء أكان على علم من هذا الدليل ، أو لم يكن . ويكفي ان يعلم اجمالاً بأن هناك دليلاً صحيحاً يعرفه أهل الاجتهاد والاختصاص ، بل من اتبع الحق دون أن يعلم انه حق فلا يعاقب علـى ترك التعلم ، وان لم يستأهل المدح والثواب . ويشعر بذلك قوله تعالى : « وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » - لقمان ١٤ «فان المستفاد منه أيضاً ان جاهداك على ان تؤمن بالله،وأطعت من غير علم فلا بأس عليك .

وقد تعرضنا لتقليد الأئمة الأربعة عند تفسير الآية ١٦٧ من هـذه السورة ، فقرة « تقليد الأئمة الأربعة » ، فراجع .

كمثل الذي ينعق الآية ١٧١ :

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ★

اللغة :

نعق بمعنى صاح ، والدعاء والنداء بمعنى واحد ، والبعض فرّق بينهـما بأن الدعاء للقريب ، والنداء للبعيد .

الإعراب :

دعاء مفعول يسمع ، وصمّ خبر مبتدأ محذوف .

المعنى :

ضرب الله في هذه الآية مثلاً من الكفار الذين تعصبوا لدين الآباء .. فشبههم بالبهائم ، وشبّه من يدعوهم الى الحق بالراعي ، فكما ان البهائم لا تعقل شيئاً

من كلام الراعي ، وانما تسمع صوتاً تقبل أو تدبر عند سماعه بعد التمرين والتعويد كذلك الكفار لا يعرفون الحق الذي يدعوهم اليه الداعي ، ولا النفع الذي يترتب على العمل بموجبه .. وانهم في ذلك تماماً كالأطرش ، وان كانوا يسمعون ، وكالأخرس ، وان كانوا يتكلمون ، وكالأعمى ، وان كانوا يبصرون .

وفي القرآن العديد من الآيات لا تفرق بين الأصم الذي لا يسمع اطلاقاً ، وبين من يسمع الحق ولا يعمل بموجبه .. منها هذه الآية : « لا يسمع الا دعاء ونداء » .

ومنها قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون – الانعام ٣٦ ». ومنها : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون – الانفال ٢١ » .

وتسأل : ان ظاهر الآية يدل على ان الله سبحانه شبّه الكفار براعي البهائم، لا بالبهائم ، لأنه قال : ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع . وبديهة ان الذي ينعق هو الراعي ، وما لا يسمع البهائم ، وعليه يكون الكفار كالراعي الذي يصيح بالبهائم ، لا كالبهائم ، كما قلت في تفسير الآية ؟.

الجواب : ان في الكلام حذفاً تدل عليه قرينة الحال ، والتقدير ان مثل من يدعو الذين كفروا الى الحق كمثل الذي ينعق بما لا يسمع .

كلوا من طيبات الآية ١٧٢ – ١٧٣ :

يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْناكُمْ واشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ★ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الْخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★

المعنى :

بعد أن خاطب الله سبحانه الجميع بقوله : « يا أيها النـاس كلوا مما في الأرض » أعاد الخطاب ثانية لخصوص المؤمنـين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مـا رزقناكم » ليبين لهم ان الايمان الصحيح لا يكون بحرمان النفس ، والامتناع عن الطيبات ، كما يفعــل بعض الرهبان والقسيسين وغيرهم فانه سبحانه قد أحل لنا التمتع بالحياة ، والنعم الجسدية ، وأمرنا بالشكر عليها، ومعنى شكرها أن نستعملهـا في الوجه الـذي ينبغي استعمالهـا فيه . قال أمير المؤمنين (ع) : « أقلّ ما يلزمكم لله ان لا تستعينوا بنعمه على معاصيه » . وعسى أن يتعظ بهذه الحكمة البالغة أهل الجاه والثراء، ولا يستغلوهما في الملذات المحرمة، وفي الكبر والطغيان .

(انما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) . وليس من شك ان المراد بالحرمة هنا حرمة الفعل ، وهو الأكل ، لا حرمة الأعيان ، لأن الأعيان لا يمكن وصفها بحل ولا بحرمة .

وبعد ان ذكر الله سبحانه في الآية السابقة الحلال مما يؤكل ذكر في هـذه الآية أربعة أنواع مما يحرم أكله .. الأول : الميتة ، وهي كل حيوان مات من غير تذكية شرعية . الثاني : الدم ، والمراد بـه الـدم المسفوح أي المتميز عن اللحم ، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه . الثالث : الخنزير لحمه وشحمه وجميع أجزائه خلافاً لداود الظاهري الذي قال : يحرم لحم الخنزير دون شحمه عمـلاً بظاهر اللفظ ، وانما ذكر اللحم بالخصوص ، لأنه أظهر الأجزاء التي ينتفع بها. الرابع : ما أهلّ به لغير الله، وهو ما ذكر عليه حين الذبح غير اسم الله تعالى، سواء أذبح للاصنام ، أو لغيرها .

والحكمة في تحريم الأنواع الثلاثة الأُولى صحية محض يعرفها الأطباء ، وأهل الاختصاص ، أما حكمة المنع عمّا ذكر غير اسم الله عليه فدينية صرف تهدف الى صيانة التوحيد والتنزيه عن الشرك .

وتسأل : ان ظاهر الآيـة يدل على انه لا يحرم من المأكولات سوى هذه الأربعة ، لأن (انما) تفيد الحصر ، وكل حصر يتضمن جملتين : الأولى تفيد

اثبات ما يتناوله الخطاب ، وهو هنا تحريم الأشياء الأربعة ، والثانية تفيد النفي ، وهو هنا عدم تحريم ما عدا الأربعة ، مع العلم بأن هناك مأكولات أخرى محرمة ، كالكلاب ، والحيوانات المفترسة ، والحشرات ، وبعض أنواع السمك، ومحرمات الذبيحة ، والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الرابع من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .

الجواب : أجل ، ان الظاهر يدل على ذلك ، ولكنه متروك في العمل بعد قيام الاجماع ، وثبوت السنة النبوية .. وليست هذه هي الآية الوحيدة التي يترك ظاهرها بالاجماع .

وتجمل الاشارة الى انه يجب ذكر الله تعالى حين الذبح ، فمن تركه عامداً حرمت الذبيحة ، سواء أكان الترك عن علم بالوجوب أو جهل به .. أجل لو نسي الذابح ذكر الله لم تحرم الذبيحة .. ويكفي من الذكر قول : الله أكبر ، أو الحمد لله ، أو بسم الله ، أو لا إله الا الله ، وما أشبه .

المضطر وحكمه :

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) . المضطر هو الذي يخاف التلف على نفسه لو لم يتناول المحرم ، أو يخشى حدوث مرض ، أو زيادته ، أو يخاف الضرر والأذى على نفس محترمة ، كالحامل تخاف على حملها، والمرضعة على رضيعها ، أو أكرهه قوي على أكل أو شرب المحرم ، بحيث إذا لم يفعل أوذي في نفسه ، أو في ماله ، أو في عرضه – كل هذه ، وما اليها من المسوغات لتناول المحرم ولكن بمقدار ما يرتفع به الضرر . ومن هنا اشتهر بين الفقهاء الضرورة تقدر بقدرها ، ويدل عليه قوله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » . فالباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة، والعادي من يتجاوز مقدار الحاجة .

ان الذين يكتمون ما أنزل الله الآية ١٧٤ ـ ١٧٦ :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ★ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ★

الاعراب :

أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار : أولئك مبتدأ ، وما بعدها خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر ان . وأولئك الذين اشتروا الضلالة : أولئك بدل من أولئك الأولى ، وما أصبرهم ما للتعجب في محل رفع بالابتداء ، واصبر فعل ماض فيه ضمير مستتر يعود على ما ، والجملة خبر لما تماماً كقولك ما أحسن زيداً . وذلك مبتدأ ، وتسبك ان وما بعدها بمصدر مجرور بالباء متعلق بمحذوف خبر ذلك ، والتقدير ذلك حاصل بكون الله نزل الكتاب .

المعنى :

(ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ناراً) . قيل : ان هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا وصف محمد (ص) ونبوته ، ومهما كان سبب النزول فان المراد كل من عرف شيئاً من الحق وكتمه بالتأويل والتحريف لمنفعته الشخصية ، يهودياً كان أو نصرانياً ، أو مسلماً ، لأن اللفظ عام ، والعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص سبب النزول .

وقد هدد الله سبحانه هذا الضال المضل في العديد من الآيات : منها ما تقدم في الآية ١٤٦ و ١٥٩ ، وما يأتي في سورة آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، ومنها هذه الآية ، وكلها غضب ووعيد بأشد العذاب والعقاب ، لأن الحق يجب تقديسه واعلانه بكل وسيلة ، ودفع الشبهات عنه ، وتحدي من يتحداه ، وتنفيذه بقوة السلاح ، والتضحية في سبيله بكل عزيز ، اذ لا قوام للدين،ولا للنظام ، ولا للحياة الا به .

(ما يأكلون في بطونهم الا النار) . أي ما يوجب العذاب في النار ، فهو من باب اطلاق المسبب ، وهو النار ، على السبب ، وهو أكل الحرام .. وذكر البطون ، مع العلم بأن الأكل لا يكون الا في البطن ، للاشارة الى انه لا همّ لهم الا امتلاء بطونهم .

(ولا يكلمهم الله يوم القيامة) . كناية عن اعراضه عنهم ، وغضبه عليهم . (ولا يزكيهم) من الذنوب بالمغفرة . (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) . الضلالة اتباع الهوى ، والهدى اتباع كتاب الله ، وشراء الضلالة بالهدى أن يؤثر الباطل على الحق ، والهوى على الهدى .

(فما أصبرهم على النار) . ليس هذا اخباراً عن صبرهم على النار ، ولا تعجباً من صبرهم عليها ، لأن التعجب منشأه الجهل بالسبب،وهو ممتنع في حقه تعالى ، وانما القصد تصوير اقدامهم وجرأتهم على الله بترك أحكامه وحدوده ، واتباعهم الباطل والضلال ، القصد تصوير حالهم هذه ، وتمثيل مآلهم الذي لا يمكن الصبر عليه بحال ، قال الرازي : لما أقدموا على ما يوجب النار صاروا كالراضين بعذاب الله ، والصابرين عليه .. فهو كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن ؟.

وتسأل : هذا حال من عرف الحق وكتمه ، فما هو حال من لم يعرف شيئاً مما أنزل الله ، ومع ذلك يقول : هذا حلال ، وذاك حرام ، ولا مستند له الا الوهم والخيال ؟.

الجواب : ان هذا أسوأ حالاً ممن عرف الحق وكتمه ، لأنه قد أقام نفسه مقام الله جل وعلا ، واتخذ منها مصدراً للتشريع ، والتحليل والتحريم .

التجاذب بين الحق والباطل :

نقل صاحب المنار في تفسيره عن الشيخ محمد عبده انه قال في تفسير هذه الآية : « ان في المسلمين من كتّم ما أنزل الله بالتحريف والتأويل ، تماماً كما فعل اليهود بكتمان وصف الرسول ، وهؤلاء المسلمون يشعرون بجاذبين متعاكسين : جاذب الحق الذي عرفوه ، وجاذب الباطل الذي ألفوه ، ذاك يحدث لهم هزة وتأثيراً ، وهذا يحدث لهم استكباراً ونفوراً ، وقد غلب عقولهم ما عرفوا ، وغلب قلوبهم ما ألفوا ، فثبتوا على ما حرفوا ، وصاروا الى حرب عوان بين العقل والوجدان ، يتصورون الخطر الآجل ، فيتنغص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه ، فيؤثرونه على ما سيصيرون اليه .. أليس هذا الشعور بخذل الحق ، ونصر الباطل ناراً تشب في الضلوع ؟. أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعاً لا يسمن ، ولا يغني من جوع ؟ » .

وهذا صحيح بالنسبة إلى بعض الأفراد الذين يحسون بوخز الضمير وتأنيبه ، وهم يقترفون الذنوب .. ولكن بعض الأفراد قد ألفوا الباطل ، واعتادوه ، حتى أصبح طبيعة ثانية لهم ، ويشعرون من أعماقهم بالعداء لكل ما فيه رائحة الحق والانسانية .. والآن أكتب هذه الكلمات في شهر حزيران سنة ١٩٦٧ ، وفي هذا الشهر المشؤوم تغلب الاسرائيليون على بعض أطراف البلاد العربية بمعاونة بريطانيا وأمريكا ، وأخرجوا أهلها من ديارهم ، وشردوا أكثر من مئتين وخمسين ألفاً ، وحرقوا الألوف من الرجال والنساء والأطفال بقنابل النابالم . وقد بارك هذه الفضائح كثيرون ، وطربوا لها ، وتمنوا لو ان اسرائيل استمرت في طغيانها الى غير حد..ان الهوى عندهم قد طغى على العقل والوجدان،حتى لم يُبقِ لهما عيناً ولا أثراً فصار من فقدوهما تماماً كالبهائم، وقد وصف الله هؤلاء بأنهم قوم لا يعقلون ، ولا يفقهون،وبأنهم كالانعام ، بل أضل سبيلاً .

(ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) . ذلك اشارة الى العذاب الذي سينزل بالذين يكتمون الحق ، وقوله (بأن الله نزل الكتاب) بيان لسبب العذاب ، وهو جرأتهم على مخالفة الحق الذي جاء في كتاب الله .

(وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) . اختلف المفسرون في

المراد بقوله تعالى : (الذين اختلفوا في الكتاب) . فذهب أكثرهم — على ما في مجمع البيان — إلى أنهم الكفار ، ووجه الاختلاف ان منهم من قال : ان القرآن سحر ، ومنهم من قال : هو رجز ، وقال آخرون : أساطير الأولين . وقال بعض المفسرين : بل المراد المسلمون ، فانهم بعد أن اتفقوا على ان القرآن من عند الله اختلفوا في تفسيره وتأويله ، وتشعبوا الى فرق وشيع ، وكان عليهم أن تكون كلمتهم واحدة بعد ان كان قرآنهم واحداً .

ويجوز أن يكون المراد الكفار ، ولكن ، لا لأن بعضهم قال : ان القرآن سحر ، وآخر قال : انه رجز ، بل لأنهم السبب الوحيد للخلاف والشقاق ، وعدم جمع الكلمة على الحق بينهم وبين من آمن بالقرآن .

وآتى المال على حبه الآية ١٧٧ :

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ★

اللغة :

كل عمل من أعمال الخير فهو بر ، وقِبَل ظرف مكان بمعنى الناحية والجهة ، وابن السبيل المسافر في غير معصية ، فيذهب ماله ، ولا يستطيع العودة الى أهله

ووطنه ، والبأساء الفقر ، والضراء كل ما يضر الانسان من مرض ، أو فقد عزيز ، وما اليه . والبأس شدة القتال .

الاعراب :

البر منصوب خبر ليس مقدم ، وان مع صلتها اسم ليس ، ويجوز العكس ، فترفع البر اسماً ، وتنصب الصلة خبراً ، وكلمة البر الثانية اسم لكن ، وخبرها محذوف ، والتقدير ولكن البر بر من آمن بالله ، لأن اسم المعنى لا يخبر عنه باسم العين ، وآتى بمعنى أعطى ، والمال مفعول ثان مقدم ، وذوي القربى مفعول أول مؤخر ، وعلى حبه متعلق بمحذوف حال من ضمير آتى ، والموفون بعهدهم خبر مبتدأ محذوف ، أي هم الموفون ، أو معطوف على من آمن بالله، والصابرين مفعول لفعل محذوف ، والتقدير أعني الصابرين ، كما في مجمع البيان وغيره من التفاسير ، وأولئك الذين صدقوا أولئك مبتدأ ، وخبره الذين .

المعنى :

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أموراً اعتبرها أركاناً للبر والتقوى والصدق في الايمان ، ومن هذه الأمور ما يتعلق بالعقيدة ، ومنها ما يتعلق ببذل المال،ومنها بالعبادة،ومنها بالأخلاق ، وقبل أن يشير الى كل صنف منها مهد بقوله تعالى :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب) . هـذا خطاب عام يشمل الجميع ، حتى ولو كان سبب النزول خاصاً ، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بسبب النزول ، والمراد بالخطاب توجيه المؤمنين والمصلين إلى أن مجرد الصلاة الى ناحية معينة ليس هو الخير المقصود من الدين،لأن الصلاة انما شرعت لاقبال المصلي على الله ، والاعراض عمن سواه . وبعد هـذا التمهيد شرع ببيان أصول العقيدة التي هي من أركان البر ، وحصرها بخمسة أمور تضمنها قوله تعالى :

(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) . الايمان بالله هو الأساس لعمل البر ، والباعث عـلى طاعة الله في جميع ما أمر به ،

ونهى عنه ، والايمان بالملائكة ايمان بالوحي المنزل على الانبياء ، وانكار الملائكة انكار للوحي والنبوة : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين – الشعراء ١٩٤) . والايمان بالكتاب ايمان بالقرآن، والايمان بالنبيين ايمان بشرائعهم.. وترجع هذه الامور الخمسة الى ثلاثة : الايمان بالله والنبوة واليوم الآخر ، لأن الايمان بالنبي يتضمن الايمان بالملائكة والكتاب . ثم أشار سبحانه الى التكاليف المالية بقوله :

(وآتى المال على حبه) . قيل : ان الضمير في حبه عائد الى الله تعالى ، حيث تقدم اسمه جل وعلا في قوله : (من آمن بالله واليوم الآخر) . ويكون المعنى ان المعطي أعطى المال لوجه الله . وقيل : بل يعود الضمير على المال ، ويجري مجرى قوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) . وقوله : (ويطعمون الطعام على حبه) . وهذا هو الأظهر ، لأن الضمير يعود الى الأقرب ، دون الأبعد . ثم ان المراد بايتاء المال هنا غير الزكاة الواجبة ، لأنه تعالى عطف عليه ايتاء الزكاة ، والعطف يقتضي التغاير .

وذكرت الآية من الذين ينبغي اعطاؤهم المال ستة أصناف :

١ – ذوو القربى ، وهم قرابة صاحب المال ، لأنهم أحق الناس بالبر والصلة ، قال تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى – النور ٢٢) . وتجب نفقة القريب على قريبه اذا كان من الآباء والأبناء ، مع عجزه عن الانفاق على نفسه وقدرة الآخر عليه ، وما عدا ذلك يكون ايتاء ذوي القربى مستحباً لا واجباً عند الفقهاء[١] .

٢ – اليتامى الذين لا مال لهم ، ولا كفيل يعولهم ، فيجب على أهل اليسار كفالتهم وكفايتهم ، مع عدم وجود بيت مال للمسلمين .

٣ – المساكين ، وهم أهل الحاجة الذين لا يمدون للناس يد المذلة .

---

١ قال الحنفية : تجب نفقة للقريب على قريبه اذا كانت القرابة موجبة لحرمة الزواج . وقال الحنابلة : يشترط أن يكون المنفق وارثاً للمنفق عليه . وقال المالكية : لا تجب النفقة إلا على الابوين والأولاد من الصلب فقط دون بقية الفروع والأصول . وقال الامامية والشافعية : تجب نفقة على الآباء وان علوا ، والأبناء وان نزلوا دون غيرهم من الاقارب .

٤ – ابن السبيل ، وهو الذي انقطع في السفر،ولا يستطيع العودة الى وطنه من غير عون .

٥ – السائلون الذين يمدون الى الناس كف المذلة ، وهذا السؤال محرم شرعاً الا لضرورة ملحة ، تماماً كأكل الميتة في رأينا ، ويكفي دليلاً على تحريمه انه ذل وهوان ، والاهانة محرمة من حيث هي ، سواء أصدرت من الغير ، أم من النفس ، وفي الحديث : « لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سوي » والمرة بكسر الميم القوة ، والسوي سليم الجسم ، والمراد به القادر على الكسب .

٦ – في الرقاب ، أي شراء العبيد ، ثم عتقهم وتحريرهم من العبودية، ولا مورد لهذا الصنف اليوم بعد أن الغي الرق .

وتجمل الاشارة الى ان هذه الأصناف الستة ذكرها الله سبحانه على سبيل المثال ، دون الحصر .. فان هناك أموراً كثيرة يحسن فيها بذل المال كانشاء المدارس ، ودور الأيتام ، والمصحات ، والدفاع عن الدين والوطن ، وسائر المشاريع العامة .

واذا توقفت صيانة النفس المحترّمة على بذل المال وجب بذله على المستطيع ، لأن هذه الصيانة واجبة ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

وأشار تعالى الى الركن العبادي للبر بقوله : (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) . والصلاة تزكية للنفس ، والصوم تزكية للبدن ، والزكاة تزكية للمال .

وأشار الى الركن الأخلاقي بقوله سبحانه : (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا). والعهد الذي يجب الوفاء به على قسمين : الأول ما يكون بين العبد وربه ، مثل اليمين والنذر والعهد بالشروط المذكورة في كتب الفقه ، وفصلنا ذلك في الجزء الخامس من كتاب « فقه الإمام جعفر الصادق » .

النوع الثاني من العهد الذي يجب الوفاء به المعاملات التي تجري بين الناس ، كالبيع والاجارة والدين ، وما الى ذلك .. والمؤمن البار يفي بجميع التزاماته ، حتى ولو لم يكن عليه اثباتات وسندات ترغمه على الوفاء وأداء الحق .. أما الوعد فلا يجب الوفاء به شرعاً ، بل يستحب عند الفقهاء .

ومن الأخلاق الحميدة التي هي من أركان البر الصبر في الشدائد المشار اليه بقوله تعالى : (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) . والبأساء الفقر ،

والضراء المرض ، وما اليه ، وحين البأس شدة الحـــرب ، وليس القصد من الصبر على الفقر والمرض الرضا بهما .. كلا ، فان الاسلام قد أوجب السعي جهد المستطاع للتخلص من الفقر والمرض والجهـــل ، ومن كل ما يعوق الحياة عن التقدم ، وانما القصد ان لا ينهار الانسان أمـــام الشدائد ، وان يتماسك ويتمالك ويعمل بروية وثبات للتخلص مما ألمّ بـه من النوازل .. وقال بعض المفسرين : انما خص الله هذه الثلاث بالذكر ، مع ان الصبر محمود في جميع الأحوال ، لأن هذه الثلاث أشد البلاءات جميعاً ، فمن صبر فيها كان في غيرها أصبر .

(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).أولئك اشارة الى الذين استجمعوا كل هذه الخصال من أصول العقيدة ، وبذل المال وتأدية العبادة لله ، والأخلاق الحميدة ، وانهم الصادقون في ايمانهم ، المتقون بأفعالهم لغضب الله وعذابه ، أما الذين يقولون بأفواههم آمنّا،ولا ينفقون ما يحبون،ويفون بما يلتزمون، ويصبرون في الشدائد ، أما هؤلاء فهم أبعد الناس عن البر وأهله .

البارّ في مفهوم القرآن :

تعرضت هذه الآية لخمسة أمور : أولهـــا أصول العقيدة ، وثانيها التكاليف المالية ، وثالثها العبادة ، ورابعها الوفاء بالعهد ، وخامسها الصبر في الشدائد ، والأخيران من شؤون الأخلاق .

وبديهة ان العبادة كالصلاة والصوم أثر من آثار الايمان بالله ، وعلامـــة من علاماته التي لا تنفك عنه ، لأن من لا يعترف بوجود الله لا يتعبد له .. أما بذل المال والوفاء بالعهد والصبر في الشدائد فتكون من المؤمن والجاحـــد ، فان أكثر المؤمنين بالله أو الكثير منهم يقولون ما لا يفعلون ، ويبخلون بالقليل،حتى على أنفسهم ، وينهارون جزعاً أمام كل فاجعة ونازلة .. وقد يضحي الجاحـــد بالغـــالي والثمين في سبيل العدالة والانسانية ، ويثبت في الشدائد ، ويصدق في جميع أقواله وأفعاله .. اذن ، لا تلازم بحسب الظاهر بين الايمان والخلق الحميد، ولا بين الكفر والخلق الذميم أما في الواقع فلا ايمان بلا تقوى .

ولكن هذه الآية : (ليس البر) الخ.. قد اعتبرت الايمان والأخلاق الحميدة

كلاً لا يتجزأ ، ووحدة لا تنفصم بالنسبة الى البر والخير ،فلا الايمان بالله وحده يجعل الانسان من الأبرار ، ولا الأخلاق من غير ايمان تجعله كذلك ، بل لا بد من الايمان والأخلاق والتعبد لله .. وعليه فالبارّ في مفهوم القرآن هو المؤمن المتعبد الوفي الكريم الصابر .

القصاص في القتلى الآية ١٧٨ ـ ١٧٩ :

يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ★

المعنى :

صنف فقهاء الشريعة الاسلامية العقوبات إلى ثلاثة أصناف : الأول الحدود ، كقطع يد السارق،ورجم الزاني المتزوج ، وجلد شارب الخمر ، ويأتي التفصيل في محله ان شاء الله . الصنف الثاني الديات ، وهي العقوبات المالية . الصنف الثالث القصاص ، وهو ان يستوفي المجني عليه عمداً ، أو وليه من الجاني بمثل ما جنى من قتلٍ ، أو قطع عضو ، أو جرح . أما الضرب فلا قصاص فيه ، وعقد الفقهاء لكل واحد من هذه الأصناف باباً مستقلاً ، وهذه الآية تدخل في باب القصاص .

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) . كانوا في الجاهلية يسيرون على شريعة الغاب والفوضى فيقتلون لأتفه الأسباب ظلماً وعدواناً،ويقتص

أولياء القتيل من الأبرياء ، لا من الجاني نفسه ، فاذا قتل رجل عادي مثله قتل أولياء القتيل عدداً كبيراً من ذوي القاتل ، وإذا قتلت امرأة مثلها أخذوا مكانها رجلاً من أسرتها أو قبيلتها ، وربما قتلوا عشرة بواحد ، وأدى هذا الظلم الى الحروب الطاحنة بين القبائل ، وإبادة الكثير منها ، ووراثة العداء والأحقاد بين الأبناء والأحفاد .. فشرع الله القصاص ، وهو بمفهومه يفيد المساواة ، والوقوع على الجاني نفسه أياً كان دون غيره من الأبرياء ، ودون زيادة أو نقصان خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية ، وأن يكون القتل عمداً ، ولا قصاص في قتل الخطأ وشبه العمد[1] .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « النفس بالنفس – المائدة ٤٥ ». وقوله: « فلا يسرف في القتل – الاسراء ٣٣ » . وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها – الشورى ٤٠ » . وقوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم – البقرة ١٩٤ » .

(الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) . المعنى واضح لا يحتاج الى شرح وتفسير ، وهو اعتبار المساواة في القصاص بين القاتل والمقتول في الحرية والعبودية والأنوثة .

وتسأل : ان المفهوم من سياق اللفظ ان الحر لا يُقتل بالعبد ، وان الرجل لا يقتل بالمرأة ، أي ان الحر اذا قتل عبداً لا يقتل به ، واذا قتل الرجل امرأة لا يقتل بها ، فهل هذا محل وفاق بين الفقهاء ؟.

الجواب : ان الآية تعرضت لصور ثلاث فقط ، وهي حر يقتل حراً ، وعبد يقتل عبداً ، وامرأة تقتل امرأة ولم تتعرض للصور الباقية ، وهي أربع : حر يقتل عبداً ، وعبد يقتل حراً ، ورجل يقتل امرأة ، وامرأة تقتل رجلاً ..

---

١ قتل العمد ان يقصد الفعل والقتل كمن طعن آخر بسكين قاصداً نفس الطعن والقتل أيضاً ، أو قصد الفعل القاتل فقط ، أي قصد طعنه في قلبه ، ولكنه لم يقصد قتله ، فان هذا من قتل العمد . والخطأ المحض أن يكون مخطئاً في قصده وفعله ، كمن رمى حيواناً فأصاب انساناً فان الإنسان غير مقصود لا بالرمي ولا بالقتل . وشبه العمد أن يكون عامداً في فعله مخطئاً في قصده ، كمن ضرب صبياً للتأديب فمات، فان الضرب مقصود ، والموت غير مقصود ، وفي قتل الخطأ وشبه العمد تتعين الدية ، ولا يجوز القصاص بحال .

وقد دلت الآية بمنطوقها ان القصاص مشروع في الصور الثلاث الأولى ، وهي محل وفاق بين الفقهاء ، لأن صريح القرآن لا خلاف فيه .. والآية لم تنفِ أو تثبت القصاص في الصور الأخرى لا منطوقاً ولا مفهوماً ، وعليه فلا بد من الرجوع الى دليل آخر من سنة أو اجماع .

وقد اختلف الفقهاء في ذلك ، فقال مالك والشافعي وابن حنبل : ان الحر لا يقتل بالعبد . وقال أبو حنيفة : بل يقتل الحر بعبد غيره ، ولا يقتل بعبده . واتفق الأربعة على ان الرجل يقتل بالمرأة ، وبالعكس . وقال الإمامية : اذا قتل الحر عبداً لا يقتل به ، بل يضرب ضرباً شديداً ، ويغرّم دية العبد ، واذا قتلت المرأة رجلاً عمداً كان ولي المقتول بالخيار بين أن يأخذ منها الدية ان رضيت هي ، وبين أن يقتلها ، فان اختار القتل فلا يغرم أهلها شيئاً .. واذا قتل الرجل امرأة كان وليها بالخيار بين أن يأخذ الدية ان رضي القاتل ، وبين ان يقتله الولي على أن يدفع لورثة القاتل نصف دية الرجل ٥٠٠ دينار .

(فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بمعروف واداء إليه باحسان). الضميران في له وأخيه يعودان الى القاتل ، أما لفظة شيء فانها تدل على ان ولي الدم اذا عفا عن شيء يتعلق بالقاتل ، كالعفو عن قتله ، والرضا بأخذ الدية فينبغي ان يقابل القاتل هذا العفو بالمعروف ، وقيل : ان لفظة شيء تشعر بأن الورثة اذا تعددوا ، وعفا واحد منهم عن القاتل سقط القصاص ، حتى ولو أصر بقية ورثة المقتول على القتل ، ومهما يكن ، فان الله سبحانه جعل لولي الدم حق القصاص من قاتل العمد ، وليس له أن يلزم القاتل بالدية اذا قدم نفسه للقتل ، ولا للقاتل أن يلزم ولي المقتول بأخذ الدية اذا أصر على القتل قصاصاً .. ولهما معاً أن يتفقا ويصطلحا على مبلغ من المال بمقدار الدية ، أو أقل ، أو أكثر عوضاً عن القصاص ، فاذا تم مثل هذا الاتفاق أصبح لازماً ، ولا يجوز العدول عنه ، وعلى ولي المقتول أن يطالب القاتل ببدل الصلح بالمعروف ، فلا يشدد ويضيق في الطلب ، أو يطلب أكثر من حقه ، وعلى القاتل أن يؤدي المال باحسان ، وبلا مطل وبخس وأذى .

(ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) . أي ان الحكمة من تشريع الدية بدلاً عن القصاص هي التخفيف عنكم ، والرحمة بكم . (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب

أليم) . كان بعض أهل الجاهلية إذا عفوا وأخذوا الدية ، ثم ظفروا بعد ذلك بالقاتل قتلوه ، وجمعوا بين القتل وأخذ الدية ، فنهى الله عن هذا الاعتداء ، وتوعد فاعله بالعذاب الأليم . وقال جماعة من المفسرين : يتحتم على الحاكم أن يقتل من قتل القاتل بعد العفو عنه ، حتى ولو بذل الدية ، ورضي بها ولي المقتول .. وهذا القول مجرد استحسان لا تدل الآية عليه من قريب ولا بعيد .

(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) . هذا تعليل لشرعية القصاص، وبيان للحكمة منه ، وان فيه صيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض ، فان من علم انه إذا قَتَل يُقتل يرتدع خوفاً على نفسه من الهلاك ، أما دفع المال فليس بالرادع الكافي عن القتل ، فان الكثير من الناس يبذلون الأموال الطائلة للانتقام من أعدائهم .

وقد أطال المفسرون الكلام في بيان وجوه البلاغة في هذه الآية ، والمقارنة بينها وبين قول من قال : القتل أنفى للقتل ، وذكر بعضهم ستة أوجه لأفضلية الآية ، وزاد الألوسي عليه في تفسيره ، حتى أنهاها ١٣ وجهاً ، وزاد على الألوسي من جاء بعده ، وكل هذه الوجوه أو جلها ترجع الى مباحث الألفاظ.

الوصية للوالدين الآية ١٨٠ ـ ١٨٢ :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ★ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★

اللغة :

الخير ضد الشر ، والمراد به هنا المال ، وقيل : ان كل آية في القرآن فيها

لفظة خير فالمقصود به المال[1] من ذلك: وانه لحب الخير لشديد – العاديات ٨ . فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً – النور ٣٣ . اني أراكم بخير – هود ٨٣ ، والمعروف ما يستحسنه أهل العرف ، والجنف الخطأ .

الإعراب :

الوصية نائب فاعل كُتب ، وحقاً منصوب على المصدر ، تقديره أحق حقاً، ومن موصٍ متعلق بمحذوف حال من جنفاً ، وجاز أن يكون صاحب الحال نكرة لأن الحال مقدم عليه لفظاً ، والضمير في بدّله وسمعه ويبدلونه عائد الى الايصاء ، أما في إثمه فيعود على التبديل ، وهو مصدر مفهوم من بدّله .

المعنى :

(كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) هذه الآية من آيات الاحكام ، وتدخل في باب الوصية ، وقد كثرت وتضاربت حولها أقوال الفقهاء والمفسرين .. من ذلك ان من كان عنده مال وظهرت له دلائل الموت وعلاماته فيجب عليه أن يوصي بشيء من ماله للوالدين والأقربين ، حتى ولو كانوا وراثاً ، فيجمع لهم بين الميراث والوصية بالمال ، ومنها ان الوصية تجب للقريب اذا كان غير وارث ، ومنها ان الوصية للأقرباء مستحبة ، وليست بواجبة ، ومنها أن يوصي لورثته بحقهم وأنصبتهم من الميراث ، فالآية تجري مجرى قوله تعالى : يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، ومنها ان الوصية للاقارب انما تجب اذا كان المال كثيراً ، ومنها ان الآية منسوخة بآية المواريث ، الى غير ذلك من الأقوال التي لا تعتمد على أساس .

---

١ وجدت هذا القول في بعض ما لدي من كتب التفسير ، وترده الاية ١٠٦ من هذه السورة : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » حيث أطلقت لفظ الخير على الاية ، لا على المال .

الوصية للوارث :

اختلف السنة والشيعة في صحة الوصية للوارث ، وقد اتفق فقهاء المذاهب الأربعة على انها لا تصح معتمدين على حديث : « لا وصية لوارث » .

واتفق فقهاء الشيعة الامامية على صحة الوصية لوارث وغيره ، لعدم ثبوت هذا الحديث عندهم،ولأن الأدلة الدالة على صحة الوصية وجوازها تشمل بعمومها الوصية للوارث .. بالاضافة الى روايات خاصة عن أهل البيت (ع) ، وأقوى الأدلة كلها على صحة الوصية للوارث هذه الآية ، قال العلامة الحلي في كتاب التذكرة :

« الوصية للوارث صحيحة عند علمائنا كافة ، سواء أجاز الوارث أو لا ، لقوله تعالى : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم – فأوجب الله الوصية للوالدين اللذين هما أقرب الناس الى الميت ، ثم قال تأكيداً للوجوب : حقاً على المتقين ، وهو يعطي عدم اتقاء من لا يعتقد ذلك ، ثم ثنى التأكيد بقوله تعالى : فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ثم أكد هذه الجملة بقوله : ان الله سميع عليم ، وهذه الآية نص في الباب » .

وتسأل : ان الشيعة قالوا بجواز الوصية للوالدين والأقربين ، ولم يقولوا بوجوبها مع ان الآية صريحة في الوجوب ، لأن معنى كُتب فرض ، وعلى هذا فان الشيعة قد خالفوا ظاهر الآية ، كما خالفها السنة القائلون بعدم صحة الوصية للوارث .

الجواب : من المتفق عليه بين المسلمين كافة ان استخراج الحكم الشرعي من القرآن لا يجوز إلا بعد النظر الى السنة النبوية ، بل والبحث عن الاجماع أيضاً، فاذا لم يكن سنة ولا اجماع في موضوع الآية جاز الاعتماد على ظاهرها ، وقد ثبت في السنة ، وقام الاجماع على ان الوصية للاقرباء ليست بواجبة .. اذن ، فلا بد من حمل الآية على استحباب الوصية لهم دون الوجوب ، ويكون معنى : حقاً على المتقين ، ان هذا الاستحباب ثابت حقاً ، لأن معنى الحق هو الثبوت .

والمراد من المعروف بالآية أن يكون الشيء الموصى به مناسباً بحـال الموصي والموصى له ، فلا يُستنكر ويُستهجن لقلته ، ولا يبلغ حداً مـن الكثرة يضر بالوارث ، كما لو تجاوز عن ثلث التركة ، فلقد جاء في الحديث : « ان الله أعطاكم ثلث أموالكم عند وفاتكم » .

(فمن بدله بعد ما سمعه) . أي بدّل الايصاء وحرفه ، وهو عالم به .

(فانما اثمه على الذين يبدلونه) . أي ان اثم التبديل والتحريف يقع عـلى من بدّل وحرّف،وارثاً كان أو ولياً أو حاكماً أو وصياً أو شاهداً .. وفي هذا دليل على ان من اقترف ذنباً فان وباله عليه وحده لا على غيره ، فإذا أوصى الميت بما عليه من حق لله أو للناس ، وأوصى في تنفيذه الى من اعتقد صدقـه وأمانته ، ثم قصر الوصي أو خان فلا اثم على الميت وانما الآثم المسؤول هو الوصي وحـده . قال الرازي : ان العلماء استدلوا بهذه الآية على ان الطفل لا يُعذب بكفر أبيه .. وهذا من بديهيات العقل التي أقرها القرآن بشتى الأساليب، منها : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

(فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه) . الجنف الخطأ ، والإثم تعمد الظلم . وهذه الآية استثناء من الحكم السابق ، أي ان المبدل للوصيـة آثم الا اذا زل الوصي في وصيته ، فعندها يجوز للوصي أو للولي أو الحاكم أن يبدل الوصية من الباطل الى الحق ، فالمحرّم هو تبديل الحق الى الباطل، لا تبديل الباطل الى الحق .

هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآيـة ، وهو صحيح في نفسه .. ولكن الذي نفهمه من سياق الآية،وقربه صاحب مجمع البيان : ان الانسان اذا ظهرت له دلائل الموت ، وأراد أن يوصي بأشياء فيها حيف ، مثل أن يعطي بعضاً ويحرم بعضاً .. وحضر هذه الوصية من حضر من العقلاء والمؤمنين فلا إثم على الحاضر أن يشير على الموصي بالحق ، وأن يرده الى الصواب ، ويصلح بينه وبين الورثة ، كي يكون الجميع على رضا ووفاق ، ولا يحدث بينهم التشاجر والتطاحن بعد موت الموصي .

كتب عليكم الصيام الآية ١٨٣ – ١٨٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ★ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ★

الإعراب :

ذكر الرازي أربعة أقوال في اعراب (اياماً معدودات) . وأطال الكلام في ذلك صاحب مجمع البيان ، ثم اختار ان (اياماً) ظرف متعلق بالصيام على ان تكون الكاف في (كما كتب على الذين من قبلكم) بمعنى مثل صفة لحال محذوف ، والتقدير كتب عليكم الصيام مفروضاً مثل ما فرض على من كان قبلكم. وعدة مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير فعليه عدة ، وطعام بدل من فدية،ومصدر أن تصوموا في موضع رفع بالابتداء ، وخبره خير لكم ، وشهر رمضان شهر خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان ، ورمضان ممنوع من الصرف للعلمية

والألف والنون ، وشهد منكم الشهر ، الشهرَ مفعول فيه ، أي في الشهر ، فليصمه ، أي يصم فيه .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم). الصوم من أهم العبادات ، وهو واجب بضرورة الدين ، تماماً كوجوب الصلاة والزكاة ، وفي الحديث « بني الاسلام على خمس : شهادة ان لا إله الا الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلاً » .

وأفتى الفقهاء ان من أنكر وجوب الصوم فهو مرتد يجب قتله ، ومن آمن بوجوبه ، ولكن تركه تهاوناً واستخفافاً عزّر بما يراه الحاكم الشرعي ، فان عاد عُزّر ثانية ، فان عاد قتل ، وقيل : بل يقتل في الرابعة .

والصوم عبادة قديمة افترضها الله سبحانه على من سبق من الأمم بصورة مختلفة عن صومنا نحن المسلمين كماً وكيفاً وزمناً، فالتشبيه هنا تشبيه الفريضة بالفريضة بصرف النظر عن الصفة وعدد الأيام ، ووقتها .. فان تشبيه شيء بشيء لا يقتضي التسوية بينهما من كل وجه .

(لعلكم تتقون) . قال كثير من المفسرين : ان هذه الجملة تشير الى الحكمة من وجوب الصوم ، وهي أن يتمرن الصائم على ضبط النفس ، وترك الشهوات المحرمة ، والصبر عنها ، فقد جاء في الحديث : « الصيام نصف الصبر » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : لكل شيء زكاة ، وزكاة البدن الصيام . وقال: فرض الله الصيام ابتلاء لاخلاص الخلق .. وبديهة ان كل أوامر الله ونواهيه هي ابتلاء لاخلاص الخلق ، ولكن الصوم أشق التكاليف ، لأن فيه مغالبة النفس ، وجهادها ، وضبطها عما تميل اليه من الطعام والشراب وشهوة الجنس .

(اياماً معدودات) . هي ايام رمضان ، لأن الله لم يكتب علينا غيرها .

(فن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر وعلى الذين يطيقونه

فدية طعام مسكين) . ذكر الله في هذه الآية ثلاث مسوغات للافطار في رمضان: المرض ، والسفر ، والشيخوخة .

والمرض المسوغ للافطار هو أن يكون الانسان مريضاً بالفعل ، واذا صام ازداد مرضه ، بحيث تشتد آلامه ، أو تزيد ايامه ، أو كان صحيحاً ، ولكن يخشى اذا هو صام أن يحدث له الصوم مرضاً جديداً ، أما مجرد الضعف والهزال فلا يسوغ الافطار ما دام محتملاً ، والجسم سالماً . واذا أصر المريض على الصوم مع تحقق الضرر واقعاً فسد صومه،وعليه القضاء ، تماماً كما لو أفطر بلا عذر .

وثبت عن طريق السنة والشيعة ان رسول الله (ص) قال : ليس من البر الصيام في السفر. وفي تفسير المنار انه اشتهر عن الرسول الأعظم قوله : «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر » . وممن ذكر هذا الحديث ابن ماجة والطبري ، وقال الرازي : ذهب قوم من علماء الصحابة الى انه يجب على المريض والمسافر أن يفطرا ، ثم يصوما عدة من ايام أخر ، وهو قول ابن عباس وابن عمر ، واختيار داود بن علي الأصفهاني .

وعلى هذا يكون الافطار في السفر عزيمة ، لا رخصة ، أي لا يجوز للمسافر أن يصوم بحال ، لعدم الأمر بالصوم ، وأقوى الأدلة كلها على ذلك ان الله سبحانه قد أوجب القضاء بنفس السفر والمرض،حيث قال : فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر ، ولم يقل فافطر فعدة من ايام أخر ، وتقدير افطر خلاف الظاهر ، والكلام لا يوجبه ، لأنه يستقيم من غير تقدير .

أما المسوغ الثالث للافطار ، وهو الشيخوخة فقد أشار اليه سبحانه بقوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » . فقد نزل هذا الحكم في خصوص المسن الضعيف الهرم رجلاً كان أو امرأة ، والطاقة اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة ، وهذا هو المخير بين الصوم ، والافطار مع الفدية ، وهي اطعام مسكين ، وفي ذلك روايات صحيحة عن أهل البيت (ع) .

(فمن تطوع خيراً فهو خير له) . أي من زاد في الاطعام على مسكين واحد ، أو اطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب فهو خير .. وله الخيار في أن يدعو المسكين المحتاج ، فيطعمه ، حتى يشبع ، أو يعطيه من الدقيق والحبوب التي يأكل منها أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل ، ويجوز أن يعطيه الثمن

دراهمَ على شريطة أن يقول له : اجعله ثمن وجبة لك من الطعام .

(وأن تصوموا خير لكم) . أي ان الشيخ والشيخة الضعيفين الهرمين، وان كانا مخيرين بين الافطار والصيام إلا ان تجشمهما الصيام أفضل عند الله من الفطر مع الفدية .

(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) . قال صاحب مجمع البيان : لما خص الله الصوم بشهر رمضان بيّن ان الحكمة في ذلك ان القرآن نزل فيه ، وعليه مدار الدين والايمان .. ثم نقل صاحب المجمع عن النبي (ص) بطريق السنة والشيعة ان صحف ابراهيم (ع) نزلت لثلاث مضين من شهر رمضان ، وتوراة موسى (ع) لست مضين منه، وانجيل عيسى (ع) لثلاث عشرة خلت من رمضان، وزبور داود لثمانٍ عشرة ليلة مضت من رمضان ، والقرآن نزل على محمد (ص) لأربع وعشرين منه .

وتسأل : ان قوله تعالى : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن يدل بظاهره ان القرآن نزل بكامله في شهر رمضان، مع العلم بأنه نزل على دفعات في مدة البعثة كلها ، وهي ثلاث وعشرون سنة ؟.

الجواب : ان المراد منه ان انزاله ابتدأ في شهر رمضان ، لا انه انزل كاملاً فيه ، وسميت الليلة التي أنزل فيها ليلة القدر ، أي الشرف . قال تعالى : « انّا أنزلناه في ليلة مباركة » . هذا ، الى أن لفظة القرآن تطلق على ما بين الدفتين، وعلى بعضه ، أما قول من قال : ان الله أنزل القرآن من اللوح المحفوظ الموجود فوق السموات السبع الى سماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر ، ثم أنزله على محمد (ص) بالتفريق ، أما هذا القول فلا دليل عليه .

(هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) . الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، وتكلمنا في تفسير الآية ٢ عن معنى الهدى ، وان القرآن لم يكن كتاب فلسفة ، أو تاريخ ، أو علوم طبيعية ، وانما هو بصائر وهدى ورحمة .. وقوله تعالى : هدى للناس، يدل على ما في القرآن من مواعظ وحكم ووعد ووعيد يفهمه جميع الناس ، ولا يختص علمه بالمجتهدين والمتخصصين .

(فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . أي حضر في بلده ، ولم يسافر في شهر

رمضان فعليه أن يصوم أيامه ، ولا يجوز أن يفطر من غير عذر ، ويدل على ان المراد من شهد حضر قوله تعالى : ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر .. وأعاد ذكر المرض والسفر للتأكيد بأن شهر رمضان يجوز فيه الافطار في حالات معينة رداً على المتزمتين الذين يظنون ان الافطار لا يجوز بحال..

(يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . ظاهر السياق ان هذه الجملة تعليل لجواز الافطار حال المرض والسفر والشيخوخة ، ولكنها في الحقيقة تعليل لجميع الأحكام ، فقد جاء في الحديث : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .. ومن قال: ان الافطار في السفر عزيمة ، لا رخصة فسر قوله تعالى (يريد بكم اليسر) بأن الله يريد منكم الافطار في السفر والمرض ، ولا يريد منكم الصيام ، ومن قال ان الافطار رخصة ، لا عزيمة فسره بأن الله سبحانه يريد أن تكونوا في سعة من أمركم ، وتختاروا ما هو الأيسر لكم ، فان كان الافطار أيسر فهو أفضل ، وان كان الصيام أيسر ، كمن يسهل عليه الصيام في رمضان ، ويشق عليه القضاء فالصيام أفضل ، وليس من شك ان الاعتبار ورعاية ظاهر اللفظ يرجحان هذا المعنى على المعنى الأول .. ولولا الروايات الصحيحة عن أهل البيت عن جدهم (ص) لجزمنا بأن الافطار في السفر رخصة، لا عزيمة .

(ولتكملوا العدة) . هذا تعليل للقضاء الذي أوجبه الله تعالى بقوله: « فعدة من أيام أخر » أي عليكم أن تقضوا الصوم بعدد الأيام التي أفطرتم فيها من رمضان بسبب المرض والسفر لتتم عدة أيام الشهر كاملة ، وتارة تكون ٣٠ يوماً، وتارة ٢٩ يوماً .

(ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون).أي ان الله سبحانه بيّن لنا أحكام دينه لنعظمه ونشكره . قال صاحب مجمع البيان : « المراد بقوله لتكبروا الله التكبيرات عقيب صلاة المغرب ليلة العيد ، وصلاة العشاء ، وصلاة الصبح، وصلاة العيد على مذهبنا » . يشير بالتكبيرات الى هذه الصيغة التي يرددها المصلون جماعة بعد صلاة العيد ، وهي الله أكبر الله أكبر لا إله الا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر على ما هدانا .

اجيب دعوة الداعي الآية ١٨٦ :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ★

الإعراب :

دعانِ بيـــاء المتكلم ، وقد حذفت للتخفيف ، تماماً كقوله تعالى : فإياي فاعبدون ، أي فاعبدوني .

المعنى :

(وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان). قيل: ان اعرابياً جاء الى النبي (ص) ، وقال له : أقريب ربنا فنناجيه ، أو بعيـــد فنناديه ؟ فنزلت هذه الآية جواباً عن سؤال الاعرابي .. وسواء أصح هذا القول، أم لم يصح فانه يتناسب مع الموضوع .

والدعاء من أفضل العبادات ، وقد جاء الأمر به ، والحث عليه في الكتاب والسنة ، لأنه اظهار للعبودية ، والافتقار اليه سبحانه . وقد تكلمنا عنه مطولاً في كتاب « بين الله والانسان » .

وتسأل : ان ظاهر قوله تعالى : (اذا دعان) بعد قوله : (اجيب دعوة الداعي) تحصيل حاصل ، لأنه أشبه بقول القائل : انظر الى القاعـد اذا كان قاعداً ، واصغِ الى المتكلم اذا كان متكلماً ؟.

الجواب : ان المـــراد باذا دعان الدعاء الصادر عن قلب مخلص صادق في دعائه ، لا مجرد الدعاء باللسان ، فهو أشبه بقول من قال : اكرم العالم اذا كان عالماً . يريدُ العالم حقاً وواقعاً ، لا من يتسم بسمات العالم فقط .

سؤال ثانٍ معروف ومشهور ، وهو ان الظاهر من قوله تعالى : اجيب دعوة

الداعي وقوله : ادعوني استجب لكم ، ان الله يستجيب لكل من دعاه ، مع العلم بأن الانسان يبالغ في الدعاء والتضرع فلا يجاب ؟.

وأجاب المفسرون عن ذلك باجوبة شتّى أنهاها بعضهم الى ست،واتفقوا جميعاً على ان المؤمن المطيع لله تستجاب دعوته دون سواه ، ويبطل هذا القول ان الله استجاب دعوة ابليس .. قال أنظرني الى يوم يُبعثون قال انك من المنظرين .

ومهما يكن،فان الجواب عن هذا السؤال يستدعي التفصيل على الوجه التالي :

١ – أن يطلب العبد من ربه ما يتنافى مع العادات وسنن الطبيعة ، كطلب الرزق من غير السعي ، والعلم من غير تعلم ، وما الى ذاك من ايجاد المسببات بلا أسبابها ، ودخول البيوت من حيطانها ، لا من أبوابها .. وليس هذا من الدعاء في شيء ، أو هو من دعاء الجاهل بالله وحكمته وسننه ، فان لله سنة في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً – الفتح ٢٣ .

٢ – أن يطلب في دعائه التوفيق والهداية الى احكام الدين ، وعمل الخير ، وفعل الواجبات ، وترك المعاصي والمحرمات : (اهدنا الصراط المستقيم) ، واجتناب الشرور والآفات : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) ، وان يهيء له الله أسباب النجاح في الرزق والعلم والصحة : (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) ، على أن يعمل الداعي جاهداً مخلصاً متوكلاً على الله وحده .. وهذا هو مسؤول الأنبياء والصالحين ، والمقصود من دعائهم .

٣ – ينبغي قبل كل شيء أن نتنبه ، ولا نذهل عن هذه الحقيقة التي نراها ونشاهدها بالعيان ، وهي ان الله سبحانه يعطي من سأله ، ومن لم يسأله تحنناً منه وكرماً ، وانه يهب الملك لمن يشاء،ويمنع الملك عمن يشاء ، ويذل من يشاء، ويعز من يشاء من غير دعاء .. وعليه فليس معنى قوله تعالى : اجيب دعوة الداعي إذا دعانِ أنه لا يعطي إلا من دعاه ، ولا معنى قوله : ان رحمة الله قريب من المحسنين ، أن رحمة الله هذه بعيدة عن المسيئين .. كلا .. ان رحمته وسعت كل شيء ، وما كان عطاء ربك محظوراً .

وتجمل الاشارة الى أنه قد جاء في بعض الروايات دعاء لوجع البطن ، وآخر لوجع الظهر، وثالث للعين والضرس ، وما اليه .. وهذه الروايات اما موضوعة،

لأنها تخالف الواقع،ولا تغني شيئاً ، واما أن يكون القصد منها السعي في العلاج مع التوكل على الله .. قيل : ان علياً أمير المؤمنين (ع) مر بأعرابي ، وإلى جنبه ناقة جرباء ، فقال له الإمام:ألا تداويها ؟ قال : بلى ، يا أمير المؤمنين، اني أداويها . قال الإمام : وبماذا ؟ قال الاعرابي : بالدعاء . قال الإمام : ضع مع الدعاء شيئاً من القطران .

(فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) قال الرازي في تفسيره : يقول الله سبحانه لعبده : أنا اجيب دعاءك ، مع اني غني عنك مطلقاً ، فكن أنت أيضاً مجيباً دعائي ، مع انك محتاج إلي من كل الوجوه ، فما أعظم هذا الكرم !

احل لكم ليلة الصيام الآية ١٨٧ :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالآنَ باشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلى اللَّيْلِ وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ في المَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ★

اللغة :

ليلة الصيام هي الليلة التي يصبح المرء منها صائماً ، والرفث في الأصل القول الفاحش ، والمراد به هنا الجماع ، واللباس معروف ، وهو الثوب ، والمراد به

في الآية الملابسة من لابسه بمعنى خالطه ، والمراد بالخيط الأبيض الفجر ،وبالخيط الأسود الليل .

المعنى :

(احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) . أي يجوز للصائم أن يأتي امرأته في ليلة الصيام ، وليلة الصيام تشمل جميع ليالي رمضان ، ولا تختص بليلة دون أخرى ، ولا بجزء من الليلة دون جزء ، للاطلاق وعدم التقييد . وكنّى الله سبحانه بالرفث عن الجماع تنزيهاً في التعبير ، كما كنّى عنه في آيات أخر باللمس والافضاء والدخول والغشيان والمقاربة ، قال تعالى : لامستم النساء . أفضى بعضكم الى بعض . دخلتم بهن . فلما تغشاها . ولا تقربوهن حتى يطهرن. قال ابن عباس : ان الله حيي يكني بما شاء .

(هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . قال بعض المفسرين : اللباس هنا كناية عن المعانقة . وقال الرازي : ان الربيع قال : المراد هن فراش لكم ، وأنتم لحاف لهن .. وهذا تماماً كترجمة بعض المستشرقين : هن بنطلون لكم وأنتم بنطلون لهن .. والصحيح ان اللباس هنا مصدر لابس ، بمعنى خالط ، والقصد بيان حكمة الترخيص في مباشرة النساء ليلة الصيام،وهي ان شدة المخالطة والمعاشرة بين الزوجين تجعل من العسير على الرجل أن يصبر عن امرأته .

(علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم). الخطاب للبعض لا للكل ، ونستكشف من لفظ الخيانة والتوبة والعفو ان البعض قد صدرت عنه معصية لله ، ونستكشف نوع هذه المعصية من قوله تعالى : فالآن باشروهن ، اذ المفهوم منه انه قد احل لكم من الآن مباشرة نسائكم،ولازمُ هذا ان المباشرة كانت محرمة من قبل ، ثم صارت حلالاً .

وقال أكثر المفسرين : ان الله أحل للصائم في أول الشريعة أن يأكل ويشرب ويجامع في ليلة الصيام بشرط أن لا ينام ، أو يصلي صلاة العشاء ، فاذا نام في الليل أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع،حتى تدخل الليلة التالية، وان بعض الصحابة لم يتقيد بهذا الشرط ، وجامع امرأته بعد ان استيقظ من

رقاده ، ثم ندم ، واعترف للنبي (ص) بذنبه ، فنزلت الآية ..

ومهما يكن ، فان للنفس ميولاً لا يملك الانسان كبح جماحها في كثير من الأحيان ، فيشبعها مستخفياً من الناس ، أو محرفاً دين الله ، فالأفضل تحليل الشيء المرغوب ، ان كان هناك وجه للتحليل ، كي لا يتمادى الانسان في الغي،وتجره المعصية الأولى الى المعصية مرات ومرات ، وبالتالي الى الاستخفاف واللامبالاة بالدين واحكام الله .

(وابتغوا ما كتب الله لكم) من التمتع بالنساء ليلة الصيام الذي كان محرماً عليكم من قبل . (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) . أي أبيح لكم الأكل والشرب ، كما أبيح لكم الجماع من أول الليل ، حتى مطلع الفجر ، وعن رسول الله (ص) : « الفجر فجران : فأما الذي كأنه ذنب السرحان ، فانه لا يحل شيئاً ، ولا يحرمه ، واما المستطيل الذي يأخذ في الأفق – أي ينتشر فيه – فانه يحل الصلاة ، ويحرم الطعام » .

(ثم أتموا الصيام الى الليل) . مبدأ الصيام أول الفجر،ومنتهاه أول الليل ، ويدخل الليل بمجرد مغيب الشمس ، ولكن مغيبها لا يُعرف بمواراتها عن العيان، بل بارتفاع الحمرة من المشرق ، لأن المشرق مطل على المغرب ، وعلى هذا تكون الحمرة المشرقية انعكاساً لنور الشمس ، وكلما أوغلت الشمس في المغيب تقلص هذا الانعكاس . أما ما نسب الى الشيعة من أنهم يؤخرون صلاة المغرب والافطار في رمضان حتى تشتبك النجوم فهو كذب وافتراء ، فقد قيل للإمام الصادق (ع) : ان أهل العراق يؤخرون المغرب حتى تشتبك النجوم ، قال : هذا من عمل عدو الله أبي الخطاب .

(ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) . في كتب الفقه باب خاص، اسمه باب الاعتكاف ، وفي الغالب يذكره الفقهاء بعد باب الصوم ، ومعنى الاعتكاف في الشرع أن يقيم الانسان في المسجد الجامع ثلاثة أيام بليلتين على الأقل صائماً ، على أن لا يخرج من المسجد إلا لحاجة ماسة ، ويعود بعد قضائها مباشرة ، ويحرم على المعتكف مباشرة النساء ليلاً ونهاراً ، حتى التقبيل واللمس بشهوة .. والنهي هنا متعلق بمباشرة النساء اطلاقاً في المسجد وخارجه ، فاذا خرج المعتكف من المسجد ، وجامع ليلاً ، واغتسل ، ثم رجع الى المسجد فقد

ارتكب محرماً ، وعليه كفارة من أفطر في شهر رمضان متعمداً : عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو اطعام ستين مسكيناً .

أكل المال بالباطل الآية ١٨٨ :

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★

المعنى :

(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) . الخطاب لجميع المكلفين ، والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض ، تماماً كقوله تعالى : فلا تقتلوا أنفسكم ، أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، وفيه اشعار بوحدة الانسانية وتكافلها ، وانها بمنزلة الجسم الواحد ، والفرد عضو من أعضائها يصيبه ما أصابها ، وبالعكس .

والمراد بالأكل مطلق التصرف في المال المأخوذ بطريق لا يقره الشرع ، ولفظة بينكم بالآية تخصصها وتقيدها بالمال المأخوذ عن طريق المعاملات المحرمة ، كالمعاوضات الربوية ، أو القائمة على محرم كالخمر والخنزير والميتة ، أو الغش والاحتيال ، وما الى ذلك مما لا يقره الشرع » ومثلها قوله تعالى في الآية ٢٨ النساء : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . أما حرمة المال المأخوذ بالسلب والغصب والسرقة واليمين الكاذبة ، وما إلى ذلك فتستفاد من دليل آخر .. ومن أجل هذا استدل الفقهاء بالآيتين على بطلان كل معاملة حرم الله المال المأخوذ بسببها . وهذه الآية تدل دلالة صريحة وواضحة على ان الاسلام يقر الملكية الفردية .

(وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم) . تدلوا عطف على لا تأكلوا ، والمراد بالاثم هنا الرشوة بقرينة السياق ، والمعنى المقصود هو النهي عن رشوة الحكام للوصول الى أكل أموال الناس .

(وأنتم تعلمون) . أي لا ترتكبوا هذا الاثم وأنتم عالمون بقبحه ، وليس من شك ان الاقدام على القبيح مع العلم أقبح من الاقدام مع الشبهة .. وفي الحديث : « الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة » . فبالأولى إذا كان عالماً بالتحريم .

والرشوة من أعظم المحرمات ، حتى على الحكم بالحق ، فقد لعن الله ورسوله الراشي والمرتشي والماشي بينهما بالرشوة ، وفي رواية ان الرشوة كفر بالله العظيم ، وفي ثانية انها شرك .

حكم القاضي الفاسق :

قال الحنفية : ان حكم القاضي الفاسق نافذ، فقد جاء في متن الكتاب المعروف بابن عابدين ج ٤ ص ٣١٢ طبعة ١٣٢٥ هـ باب القضاء ما نصه بالحرف: «الفاسق أهل للشهادة ، فيكون أهلاً للقضاء » . وفي فتح القدير ج ٥ ص ٤٥٤ باب القضاء : « الوجه تنفيذ حكم كل من ولاه سلطان ذو شوكة ، وان كان جاهلاً فاسقاً ، وهو ظاهر المذهب عندنا » .

وأجمع الشيعة الإمامية كلمة واحدة على ان الفاسق لا يجوز أن يتولى القضاء، وان حكمه لا ينفذ اطلاقاً بالغاً ما بلغ من العلم .. وتشدد جماعة من الفقهاء الإمامية ، حيث ذهبوا الى ان صاحب الحق لا يجوز له أن يرفع دعواه الى غير القاضي العادل ، حتى ولو انحصر تحصيل حقه بهذا الترافع ، بحيث لولاه لذهب هدراً وضياعاً ، واذا خالف صاحب الحق ، ورجع الى القاضي غير العادل ، وحكم له هذا بالحق فلا يجوز لصاحبه أن يأخذ الشيء المحكوم به ، وان كان حقاً ، عملاً بقول الإمام جعفر الصادق (ع) : « فانما يأخذه سحتاً، وان كان حقاً ثابتاً له » .

وقال أكثر الفقهاء الإمامية : ان لصاحب الحق أن يستعين بغير العادل للحصول على حقه اذا انحصر بالرجوع اليه ، بحيث لا يجد وسيلة سواه من غير فرق بين أن يكون الحق ديناً أو عيناً ، لأن دفع الضرر عن النفس جائز ، وقد يجب ، ولا يتم الا بالرجوع الى غير العادل ، كما هو المفروض ، فيكون جائزاً أو

واجباً ، أما الإثم والحرام فهو على من امتنع عن دفع الحق ، لا على من أخذ حقه .

حكم الحاكم لا يغير الواقع :

اذا تحاكم اثنان عند الحاكم المجتهد العادل ، وحكم لغير صاحب الحق ، لعجز هذا عن الاثبات فلا يجوز للخصم المحكوم له أن يأخذ الشيء المحكوم به ، لأن حكم الحاكم لا يغير الواقع ، وينفذ ظاهراً ، لا واقعاً . قال الرسول الأعظم (ص) : «انما انا بشر مثلكم يوحى اليّ ، وأنتم تختصمون اليّ ، ولعل بعضكم الحنُ بحجته من بعض ، فاقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له شيئاً من حق أخيه فانما أقضي له قطعة من نار » .

ولكن أبا حنيفة قال بعكس ذلك تماماً ، فقد نقل عنه صاحب تفسير المنار عند التعرض لهذه الآية انه قال : اذا حكم القاضي بفسخ النكاح بين الزوجين اعتماداً على شهادة الزور حرم عليهما معاً ان يعيشا عيشة الأزواج ، واذا شهد شهود زور بأن فلاناً عقد على فلانة ، وحكم القاضي بصحة العقد حل للرجل المحكوم له أن يدخل بها بغير عقد اكتفاءً بحكم القاضي الذي يعلم انه بغير حق.

يسألونك عن الأهلة الآية ١٨٩ :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ★

اللغة :

الاهلة جمع هلال ، وهو في واقعه جرم واحد ، وانما صح الجمع بالنظر الى تعدد الأشهر ، والمواقيت جمع ميقات ، وهو الزمن المقدر المعين .

الاعراب :

للناس متعلق بمحذوف صفة للمواقيت ، والباء في بأن تأتوا زائدة ، لأنها وقعت بعد النفي ، والمصدر المنسبك في موضع نصب خبر ليس .

المعنى :

(يسألونك عن الاهلة) . يحتمل هذا السؤال أمرين إذا نظرنا اليه مستقلاً عن جوابه : الأول أن يكون السؤال عن السبب الطبيعي لاختلاف ما يبدو أولاً من دقة الهلال : ثم تمامه بدراً ، ثم يعود كما كان ، وهكذا دواليك . الاحتمال الثاني أن يكون السؤال عن الحكمة في ذلك ، لا عن السبب الطبيعي ، أما إذا نظرنا الى السؤال وجوابه معاً ، وهو (قل هي مواقيت للناس) تعين أن يكون السؤال عن الحكمة فقط ، دون السبب الطبيعي ، وهذا هو الأرجح عملاً بمبدأ مطابقة الجواب للسؤال .

أما قول من قال : انهم سألوا عن السبب الطبيعي ، وان الله سبحانه أمر نبيّه أن يجيبهم ببيان الحكمة تعريضاً بأن سؤالهم في غير محله ، لأنهم عاجزون عن إدراك السبب الطبيعي الذي يحتاج الى دراسة طويلة وعميقة ، ومقدمات علمية كثيرة ، وان الأجدر بهم أن يسألوا عن الحكمة والفائدة في اختلاف الاهلة ، حيث يمكنهم فهمها وهضمها – أما هذا القول فمجرد احتمال لا يستند إلى دليل سوى الاستحسان .

وتقول : ان الدليل موجود ، وهو قوله تعالى : ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، لأن معناه ان سؤالكم عن السبب الطبيعي كمن يطلب دخول البيت من ظهره ، أما سؤالكم عن الحكمة فهو كمن يطلب دخول البيت من بابه .

الجواب : أولاً ان هذا اجتهاد في تأويل اللفظ ، وليس تفسيراً لظاهر اللفظ .. ثانياً لقد ثبت ان هذه الجملة نزلت في ما كان يفعله أهل الجاهلية اذا أحرموا من اتيان البيت من ظهره .. والتفصيل فيما يلي .

ومهما يكن ، فان الله سبحانه أمر نبيه الأكرم (ص) أن يجيبهم بأن الحكمة من اختلاف الاهلة هي توقيت مصالحهم وأمورهم الدنيوية كالديون والاجارات ، وأمورهم الدينية كالحج والصوم . وبكلمة ان الجواب يجري مجرى قوله تعالى : «وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب – يونس ٥ » .

(وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) . قال أكثر المفسرين : ان أهل الجاهلية كان إذا أحرم أحدهم نقب نقباً في ظهر بيته ودخل منه ، أو اتخذ سلماً يصعد منه الى سطح البيت ، وان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء ، وكان بعض المسلمين يفعل ذلك في أول الأمر ، فنزلت الآية تبين لهم ان البر هو تقوى الله ، وعمل الخير ، والتخلي عن المعاصي والرذائل ، لا بدخول البيوت من ظهورها ، وما إلى ذلك من التقاليد التي تحجب العقل عن ادراك الحقيقة ، ولا تمت إلى الدين والايمان بسبب .

وقاتلوا في سبيل الله الآية ١٩٠ – ١٩٣ :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ★ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ★ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ★

اللغة :

ثقف الشيء اذا حذقه ، والمراد بالثقف هنا الوجود ، حيث ثقفتموهم أي

وجدتموهم ، والفتنة الابتلاء والاختبار ، والمراد بها هنا الكفر بالله بقرينة قوله تعالى : ويكونَ الدين لله .

الاعراب :

يقاتلوكم منصوب بأن بعد حتّى ،والمصدر المنسبك مجرور بحتّى متعلق بيقاتلوكم ، ومثله حتّى لا تكون فتنة .

المعنى :

في مجمع البيان عن ابن عباس ان رسول الله (ص) لما خرج هو وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة [1] وكانوا ألفاً وأربعمئة ، وحين وصلوا الحديبية صدهم المشركون عن البيت الحرام،فنحروا الهدي في الحديبية،ثم صالحهم المشركون على أن يرجعوا ويعودوا في العام المقبل .. فلما كان العام المقبل تجهز المسلمون لقضاء العمرة ، ولكنهم خافوا ان لا تفي لهم قريش ويقاتلوهم ، وكره النبي (ص) وأصحابه قتال المشركين في الشهر الحرام في الحرم . فأنزل الله هذه الآية ، واذن لهم بالقتال ، وقال جماعة : انها أول آية نزلت في القتال .

الاسلام حرب على الظلم والفساد :

قال بعض الجدد من الذين يغارون على الاسلام ، ويحاولون الذب عنه بكل وجه ، حتّى ولو خالف منهج القرآن ، قالوا : ان الاسلام لا يجيز قتال أحد الا من أصر على القتال ، وابتدأ به ، وان الحروب الاسلامية في عهد الرسول كانت دفاعية ، لا هجومية ، واستدلوا بآيات ، منها هذه الآية : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ومنها : وقاتلوا المشركين كما يقاتلونكم كافة .. والذي

---

١ كان ذلك في ذي القعدة سنة ست من الهجرة . وكانت الحديبية يومئذاك كثيرة المياه والاشجار ، أما اليوم فصحراء جرداء على ما رأيتها سنة ١٩٦٤ م .

دفعهم الى هذا القول ما يردده أعداء الاسلام من انه دين حرب ، لا دين سلام متذرعين بحروب الرسول الأعظم (ص) .

والحق ان الاسلام أجاز القتال في موارد : منها الدفاع عن النفس . ومنها: قتال أهل البغي ، قال تعالى في الآية ١٠ من سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . ومنها : القتال للقضاء على الكفر بالله ، قال تعالى في الآية ٣٠ من التوبة: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله،فان قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» ولكن هذا النوع من الجهاد والقتال لا يجوز الا باذن المعصوم أو نائبه تحرزاً من الفوضى .

ان جواز القتال دفاعاً عن النفس لا يدل على عدم الاذن بالقتال لغاية أخرى، كالقضاء على البغي والكفر .. ان الاسلام يجيز الحرب والقتال من أجل التدين بدين الحق والعدل ، لأن الكفر عدوان بذاته في مفهوم الاسلام ، ويحرم القتال من أجل استعباد الشعوب ، ونهب مقدراتها ، والسيطرة على أسواقها . لقد أجاز الاسلام العنف للقضاء على الجرائم والآثام ، والدفاع عن حقوق الانسان وحريته وكرامته .. وأثار المستعمرون الحروب ، وسفكوا الدماء ، وسخروا العلم للتخريب والفناء[1] من أجل النهب والسلب ، وسيادة الظلم والعدوان .. هـذا هو الجواب الصحيح الذي ينبغي أن يجاب به الذين يحاولون النيل من الاسلام ونبي الاسلام متذرعين بأنه دين القتال والسيف .. ان الاسلام ايجابي ، لا سلبي .. انه حرب على كل من لا يدين بدين الحق والعدل ، ويبغي في الأرض الفساد .. والكفر بالله ظلم وفساد في دين الاسلام وشريعته .

---

١ في سنة ١٩٥٧ صدر كتاب بالولايات المتحدة ، اسمه مستقبل الطاقة الذرية ، واسم المؤلف تريتون ، جاء فيه ان التقدم العلمي خفض كثيراً سعر قتل الانسان ، فقبل القنبلة الذرية كان قتل الرأس البشرية يكلف العديد من الجنيهات ، وبعدها أصبح يكلف جنيهاً واحداً ، وبعد القنبلة الهيدروجينية أصبح يكلف شلناً واحداً .

ولا بد من الاشارة بهذه المناسبة الى ان فقهاء المذاهب الاسلامية كافة اتفقوا كلمة واحدة على ان كل من انتهك حرمات الله مستحلاً لها ولسفك الدماء ، ونهب الأموال المحرمة بضرورة الدين فهو والكافر بالله سواء،حتى ولو صلى وصام وحج الى بيت الله الحرام ، بل ان هذا أسوأ حالاً ممن كفر وحرم سفك الدماء ونهب الأموال ، وكف أذاه عن الناس .. ان كلاً منهما كافر ما في ذلك ريب، ولكن هذا كافر كف شره وأذاه عن عباد الله وعياله ، وذاك كافر مسيء الى الله وعباده وعياله .. قال رسول الله (ص) : خير الناس أنفع الناس للناس ، وشر الناس من تخاف الناس من شره .. ومرة ثانية ان كل من أنكر حكماً شرعياً ثبت بالبديهة الدينية واجماع المسلمين كافة فهو كافر بالاتفاق ، وان تولد من أبوين مسلمين ، ونطق بالشهادتين .

وقوله تعالى : (ولا تعتدوا) أي لا تقاتلوا بدافع المنفعة الشخصية ، بل قاتلوا بدافع انساني شريف ، وقصد الذب عن الدين والحق ، ولا تقتلوا النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، ولا تخربوا العمار ، وتقطعوا الأشجار .. وكل هذه التعاليم وما اليها قد وردت في السنة النبوية .

(واقتلوهم حيث ثقفتموهم) . أي اقتلوا الكافرين في أي زمان أو مكان كانوا إلا في المسجد الحرام فان القتال فيه محرم إلا أن يبتدئوا به .

وتسأل : ان الآية الأولى أمرت بقتال من يقاتل المسلمين ، وهذه أطلقت ولم تقيد ، فهل هذه ناسخة لتلك كما قيل ؟.

الجواب : لا نسخ ، ومنذ قريب أشرنا الى أن جواز القتال دفاعاً عن النفس لا يدل على عدم الاذن بالقتال لغاية أخرى ، كالقضاء على الكفر والظلم،وبكلمة اذا قلت لانسان : أنت طبيب ليس معنى قولك هذا ان غيره ليس بطبيب ، فكذلك قوله تعالى : قاتلوا من يقاتلكم ليس معناه لا تقاتلوا من لا يقاتلكم . أجل ، لو قال : لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم لدل هذا الحصر على النفي .

(وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) . أخرج مشركو مكة النبي (ص) وأصحابه منها ، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ورسوله ، فأمر الله نبيه والمسلمين إن عادوا إلى مكة منتصرين ان يخرجوا منها من لا يؤمن بالله ورسوله ، تماماً كما فعل المشركون من قبل جزاءً وفاقاً . وقيل : ان النبي (ص) أخرج المشركين

من مكة بعد ان جاء نصرالله والفتح عملاً بهذه الآية .

(والفتنة أشد من القتل) . هذا تعليل لجواز قتل المشركين ، والمراد بالفتنة الشرك ، وعليه يكون المعنى انما جاز لكم قتل المشركين ، لأن ذنب الشرك أشد قبحاً من ذنب القتل ، وفي بعض التفاسير ان الله سبحانه أراد بقوله : (والفتنة أشد من القتل) ان مشركي مكة في بدء الدعوة كانوا يفتنون من أسلم عن دينه بالايذاء والتعذيب ، والاخراج من الوطن ، ومصادرة الأموال ، وهذه الأعمال فتنة ، وهي أشد قبحاً من القتل ، ومن أجل هذا جاز لكم قتلهم واخراجهم من ديارهم .. ومهما يكن ، فان المراد من لفظ الفتنة في القرآن الكريم غير النميمة ونقل الكلام ، كما توهم الكثيرون .

(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ، حتى يقاتلوكم فيه) . هذا شرط لجواز القتال في الحرم الشريف الذي حرم الله القتال فيه إلا اذا انتهكت حرمته بالقتال .

(فان قاتلوكم فاقتلوهم) . لأنهم ابتدأوا وانتهكوا حرمة المسجد الحرام ، والبادىء ليس بأظلم ، بل هو وحده الظالم .

(فان انتهوا فان الله غفور رحيم) . ورعاية السياق تقتضي أن يكون المعنى إن كفوا عن القتال عند المسجد الحرام فكفوا عنهم واغفروا لهم ، لأن السبب الموجب لقتالهم هو ابتداؤهم بالقتال ، فإن كفوا زال السبب . وقال كثير من المفسرين : المعنى ان تابوا عن الكفر وآمنوا بالله ورسوله ، لأن الكافر لا يغفر الله له بترك القتال ، بل بترك الكفر .. وهذا تحكم على الله جل وعلا ، فانه يغفر لمن يشاء ، حتى ولو كان كافراً .. أجل، انه تعالى لا يعذب المحسن قطعاً ، لأنه عادل ، ولكنه يعفو عن المسيء ، مهما كانت الاساءة ، لأنه كريم رحيم .

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) أي ان الجهاد من أجل الايمان بالله ، والقضاء على الجحود واجب ما دام على وجه الأرض أثر للشرك والالحاد ، فاذا زال الالحاد ، وآمن الناس جميعاً بالله سقط وجوب الجهاد . وتجمل الاشارة الى ان وجوب الجهاد من أجل انتشار الاسلام مشروط بإذن الإمام العادل،ولا يجوز بحال من غير أمره . أما الجهاد دفاعاً عن الدين والنفس فان وجوبه مطلق غير مقيد بشيء .

(فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . أي فان انتهوا عن الكفر ، وأسلموا فلا يحل قتالهم إلا بسبب موجب للقتل ، وهو واحد من ثلاثة : كفر بعد ايمان ، وزنا بعد احصان ، وقتل نفس بغير حق .

الشهر الحرام الآية ١٩٤ ـ ١٩٦ :

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ★ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ★

المعنى :

(الشهر الحرام بالشهر الحرام) . الأشهر الحُرم أربعة : ثلاثة منها متتابعة ، وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وشهر واحد فرد ، وهو رجب ، وانما سميت هذه الأشهر حرماً ، لتحريم القتال فيها في الجاهلية والاسلام ، فلقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه في هذه الأشهر ، ولا يتعرض له بسوء .

وسبق عند تفسير قوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، سبق ان النبي وأصحابه أرادوا العمرة في ذي القعدة سنة ست هـ . فصدهم المشركون، ورموهم بالسهام والحجارة ، ثم اصطلحوا على أن يعود المسلمون في قابل ، ولكن خاف المسلمون أن يبدأهم المشركون بالقتال في الشهر الحرام ، فأذن الله لهم بقتال المشركين ، وبيّن ان المحظور هو الاعتداء بالقتال دون المدافعة . وعليه يكون معنى :الشهر الحرام بالشهر الحرام،ان من استحل دمكم أيها المسلمون في هذا الشهر فاستحلوا أنتم دمه فيه .

(والحرمات قصاص) . أي ان من ينتهك حرمات الله يقتص منه، ويعامل بمثل فعله ، وهذا أصل عام يقطع كل عذر يتذرع به من ينتهك الحرمات ، فمن استباح دماء الناس وأموالهم وأعراضهم استبيح منه ما استباح هو منهم .. ان حرمة الانسان من حرمة الله الا ان ينتهك حرمة غيره ، فعندها يأتي الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . فشرط العقوبة أن تكون مماثلة لجناية المعتدي دون زيادة أو نقصان ، وهذا هو القصاص في حقيقته .

وتسأل : ان من يبتدىء بالعدوان فهو معتد بلا ريب ، أما من يقتص من المعتدي ويقابله بمثل فعله فلا يكون معتدياً ، اذن ، فما هو الوجه لقوله تعالى: فاعتدوا عليه ؟.

الجواب : ليس المراد بالاعتداء الاعتداء على حقيقته ، بل المراد به جزاء الاعتداء والمقابلة بالمثل كماً وكيفاً بلا حيف وظلم ، ومثله قوله تعالى : وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها .

(وانفقوا في سبيل الله) . الانفاق في سبيله تعالى يشمل المصالح العامة ، كالمدارس والمصحات ودور الأيتام ، والجهاد ، والصدقات على الفقراء والمساكين، والانفاق على الأهل والأولاد والعيال ، وأفضل موارد الانفاق ما فيه اعزاز للدين وانتشاره ، واحقاق للحق ، وابطال للباطل .

(ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) . عبّر سبحانه بالأيدي عن الأنفس .. ولو نظرنا الى هذه الجملة مستقلة عن السياق لكان المعنى ان الانسان لا يجوز له أن يقدم على ما يعود عليه بالضرر المحض دون أن يترتب على اقدامه أية منفعة عامة ، أما اذا راعينا سياق الكلام ، ومجيء قوله تعالى : لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بعد قوله : انفقوا في سبيل الله ــ أما اذا راعينا ذلك فيكون المعنى انفقوا من أموالكم انفاقاً لا تقتير فيه ، ولا اسراف،لأن كلاً منهما يؤدي الى التهلكة، فالآية على هذا تجري مجرى قوله تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ــ الفرقان ٦٧ .

وقيل : ان معنى لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بترك جهاد أعداء الدين، وبذل

المـال لتجهيز المجاهدين ، لأن ذلك يضعفكم ، ويمكن العدو منـكم فتهلكون وتذلون ..

وهذا ما أثبتته التجارب التي مر بها المسلمون ، فلقد فقدوا حريتهم وكرامتهم منذ أن تركوا الجهاد والبذل في نصرة الحق والعدل ، وطمع فيهم كل غاصب وسالب ، حتى عصابة الصهاينة عميلة الاستعمار،فانها احتلت فلسطين سنة ١٩٤٨، وبعد سكوتهم عنها وعن جهادهم لها عشرين عاماً أغارت على سيناء ، والضفة الغربية من الاردن ، واحتلتها بمساعدة أمريكا وبريطانيا والمانيا الغربية : وقتلت الرجال ، وشردت النساء والأطفال .. ولو ان المسلمين جاهدوها من قبل لكانوا في منجى من هذه التهلكة ، وهذا الذل المشين ، ولم يكن لدولـة اسرائيل عين ولا أثر .

(واحسنوا) . بالجهاد وبذل المال في سبيله ، وفي كل سبيل يرضي الله ، ويمدح المرء على فعله .

وأتموا الحج والعمرة الآية ١٩٦ ـ ٢٠٣ :

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ★ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ

اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ★
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ★ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ
فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ★ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ★
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ★ وَاذْكُرُوا اللهَ
فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ★

المعنى :

تعرضت هذه الآيات من ١٩٦ الى ٢٠٣ لبعض أحكام الحج ، وقد وضع الفقهاء كتباً خاصة ، وألفتُ فيه كتاباً ، اسمه الحج على المذاهب الخمسة ، ثم أدرجته في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة عندما أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة، كما تكلمت عن الحج مطولاً في الجزء الثاني من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .. وقد كان الحج معروفاً منذ عهد ابراهيم واسماعيل (ع)، واستمر عليه أهل الجاهلية، وأقره الاسلام بعد أن خلّصه من المنكرات ، وطعّمه ببعض المناسك .

(وأتموا الحج والعمرة لله) . معنى الحج في اللغـة القصد ، وفي الشرع عبادة خاصة في مكان مخصوص في زمن معين ، والعمرة في اللغة مطلق الزيارة، وفي الشرع زيارة بيت الله الحرام على نحو خاص .

والحج واجب كتاباً وسنة واجماعاً ، بل ثبت وجوبه بالبديهة الدينية ، ومن أنكره فليس بمسلم ، تماماً كمن أنكر وجوب الصوم والصلاة ، أما العمرة فقد أوجبها الامامية والشافعية ، وقال باستحبابها الحنفية والمالكية .. وقوله تعـالى : لله أي حجوا واعتمروا لوجه الله وحده ، لا لمقاصد دنيوية ، فقد كانت العرب تقصد الحج للاجتماع والتفاخر والتنافر ، وقضاء الحوائج ، وحضور الأسواق ، فأمر الله بالقصد اليه للعبادة الخالصة من كل شائبة .

(فان أحصرتم فما استيسر من الهدي) . الاحصار هو الحبس والمنع ،والهدي ما يضحي به الحاج أيام حجه ، والمعنى إذا احرمتم للحج أو العمرة ، ثم منعكم مانع من اكمال العبادة على وجهها الشرعي من مرض أو عدو ، وما اليـه من العوائق – إذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تذبحوا ما تيسر ، وأقله شاة،وأوسطه بقرة ، وأعلاه ناقة .

(ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله) . الخطاب للمحصورين الذين مُنعوا من اتمام الحج أو العمرة ، وعليهم أن لا يحلوا من احرامهم ،حتى يعلموا ان الهدي الذي بعثوه قد بلغ المكان الذي يجب فيه الذبح ، ومكان الذبح منى ان كان الاحرام للحج ، ومكة ان كان للعمرة .. هذا ، اذا كان المرض هو المانع ،أما اذا كان المانع العدو فان محل الذبح هو المكان الذي حصل فيه المنع ، لأن النبي (ص) ذبح هديه في الحديبية حين صده المشركون عن زيارة بيت الله الحرام .

(فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) . أي ان المحرم اذا حلق رأسه لضرورة فعليه كفارة مخيراً بين صيام ثلاثة ايام ، أو اطعام ستة مساكين ، أو التضحية ، وأقلها شاة .

(فاذا أمنتم) . أي لم يمنعكم مانع من اكمال الحج . (فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي) . أي ان من أتى بالعمرة ، ثم حج بعدها في نفس السنة فعليه الهدي ، وهذا النوع من الحج هو المعروف بحج التمتع الذي

يجب على غير أهل مكة ، وانما سمي حج التمتع لأن الحاج بعد أن ينتهي من العمرة يحل له أن يتمتع بكل ما حرم عليه ، حين كان محرماً للعمرة الى أن يحرم للحج .

(فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة). قال الإمام الصادق (ع) اذا لم يجد المتمتع الهدي صام ثلاثة ايام في الحج : السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة – ولا يشترط فيها الاقامة – وسبعة ايام اذا رجع الى أهله ، تلك عشرة كاملة لجزاء الهدي .

(ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام).قال صاحب مجمع البيان: «أي ما تقدم ذكره من التمتع بالعمرة الى الحج ليس لأهل مكة ، ومن يجري مجراها، وانما هو لمن لم يكن من حاضري مكة ، وهو من يكون بينه وبينها أكثر من اثني عشر ميلاً من كل جانب » . وقال فقهاء الإمامية : ان حج التمتع فرض للبعيد عن مكة ، ولا يجوز له ان يحج حج القران والإفراد ، والقران والإفراد فرض لأهل مكة وضواحيها ، ولا يجوز أن يحجوا حج التمتع ، والتفصيل في كتب الفقه .

(الحج أشهر معلومات) . هي شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذي الحجة، فمن أحرم قبلها لم يصح منه الحج ، ومن أحرم فيها صح ، وأتى ببقية الأعمال.

(فمن فرض فيهن الحج) . أي ألزم نفسه بالحج في هذه الأيام (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) . الرفث الجماع ، فاذا جامع الرجل زوجته ، وهو محرم فسد حجه ، تماماً كما لو جامع أو أكل وهو صائم ، وعليه المضي في اكمال حجه ، ثم القضاء في العام المقبل ، كما هو الحكم فيمن أفسد صومه برمضان ، والفسوق الكذب والسباب ، أما الجدال فجاء تفسيره في روايات أهل البيت (ع) بقول الرجل : لا والله ، وبلى والله .

(ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم) . كانوا في الجاهلية يتاجرون ويكتسبون ايام الحج ، فتوهم البعض ان هذا محرم ، فأزال الله سبحانه هذا الوهم ، وبيّن ان الاكتساب لا يتنافى مع الاخلاص في أعمال الحج .

(فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) . عرفات موقف معلوم ، والافاضة من عرفات الخروج منها ، والمشعر الحرام المكان المعروف

بالمزدلفة ، والوقوف فيها واجب ، تماماً كالوقوف في عرفات .

(ثم افيضوا من حيث أفاض الناس) . قيل : ان قريشاً كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ترفعاً وتكبراً ، فأمر الله نبيه أن يقف بها ويخرج منها مع الناس، ليبطل ما كانت عليه قريش .

(فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) . جاء عن الإمام الباقر أبي الإمام الصادق (ع) : انهم كانوا اذا فرغوا من الحج يجتمعون هناك ، ويذكرون مفاخر آبائهم ومآثرهم ، فأمرهم الله سبحانه أن يتركوا ذلك ، ويذكروا الله ونعمه عليهم ، لأنه هو المنعم الأول عليهم وعلى آبائهم .

(فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) . الناس في حجهم نوعان : نوع لا يطلب إلا متاع الدنيا ، ولا همّ له إلا همها ، وإذا عبد الله فانما يعبده من أجلها . وهذا النوع محروم من نعيم الآخرة ، ونوع يطلب خير الدارين ، ويعمل لدنياه وآخرته ، ولهذا حظ وافر عند الله غداً جزاءً على صالح أعماله . ونقل صاحب تفسير روح البيان عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) ان الحسنة في الدنيا هي المرأة الصالحة ، وفي الآخرة الحوراء ، أما عذاب النار فالمراد به المرأة السوء .. وسواء أصح هذا النقل عن الإمام ، أم لم يصح فاني أعرف انساناً يشعر من أعماق نفسه انه لو كان في جهنم ، ثم خُيّر بين الخروج منها على أن يعود الى زوجته التي عاشرها في الدنيا ، وبين البقاء في جهنم لاختار البقاء في جهنم على معاشرة تلك الزوجة التي أبدله الله بخير منها ..

(واذكروا الله في أيام معدودات) . المراد بها أيام التشريق ، وهي اليوم الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر من ذي الحجة ، ولا يجب على الحاج المبيت بمنى ليلة الثالث عشر ، على شريطة أن يخرج من منى في اليوم الثاني عشر بعد الزوال ، وقبل المغيب ، وأن يكون قد اتقى الصيد والنساء ، وهو محرم ، وفي هذا تجد تفسير قوله تعالى : فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى) . أي اتقى الصيد والنساء في احرامه ..

وإذا كان قد أتى النساء أو الصيد ، أو غابت الشمس في اليوم الثاني عشر ، وهو في منى ، وجب عليـــه المبيت فيها حتماً ليلة الثالث عشر ، ورمي الجمار الثلاث في صبيحته .

من يعجبك قوله الآية ٢٠٤ - ٢٠٧ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ ★ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهـــا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسادَ ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اُتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ ★ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ ★

اللغة :

اللدد شدة الخصومة ، والخصام جمع خصم ، كضخام جمع ضخم ، وتولى ادبر وانصرف ، أو تولى الحكم والسلطان ، والحرث الزرع ، والنسل ما تناسل من الحيوان ، والمهاد الفراش .

الاعراب :

ليفسد منصوب بأن مضمرة ، وحسبه مبتدأ بمعنى كافيه ، وجهنم خبر .

المعنى :

ملأ بعض المفسرين الجدد الصفحات بكلام رائع من الوجهة الفنيـة في تفسير

هذه الآيات ، ولكنه لم يزد شيئاً على تقسيم الناس الى طيب وخبيث ، وبديهة ان هذا معلوم للجميع لا يحتاج الى بيان فضلاً عن التفسير والتطويل .

وتسأل : إذا كان تقسيم الناس معلوماً للجميع يكون بيانه تحصيلاً للحاصل، وتوضيحاً للواضح ، مع ان كلام الله سبحانه يجب أن يحمل على أحسن المحامل؟

الجواب : من الجائز أن يكون القصد هو الارشاد والتوجيه الى أن العاقل ينبغي له أن لا يُخدع بالظواهر ، ولا يثق بمن يتقن صناعة الكلام،فان المفسدين المأجورين متخصصون بهذه الصناعة وعملية الرياء ، فعلينا أن لا نعتمد على أحد الا بعد التجربة ، وقيام الدليل على صدقه ونزاهته .

وهذا أصل عام يتفرع عليه كثير من الأحكام الدينية والدنيوية ، كاختيار الحاكم والنائب والقاضي والمفتي ، وكل من يتولى مصلحة من المصالح العامة .. وغريبة الغرائب ان تُطلب الشهادات العلمية من المرشح للوظائف الحساسة التي تناط بها مقدرات البلاد وحياة العباد ، ولا يسأل عن أمانته وكفاءته الخلقية ، مع انها الأساس .. ان الكثير من حملة الشهادات يستعملونها أداة للصوصية .

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) . أي يظهر الحب والخير ، وهو من أشد الناس عداوة للخير وأهله .

(واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها).اختلف المفسرون: هل المراد بالتولي هنا الانصراف والاعراض ، ويكون المعنى ان هذا الذي يدعي الاصلاح اذا انصرف عن مخاطبه سعى في الأرض بالفساد،او ان المراد بالتولي الولاية والسلطان، ويكون المعنى اذا صار والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من اهلاك الحرث والنسل ؟.

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه رجح المعنى الثاني بقرينة قوله تعالى : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم » لأن الحاكم المستبد يكبر عليه أن يُرشد الى مصلحة ، أو يُحذر من مفسدة ، فهو يرى ان هذا المقام الذي ركبه يجعله أعلى الناس رأياً ، وأرجحهم عقلاً ، بل يرى نفسه فوق الحق ، كما انه فوق أهله في السلطة .. فكيف يجوز لأحد أن يقول له : اتق الله .

(ويهلك الحرث والنسل) . الحرث الزرع ، والنسل ما تناسل من الحيوان، والمراد بهما جميع المصالح الاقتصادية من زرع وصناعة وماشية ، ومواد أولية ، وما اليها مما يتصل بحياة الناس ومعيشتهم ، وانما خص الزرع والماشية بالذكر ، حيث لم يكن للصناعة وتوابعها أهميتها وخطرها آنذاك كما لها اليوم .

وحرمة هذه المقدرات في نظر الاسلام ، تماماً كحرمة الدماء ، ومن اعتدى على شيء منها فقد اعتدى على الانسانية نفسها ، حتى ولو كان ذلك ملكاً للعدو المحارب ، فلقد نهى رسول الله (ص) عن قطع الأشجار ، والتعرض للزرع والثمار ، وعن القاء السموم في بلاد المشركين ايام الحرب وغيرها .. ولو قارنا بين شريعة الاسلام ، وبين ما تفعله الدول الاستعمارية « المتحضرة ! » اليوم،وما تشنه من الحروب الكيماوية على ما تنبته الأرض من زرع وأشجار ، ويدب عليها من انسان وحيوان،ومن تسميم الجو بالقنابل الذرية،والقائها على النساء والأطفال ، لو قارنا بينهما لعرفنا انسانية الاسلام وعدالته ورحمته ، وتوحش الغرب ، وافراطه في الظلم والاغتصاب .

(والله لا يحب الفساد) . ولا شيء أعظم فساداً من اثارة الحروب،واستعمال الأسلحة المدمرة ضد الشعوب للسيطرة عليها ، ونهب أقواتها ، وحرمان أهلها من ثمار كدحهم وعرقهم .

(واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) . ان الطبيب المخلص يتقبل النقد والنصح ، بل يطلبه ويرحب به ، لأنه لا يهدف الا الى الحق والواقع ، ولا يطلب المديح والاطراء ، لأن عمله لله ، لا للسمعة والشهرة ، قال الإمام أمير المؤمنين علي (ع) في كلام يصف به المتقين : « لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ». وقال في خطبة له ايام خلافته : « ليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعاون على ما حمله الله من حقه،ولا امرؤ وان صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .. ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ، ولا التماس اعظام لنفسي ، فانه من استثقل الحق ان يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه » .

هذا هو شأن العالم المخلص حقاً ، أما المنافق الخائن فيصعب عليه قول الحق،

لأنه يفضحه ويظهر مخازيه ، ويشتري المديح الكاذب بأغلى الأثمان ، ليستر نقائصه وأسواءه .

(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) . أي ان بعض المؤمنين يقبلون على الجهاد،ويحبون الموت في سبيل الله ، تماماً كما يحب غيرهم الحياة .. ولا دافع لهم إلا مرضاة الله وثوابه . قال الرازي في تفسير هذه الآية : جاء في سبب نزولها ثلاث روايات : منها انها نزلت في علي بن أبي طالب (ع) حين بات على فراش رسول الله (ص) ليلة الهجرة ، وانه لما نام على فراشه قام جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادي : بخ بخ من مثلك يا علي ، يباهي الله بك الملائكة[1] .

ادخلوا في السلم الآية ٢٠٨ - ٢١٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ★ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ★

اللغة :

أصل السلم التسليم ، ويطلق على الصلح والسلام ، والزلل عثرة القدم، والمراد به هنا الانحراف عن الحق ، والظلل جمع ظُلّة ، وهي كل ما أظلك .

---

١ قال الشيخ المظفر في الجزء الثاني من كتاب دلائل الصدق : ان الذين نقلوا نزول هذه الاية بعلي هم الرازي والثعلبي ، وصاحب ينابيع المودة ، وابو السعادات في فضائل العترة الطاهرة ، والغزالي في الاحياء ، والحاكم في المستدرك ، وأحمد بن حنبل في مسنده ... هذا ما عدا الروايات الكثيرة الأخرى من طرق الشيعة .

الإعراب :

كافة منصوب على الحال من الواو في ادخلوا ، ومن الغمام متعلق بمحذوف صفة لظلل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) . قيل : المراد بالسلم هنا الاسلام ، وان الخطاب موجه للمنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الاسلام ، وقيل : هو موجه لمن آمن بالله من أهل الكتاب ، ولم يسلم ، وقيل : بل موجه لجميع المسلمين ، وعليه يكون السلم طاعة الله والانقياد له في جميع أحكامه ، لا في بعضها دون بعض، وقيل : معنى السلم الصلح ، والمعنى ادخلوا في الصلح جميعاً .

والذي نراه ان الله سبحانه أمر من يؤمن به ايماناً صحيحاً أن يدخل فيما فيه سلامته في الدنيا والآخرة .. وطريق السلامة معلوم لدى الجميع ، وهو التعاون والتآلف ، وترك الحروب والخصام،والتغلب على الشهوات والأهواء، والاخلاص لله في الأقوال والأفعال .

ويؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى : (ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) . بعد قوله بلا فاصل : ادخلوا في السلم كافة ، حيث اعتبر الله سبحانه خطوات الشيطان الطرف المضاد للسلم،ووضع الانسان أمام أمرين لا ثالث لهما : إما الدخول في السلم ، واما اتباع خطوات الشيطان التي هي عين الشقاق والنزاع ، والشر والفساد .

(فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم) . بعد أن أمر سبحانه بالدخول في السلم ، ونهى عن اتباع خطوات الشيطان هدد وحذر من يخالف أمره ونهيه ، هدده بقوله : ان الله عزيز حكيم . عزيز لا يُغلب على أمره ، ولا يمنعه مانع عن قصده ، وحكيم يُثيب المطيع ، ويعاقب العاصي ، قال الرازي : هذا نهاية في الوعيد ، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه

الوعيد بذكر العقاب ، وربما قال الوالد لولده : ان عصيتني فأنت عارف بي ، وتعلم قدرتي عليك ، وشـدة سطوتي ، فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره .

(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) . المراد من ينظرون ينتظرون ، ومن اتيان الله اتيان عذابه على حذف المضاف ، ومعنى الآية بمجموعها ان المكذبين والعاصين يأتيهم العذاب بغتة ، ولا ينجيهم منه شيء .. فالآية تجري مجرى قولـه تعالى : « فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتـة — محمد ١٧ » .

(وقضي الأمر والى الله ترجع الأمور) . إذا جاء الموت الذي لا بد منه ، وقامت الساعة ينتهي كل شيء ، ولا يبقى أمام المجرمين إلا الحساب والعقاب .

المخبآت والمفاجآت :

لا أحد يعلم ما يحدث له في المستقبل ، وما يخبىء له الدهر من خير وشر بالغاً ما بلغ من العلم والايمان : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً — لقمان ٣٤» . وكثيراً ما يفاجأ الانسان بالخير من حيث يتوقع الشر ، ويباغت بالشر من حيث يتوقع الخير ، ولا شيء آلم للنفس من هذه المباغتة ، كما ان الخير اذا جاءه من حيث لا يحتسب يكون أحلى وأعذب من المترقَّب .

والعاقل لا يغتر بما لديه ، بل يُدخل في حسابه دوران الدهر وضرباته ، كما انه لا ييأس ان نزلت به نازلة ، فان الدنيا في تحول دائم ، ولذا قيل : دوام الحال من المحال ، والفرج يأتي من قلب الضيق ، قال الإمام علي (ع) : عند تناهي الشدة تكون الفرجة ، وعند حلَق البلاء يكون الرخاء ، وقال : ان موسى ابن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً ، فكلمه الله ، ورجع نبياً .. وقال تعالى : لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . وقال جل جلاله : ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون .

وجاء في كتب التاريخ والسير ان ابن الزيات عمل وزيراً للمعتصم والواثق ، وكان من أقسى الطغاة وأظلمهم ، فلقد اتخذ تنوراً من حديد ، ملأ جوانبه بمسامير

لها مثل رؤوس الابر ، فاذا غضب على انسان ألقاه فيه ، فكيف تحرك دخلت المسامير في جسده ، ولما تولى المتوكل الخلافة اعتقل ابن الزيات ، ووضع الحديد في يديه ورجليه ، وألقاه في هذا التنور ، ولم يخرج منه الا ميتاً ، وسمعه الموكل به قبل موته ينشد ويردد :

لا تجزعن رويداً انها دول دنيا تَنقّلُ من قوم الى قوم

سل بني اسرائيل الآية ٢١١ – ٢١٢ :

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ ★ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ★

الإعراب :

سل في الأصل اسأل ، فحذفت ألف الوصل من الأول ، والهمزة من الوسط للتخفيف ، وكم في موضع نصب مفعول ثانٍ مقدم لآتيناهم، والدنيا صفة للحياة، وبغير حساب متعلق بمحذوف حال .

المعنى :

(سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة) . ليس المقصود من قوله : سل بني اسرائيل السؤال على الحقيقة ، لأن النبي (ص) يعلم أحوالهم ، ولا المقصود الحكاية عما كانوا عليه، كما هو الشأن في الآيات السابقة ٤٩ وما بعدها، وانما القصد أن يعتبر المسلمون ويتعظوا بحال بني اسرائيل ، ووجه العظة ان بني

اسرائيل قد جاءتهم الرسل بالمعجزات والبينات ، واليد البيضاء ، وقلب العصا حية ،وفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المنّ والسلوى ونتق الجبل ، ومع ذلك عصوا وخالفوا ، فعاقبهم الله بالمذلة والهوان في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة .

والمسلمون قد جاءهم محمد (ص) بالمعجزات والبينات الدالة على صدقه في نبوته ، وصحة شريعته ، وبلغهم عن الله سبحانه أن يدخلوا في السلم كافة لأن فيه خيرهم وصلاحهم ، فان أعرضوا وعصوا كما أعرض وعصى بنو اسرائيل يصبهم ما أصاب الاسرائيليين من قبل .

(ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب) . المراد بنعمة الله هنا الدلائل على الحق ، فانها من أعظم النعم،لأن فيها الهداية والرشاد، والنجاة من الهلاك والضلالة ، والمراد بتبديلها تحريفها وعصيانها .. فقوله تعالى : ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته،تماماً كقوله : فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات . وقوله : فان الله شديد العقاب،كقوله : فان الله عزيز حكيم ، فالمعنى واحد ، والغرض واحد .

لا ايمان الا بالتقوى :

(زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا) . لا فرق اطلاقاً بين من يكفر بوجود الله ، وبين من يؤمن به نظرياً ، ويؤثر دنياه على آخرته عملياً ، لا فرق أبداً بين الاثنين من حيث ان كلاً منهما قد فُتن بالدنيا وزخرفها ، وآثر العاجلة على الآجلة ، وقاس الخير والفضيلة بمقياس منفعته الشخصية ، ولم يقم وزناً لحرمات الله ، ولا للقيم الانسانية .. واني كلما تقدمت وتوغلت في تفسير القرآن ، وتعمقت في تدبّر آياته ازددت يقيناً بأن الايمان بالله بلا تقوى ليس بشيء ، وان من جعل الدنيا كل همه ينصرف كلية عن شريعة الحق والدين من حيث يريد ، أو لا يريد ، والنتيجة الحتمية لهاتين المقدمتين ان من كفر بالله ، وآمن به سواء ما دام هذا «المؤمن» يؤثر دنياه على دينه ، ولا يقيم له وزناً في شيء من أقواله وأفعاله . وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) : « الدنيا والآخرة

ضرتان » أي ان الاهتمام باحداهما يصرف الانسان عن الأخرى قهراً [1] . وقال الإمام علي (ع) : ان الدنيا والآخرة عدوتان متفاوتتان وسبيلان مختلفتان ، فمن أحب الدنيا وتولاها ابغض الآخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق والمغرب ، وماش بينهما ؛ كلما اقترب من واحدة ابتعد عن الأخرى .

(ويسخرون من الذين آمنوا) . طبيعي أن يسخر الذين يتخذون آيات الله وأحكامه هزواً ، ويستحلون الدم الحرام ، والمال الحرام – طبيعي أن يسخر هؤلاء ممن يكف عن محارم الله ، ويتحمل المشاق من أجل مرضاته ، طبيعي أن يسخر من لا يعمل الا لهذه الحياة ممن يعمل لها ولما بعد الموت .

(والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) . قال : والذين اتقوا ، ولم يقل : والذين آمنوا ، لأن الإيمان بلا تقوى ليس بشيء كما بينّا ، والمعنى واضح ، وهو ان الكافرين اذا سخروا من المؤمنين الآن ، فستنعكس الآية غداً ، ويسخر هؤلاء من أولئك .. قال جل جلاله : ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين .. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون .

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) . الرزق رزقان : رزق الدنيا، ورزق الآخرة ، ورزق الدنيا معلوم ، ورزق الآخرة هو النعيم الذي لا انقطاع له ، ولا تشوبه شائبة من حزن او خوف ولا يناله أحد إلا بالايمان والعمل الصالح : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . أما رزق الدنيا فيناله الكافر والمؤمن والبر والفاجر بسعي وغير سعي ، كالارث والهبة والوصية ، وما اليها ، وأيضاً يناله عن طريق جائز ، وغير جائز، كالسلب والنهب ، والغش والاحتيال .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال عند تفسير هذه الآية ما يتلخص بأن الرزق بغير سعي قد يحصل لبعض الأفراد ، أما الأمة فحال أن تكون غنية عزيزة إلا بالسعي والعمل .. وهذا حق ثابت بالعيان والبديهة .

---

١ في الحديث : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الاخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه ، المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف .

كان الناس أمة واحدة الآية ٢١٣ :

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ★

اللغة :

أطلق الله في كتابه الكريم لفظ الأمة على معان : منها الملة كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية ٩٢ : ان هذه أمتكم أمة واحدة . ومنها الجماعة كما في سورة الأعراف ١٨١ : وممن خلقنا أمة يهدون بالحق . ومنها السنون ، كقوله في سورة هود الآية ٨ : ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ، ومنها الإمام الذي يقتدى به، كقوله في سورة النحل ١٢٠ : ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله .. والمراد بلفظ الأمة هنا الملة .

الاعراب :

مبشرين ومنذرين حال من النبيين ، وبالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب، وبغياً مفعول لأجله .

المعنى :

تضاربت أقوال المفسرين في معنى هذه الآية ، وشرحها الرازي بحوالي سبع

صفحات بالقطع الكبير ، أما صاحب المنار فشرحها باثنتين وعشرين صفحة ، وترك القارىء العادي في متاهة لا يهتدي الى شيء .. ونحن على منهجنا من الرفق بالقراء مهتمين بأضعفهم ما أمكن واقفين معه عند مداليل الألفاظ ، نشرحها بأوضح واخصر بيان ، كي يتدبر آيات الله بسهولة ، وتؤثر أثرها في نفسه ، فان كان هناك موضوع هام أشرنا اليه بفقرة مستقلة .

(كان الناس أمة واحدة) . أي كانوا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والتي اشار اليها النبي (ص) بقوله : كل مولود بولد على الفطرة . قال صاحب مجمع البيان : « روى أصحابنا عن الإمام أبي جعفر الباقر : انهم كانوا قبل نوح[1] أمة واحدة على فطرة الله لا مهتدين ولا ضالين ، فبعث الله النبين . وعلى هذا فالمعنى انهم كانوا متعبدين بما في عقولهم غير مهتدين الى نبوة ، ولا شريعة » .

ثم عرض على فطرتهم التخيلات والأوهام،وجرتهم هذه الأوهام الى الاختلاف في العقيدة والرأي ، وبالتالي الى اعتداء بعضهم على بعض ، فتفرقوا شيعاً بعد أن كانوا أمة واحدة ، فأرسل الله الأنبياء ، ومعهم الكتاب ينطق بالحق، ويحكم بالعدل ، ليحتكموا اليه في خلافاتهم ومنازعاتهم .. وهذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى :

(فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) .. وبهذا يتبين ان في الكلام جملة محذوفة،والتقدير كان الناس أمة واحدة فاختلفوا،بدليل قوله تعالى ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وتؤكد ذلك الآية ١٩ من سورة يونس : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا » .

(وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) . أي ان الناس الذين كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا فأرسل الله اليهم الأنبياء ، ان اولئك الناس أيضاً اختلفوا فيما أرسل به الأنبياء ، فمنهم من آمن وصدق ، ومنهم من كفر وكذّب بعد أن قامت الأدلة والبراهين ، والحجة القاطعة على

---

[1] جاء في تفسير روح البيان عن الاكثر ان بين آدم ومبعث نوح ثماني مئة سنة .

الكافرين والمكذبين للانبياء ورسالتهم ، ولا سبب لهذا التكذيب الا البغي والخوف على منافعهم ومصالحهم الشخصية ، ومكاسبهم العدوانية .

(فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه باذنه) . أي ان الله سبحانــه وفق أرباب النوايا الصالحة الى الايمان بالحق الذي جاء به الأنبياء ، وهذا الايمان كان بأمره تعالى .. فالمراد بالاذن الأمر .

(والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) . في تفسير الآيـة ٢٦ من هذه السورة « فقرة الهدى والضلال » ذكرنا معاني الهداية ، ومنها أن يتقبل الانسان النصيحة ويعمل بها ، وهذا المعنى هو المراد بها هنا ، وان الله سبحانه يوفق الطيبين الى تقبل النصح والعمل بالحق والخير .

الاختلاف بين الناس :

وجد الاختلاف بين الناس منذ أن قتل قابيل أخاه هابيـــل ، واستمر حتى اليوم ، وسيبقى الى آخر يوم .. ولا يختص الاختلاف بأهل الأديان ، كما يحلو للمستهترين ان ينتقدوا ، أو يتحذلقوا .. فان اختلاف غيرهم قد بلغ النهاية ، وتجاوز الكلام الى الحروب الطاحنة ، فالتناقضات بين الدول الرأسمالية أدت الى حرب نووية ، فقنبلة هيروشيما ألقتها على النساء والأطفال دولة رأسمالية ضد دولة مثلها .. وانقسام الجبهة الاشتراكية لم يخف على أحد ، كما مهد السبيل للسياسة العدوانية على الشعوب المستضعفة ، وشتات كل من الدول الافريقيــة والاسيوية ضمن النجاح لكل من أراد استغلالها والسيطـرة على مقدراتها ، أما اختلاف الدول العربية فكان من نتائجه وجود اسرائيل في قلب بلادهم ، وبالتالي نكسة ٥ حزيران ١٩٦٧ .

ومهما يكن ، فان للاختلاف أسباباً كثيرة ، منها التباين في الثقافة والتربية ، ومنها التغاير في الاستعداد والموهبة ، ومنها الاختلاف في الطبع والمزاج ، ومنها التصادم بين المصالح والمنفعة الخاصة . والاختلاف الناشىء من تباين الثقافة ، أو الموهبة ، أو المزاج يمكن علاجه بالاحتكام الى مبادىء اثبتها العلم والتجربة ، أما الاختلاف الناشىء من تصادم المنافع الشخصية فلا علاج له إلا ردع المعتدي بالقوة ، وكلامنا

في هذه الفقرة متمم لما قلناه في فقرة « كل يعزز دينه » عند تفسير الآية ١١٣.

دخول الجنة الآية ٢١٤ :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ★

اللغة :

زلزلوا أصلها زل الشيء ، ثم كرر اللفظ ، فصار زلزل ، والمراد به هنا ان المتقين حُركوا بأنواع البلايا والرزايا ، ومثَل بفتح الثاء ، وجمعه أمثال ، والمراد به هنا الوصف الذي كان عليه من سبق ، حيث بلغ درجة من الشدة حتى صار مضرب الأمثال .

المعنى :

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) . ان هذه الآية الكريمة تخاطب كل من آمن بالحق ، وعمل به ودعا اليه ، وتقول له بصراحة : ان سنة الله قد جرت في أنصار الحق أن يدفعوا ثمنه من أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، وأن يتحملوا في سبيله الأذى والمكاره ويصبروا على المصائب والشدائد .. وقد لاقى من كان قبلكم من أجل الحق ألواناً من الأذى ، فصبروا .. فهل تصبرون أنتم كما صبروا : أم انكم تريدون أن تدخلوا الجنة بلا ثمن ، وقد أبى صاحبها ومالكها إلا أن يكون ثمنها الإيمان والاخلاص والصبر على الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس ! وجاء في

خطبة من خطب النهج : « ان رسول الله (ص) كان يقول : ان الجنة حفت بالمكاره ، وان النار حفت بالشهوات . واعلموا انه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره ، وما من معصية الله شيء الا يأتي في شهوة » .. ومن المفيد ان يراجع القارىء مع هذه الفقرة ما ذكرنا عند تفسير الآية ١٥٥ فقرة «ثمن الجنة» .

(وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) . متى نصر الله سؤال من الرسول والمؤمنين ، يصور المحنة والشدة التي لاقوها من أعداء الحق وحزب الباطل،ومحصل المعنى ان السابقين من أنصار الحق أصابهم البؤس والضر ، ووقعوا في الاضطراب من شدة الهول ، حتى ظنوا ان النصر قد أبطأ عنهم ، فاستعجلوه بقولهم : متى نصر الله ؟.

فأجابهم الله بقوله : (ألا ان نصر الله قريب) . فهذه الآية تجري مجرى الآية ١١٠ من سورة يوسف : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » .

ماذا ينفقون ؟ الآية ٢١٥ :

يَسأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ ما أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ★

الإعراب :

ماذا ما مبتدأ ، وذا خبر بمعنى الذي ، وقيل ان ماذا بمنزلة الكلمة الواحدة في محل نصب بينفقون .

المعنى :

(يسألونك ماذا ينفقون) . الخطاب موجه للرسول الأعظم (ص) .

(قل ما أنفقتم من خير) . المراد بالخير المال (فللوالدين) المراد بهما الأب والأم والجد والجدة ، لأنهم يدخلون في اسم الوالدين (والأقربين) هم ارحام المعطي (واليتامى) كل من لا أب له (والمساكين) الفقراء (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن أهله ووطنه ، ولا نفقة له .

وتسأل : ان ظاهر الآية يدل على ان القوم سألوا عن نوع النفقة ، لا عن مصرفها ، وعمن ينفقون عليه ، فجاء الجواب عن المصرف ، لا عن النوع ، فما هو الوجه ؟.

أجاب أكثر المفسرين عن ذلك بأن القصد من الجواب هو تنبيه السائلين الى انه ينبغي ان يسألوا عمن ينفقون عليه ، لا عن نوع ما ينفقون .. ونقل الرازي عن القفال جواباً آخر ، وهو ان السؤال وان كان بلفظ (ما) الا ان المسؤول عنه هو مصرف النفقة ، لا نوعها ، لأن النوع معلوم .. وأيده الشيخ محمد عبده بقوله : ان علماء المنطق هم الذين قالوا : السؤال بما يختص بالماهية والحقيقة،أما العرب فانهم يسألون بما عن الماهية وعن الكيفية .. والقرآن لا يجري على مذهب ارسطو في منطقه ، وانما هو بلسان عربي مبين .. وهذا الجواب أرجح من الأول وان كانت النتيجة واحدة .

سؤال ثانٍ : هل الانفاق على من ذكرتهم الآية واجب أم مستحب ؟.

الجواب : تجب نفقة الأولاد على الوالدين ، وبالعكس إذا كان أحدهما قادراً على الانفاق ، والآخر عاجزاً عن الانفاق على نفسه ، ولو عن طريق الكسب.. وهذه النفقة لا تحسب من أصل الزكاة، لأن النفقة على الآباء والأبناء تجب وجوباً مستقلاً عن وجوب الزكاة ، أما اليتامى والمساكين وأبناء السبيل فيجوز اعطاؤهم من الزكاة الواجبة ، كما يجوز اعطاء الجميع من الصدقات المستحبة ، والصدقة المستحبة تعطى لكل محتاج،مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن لكل كبد حرى أجراً، كما جاء في الحديث .

كتب عليكم القتال الآية ٢١٦ - ٢١٨ :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لا تَعْلَمُونَ ★ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ
كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ
مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ
حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ
دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ★

الإعراب :

كره لكم ، أي مكروه لكم ، أو ذو كره ، وعسى أن تكرهوا المصدر المنسبك من أن وما بعدها فاعل عسى ، وهي هنا تامة لا تحتاج الى خبر ، ومثلها عسى أن تحبوا ، وقتالٍ فيه مجرور بدل اشتمال من الشهر الحرام، وقتالٌ فيه مرفوع مبتدأ ، وفيه متعلق بمحذوف صفة ، وكبير خبر ، وصد مبتدأ ، وكفر به معطوف عليه ، واخراج أهله أيضاً مثله ، وخبره أكبر عند الله ، والمسجد الحرام مجرور عطفاً على سبيل الله .

المعنى :

(كتب عليكم القتال) . فرض الله القتال على المسلمين لا لأنه مطلوب ومحبوب

لذاته ، ولا ليتسع ملكهم ، ويمتد سلطانهم ، ويعيشوا على حساب غيرهم من الشعوب ، وانما فرضه عليهم لنصرة الحق ، والدفاع عنه ، فان الحق من حيث هو ليس إلا مجرد فكرة ونظرية. أما تطبيقها والالتزام بها فيحتاج الى العمل الجاد، وهو أولاً الدعوة بالحكمة ، والطرق المألوفة ، فإن لم تجـدِ وجب تنفيذ الحق بالقوة .. وأية نظرية لا تعتمد على القوة التنفيذية فوجودها وعدمها سواء ، ومن أجل هذا فرض الله عـلى المسلمين في هذه الآية وغيرها جهاد كل معتدٍ على الحق ، حيث لا يجدي معـه الأمر بالمعروف والموعظة الحسنة .. ولولا السلطة التنفيذية لكانت السلطة التشريعية مجرد كلام ملفوظ أو مكتوب .

(وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهـو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . قال المفسرون : ان أصحاب الرسول كرهوا القتال ، لأن الانسان بطبعه يشق عليه أن يعرض نفسه للهلاك ، ولكنهم في الوقت نفسه يستجيبون لأمر الله تعالى طلباً لمرضاته ، تماماً كالمريض يشرب الدواء بغية الشفاء . وان الله سبحانه قد نبههم بقوله: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) الى أن ثمرة القتال والجهاد تعود اليهم ، لا اليه .. هذا ملخص ما قاله أهل التفاسير ، وظاهر اللفظ يتحمله ولا يأباه .

ولكن إذا نظرنا الى سيرة الأصحاب الخلص وبطولاتهم في الجهاد والفداء من أجل الدين ، وسيطرته على مشاعرهم ، وكيف استهانوا بالحياة طلبـاً للاستشهاد ، حتى ان من كان ينجو من القتل ، ويرجع من الجهاد سالماً يرى نفسه شقياً سيء الحظ – إذا نظرنا الى هذه الحقيقـة ، وأدخلناها في حسابنا ، ونحن نفسر هذه الآية نجد ان ما قاله المفسرون من كراهية الأصحاب للقتال غير وجيه ، وانه لا بد من تفسير الآية بمعنى آخر يساعد عليه الاعتبار ، ويتحمله اللفظ ، ويتلخص هذا المعنى في أن الأصحاب كانوا يرون أنفسهم دون المشركين عدة وعدداً ، فخافوا إذا قاوموهم بالقـوة أن يهلكوا عن آخرهم ، ولا يبقى للاسلام من ناصر ، وتذهب الدعوة الاسلامية سدى .. فكراهيتهم للقتال جاءت من الخوف على الاسلام ، لا على أنفسهم . فبين الله لهم ان القتال الذي دعيتم اليه ، وكرهتموه هو خير لكم وللاسلام ، وان القعود عنه يؤدي الى ذهـابكم وذهاب الاسلام .. وأنتم تجهلون هذه الحقيقة ، ولكن الله بها عليم ، لأنه لا تخفى

عليه خافية ، فالآية أشبه بقوله جل جلاله : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وان يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون – الأنفال ٦٥ » .

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) . مر تفسير الآية في الآية ١٩٢ وما بعدها .

(وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله) . كان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وأقر النبي هذه العادة ، لأن فيها تقليلاً للشر وسفك الدماء ، وقد أقر الاسلام بوجه عام كل عادة مستحسنة أو غير قبيحة كانوا عليها في الجاهلية ،ولكن العرب الذين كانوا يقدسون هذه الأشهر قد انتهكوا حرمتها ، وأعلنوا فيها الحرب على الرسول سنة ست من الهجرة، وصدوه مع أصحابه عن زيارة بيت الله الحرام ، وفتنوا من أسلم عن دينه ، وعذبوه بشتى أنواع العذاب طوال ثلاثة عشر عاماً ، كما فعلوا ببلال وصهيب وخباب وعمار بن ياسر وأبيه وامه ، حتى اذا أراد المسلمون أن يدافعوا عن أنفسهم، أو يقتصوا من المشركين في الأشهر الحرم رفع هؤلاء عقيرتهم بالدعاية المضللة ، وأظهروا المسلمين بمظهر المعتدي على المقدسات .

فبيّن الله سبحانه ان الجرائم التي ارتكبها المشركون في حق المسلمين هي أكبر وأعظم عند الله من القتال في الشهر الحرام ، ومن أجل هذا أباح للمسلمين قتال المشركين في أي مكان وزمان يجدونهم فيه عملاً بمبدأ القصاص ، والمعاملة بالمثل.

(والفتنة أكبر من القتل) . أي فتنة المسلمين عن دينهم بالتعذيب تارة ، ومحاولة القاء الشبهات في قلوبهم تارة أخرى ، هذه الفتنة أشد جرماً من القتال في الشهر الحرام .

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) . فالهدف للمشركين ان لا يبقى للاسلام عين ولا أثر على الكرة الأرضية ، ومن أجل هذا وحده يقاتلون المسلمين ، ويداومون على قتالهم ، فاذا كره المسلمون قتال المشركين تحقق الهدف الذي يبتغيه أعداء الدين .

ولا زالت هذه الروح الكافرة العدائية لكل ما فيه رائحة الاسلام ، لا زالت

حية الى اليوم في نفوس الكثيرين من الشرقيين والغربيين ، لأن الاسلام بانسانيته وعدالته ، ومقاومته للبغي والفساد هو السبب الأول للعداء، ولهذا وحده يضمرون لأهله كل شر ، ويحاربونهم بشتى الوسائل ، ويتفننون فيها حسب ما تقتضيه الظروف والتطورات .. وعلينا أن نتنبه لهؤلاء الأعداء ، ونقاتلهم بنفس السلاح الذي يقاتلوننا به .

(ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . هذا تحذير وتهديد من الله سبحانه لمن يستجيب لأعداء الدين ، ويرتد عن دينه فانه بذلك يخسر الدنيا والآخرة ، ومآله جهنم وبئس المصير .. وقوله تعالى : (فيمت وهو كافر) يدل بصراحة على ان المرتد اذا تاب قبل الموت يقبل الله منه ، ويسقط العقوبة عنه ، والعقل حاكم بذلك .. ولكن فقهاء الشيعة الإمامية قالوا : اذا كان المرتد رجلاً ، وكان ارتداده عن فطرة [1] ثم تاب يسقط عنه العذاب الاخروي ، أما العقوبة الدنيوية ، وهي القتل، فلا تسقط بحال، اما اذا تاب المرتد عن ملة فيسقط القتل عنه مستندين في هذا التفصيل الى روايات عن أهل البيت (ع) . ومعنى حبط الأعمال في الدنيا انه يعامل معاملة الكافر ، بالاضافة الى استحقاق القتل ، أما الحبط في الآخرة فالعذاب والعقاب .

(ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) . بعد ان ذكر الله جل جلاله حال المشركين والمرتدين وعقابهم ناسب أن يذكر المؤمنين وثوابهم ، والذين هاجروا هم الذين هاجروا من مكة الى المدينة مع رسول الله (ص) ، والمجاهدون هم الذين بذلوا جهدهم في نصرة الاسلام ، ومقاومة أعدائه .

عبادة التائب بعد ارتداده :

اذا تاب المرتد ، وعاد الى الاسلام قبل موته يقبل الله توبته بحكم العقل ،

---

[1] المرتد عن فطرة أن يكون أبواه أو أحدهما مسلماً ، والمرتد عن ملة أن يكون أبواه كافرين ، ثم يسلم ، ثم يرتد .

وبظاهر قوله تعالى : « فيمت وهو كافر » حيث قيد احباط العمل بالموت على الكفر ، ويتفرع على ذلك مسألتان :

الأولى : هل تصح العبادة ، كالصلاة والحج والصوم والزكاة،من المرتد بعد عودته الى الاسلام أو لا ؟.

وقد اتفق فقهاء السنة على انها تصح وتُقبل منه .

واتفق فقهاء الشيعة على انها تُقبل من المرتد عن ملة بعد اسلامه ، واختلفوا في صحتها من المرتد عن فطرة بعد عودته الى الاسلام ، فذهب أكثرهم الى انها لا تصح منه بحال ، وان اسلامه بعد الارتداد لا يجديه شيئاً في الدنيا أبداً ، بل يعامل معاملة الكافر ، وانما ينفعه اسلامه بعد الارتداد في الآخرة فقط ، حيث يسقط عنه العذاب .. وقال المحققون منهم ، ونحن معهم : بل تصح عبادته ، وينفعه اسلامه ، ويعامل معاملة المسلم دنياً وآخرة .

المسألة الثانية : هل يجب على المرتد أن يقضي بعد عودته الى الاسلام ما كان قد أتاه من العبادة قبل أن يرتد ، فلو كان قد صلى وحج ، وهو مسلم ، ثم ارتد ، ثم تاب ، فهل عليه أن يعيد الصلاة والحج بعد العودة الى الاسلام ؟.

قال الحنفية والمالكية : يلزمه القضاء . وقال الشافعية : لا يلزمه .

أما فقهاء الشيعة الذين قالوا بصحة عبادة من تاب بعد أن ارتد فانهم ذهبوا الى أنه لا يقضي شيئاً مما كان قد أتى به من العبادة حال الاسلام،وقبل الارتداد، وانما يقضي خصوص ما فاته أثناء الارتداد فقط .

الاحباط :

قال جمهور المعتزلة ، ان المؤمن المطيع يسقط ثوابه المتقدم بكامله إذا صدرت منه معصية متأخرة ، حتى ان من عبد الله طول عمره ، ثم شرب جرعة من خمر فهو كمن لم يعبد الله قط .. وكذا الطاعة المتأخرة تُسقط الذنوب المتقدمة، وهذا هو معنى الاحباط .

واتفق الامامية والاشاعرة على بطلان الاحباط ، وقالوا : لكل عمل حسابه الخاص ، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ، ولا المعاصي بالطاعات .. بل من

يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .. فمن أساء وأحسن، وهو مؤمن بالله يوازن بين حسناته وسيئاته ، فان كانت الاساءة أكثر كان كمن لم يحسن، وان كان الاحسان أكثر كان كمن لم يسيء ، اذ الأكثر ينفي الأقل، وان تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء .

والأحباط بعيد عن هذا المعنى كل البعد ، ومعناه الصحيح ان من مات على الكفر بعد الاسلام يكشف كفره هذا عن ان أعماله التي أتى بها حين اسلامه لم تكن على الوجه المطلوب شرعاً ، ولا يستحق عليها شيئاً منذ البداية ، لا انه استحق الثواب ، ثم ارتفع ونسخ بعد ثبوته ، بل هو من باب الدفع ، لا من باب الرفع .

الخمر والميسر الآية ٢١٩ ــ ٢٢٠ :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ★ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★

اللغة :

الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه ، وخمرت الجارية ألبستها الخمار ، والوجه في النقل ان هذا الشراب يستر العقل ويغطيه ، والمراد

بها هنـــا كل مسكر ، والميسر القمار مأخوذ من اليسر ، وهو السهولة ، لأنه كسب بلا مشقة ، والعفو الزيادة ، والعنت المشقة، والاعنات الحمل على المشقة .

الإعراب :

العفو مفعول لمحذوف ، أي أنفقوا العفو ، واصلاح لهم مبتدأ ، وخير خبر ، وفإخوانكم خبر مبتدأ محذوف ، أي هم اخوانكم .

المعنى :

(يسألونك عن الخمر والميسر) . سأل بعض المسلمين عن حكم الخمر والقمار، وكان السؤال في المدينة ، أي بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من تاريخ الدعوة الاسلامية .. ويدل هذا على ان حكمها كان مسكوتاً عنـــه أمداً طويلاً ، كما سكت عن حـــكم بعض المحرمات الى وقت البيان حسبما تقتضيه المصلحة ، وقد تستدعي الحكمة الرفق والتدريج في بيان الحكم ، وقيل : ان بيان حـــكم الخمر كان من هذا الباب ، لأن المسلمين كانوا قد ألفوها في الجاهلية،فلو منعوا عنها دفعة واحدة لشق ذلك عليهم .. بل ان الله سبحانه قد ذكّر الناس بأن من جملة نعمه عليهم انهم يتخذون من النخيـــل والاعناب سكراً ورزقاً ، حيث قال عز من قائل في الآية ٦٧ من سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » .

سأل بعض المسلمين عن حكم الخمر والقمار ، فأمر الله نبيه الأكرم أن يجيبهم بأن (فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكــبر من نفعهـــما) . وهذا الجواب بمفرده لا يدل على تحريم الخمر صراحة ، لأنه لم يقل : الخمر حرام .. ولكنه يدل عليه بالالتزام ، لقاعدة : درء المفسدة اولى من جلب المصلحة لأهم مقدم على المهم ، غير انه اذا لحظنا الآية ٣٢ من الأعراف : « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق » ، وعطفنا هذه الآية على الآية التي نحن بصددها،وجمعناهما في كلام واحد تكون الدلالة على التحريم

صريحة وقطعية أيضاً ، حيث تأتي النتيجة هكذا : الخمر إثم ، وكل إثم حرام، فالخمر حرام .

هذا ، بالاضافة الى الآية ٩٠ و ٩١ من سورة المائـدة : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب[1] والأزلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمـر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » . فقوله: فاجتنبوه أمر بالاجتناب ، والأمر يدل على الوجوب ، وقوله : فهل أنتم منتهون ، ظاهر في النهي ، لأن معناه انتهوا ، والنهي يدل على التحريم ، ولـذا قال المسلمون بعد سماع هذه الآية : انتهينا . أما الآية ٤٣ من النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » . أما هذه الآية فقد نزلت قبل آية المائدة التي هي أشد وأغلظ ، وأشرنا ان الحكمة ربما تستدعي التدريج في بيان التحريم. على ان لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى لا دلالة فيها على حلّية الخمر في غير الصلاة، ويأتي الكلام عنها مفصلاً ان شاء الله حين نصل اليها .

هذا ، الى أن المسلمين منذ الصدر الأول الى اليوم قد أجمعوا كلمة واحدة على ان الخمر من الكبائر ، وان من استحلها فليس بمسلم ، ومن ارتكبها متهاوناً فهو فاسق ، ويحد بثمانين جلدة ، وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه لعن غارسها ، وعاصرها ، وبائعها وشاربها وساقيها وشاربها . وفي بعض الأخبار أو الآثار : ان ما من شريعة سماوية إلا ونهت عن الخمر . وقد بحثنا هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، باب الأطعمة والأشربة .

(وإثمهما أكبر من نفعهما) والمراد بالاثم هنا الضرر ، ويظهر ضرر الخمر في الجسم والعقل والمال ، وفي الصد عن ذكر الله ، وفي الخصومات والمشاحنات، وفي ارتكاب المحرمات ، فلقد روى أهل السير ان بعض السكارى نزا على بنته .. وكان العباس بن مرداس رئيساً في قومه في الجاهلية ، وقد حرم الخمر على نفسه بفطرته ، ولما قيل له في ذلك قال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي فادخله جوفي ، ولا أرضى أن اصبح سيد القوم ، وامسي سفيههم . وقال طبيب ألماني شهير :

---

١ الانصاب والازلام سهام كانوا يجيلونها في الجاهلية للقمار .

اقفلوا نصف الحانات ، اضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والمارستانات والسجون .

أما القمار فانه يورث العداوة والبغضاء ، ويصد عن ذكر الله ، كما أشارت الآية الكريمة .. ويفسد الأخلاق بالتعويد على الكسل ، وطلب الرزق من أسباب وهمية ، ويهدم البيوت العامرة ، وينتقل بالانسان من الغنى الى الفقر فجأة في ساعة واحدة .. ويكفي لتحريم القمار انه أخذ للمال بلا عوض ومقابل .

(ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) . أي انفقوا ما زاد عما تحتاجونه انتم وعيالكم . والأمر بالانفاق هنا للاستحباب ، لا للوجوب ، وانما يجب البذل اذا تحققت شروط الخمس والزكاة ، وسنتكلم عنهما مفصلاً ان شاء الله .. ومهما يكن ، فان هذه الآية تجري مجرى الآية ٢٩ من الاسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . وفي الحديث ان رجلاً جاء رسول الله (ص) بمثل البيضة من ذهب ، وقال له : يا رسول الله خذها صدقة ، فوالله لا أملك غيرها ، فأعرض الرسول عنه ، ثم أتاه من بين يديه ، وأعاد القول ، فقال النبي (ص) : هاتها مغضباً ، فأخذها منه ، ثم حذفه بها ، وقال : يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره ، ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن غنى ، خذها لا حاجة لنا فيها .. وفي الحديث أيضاً ان النبي (ص) كان يحبس لأهله قوت سنته .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) . أي ان الله سبحانه بيّن لنا حكمه في الخمر والقمار ، وحكمه فيما ينبغي أن نتصدق به من أموالنا على أساس مصلحتنا نحن ، فهو لا يأمر إلا بما فيه مصلحة دنيوية وأخروية ، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة كذلك ، وعلينا أن نتدبر هذه الحقيقة ، ونراعيها ، ولا نعصي الله في شيء من أوامره ونواهيه . فالقصد من قوله تعالى : لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ان نعمل لهما معاً ، ولا ننصرف الى احداهما دون الأخرى .

(ويسألونك عن اليتامى) . اعتاد أهل الجاهلية أن ينتفعوا بأموال اليتامى ، وربما تزوج الرجل اليتيمة أو زوجها من ابنه طمعاً في مالها ، وبعد الاسلام أنزل الله على نبيه : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم

ناراً » . وقوله : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى والقيام بأمورهم ، فاختلت مصالحهم ، وساءت معيشتهم. وسأل بعض المسلمين عن ذلك ، فجاء الجواب من الله : « قل اصلاح لهم خير». والمعنى لا تحرموا على أنفسكم مخالطة اليتامى ،ومقاربة أموالهم إذا قصدتم الاصلاح في تربيتهم وتهذيبهم وادارة أموالهم ، بل في ذلك أجر لكم وثواب،وانما المحرم هو استغلالهم وأكل أموالهم بالباطل .

(وان تخالطوهم فاخوانكم) . قال جماعة من المفسرين : هذا اذن من الله لمن يتولى أمر اليتيم أن يشركه مع عياله في المأكل والمشرب ان كان ذلك أيسر على المتولي ، ويستوفي من مال اليتيم بقدر ما أنفق عليه .

(والله يعلم المفسد من المصلح) . المفسد هو الذي يلي أمر اليتيم ليستغل أمواله ، والمصلح من يليها لمصلحة اليتيم بالذات .. وقوله : والله يعلم المفسد تهديد عظيم لمن يبتغي الاستغلال والفساد .

(ولو شاء الله لاعنتكم) . الاعنات الضيق في التكليف ، والقصد ان الله أباح مخالطة اليتامى مع عيال المتولي ، وان يأخذ عوض ما ينفقه عليه من ماله ، كي لا يقع المتولي في المشقة والحرج ، لأن الله سبحانه يريد بالناس اليسر، ولا يريد بهم العسر .

وتجدر الاشارة الى انه لا تشترط الدقة والمساواة التامة بين ما يأكله القاصر مع عيال المتولي،وبين ما يستوفيه هذا من مال القاصر ، فان الله سبحانه يعفو عما جرى به العرف من المسامحة في التفاوت الذي يتعذر أو يتعسر اجتنابه ، بل للمتولي الفقير أن يأكل من مال القاصر بالمعروف ، وليس له ذلك ان كان غنياً، لقوله تعالى : « ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف — النساء ٦» .

ولا تنكحوا المشركات الآية ٢٢١ :

وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ

وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ★

المعنى :

(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) . هذه الآية من آيات الاحكام ، وتدخل في باب الزواج ، وقبل بيان المضمون نمهد بتفسير لفظ النكاح والمشركين ، والامة والعبد .

يطلق النكاح على عقد الزواج ، وعلى الوطء ، تقول : فلان نكح فلانة ، أي عقد عليها ان كانت خلية ، وتقول : نكح زوجته ، أي وطأها ، والمفهوم من قوله تعالى : «ولا تنكحوا المشركات» ان المسلم لا يجوز له أن يتخذ المشركة زوجة له، كما ان المفهوم من قوله : «ولا تنكحوا المشركين» ان المشرك لا يحق له أن يتخذ المسلمة زوجة له ، وعليه يكون المراد من النكاح الزواج بحقيقته وجميع ملابساته .

أما لفظ المشركين فقيل : انه يشمل كل من لا يؤمن بنبوة محمد (ص) ، وعلى هذا القول يدخل أهل الكتاب، وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، وقيل : ان القرآن لا يطلق لفظ المشركين على أهل الكتاب ، وان قالوا بربوبية عيسى ، وان الله ثالث ثلاثة ، واستدل الذاهبون الى هذا القول بالآية ١٠٥ من سورة البقرة : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين » . والآية ١ من البينة : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » . حيث عطف المشركين على أهل الكتاب ، والعطف يستدعي التعدد والتغاير ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه .

ويطلق لفظ الامة على المملوكة ، والحرة ، تقول للحرة يا امة الله ، أي

يا عبدة الله ، وكذلك العبد ، لأن الآدميين عبيد الله ، والآدميات اماؤه ..

ومحصل المعنى لا تتزوجوا أيها المسلمون من مشركة ما دامت على الشرك ، وتزوجوا امرأة منكم ، وان كانت دون المشركة خَلقاً وخُلقاً ، ولا تزوجوا مشركاً ما دام على شركه ، وزوجوا رجلاً منكم ، وان كان دون المشرك مالاً وجاهاً .

(أولئك يدعون الى النار) . اولئك اشارة الى المشركين والمشركات ، ويدعون الى النار بيان للحكمة الموجبة لعدم الزواج أخذاً وعطاء من أهل الشرك، والحكمة هي ان الصلة الزوجية بهم تؤدي الى فساد العقيدة والدين – وعلى الأقل – الى الفسق والتهاون بأحكام الله .

والذي نشاهده في هذا العصر ان الكثير من شبابنا وشاباتنا ليسوا بأحسن حالاً من أهل الكفر والشرك من حيث الاستخفاف والتهاون بالدين ، والتحرر من قيوده وآثاره ، وتنشئة أبنائهم تنشئة لادينية ولا أخلاقية .. ولولا شهادتهم لله بالوحدانية، ولمحمد (ص) بالرسالة لوجب أن نعاملهم معاملة الملحدين والمشركين،ولكن لهذه الكلمة تأثيرها في حقن الدماء ، وصيانة الأموال ، وصحة الزواج والميراث ، حتى ولو جاءت عن طريق التقليد والوراثة ، بل والايمان المزيف[1] .

(والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه) . هنا دعوتان : الأولى دعوة المشركين الى فعل ما يوجب دخول النار ، وغضب الله سبحانه . والثانية دعوة الله الى فعل ما يوجب المغفرة ودخول الجنة ، ومن هذا الفعل الزواج بالمؤمنة دون المشركة ، وتزويج المؤمن دون المشرك .. وليس من شك ان المؤمنين هم الذين يلبون دعوة الله ، وينالون بذلك مغفرته ، ويدخلون جنته باذنه ، أي بهدايته وتوفيقه .

الزواج بالكتابية :

اتفق المسلمون على انه لا يجوز للمسلم ، ولا للمسلمة التزويج ممن لا كتاب

---

١ ان الزواج والميراث يترتبان على اظهار الإسلام ، لا على الإسلام واقعاً ، وبحثنا ذلك مفصلا في كتاب أصول الاثبات ، فصل الدعوى ومخالفة الشرع ، فقرة الإسلام .

سماوي لأهل ملته ، كعبدة الأوثان والشمس والنيران ، وما الى ذلك ، وبالاولى من لا يؤمن بشيء .

وكذا لا يجوز للمسلم أن يتزوج من مجوسية ، وبالاولى ان لا تتزوج المسلمة من مجوسي ، وان قيل بأن للمجوس شبهة كتاب .

واتفقت مذاهب السنة الأربعة على صحة الزواج من الكتابية .. واختلف فقهاء الشيعة فيما بينهم ، فقال أكثرهم : لا يجوز للمسلم أن يتزوج اليهودية والنصرانية، وقال جماعة من كبارهم ، منهم الشيخ محمد حسن في الجواهر ، والشهيد الثاني في المسالك ، والسيد أبو الحسن في الوسيلة ، قالوا : يجوز ، ونحن نميل الى هذا الرأي ، والدليل عليه :

١ – الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام ، خرج منها زواج المسلم بالمشركة ، والمسلمة بالمشرك والكتابي ، وبقي ما عدا ذلك مشمولاً ومدلولاً للعمومات والاطلاقات .

٢ – قوله تعالى : « أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب – المائدة ٥ » . أي أحل لكم النساء المحصنات من أهل الكتاب، والمراد بالمحصنات العفيفات ، أما قوله سبحانه : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن فقد تقدم انه خاص بالمشركات، وهن غير الكتابيات . أما قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فان المراد بالكوافر هنا المشركات ، لا أهل الكتاب ، لأن الآية نزلت فيمن أسلمن وهاجرن الى النبي (ص) تاركات أزواجهن المشركين، والسياق يدل على ذلك، وهذه هي الآية بكاملها : « يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن اجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر – الممتحنة ١٠ » .

هذا ، الى أحاديث صحيحة عن النبي وأهل بيته (ص) في صحة زواج المسلم من الكتابية . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في الجزء الخامس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق ، باب المحرمات ، فقرة اختلاف الدين .

الحيض الآية ٢٢٢ – ٢٢٣ :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ★ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ★

اللغة :

الحيض لغة السيلان ، وشرعاً دم ذو أوصاف خاصة يخرج من رحم المرأة في أمد مخصوص ، والمراد بالأذى هنا الضرر من حيث القذارة والنجاسة .

الاعراب :

انّى تكون ظرف مكان بمعنى أين ، وتجزم فعلين نحو أنّى تجلس اجلس ، وبمعنى من أين نحو يا مريم انّى لك هذا ، أي من أين ، وتأتي ظرف زمان بمعنى متى نحو أنّى جئت ، أي متى جئت ، وتأتي للسؤال عن الكيفية ، نحو أنّى يحيي الله هذه بعد موتها .

المعنى :

سألوا الرسول الأعظم (ص) عن الشهر الحرام ، وعن الخمر والميسر ، وعما ينفقون ، وعن اليتامى ، ثم سألوه عن حيض النساء .. وقال الرازي : « روي ان اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها ، والنصارى

كانوا يجامعونهن ، ولا يبالون بالحيض ، وان أهل الجاهليـــة كانوا اذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ، ولم يشاربوها ، ولم يجالسوها على فراش ، ولم يساكنوها في بيت ، كفعل اليهود والمجوس .

(ويسألونك عـــن المحيض قـــل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض) . المحيض اسم لمكان الحيض ومحله ، والمراد به هنا الحيض من باب اطلاق المحل على الحال ، والسؤال وقع عن مخالطـــة النساء في زمن الحيض ، فأمر الله نبيه الأكرم أن يجيب السائلين بأن يعتزلوا النساء ايام الحيض ، أي لا يجامعوهن فيه. فقد جاء في الحديث : « اصنعوا كل شيء الا الجماع » . وقوله : «هو أذى» تعليل للحكم ، والأذى في اللغة ما يكره من كل شيء ، والمراد به هنا الضرر من حيث القذارة والنجاسة .

(ولا تقربوهن حتّى يطهرن) . اختلفوا في « يطهرن » هل المراد به مجرد انقطاع الدم ، فاذا انقطع جاز الوطء ، وان لم تغتسل ، أو المراد به الاغتسال بعد انقطاع الدم ، فلا يجوز الا بعد الانقطاع والاغتسال .

قال الإمامية : يجوز الوطء بمجرد انقطاع الدم ، وان لم تغتسل ، لأن هذا هو المفهوم من لفظ الطهر ، أما التطهـر فهو من عمل النساء ، ويكون عقب الطهر .

وقال المالكية والشافعية : لا يجوز الوطء الا بعد الاغتسال .

وقال الحنفية : ان استمر الدم لعشرة ايام جاز أن يقربها قبل الاغتسال ، وان انقطع لدون العشرة فلا يجوز الوطء ، حتّى تغتسل .. وعلق صاحب تفسير المنار على هذا التفصيل بقوله : « هو تفصيل غريب » .

(فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) . ان لفظـة حيث حقيقـــة في المكان ، وعليه يكون المعنى فاتوهن في القُبل ، كما هو المتبـــادر الى الفهم . وتكلمنا عن الحيض وأحكامه مفصلاً في كتاب فقه الإمام جعفر الصادق، وكتاب الفقه على المذاهب الخمسة .

(نساؤكم حرث لـكم فأتوا حرثكم انـّى شئتم) . قدمنا في فقرة الاعراب ان انـّى تأتي بمعنى كيف ومتى وأين .. وقد تعددت الأقوال في تفسير الآية بتعدد معاني انـّى ، فمن قائل : انها بمعنى متى ، ويكون المراد فأتوهن في أي زمان

شئتم ليلاً أو نهاراً ، ومن قائل : انها بمعنى أين ، أي أنتم مخيرون ان تأتوهن قبلاً أو دبراً ، ومن قائل : انها بمعنى كيف ، أي على أية حال شئتم قعوداً أو نياماً أو نحو ذلك .

وقال جماعة من المفسرين ، منهم صاحب تفسير المنار من علماء السنة، ومنهم صاحب تفسير بيان السعادة من علماء الشيعة ، قالوا : ان تقييد الاتيان بالحرث ينافي ارادة المكان الشامل للدبر ، حيث لا استعداد له لزراعة الولد، هذا ، بالاضافة الى ما في الاتيان بالدبر من الأذى .. ونحن على هذا الرأي ، أولاً لأن الحرث لا يتحقق الا في القبل ، كما ذكر اولئك المفسرون ، ثانياً ان قوله تعالى : (فأتوهن من حيث أمركم الله) يعين ارادة القبل بعد أن فسرنا «حيث» بالمكان .

وتجمل الاشارة الى ان جماعة من فقهاء الشيعة الإمامية قد أباحوا وطء الزوجة دبراً على كراهية شديدة ، وأنكر البعض ذلك عليهم زاعماً انه من اختصاص الشيعة ، ولا يوافقهم أحد من المسلمين عليه .. مع العلم بأن الرازي نقل في تفسير هذه الآية ان ابن عمر كان يقول : المراد من الآية تجويز اتيان النساء في ادبارهن . وقال الحافظ أبو بكر الأندلسي المالكي – توفي سنة ٥٤٢ هـ – في الجزء الأول من كتاب احكام القرآن صفحة ٧٣ طبعة ١٣٣١هـ، قال ما نصه بالحرف :

« اختلف العلماء في جواز نكاح المرأة في دبرها ، فجوزه طائفة كثيرة ، وقد جمع ذلك ابن شعبان في كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن، وأسند جوازه الى زمرة كريمة من الصحابة والتابعين والى مالك من روايات كثيرة ، وقد ذكر البخاري عن ابن عون عن نافع ان ابن عمر كان يقرأ سورة البقرة، حتى انتهى الى انّى شئتم ، فقال : أتدري فيمَ نزلت ؟. قلت : لا . قال نزلت في كذا وكذا » . أي في ادبار النساء .

اليمين الآية ٢٢٤ – ٢٢٧ :

وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ

النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ★ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ
مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★

اللغة :

العرضة التهيئة ، يقال : هذا عرضة للتلف، أي مهيأ ومعرض له . والايلاء لغة الحلف ، وشرعاً حلف الرجل ان لا يقرب امرأته ، والتربص الانتظار ، وفاؤوا أي رجعوا .

الإعراب :

ان تبرّوا المصدر المنسبك مجرور بلام محذوفة ، والتقدير لبركم وتقواكم ، وقيل : بل هو في محل رفع مبتدأ ، والخبر محذوف ، والتقدير بركم وتقواكم خير لكم .

المعنى :

(ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) . نهى الله سبحانه عن الجرأة عليه بكثرة الحلف به ، لأن من أكثر ذكر شيء فقد جعله عرضة له ، يقول الرجل لغيره تكلمت عني كثيراً حتى جعلتني عرضة لكذا .. وقد ذم الله من أكثر الحلف بقوله : « ولا تطع كل حلاف مهين » . ومن أكثر الحلف قلّت مهابته ، وكثر حنثه ، واتهم بالكذب .

(ان تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) . هذا تعليل للنهي عن اليمين ،

والمعنى ان الله نهاكم عنها من غير ضرورة لتكونوا بررة أتقياء مصلحين في الأرض غير مفسدين .

(لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم) . بعد أن نهى الله سبحانه عن الحلف بلا ضرورة بيّن ان ما يدور كثيراً على الألسن ، مثل بلى والله ، ولا والله ، ان هذا ، وما اليه ، ليس من اليمين الحقيقية في شيء ، وانما هو لغو يسبق الى اللسان من غير قصد ، ولا يترتب عليه ضرر لأحد ، ولذا لم يفرض الله له كفارة في الدنيا ، ولا يعاقب عليه في الآخرة .

(ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) . لأنه جلت عظمته لا ينظر الى الصور والأقوال ، وانما ينظر الى النوايا والأفعال ، ومثله الآيـة ٨٨ من سورة المائدة : «لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم » . فالعاقل البالغ القاصد المختار اذا حلف وخالف فعليه أن يكفر بعتق رقبة ، أو اطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، فان عجز عن ذلك صام ثلاثة ايام .. وتكلمنا عن اليمين وشروطها وأحكامها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق ، باب النذر واليمين والعهد .

(للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاؤوا فان الله غفور رحيم وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) . الايـلاء في الشريعة أن يحلف الزوج بالله على ترك وطء زوجته ، واشترط فقهاء الإمامية لانعقاده أن تكون الزوجة مدخولاً بها ، والا لم يقع الإيلاء ، وان يحلف الزوج على ترك الوطء مدة حياة الزوجة ، أو مدة تزيد على الأربعة أشهر ، لأن للزوجة حق المواقعة على الزوج مرة كل أربعة أشهر على الأقل .

وقالوا : إذا وطأ الزوج في الأربعة أشهر يكفر ، ويزول المانع ، كأنْ لم يكن شيء ، وان مضى أكثر من أربعة أشهر ، ولم يطأ فان صبرت ورضيت فلها ذلك ، ولا يحق لأحد أن يعترض ، وان لم تصبر رفعت أمرها الى الحاكم الشرعي ، وبعد مضي الأشهر الأربعة يجبره على الرجوع ، أو الطلاق ، فان امتنع ضيق عليه وحبسه ، حتى يختار أحد الأمرين ، ولا يحق للحاكم أن يطلق قهراً عن الزوج .. واذا رجع كفر كفارة اليمين المتقدم ذكرها .

المطلقات الآية ٢٢٨ :

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ★

اللغة :

التربص الانتظار ، والقروء واحدها قرء بضم القاف وفتحها ، ويطلق تارة على حيض المرأة ، وأخرى على طهرها .

المعنى :

(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) . لفظ المطلقات عام يشمل بظاهره كل زوجة وقع عليها الطلاق ، آيسة كانت ، أو غير آيسة ، حرة أو مملوكة ، حاملاً أو حائلاً ، مدخولاً بها أو لا ، كبيرة أو صغيرة دون التسع.. ولكن هذا الظاهر غير مراد بالاتفاق ، لأن بعض المطلقات لا عدة عليها بنص القرآن ، وهي التي لم يدخل بها الزوج ، قال تعالى : « اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها -الأحزاب ٤٩». ومنها الآيسة ، فقد ذهب أكثر فقهاء الشيعة الإمامية الى انه لا عدة عليها، وإن كان قد دخل بها الزوج ، وكذلك الصغيرة دون التسع ، وأيضاً من المطلقات من تعتد بقرءين كالأمة المملوكة ، وأيضاً منهن من تعتد بثلاثة أشهر ، لا بثلاثة قروء ، وهي الشابة في سن من تحيض ولا تحيض ، كما ان الحامل تعتد بوضع الحمل ، قال تعالى : « واولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن - الطلاق ٤».

وعلى هذا يكون المراد بالمطلقات في الآية من دخل بها الزوج بعد أن أكملت التسع ، ولم تكن حاملاً ، ولا آيسة ، وكانت من ذوات الحيض .. وقد فسر الإمامية والمالكية والشافعية – فسروا القرء بالطهر ، والمراد بالطهر أيام النقاء بين الحيضتين ، فاذا طلقها في آخر لحظة من طهرها احتسب من العدة ، وأكملت بعده طهرين ، أما الحنفية والحنابلة فقد فسروا القرء بالحيض ، وعليه فلا بد من ثلاث حيضات بعد الطلاق .

(ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) . وفهم هذه الجملة على حقيقتها يتوقف على التمهيد بما يلي:

قسّم فقهاء السنة الطلاق إلى قسمين : سنة وبدعة .. ونترك تفسير طلاق السنة ، وطلاق البدعة إلى فقهاء السنة أنفسهم ؛ فلقد جاء في كتاب المغني لابن قدامة ج ٧ ص ٩٨ الطبعة الثالثة ما نصه بالحرف : « معنى طلاق السنة الطلاق الذي وافق أمر الله ، وأمر رسوله ، وهو الطلاق في طهر لم يصبها فيه » . وفي ص ٩٩ من الكتاب المذكور : « ان طلاق البدعة هو أن يطلقها حائضاً ، أو في طهر أصابها فيه » . وقال الرازي في تفسير الآية ١ من سورة الطلاق : « فالطلاق حال الطهر لازم ، وإلا لا يكون سنياً » .

وعلى هذا يكون طلاق الزوجة في حال الحيض ، أو في طهر واقعها الزوج فيه طلاقاً غير شرعي ، بل هو بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، أما طلاقها في طهر لم يواقعها فيه فهو على سنة الله ورسوله، وبهذا يتضح السر في قوله تعالى: « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » من الطهر والحيض ، لأن معرفة وقوع الطلاق على سنة الله ورسوله، أو على البدعة والضلالة تتوقف على معرفة حال المطلقة ، وانها هل هي طاهر أو حائض .. وبديهة ان السبيل إلى معرفة هذين الوصفين ، وهما الطهر والحيض منحصر بالمرأة ، ولا وسيلة للمعرفة بالوصفين إلا هي بالذات ، ولذا تصدق فيها ما لم يعلم كذبها ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : فوض الله الى النساء ثلاثة أشياء : الطهر والحيض والحمل ، وفي رواية ثانية والعدة .

والشيعة يتفقون مع السنة على أن الطلاق إذا وقع في الحيض ، أو في طهر واقعها فيه يكون بدعة ، وإذا وقع في طهر لم يواقعها فيه يكون على سنة

الرسول (ص) . ولكن الشيعة قالوا : ان طلاق البدعة فاسد لا يقع من الأساس، وان الطلاق الصحيح الذي تنقطع معه العصمة بين الزوجين هو طلاق السنة ، أي الواقع في طهر لم يصبها فيه . وقال فقهاء السنة : كلا ، إن طلاق البدعة صحيح ، وتترتب عليه جميع الآثار،ولكن المطلق يأثم .. وبكلمة : ان السنة لا يفرقون بين طلاق السنة وطلاق البدعة من حيث الصحة ، وانما يفرقون بينهما من حيث الإثم والمعصية فقط ، أما الشيعة فقد فرقوا بينهما من حيث الصحة،لا من حيث الإثم .

(ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) . هذا تخويف وتهديد على كتمان ما في الرحم ، وليس شرطاً لوجوب الصدق ، لأن معناه ان الإيمان يمنع من الكذب، فهو تماماً كمن يقول للكاذب : ان كنت تخاف الله فلا تكذب .

وسبقت الاشارة إلى أن المطلقة أمينة في الطهر والحيض والحمل ، ومعنى هذا ان القول قولها في العدة بقاء وانقضاء ، وبديهة ان حق الزوج في الرجعة يتوقف على بقاء العدة ، كما ان صيانة الأنساب تتصل مباشرة بالطهر والحيض، وكذلك صحة الطلاق وفساده عند فقهاء الإمامية ، فاذا كانت حائضاً وقالت : انها طاهر حين الطلاق لم يقع الطلاق ، وتبقى على العصمة الزوجية ، وإذا قالت : انقضت عدتي بالاقراء ، وكانت بعدُ لم تنقضِ فقد فوتت حق الرجعة على الزوج، وإذا تزوجت في هذه الحال تكون زانية .. ومن أجل هذا وغير هذا نهى الله سبحانه النساء عن كتمان ما في أرحامهن ، وهددهن عليه .

(وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحاً) . قوله : (في ذلك) إشارة إلى زمن التربص ، وهو أيام العدة ، ومحصل المعنى ان الله سبحانه بعد أن بيّن وجوب العدة ذكر في هذه الآية حق المطلق في الرجعة على مطلقته ما دامت في العدة إذا كان الطلاق رجعياً ، وهذا الحق ثابت له ، سواء أرضيت أم لم ترضَ .. ولا تحتاج الرجعة إلى عقد ومهر ، كما انها لا تحتاج إلى شهود عند فقهاء الإمامية ، ويأتي بيان ذلك مع دليلهم في سورة الطلاق .

والمراد بقوله : (ان أرادوا اصلاحاً) اصلاح حاله معها،وعدم قصد الاضرار بها من الرجعة .

وتسأل : إذا أرجع الرجل مطلقته أثناء العدة بقصد الاضرار ، لا بقصد

الإصلاح ، فهل تكون الرجعة صحيحة تترتب عليها آثار الزوجية ، أو تكون باطلة لا يترتب عليها شيء ؟.

الجواب : تصح الرجعة ، ويأثم الرجل ، لأن قصد الإصلاح شرط للحكم التكليفي ، وهو اباحة الرجعة وحليتها ، وليس شرطاً للحكم الوضعي ، وصحة الرجعة ، وترتب الآثار عليها .

(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) . ليس المراد بالمماثلة هنا الاتحاد في الجنس ، بحيث يستحق هو عليها النفقة والمهر ، كما تستحق هي عليه ذلك ، وانما المراد بالمماثلة الوجوب واستحقاق المطالبة .. وقال الفقهاء : حقه عليها أن تطيعه في الفراش ، وحقها عليه أن يملأ بطنها ، ويكسو جلدها ، وقال صاحب تفسير المنار ، يرجع في تفسير وتحديد حق الزوج على الزوجة ، وحق الزوجة على الزوج إلى ما جرت عليه عادة الناس إلا ما كان منه محرماً في الشريعة .. فما يراه العرف حقاً لأحد الزوجين فهو كذلك عند الله .

والذي نستظهره من سياق الآية ان الحق الذي عليها هو العدة والصدق في الاخبار عنها ، وعدم الاعتراض على الرجعة المستوفية للشروط ، والحق الذي لها أن يقصد الرجل من ارجاعها الإصلاح ، لا الإضرار ، وحسن الصحبة ،لا سوء المعاملة .. أما سائر الحقوق الأخرى التي لكل من الزوجين على الآخر فالآية أجنبية عنها ، وتستفاد من أدلة مستقلة عن الآية .

(وللرجال عليهن درجة) . اختلف العلماء والمفسرون في المراد من هذه الدرجة التي امتاز بها الرجل عن المرأة .. فقيل : هي العقل والدين . وقيل : هي الميراث . وقيل : هي السيادة،أي ان عليها ان تسمع من الرجل وتطيع .. ومن الطريف ان بعضهم فسر الدرجة باللحية، كما جاء في أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأندلسي ، وغير بعيد أن يكون المراد بالدرجة جعل الطلاق والرجعة بيد الرجل ، دون المرأة .

بين الرجل والمرأة في الشريعة الاسلامية :

لقد سبق الاسلام الشرائع والقوانين كلها الى تحرير المرأة ، واقرار حقوقها

بعد ان كان الرجل يعاملها معاملة السلع والحيوانات ، حتى في أوروبا وأميركا إلى عهد قريب .. وإذا ميز الاسلام الرجل عن المرأة بأشياء فان هـذا التمييز تفرضه الفروق الطبيعية بينهما ، أو مصلحة الجماعة ، وليس من العقـل والعدل المساواة في كل شيء بين من تهتم بالفساتين والموضة وتسريحات الشعر وما اليها، وبين من يشعر بالمسؤولية عنها وعن أولادها،ويتحمل المصائب والمشاق من أجلها وأجلهم .. ومهما يكن ، فان فقهاء الاسلام ذكروا فروقاً بين الرجل والمرأة في الأحكام الشرعية نشير إلى جملة منها فيما يلي :

١ – ان دية المرأة نصف دية الرجل .

٢ – الطلاق والرجعة بيد الزوج دون الزوجة .

٣ – ليس لها أن تمتنع عن فراشه ، ولا أن تسافر ، وتخرج من بيته إلا برضاه ، وله أن يفعل ما يشاء .

٤ – لا تجب عليها صلاة الجمعة ، حتى ولو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة إلى الرجل .

٥ – لا يجوز لها أن تتولى الإمرة،ولا القضاء إلا عند أبي حنيفة في حقوق الناس خاصة دون حقوق الله .

٦ – لا يجوز أن تكون إماماً في الصلاة للرجال ، ويجوز أن يكون الرجل إماماً للنساء .

٧ – لا تقبل شهادتها اطلاقاً في غير الأموال ، لا منفردة ولا منضمة الى الرجال إلا في مسألة الولادة ، وتقبل في الأموال منضمة الى الرجال ، على أن تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد .

٨ – للانثى من الميراث سهم ، وللذكر سهمان .

٩ – على المرأة أن تستر عن الرجال الأجانب شعرها وجميع بدنها ما عدا الوجه والكفين ، ولا يجب على الرجل أن يستر عن النساء سوى القبل والدبر .

١٠ – لا جهاد عليها ، ولا جزية ، ولا تقتل في الحرب ما لم تقاتل .

١١ – لا تشارك الأم الأبَ في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج ، ولا التصرف في أمواله ، ويستقل الأب في جميع ذلك .

١٢ – لا تصح معها المسابقة والرماية[1] .

١٣ – أفتى الفقهاء بأن من قتل انساناً عن خطأ يحمل الدية عن القاتل من يتقرب اليه بالأب ، كالاخوة والأعمام وأولادهم ، ويسمون بالعاقلة، ولا تدخل المرأة معهم .

١٤ – اذا قتلت امرأة رجلاً قتلت به بلا شرط ، واذا قتل رجل امرأة فلا يُقتل بها الا بعد أن يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل .

الطلاق مرتان الآية ٢٢٩ – ٢٣٠ :

الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ★ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ★

اللغة :

الجناح الاثم ، والاعتداء تجاوز الحد في قول أو فعل .

---

[1] المسابقة أن يتسابق اثنان على الخيل ، على أن يكون للسابق جعل معين ، والرماية أن يتباريا في الرمي على هدف على أن يأخذ الجعل من يصيب الهدف . وقد أجاز الإسلام ذلك .

الاعراب :

فإمساك خبر مبتدأ محذوف ، أي فالواجب عليكم إمساك بمعروف ، والمصدر من أن تأخذوا مرفوع فاعل لا يحل ، والمصدر من أن يخافا مفعول لأجله لتأخذوا أي لا يحل الأخذ إلا لخوف عدم اقامة الحدود ، والمصدر من أن يقيما مفعول به ليخافا ، أي يخافا ترك إقامة الحدود ، والمصدر من أن يتراجعا مجرور بفي محذوفة ، ومصدر ان يقيما مفعول لظنا .

المعنى :

(الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) . كان للعرب في الجاهلية طلاق ، وعدة مقدرة للمطلقة ، ورجعة للمطلّق أثناء العدة ، ولكن لم يكن للطلاق عدد معين ، فربما طلق الرجل امرأته مئة مرة وراجعها ، وتكون المرأة بذلك ألعوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق والرجوع متى شاء .. وجاء في بعض الروايات ان رجلاً قال لامرأته : لا اقربك أبداً ، ومع ذلك تبقين في عصمتي ، ولا تستطيعين الزواج من غيري .. قالت له : وكيف ذلك ؟ قال : اطلقك ، حتى اذا قرب انقضاء العدة راجعتك ، ثم طلقتك ، وهكذا أبداً .. فشكته الى النبي (ص) فأنزل الله سبحانه : الطلاق مرتان ، أي ان الطلاق الذي شرّع الله فيه الرجوع للمطلق هو الطلاق الأول والثاني فقط ، أما الطلاق الثالث فلا يحل الرجوع بعده ، حتى تنكح المطلقة زوجاً غير المطلّق ، كما في قوله : فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره .

(فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) . إذا طلق الرجل زوجته للمرة الثانية فهو مخير بين أحد أمرين ، ما دامت في العدة : الأمر الأول ان يُرجعها الى عصمته بقصد الاصلاح ، وحسن المعشر ، وهذا هو الامساك بمعروف . الأمر الثاني ان يدعها وشأنها ، حتى تنقضي عدتها ، على أن يؤدي اليها ما لها عليه من حق مالي ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ، ولا ينفّر منها من أراد الزواج بها بعد انقضاء العدة ، وهذا هو التسريح بإحسان .

وتسأل : ان كثيراً من المفسرين قالوا : المراد من التسريح الطلقة الثالثة ، واستشهدوا بحديث عن الرسول الأعظم (ص) .. فلماذا عدلتَ عن قولهم هذا ، وفسرت التسريح بالاهمال وترك المراجعة ؟.

الجواب : ان لفظ التسريح بذاته يمكن أن يراد منه الطلقة الثالثة ، ويمكن أن يراد منه السكوت عن المطلقة وعدم مراجعتها ، ولكن مراعاة السياق ترجح المعنى الثاني ، وهو عدم المراجعة ، ذلك ان قوله تعالى : (فان طلقها فلا تحل له من بعد) هو تفريع عن الامساك ، ويكون المعنى اذا طلقها بعد الامساك ، ورجع اليها أثناء عدتها من الطلاق الثاني تكون الطلقة ثالثة ، ولا يحل للمطلق أن يرجع اليها، حتى تنكح زوجاً غيره ، ولا يصح أن يكون تفريعاً عن التسريح بمعنى الطلاق الثالث ، إذ يكون المعنى على هذا فان طلقها للمرة الرابعة بعد أن طلقها الطلقة الثالثة ، والمفروض انه لا طلاق رابع في الاسلام ، أما الحديث الذي فسر التسريح بالطلقة الثالثة فغير ثابت .

الطلاق ثلاثاً :

اتفقت المذاهب السنية الأربعة على ان من قال لزوجته : أنت طالق ثلاثاً ، أو قال : أنت طالق . انت طالق . انت طالق يقع بذلك ثلاث طلقات ، وتحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره .. وقال الإمامية : تقع طلقة واحدة فقط ، ويحل له الرجوع اليها ما دامت بالعدة .

وجاء في تفسير المنار عن ابن حنبل في مسنده ، ومسلم في صحيحه، ان طلاق الثلاث كان واحدة على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وبعض السنين من خلافة عمر .. ولكن عمر بدا له ، وقال : ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم .. ثم نقل صاحب تفسير المنار عن ابن القيم ان الأصحاب كانوا مجمعين على أن لا يقع بالثلاث مجتمعة الا واحدة من أول الاسلام الى ثلاث سنين من خلافة عمر ، وأيضاً أفتى به بعد عمر جماعة من الصحابة والتابعين وأتباع تابعيهم، وان الفتوى بذلك تتابعت في كل عصر ، حتى كان من أتباع الأئمة الأربعة من أفتى بذلك .

(ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) . (مما) من للتبعيض ، وما من صيغ العموم ، وكذلك شيء هنا ، لأنها نكرة في سياق النفي تشمل اليسير والكثير ، والمعنى ان الزوج إذا كان هو الكاره الراغب في الطلاق والفراق فليس له أن يسترجع شيئاً مما كان قد ملكها اياه هبةً أو تستحقه عليه مهراً أو نفقة، قال تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً – النساء ٢٠ » .

هذا إذا كان هو الكاره الراغب في فراقها ، أما إذا كانت هي الكارهة له الراغبة في فراقه فلا مانع أن تبذل له ما يرضيه ، كي يطلقها ، سواء أكان المبذول بقدر المهر ، أو أقل ، أو أكثر ، ويسمى هذا الطلاق المبني على البذل منها طلاقاً خلعياً، لا يحق له الرجوع اليها في العدة ما دامت مستمرة على البذل ، فان رجعت عنه أثناء العدة ساغ له أن يرجع هو بدوره في الطلاق ان شاء .

وإلى هذا الطلاق الخلعي أشار سبحانه بقوله :

(الا ان يخافا ألاّ يقيما حدود الله فان خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) . هذا استثناء من عدم جواز الأخذ منهن عوضاً عن الطلاق .. وحدود الله هي الحقوق والواجبات التي لكل من الزوجين للآخر وعليه، والمعنى أيها الأزواج لا تأخذوا شيئاً من مطلقاتكم بسبب من الأسباب إلا بسبب واحد ، وهو أن تكون هي الكارهة للزوج ولا تطيق عشرته ، بحيث يؤدي نفورها منه إلى معصية الله في التقصير بحقوق الزوج ، وقد يخاف الزوج أيضاً أن يقابلها بالاساءة أكثر مما تستحق ، ففي هذه الحال يجوز لها أن تطلب الطلاق من الزوج ، وتعوضه عنه بما يرضيه، كما يجوز له أن يأخذ ما افتدت به نفسها .

وفي الحديث ان ثابت بن قيس كان متزوجاً بنت عبدالله بن أبي ، وكان هو يحبها ، وهي تبغضه ، فأتت النبي (ص) وقالت : يا رسول الله لا أنا ولا ثابت ، لا يجمع رأسي ورأسه شيء ، وقد كان ثابت قد أصدقها حديقة، فقال ثابت : والحديقة ؟ فقال لها الرسول : ما تقولين ؟. فقالت : نعم .. وازيده. قال الرسول : لا ، الحديقة فقط ، فاختلعت منه .

وهنا أسئلة تفرض نفسها :

السؤال الأول : لماذا جاء بضمير التثنية في قوله : الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، وبضمير الجمع في قوله : فان خفتم ، ولم يوافق بين الضميرين في الجملتين ؟.

الجواب : الضمير في يخافا ويقيما راجع الى الزوجين ، وفي خفتم الى الحكام والمصلحين ، والمعنى : ان خاف الزوجان والحكام والمصلحون من ترك اقامة الحدود يرتفع المحذور من بذل الزوجة ، وأخذ الزوج ، والغرض هو بيان ان المسوغ للبذل والعطاء الخوفُ المعقول التي ظهرت دلائله واماراته للجميع ، لا لخصوص الزوجين فقط .

السؤال الثاني : لماذا ثنّى ضمير عليهما في قوله : فلا جناح عليهما ، مع العلم بأن المفهوم من السياق انه لا جناح على الزوج في الأخذ منها عوضاً عن الطلاق ، ولا دخل للزوجة في ذلك ؟

الجواب : التثنية هنا للاشارة الى انه لا حرج على الزوجة فيما أعطت ، ولا على الزوج فيما أخذ ، هـذا ، الى أن جواز الأخذ يستلزم جواز العطاء ، وبالعكس .

السؤال الثالث : اذا تراضيا على الخلع ، وبذلت مالاً كي يطلقها ، والحال عامرة ، والأخلاق ملتئمة بينهما ، فهل تصح المخالعة ، ويحل للزوج أن يأخذ الفدية ؟.

قالت المذاهب الأربعة : يصح الخلع ، وتترتب عليه جميع الأحكام والآثار ، ومنها جواز أخذ الفدية .

وقال الامامية : لا يصح الخلع ، ولا يملك المطلق الفدية ، ولكن يصح الطلاق ، ويقع رجعياً مع اجتماع شروطه ، واستدلوا على فساد الخلع وعدم جواز أخذ الفدية بأن الآية الكريمة علقت جواز ذلك على الخوف من الوقوع في المعصية إذا استمرت الزوجية .

أما قوله تعالى : وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً — النساء ٤ » فان المراد به ما تعطيه المرأة لزوجها هبة مجانية ، لا عوضاً عن الطلاق ، فالآية أجنبية عن الخلع .

السؤال الرابع : اذا أساء معاملتها بقصد أن تبذل له ، وتفتدي نفسها ، فبذلت وطلقها على هذا الأساس ، فهل يقع الخلع صحيحاً ، ويحل له ما افتدت به نفسها ؟.

قال أبو حنيفة : الخلع صحيح ، والعوض لازم ، والزوج آثم .

وقال الشافعي ومالك : الخلع باطل ، والعوض مردود (المغني لابن قدامة ج ٧ ص ٥٥ طبعة ٣) . لقوله تعالى : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن – النساء ١٨ » .

وقال الإمامية : لا يصح الخلع ، ويحرم أخذ المال المبذول ، ولكن يقع الطلاق رجعياً مع توافر شروطه . أما نحن فنميل إلى انه يقع لغواً ، لا خلعاً ولا طلاقاً ، لأن المبني على الفاسد فاسد .. وقد فصلنا ذلك في الجزء السادس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق ، باب الخلع ، فقرة أحكام الخلع .

(فان طلقها) للمرة الثالثة (فلا تحل له) أي للمطلّق ثلاثاً (من بعد) الطلقة الثالثة ، لا بالرجعة ، ولا بعقد جديد (حتّى تنكح زوجاً غيره فان طلقها) الزوج الثاني (فلا جناح عليهما) أي على الزوج الأول والمرأة المطلقة من الزوج الثاني (ان يتراجعا) بعقد جديد (ان ظنا ان يقيما حدود الله) من الحقوق الزوجية .

ومحصل المعنى ان من طلق زوجته ثلاث مرات فلا تحل له ، حتّى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ، ويدخل بها الثاني المحلل حقيقة ، فقد جاء في الحديث : لا تحل للاول ، حتّى يذوق الثاني عسيلتها .

ويشترط أن يكون المحلل بالغاً ، وان يكون الزواج دائماً لا منقطعاً ، ومتّى تحققت الشروط ، ثم فارقها الثاني بموت أو طلاق ، وانقضت عدتها جاز للأول أن يعقد عليها ثانية .

واذا طلقتم النساء الآية ٢٣١ – ٢٣٢ :

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ

بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ★ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ★

اللغة :

الضرار معناه المضارّة ، ويشعر بالمشاركة مثل المضاربة ، ويأتي بمعنى الاضرار بالغير ، والعضل المنع ، والأمر المعضل الممتنع بصعوبته .

الإعراب :

ضراراً حال من الواو في تمسكوهن ، والتقدير لا تمسكوهن مضارين، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله ، وهزواً مفعول ثانٍ لتتخذوا ، والمصدر من ينكحن مجرور بمن محذوفة ، تقديره من نكاحهن أزواجهن ، وذلك مبتدأ خبره يوعظ به،ومنكم متعلق بمحذوف حال من الضمير في يؤمن ، وجملة يؤمن خبر كان .

المعنى :

(واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف).

هذا الخطاب موجه للمؤمنين أو للناس أجمعين ، فكأنه قال عز من قائل: يا أيها المؤمنون إذا طلق أحدكم امرأته الخ .

وبعد أن بيّن سبحانه ان على المطلقة أن تعتد ، وان للمطلق ارجاعها الى عصمته مع توافر الشروط ، وانها تحرم عليه بعد الطلقة الثالثة ، حتى ينكحها زوج غيره ، وانه لا يحل له أن يأخذ شيئاً منها عوضاً عن الطلاق إلا اذا كرهته، وافتدت نفسها منه - بعد هذا كله بيّن سبحانه ما يجب علينا أن نعامل به المطلقة المعتدة من العدل والانصاف ، ويتحقق العدل في أن يعزم المطلق أحد أمرين - متى أشرفت العدة على الانقضاء - إما ارجاع المطلقة الى عصمته بقصد الاصلاح وحسن المعشر، وهذا هو الامساك بمعروف ، واما تركها وعدم التعرض لها بسوء ، مع تأديتها كل ما تستحقه عليه ، وهذا هو التسريح بمعروف .

وبهذا يتبين معنا ان المراد من الآية السابقة ، وهي (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) هو غير المراد من هذه الآية ، وهي (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) . إذ المراد بتلك بيان ان الطلاق الذي يصح الرجوع بعده هو الطلاق الأول والثاني دون الثالث ، أما المراد من هذه الآية التي نحن بصددها فهو بيان ما يجب علينا في معاملة المطلقات ، كما تبين ان المراد بـ (فبلغن أجلهن) المشارفة على بلوغ الأجل ، لا البلوغ حقيقة .

(ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) . أي لا تراجعوهن بقصد ايذائهن ، والاعتداء عليهن ، وراجعوهن بقصد تأدية الحقوق الزوجية ، والتعاون على ما فيه مصلحة الجميع .

وتسأل : ان معنى الضرار المضارة التي تشعر بالمشاركة بين الطرفين، كالمضاربة والمشاتمة ، والمفروض ان القصد هو اضرار الرجل بالمرأة فقط دون العكس ؟.

الجواب : ان إضراره بها يستلزم ضرره أيضاً لغضب الله عليه ، وذم الناس له ، وتعمدها هي أن تقتص منه، وتقابله بالمثل ، وعندها تتحول الحياة الزوجية الى جحيم عليها وعليه ، وربما اتسع الخرق، وتجاوز الشقاق والخلاف الى الأقارب والأرحام ، ووقع ما لا تحمد عقباه .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) لا نفسها فحسب .

(ولا تتخذوا آيات الله هزواً) . هذا وعيد وتهديد لمن يتعدى حدود الله في الحقوق الزوجية ، ووجه الهزء بآياته جلت كلمته ان كل من يدعي الايمان بالله ، والتدين بشريعته، ثم يتهاون بأحكامه وحلاله وحرامه فقد استخف واستهزأ بها من حيث يريد أو لا يريد ، تماماً كمن يعد انساناً بشيء ، وهو يضمر عدم الصدق والوفاء .. قال بعض السلف : المستغفر من الذنب، وهو مصر عليه كالمستهزىء بخالقه .. أعوذ بالله، واستعين به على طاعته .

(واذكروا نعمة الله عليكم) . من هذه النعم انه سبحانه خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن اليها ، ونتعاون معها على ما فيه سعادة الأسرة وهناؤها، فاذا كنا نؤمن بالله ، ونأتمر بأمره حقاً فعلينا أن نعمل على تحقيق هذه الغاية، ونبتعد عن كل ما يستدعي شقاء الأسرة ، ويعكر صفو الحياة الزوجية .

(واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن) . المراد بـ (فبلغن أجلهن) في الآية السابقة قرب انقضاء العدة ، كما أشرنا ، والمراد به هنا انقضاء العدة حقيقة .. ثم ان هذه الآية قد اشتملت على خطابين : الأول اذا طلقتم النساء . الخطاب الثاني فلا تعضلوهن ، أي تمنعوهن . وقد اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بالخطابين ، هل هو واحد ، أو ان المخاطب بالأول غير المخاطب بالثاني ؟.

فمن قائل بأنه واحد ، وهو الأزواج ، وان المعنى يا أيها الأزواج اذا طلقتم النساء ، وانتهت عدتهن فلا تمنعوهن عمن يرتضين للزواج بعدكم ، لأن الرجل كان يتحكم بمطلقته، ويمنعها أن تتزوج بغيره بعد انتهاء العدة انفة أن يرى امرأته تحت غيره ، ومن قائل بأن المخاطب بـ (اذا طلقتم النساء) هم الأزواج ، والمخاطب بـ (فلا تعضلوهن) هم الأولياء ، وان المعنى يا أيها الأزواج اذا طلقتم النساء فلا تمنعوهن يا أيها الأولياء ان يرجعن الى أزواجهن الأولين بعد انقضاء عدتهن مع رغبتهن في ذلك ، واستشهد الذاهبون الى هذا التفسير بحديث معقل ابن يسار[1] .

---

١ روي عن معقل بن يسار انه قال : كان لي أخت تزوجها ابن عمها ، ثم طلقها ، ولم يراجعها ، حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ، وخطبها مع الخطاب ، فمنعتها عنه ، فأنزل الله هذه الاية .

ويلاحظ بأن قوله تعالى : (اذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) جملة واحدة مركبة من شرط ، وهو اذا طلقتم النساء ، وجزاء ، وهو فلا تعضلوهن ، فاذا كان المخاطب بالشرط غير المخاطب بالجزاء يكون المعنى يا أيها الأزواج اذا طلقتم النساء فيا أيها الأولياء لا تعضلوهن ، وفي هذا ما فيه من التفكيك الذي يجب أن ينزه عنه كلام الباري عز وجل .

والصحيح ان المخاطب بالشرط والجزاء واحد ، وهم المؤمنون جميعاً ، لا الأزواج فقط ، ولا الأولياء فقط ، ولا هما معاً ، بل كل المؤمنين، وهذا كثير في كلامه جل جلاله ، ويكون المعنى يا أيها المؤمنون اذا طلق أحدكم زوجته ، وانقضت عدتها ، وأرادت الزواج ثانية من زوجها الأول أو من غيره فلا تمنعوها منه ، ولا تقفوا في سبيلها اذا تراضيا بينهما بالمعروف ، أي عزما الزواج وثوابه على كتاب الله ، وسنة نبيه .

وقوله تعالى : (اذا تراضوا بينهم بالمعروف) يدل على ان للمرأة أن تزوج نفسها بمن ترضى به ، ويرضى بها من غير ولي .

وتقول : ان الآية الكريمة نفت الولاية على المطلقات ، ولم تتعرض للولاية على غيرهن لا نفياً ولا اثباتاً ، وعليه فنفي الولاية في زواج الابكار يحتاج الى دليل .

ونقول في الجواب : ان اثبات الولاية يحتاج الى دليل خاص ، أما نفيها فالدليل عليه الأصل في ان كل بالغ عاقل ذكراً كان أو انثى يستقل في التصرف في نفسه ، ولا ولاية عليه لأحد اطلاقاً كائناً من كان إلا إذا تجاوز حدود الله سبحانه .

(ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) . ذلك اشارة الى ما ذكره تعالى من أحكامه المقرونة بالترغيب والترهيب ، ويوعظ به ، أي يتعظ به أهل الايمان الصحيح . أما غيرهم من ذوي الايمان المزيف ففي آذانهم وقر عن ذكر الله وأحكامه ، وموعظته وهديه .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على انه لا ايمان بلا تقوى ، وان الايمان الصحيح لا ينفك أبداً عن الاتعاظ والعمل، وان من لا يتعظ ولا ينتفع بأوامر الله فليس من الايمان في شيء .

(ذلكم أزكى لكم وأطهر) . ذلكم اشارة الى الاتعاظ والعمل بأحكام الله

في الحياة الزوجية بعامة ، ومعاملة المطلقات بخاصة .. وليس من شك ان الزواج بقصد الانسانية والتعاون على الخير ينتج النماء والزكاة في الرزق، والطهر في الخلق، والعفة في العرض ، والنجاح في النسل ، أما اذا ساء القصد والمعشر فعاقبته الفقر والفسق ، والبلاء والشقاء في حياة الآباء والأبناء .

(والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . ليس القصد أن يخبرنا الله بأنه عالم أو أعلم .. كلا ، ان هذه الحقيقة بديهية لا تحتاج الى تعليم وتفهيم ، وانما القصد هو التأكيد والحث على العمل بأحكامه تعالى، وان لم يتبين لنا وجه النفع والصلاح فيها، لأنه جلت حكمته لا يأمر إلا بما فيه الخير والصلاح ، وليس من الضروري أن نعلم هذا الخير بالتفصيل ، بل يكفي أن نعلم ان الآمر الناهي حكيم عليم ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء .

وتجمل الاشارة هنا الى الفرق بين المؤمن وغير المؤمن .. ان المؤمن يتعبد بقول الله، ويعمل به موقناً بوجود المنفعة واقعاً ، وان عجز عن ادراكها بالتفصيل. أما غير المؤمن فلا يقدم الا مع العلم أو الظن بوجود المنفعة التي يدركها هو بعقله ، أو يرشده اليها مخلوق مثله .. وكثيراً ما يخيب ظنه، ويستبين له العكس، ولكن المؤمن في أمان الله وحرزه .

والوالدات يرضعن الآية ٢٣٣ :

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا

سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ★

اللغة :

المولود له هو الأب ، وتضار معناها المضارة ،ومشاركة كل من الأبوين للآخر في الضرر ، والفصال هو الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ، ويفصلها عنه ، والجناح الحرج ، واسترضع الرجل المرأة ولده اذا اتخذها مرضعة له ، وكل من أرضعت ولد غيرها تسمى ظئراً .

الاعراب :

وعلى الوارث معطوف على المولود له ، وعن تراضٍ متعلق بمحذوف صفة لفصال .

المعنى :

(والوالدات يرضعن أولادهن) . اختلف المفسرون في المراد من لفظ الوالدات، هل هنّ المطلقات فقط ، أو الزوجات فقط ، أو هما معاً ؟ والأكثرون على ان اللفظ يشملها جميعاً عملاً بالظاهر ، ولا دليل على التخصيص .. ونحن نميل الى هذا ، لما قاله الأكثرون ، ولأن الرضاعة تستند للأم بما هي أم ، لا بما هي مزوجة ، ولا بما هي مطلقة .

ويرضعن بلفظ الخبر ، ولكنه بمعنى الأمر ، أي ليرضعن ، وهذا الأمر للاستحباب بدليل الآية ٦ من سورة الطلاق: «وان تعاسرتم فسترضع له أخرى». ومعنى الاستحباب هنا ان الوالدات أحق في رضاعة أولادهن من الأجنبيات .

وتسأل : ان قوله تعالى بعد ذلك : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » يرجح ارادة الزوجات والمطلقات الرجعيات اللائي لم يخرجن من عصمة النكاح ،

دون المطلقات اللاتي انتهت عدتّهن ، لأن أولاء لهن اجرة الرضاع ، لا النفقة ، وعليه فيجب اخراجهن من العموم ؟ فيكون لفظ الوالدات حينئذ عاماً وخاصاً في آن واحد ، عاماً بالنسبة الى الرضاعة ، وخاصاً بالنسبة الى النفقة ؟.

الجواب : لا مانع اطلاقاً أن يكون اللفظ الواحد عاماً من حيث الحكم بالنسبة الى جهة ، وخاصاً بالنسبة الى جهة أخرى ، مع قيام الدليل على ذلك . وقد دلت الأحاديث ، وقام الاجماع على ان المطلقة غير المعتدة لا نفقة لها وانما تأخذ اجرة الرضاع فقط فيتبع الدليل،أما بالنسبة الى الرضاعة فلا دليل على التخصيص كما أشرنا فيتبع العموم .

(حولين كاملين) بلا تسامح في الزيادة والنقصان ، وان قلّ .. وهنا سؤالان : الأول هل يجوز ان ترضع الأم وليدها أكثر من حولين ؟.

الجواب : يجوز ، بخاصة اذا احتاج الولد الى الزيادة .. أما فائدة التحديد بالحولين فتظهر في أمور ثلاثة : الأول انها لا تستحق أجرة الرضاعة الزائدة على الحولين . الثاني اذا تنازع الأب والأم في مدة رضاع الولد ، فأراد أحدهما أن يزيد ، والآخر أن يتم أو ينقص ، اذا كان الأمر كذلك تحاكما الى قوله تعالى: (حولين كاملين) . الأمر الثالث : ان الرضاع بعد الحولين من أجنبية لا أثر له من حيث انتشار الحرمة بينها وبين الطفل الرضيع،ولا يكون مشمولاً لحديث: « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . وبهذا قال الإمامية والشافعية، وقال أبو حنيفة : بل يوجب الحرمة الى ثلاثين شهراً .

السؤال الثاني : هل يجوز الاقتصار على ما دون الحولين ؟.

الجواب : يجوز ، لقوله تعالى : « لمن أراد أن يتم الرضاعة » . وقوله : « فان أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

وهل نرجع في تحديد أقل مدة الرضاعة الى ضابط شرعي معين،أو انها تختلف باختلاف بنية الطفل وصحته ؟.

قال كثير من الفقهاء : ان أقل مدة الرضاعة واحد وعشرون شهراً ، لقوله تعالى في الآية ١٥ من سورة الأحقاف : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » . فاذا أسقطنا من الثلاثين تسعة أشهر ، وهي المدة الغالبة في الحمل ، يبقى واحد وعشرون .

ومهما يكن ، فان المهم مراعاة صحة الطفل ومصلحته التي تختلف باختلاف الأجسام .. هذا ، وقد كان لمثل هذه البحوث أهميتها فيما مضى ، حيث لم تكن المواد الغذائية الصحية للأطفال وغير الأطفال متوافـرة ، أما اليوم وقد توافرت وأصبحت في متناول كل يد فلم يعد لهذه المسائل من موضوع .

(وعلى المولود له رزقهـن وكسوتهن بالمعروف) . المولود له هو الأب ، واللفظ ظاهر في وجوب الانفاق على من كانت في عصمة الزوج غير مطلقـة كانت ، أم في العدة الرجعية ، والمراد بالرزق الطعـام والادام ، وعبّر عن النفقة التي من جملتها الاسكان ، عبّر عنها بالرزق والكسوة ، لأنهما الأهم ، والمراد بالمعروف مراعاة حال المرأة في النفقة ، ومكانتها الاجتماعية .

أما مراعاة حال الرجل المادية فقد أشار اليها سبحانه بقوله : (لا تكلف نفس الا وسعها) . ونجد التفسير الواضح لهذه الجملة في قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها – الطلاق ٧ » .

كان للإمام جعفر الصادق (ع) أصحاب كُثر ، وربما تأخروا عنده الى وقت الغداء ، فيقدم اليهم الطعـام ، فحينـاً يأتيهم بالخبز والخـل ، وحيناً بأطيب المـآكل ، فسأله واحد منهم عن ذلك ؟. فقال : ان وسع وسعنا ، وان ضيق ضيقنا .

(ولا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) . يجب الوقوف عند قوله تعالى : لا تضار والدة بولدها ، لأن قضاة الشرع في هـذا الزمان يستشهدون كثيراً بهذه الآية في احكامهم ، ويفسرونها بأنه ليس لـلأب الاضرار بالأم عن طريق وليدها ، أما أهل التفسير فيكادون يجمعون على العكس ، وان المعنى لا تأبى الأم أن ترضع وليدهـا ، وتضره لتغيظ أباه بـذلك . قال صاحب مجمع البيان ما نصه بالحرف : « لا تضار والدة بولدها ، أي لا تترك الوالدة ارضاع ولدها غيظاً على أبيه » . وأين هذا من استشهاد القضاة بالآية على ان الأب ليس له الاضرار بالأم بسبب الولد ؟.

ونقول بعد توجيه الذهن الى الآية غير متقل بأقوال الفقهاء والمفسرين : ان الشقاق والخلاف كثيراً ما يقع بين المرء وزوجه ، ويتعمد كل منهما أن يغيظ

الآخر متخذاً الاضرار بالولد وسيلة لهذه الغاية ، وبالنتيجة يذهب الطفل ضحية شقاقهما ونزاعهما .. ومثال تعمد الأم ايذاء الأب بسبب ايصال الضرر الى الولد أن تمتنع عن ارضاعه ، مع حاجته الى الرضاعة ، تمتنع لا لشيء الا تعجيزاً للأب .. ومثال تعمد الأب ايذاء الأم أن ينتزع الولد منها ، ويعطيه الى أجنبية ترضعه ، مع رغبة الأم في امساكه وارضاعه .

وقد نهى الله جل وعز عن الإضرار بشتى أنواعه ، سواء توجه ابتداء الى الطفل ، أم الى الوالد ، أم الوالدة بسبب الطفل . هذا هو المتبادر من قوله تعالى : (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) . ولا يتنافى مع قول المفسرين ، ويتنافى مع استشهاد القضاة ، وان كان قولهم صحيحاً في ذاته ، ولكن الخطأ في الاستشهاد .

وتسأل : ان لفظ تضار يفيد المشاركة ، كالمكالمة ، مع العلم بأن القصد هو الاضرار من طرف واحد ، وبتعبير أخصر : لمَ قال تضار ، والفعل واحد ؟ على حد تعبير الرازي .

الجواب : ان تعمد أحد الوالدين الاضرار بالآخر بسبب الولد هو في نفس الوقت تعمد للإضرار بنفسه ، لأن ضرر الولد ضرر للوالدين ، بل أشد وأعظم.

(وعلى الوارث مثل ذلك) . اختلفوا في المراد من الوارث ، هل هو وارث الأب ، أو وارث الابن ؟ وسياق الكلام يرجح انه وارث المولود له ، وهو الأب ، لأن الكلام فيه ، ولكن المعنى لا يستقيم ، لأن الطفل والأم من جملة ورثة الأب ، ولأن قوله تعالى : (مثل ذلك) اشارة إلى أنه يجب على وارث الأب من النفقة مثل ما يجب على الأب ، وبالنتيجة يكون المعنى ان نفقة الأم واجبة على الأم ، وأيضاً على رضيعها ، وعلى بقية الورثة ، ان كانوا هناك ، مع العلم بأن الأم لا تجب نفقتها على أحد إذا كان لها ما تنفقه على نفسها ، سواء اتصل اليها المال من ميراثها من زوجها ، أو من سبيل آخر .. هذا ، إلى أنه لا معنى لوجوب انفاقها على نفسها من مالها .

وإذا فسرنا الوارث بوارث الابن تخالف الظاهر من جهة ، والواقع من جهة ثانية ، لأن نفقة الأم لا تجب على من يرث ابنها .. أجل ، يجب لأمه في ماله

اجرة الرضاعة ان كان له مال ، ولكن الأجرة شيء ، والنفقة بمعناها الصحيح شيء آخر .

والحق ان هذه الآية من المشكلات ، ولذا قال مالك : انها منسوخة ، كما نقل أبو بكر المالكي في كتاب أحكام القرآن ، وقد تخطاها بعض المفسرين ، وبعضهم نقل الأقوال فيها من غير ترجيح ، ووجه المشكلة ما بيناه ان الظاهر اذا بقي على ما هو لم يستقم المعنى .ونعني بالظاهر تفسير الوارث بوارث الأب ، وتفسير (مثل ذلك) بنفقة الأم .. وان فسرنا الوارث بوارث الابن ، وفسرنا (مثل ذلك) باجرة الرضاعة يستقيم المعنى .. ولكن نخالف الظاهر باللفظين ، وهما الوارث ، ومثل ذلك .. ولكن لا سبيل غير مخالفة الظاهر وتأويله ، وغير بعيد أن تكون الأحاديث الواردة في الرضاع وأجرته صالحة للدلالة على صحة هذا التأويل .

(فان أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما) . الفصال هو الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ، ويفصلها عنه ، والمعنى ان للوالدين أن يفطما الطفل قبل استيفاء الحولين ، أو بعدهما اذا تم هذا بالاتفاق والتشاور بينهما في مصلحة الطفل ، بل للأب أن يسلم طفله للمرضعة المأجورة ، والى هذا أشار سبحانه بقوله :

(وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف). قوله : اذا سلمتم ما آتيتم خطاب للآباء ، والمعنى يا أيها الآباء ان الأم أحق بارضاع ولدها من الأجنبية ، ولها عليكم أجرة المثل ، فاذا انتم سلمتم لها بهذا الحق ، وأيضاً ضمنتم لها أجرة المثل عن الرضاعة ، وأبت هي بعد ذلك أن ترضعه الا بزيادة عما تستحق ، اذا كان كذلك فلا بأس عليكم حينئذ أن تسترضعوا لأولادكم المراضع الأجنبيات .. وقيل : اذا سلمتم وآتيتم ، معناه اذا اديتم للمراضع الأجنبيات الأجور المعروفة والمعتادة بين الناس فلا جناح عليكم .

ومهما يكن ، فان على الأب أن يؤدي لكل ذات حق حقها أماً كانت أو ظئراً ، أي المرضعة لولد غيرها .

عدة الوفاة الآية ٢٣٤ ـ ٢٣٥ :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ★ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ★

اللغة :

أصل التوفي أخذ الشيء كاملاً وافياً،ومن مات فقد استوفى عمره ، والتربص الانتظـار ، والتعريض التلويح من غير تصريح ، والخِطبة بكسر الخاء طلب الرجل المرأة للزواج ، والكتاب بمعنى المكتوب ، والمراد به هنا المفروض .

الاعراب :

الذين مبتدأ ، ويتربصن الجملة خبر ، وحذف الظرف،وهو بعدهم لظهوره، وعشراً بالتأنيث تغليباً لليالي على الأيام ، منكم متعلق بمحذوف حال ، وكذا فيما عرضتم ، والمصدر من ان تقولوا في موضع نصب على انه بدل من سراً .

المعنى :

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً).
اتفق الفقهاء كافة على ان عدة المتوفى عنها زوجها ، وهي غير حامل ، أربعة أشهر وعشرة أيام ، كبيرة كانت أو صغيرة ، آيسة أو غير آيسة ، دخل بها الزوج أو لم يدخل ، واستدلوا على ذلك بهذه الآية .

أما إذا كانت حاملاً فقالت المذاهب الأربعة السنية : ان عدتها تنقضي بوضع الحمل ، ولو بعد وفاة الزوج بلحظة ، بحيث يحل لها أن تتزوج ، ولو قبل الدفن ، لقوله تعالى : « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » .

وقال فقهاء الإمامية : ان عدتها أبعد الأجلين من وضع الحمل ، والأربعة أشهر وعشرة أيام ، فان مضت الأربعة والعشرة قبل الوضع اعتدت بالوضع ، وان وضعت قبل مضي الأربعة والعشرة اعتدت بالأربعة والعشرة ، واستدلوا على ذلك بضرورة الجمع بين آية « يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » . وآية « أجلهن أن يضعن حملهن » . فالآية الأولى جعلت العدة أربعة وعشرة ، وهي تشمل الحامل وغير الحامل ، والآية الثانية جعلت عدة الحامل وضع الحمل ، وهي تشمل المطلقة ، ومن تُوفي عنها الزوج ، فيحصل التنافي بين ظاهر الآيتين في المرأة الحامل التي تضع قبل أربعة أشهر وعشرة أيام ، فبموجب الآية الثانية تنتهي العدة ، لأنها وضعت الحمل ، وبموجب الآية الأولى لا تنتهي،لأن الأربعة والعشرة لم تنته .

وأيضاً يحصل التنافي اذا مضت الأربعة والعشرة ، ولم تضع الحمل ، فبموجب الآية الأولى تنتهي العدة ، لأن مدة الأربعة والعشرة مضت ، وبموجب الآية الثانية لم تنته ، لأنها لم تضع الحمل ، وكلام القرآن واحد يجب أن يلائم بعضه بعضاً ، واذا عطفنا احدى الآيتين على الأخرى ، وجمعناهما في كلام واحد هكذا « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً، واولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ، اذا جمعنا الآيتين في كلام واحد يكون المعنى ان عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام لغير الحامل ، وللحامل التي

تضع قبل مضي الأربعة والعشرة،وتكون عدة الوفاة للحامل التي تضع بعد مضي الأربعة والعشرة وضع الحمل .

وإذا قال قائل : كيف جعل الامامية عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين من وضع الحمل والأربعة والعشرة مع ان آية: « وأولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن » صريحة بأن الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل ، إذا قال هذا قائل أجابه الامامية كيف قالت المذاهب السنية الأربعة : ان عدة الحامل المتوفى عنها زوجها سنتان إذا استمر الحمل طوال هذه المدة — على مذهبهم — مع ان آية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » صريحة بأن العدة أربعة وعشرة ، وإذا قال قائل منهم : عملاً بأولات الأحمال قال قائل من الإمامية : عملاً بآية والذين يتوفون .. اذن لا مجال للعمل بالآيتين إلا القول بأبعد الأجلين .

(فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) أي اذا انقضت عدة الوفاة فلا إثم عليكم أيها المسلمون أن تفعل المرأة ما كان محظوراً عليها أيام العدة من التزين والتعرض للخطّاب على الوجه المعروف شرعاً وعرفاً ، وانما خاطب الله المسلمين المصلحين لأن عليهم من باب النهي عن المنكر أن يمنعوا المرأة اذا تجاوزت الحدود الشرعية .

واتفق الفقهاء قولاً واحداً على ان المعتدة عدة وفاة يجب عليها أن تجتنب كل ما يحسنها ، ويرغّب في النظر اليها ، ويدعو الى اشتهائها ، وتعيين ذلك يعود الى أهل العرف .

(ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) . حرم الله سبحانه الزواج أثناء العدة ، أية عدة تكون ، بل حرم على الرجل أن يخطب المرأة صراحة أيام عدتها ، حتى ولو كانت عدة وفاة ، أو عدة الطلاق البائن .. وأباح سبحانه التلويح بالخطبة ، دون التصريح في غير عدة الطلاق الرجعي ، لأن المطلقة الرجعية لا تزال في عصمة المطلق .

(أو أكننتم في أنفسكم) . كل ما يخطر في البال ، ويعزم عليه القلب لا جناح فيه عند الله سبحانه،لأنه غير مقدور ، وانما المقدور هو الآثار واللواحق، فاذا عزم الرجل على الزواج من المعتدة فهو غير آثم ، ولكن إذا صرح بعزمه

هذا ، فخطبها أو أبدى لها ما يكنّ صراحة فهو آثم ، لأن العزم غير مقدور، والتصريح مقدور .. وقد جاء في الحديث : إذا حسدت فلا تبغِ ، فنهى عن البغي الـذي هو أثر من آثار الحسد ، ولم ينه عن الحسد بالذات ، لأنه غير مقدور .

(علم الله انكم ستذكرونهن) في أنفسكم ، ولذا أباح لكم التلويح ، ولو حرم عليكم التلويح والتصريح لشق ذلك عليكم . (ولكن لا تواعدوهن سراً) . حتى التلويح بالزواج أثناء العدة الرجعية أو غيرها لا يجوز في الخلوة،لأن الخلوة بين الرجل والمرأة تجر الى ما لا يرضي الله ، وفي الحديث ما اختلى رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثاً لهما .. بخاصة اذا كانت مرغوبة لمن اختلى بها .. اللهم الا أن يكون الرجل على يقين بأن الخلوة لا تؤدي به الى الحرام في القول ، ولا في الفعل ، وعندها يجوز له أن يقول لها في السر ما لا يُستنكر عند المهذبين في العلانية،وإلى هذا الاستثناء أشار سبحانه بقوله : (الا أن تقولوا قولاً معروفاً).

(ولا تعزموا عقدة النكاح) عزماً باتاً قطعياً ، أو لا تنشئوا عقد الزواج (حتى يبلغ الكتاب أجله) بانقضاء العدة .

الزواج في العدة :

وبعد أن اتفق المسلمون جميعاً على ان العقد والخطبة الصريحة أثناء العدة من المحرمات ، وان العقد باطل قطعاً ، ولا أثر له اطلاقاً،بعد هذا الاتفاق اختلفوا فيما بينهم : هل تحرم المرأة حرمة مؤبدة على من كان قد عقد عليها أثناء العدة ، أو يجوز له ان يستأنف العقد عليها والزواج منها بعد انقضاء العدة ؟ .

قال الحنفية والشافعية : لا مانع من تزويجه بها ثانية . (بداية المجتهد) .

وقال الإمامية : اذا عقد عليها،مع علمه بالعدة والحرمة حرمت عليه مؤبداً، سواء أدخل أم لم يدخل ، واذا عقد عليها جاهلاً بالعدة والحرمة فلا تحرم مؤبداً الا اذا دخل ، وله استئناف العقد بعد العدة اذا لم يدخل .

هذا حكم العقد أثناء العدة ، أما مجرد الخطبة فلا أثر لها إلا من حيث الاثم فقط ، ومن طريف ما قرأته في هذا الباب ما جاء في احكام القرآن لأبي بكر

الأندلسي المالكي ، حيث قال : إذا خطبها أثناء العدة ، ثم عقد عليها بعد العدة فيجب عليه أن يطلقها طلقة واحدة تورعاً، ثم يستأنف خطبتها والعقد عليها .

الطلاق قبل الدخول الآية ٢٣٦ ـ ٢٣٧ :

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ★ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ★

اللغة :

الجناح يطلق على الاثم ، وعلى المسؤولية ، وهي المراد في الآية ، والفريضة هنا المهر . والمراد بالمتعة العطية ، والموسع الذي يكون في سعةٍ لغناه ، والمقتر الذي يكون في ضيقٍ لفقره .

الاعراب :

ما لم تمسوهن ما مصدرية ظرفية ، والتقدير مدة المسيس ، ومتاعاً منصوب على المصدر، أي متعوهن متاعاً ، وأو هنا بمعنى الا ان . وحقاً صفة لمتاعاً ، أي متاعاً واجباً ، وفنصف ما فرضتم نصف مبتدأ خبره محذوف ، أي فلهن نصف، وان تعفوا في موضع رفع بالابتداء ، وخبره أقرب، والتقدير العفو أقرب للتقوى .

المعنى :

(لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) .
لا جناح عليكم ، أي لا يلزمكم ، وأو معناها هنا الا ان كقولك : لألزمنك أو تقضيني حقي ، أي الا ان تقضيني ، ومحصل المعنى ان من عقد على امرأة ، ولم يسم لها مهراً في متن العقد ، ثم طلقها قبل الدخول فلا مهر لها ، وانما تستحق عليه المتعة ، وهي عبارة عن منحة يقدمها المطلق لمطلقته ، ويراعى فيها حال الزواج يسراً وعسراً ، فالغني يقدم لها قلادة بألف – مثلاً – والمتوسط سواراً بـ ٥٠٠ ، والفقير ثوباً بـ ٢٠ ، أو أقل يسيراً أو أكثر ، والى هذا أشار تعالى بقوله : (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين) الذين يحسنون الى أنفسهم بطاعة الله سبحانه .
(وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) . أما إذا عقد عليها وذكر لها مهراً في متن العقد ، ثم طلقها قبل المسيس فلها نصف المهر المسمى بالاتفاق . (الا ان يعفون) . أي لا يجوز أن يمنعها عن نصف المهر ، أو عن شيء منه إلا اذا سمحت عن طيب نفس (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) . الذي بيده عقد النكاح هو الزوج ، والمراد ان المطلقة قبل الدخول لا تستحق أكثر من نصف المهر المسمى إلا أن يتكرم الزوج ويتفضل عليها بالجميع ، أو بما زاد عن النصف فالأمر اليه . (وان تعفوا أقرب للتقوى) . هذا خطاب لكل من الرجل والمرأة ، وحث لهما على التساهل والتسامح .

الصلاة الوسطى الآية ٢٣٨ – ٢٣٩ :

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ★ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ★

اللغة :

لفظ الوسطى يطلق على المتوسطة مؤنثة أوسط بين شيئين أو أشياء ، ويطلق على الفضلى مؤنثة أفضل من الفضيلة ، والمراد بالقنوت هنا مناجاة الله سبحانه ، والتوجه اليه بذكره ودعائه ، والمراد بالرجال هنا جمع راجل ، وهو الماشي ، والركبان جمع راكب .

الإعراب :

قانتين حال من الواو في قوموا ، ورجالاً حال ، أي فصلّوا راجلين ، وكما علمكم ما مصدرية متعلق باذكروا ، أي اذكروا الله كتعليمه اياكم،وما لم تكونوا ما موصول في محل نصب مفعول ثانٍ لعلمكم.

المعنى :

(حافظوا على الصلوات) . هي الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها تكون بتأديتها في أوقاتها وعلى وجهها . (والصلاة الوسطى) . ذكرها سبحانه بالخصوص بعد العموم للتنبيه الى أهميتها ، كأهمية جبريل وميكال بين الملائكة، حيث خصهما بالذكر بعد أن جمعهما مع سائر الملائكة في قوله تعالى : « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال – البقرة ٩٨ » .

واختلفوا في تعيين الصلاة الوسطى : ما هي ؟. وتعددت الأقوال فيها الى ثمانية عشر قولاً ، كما نقل عن نيل الأوطار .. والأكثر الأشهر على انها صلاة العصر ، وفي ذلك رواية .. وقيل : انها سميت الوسطى لأنها بين صلاتي الليل، وهما المغرب والعشاء ، وصلاتي النهار ، وهما الصبح والظهر ،أما سبب تخصيصها بالذكر فلأنها تقع وقت اشتغال الناس في الغالب .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال : لولا الاجماع على تفسير الوسطى بالواحدة من الخمس ، لا الخمس بكاملها لفسرها بجميع الصلوات دون استثناء ، وان المراد بالوسطى الفضلى مؤنثة الأفضل من الفضل

والفضيلة ، لا المتوسطة مؤنثة الأوسط بين شيئين ، وان الله سبحانه حث واهتم بالصلاة الفضلى ، وهي التي يحضر فيها القلب ، وتتجه بها النفس خالصة الى الله وذكره وتدبر كلامه ، لا صلاة المرائين أو الغافلين .

وهذا أحسن ما قرأته في تفسير هذه الآية ، ويؤيده قوله تعالى : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون .

(وقوموا لله قانتين) . أي داعين الله في صلاتكم بخشوع مستشعرين هيبته وعظمته ، منصرفين عما يشغل القلب عن التوجه اليه سبحانه .

(فان خفتم فرجالاً أو ركباناً) . ان الصلاة لا تسقط بحال،فان تعذر الاتيان ببعض أفعالها أتى المكلف بما تيسر ، فان تعذرت جميع الأفعال صلى بالنطق والايماء ، فان تعذرا استحضر صورة الصلاة في قلبه .. وأشار سبحانه بقوله : (فان خفتم) الى ان المكلف قد يأتي عليه وقت الصلاة،وهو في ميدان القتال، أو وهو فارٌ من عدو لا يستطيع مقاومته،وما الى ذلك من العوارض التي لا يستطيع معها تأدية الصلاة على وجهها .. فان عرض شيء من هذا صلى المكلف كيفما تيسر ماشياً أو راكباً الى القبلة أو غيرها .

قال صاحب مجمع البيان : صلاة الخوف من العدو ركعتان في السفر والحضر الا المغرب فانها ثلاث ركعات ، ويروى ان علياً (ع) صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالايماء ، وقيل بالتكبير ، وان النبي (ص) صلى يوم الأحزاب بالايماء.

(فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) . أي اذا زال الخوف صلوا صلاة المختار الآمن على الطريقة التي علمكم اياها من قبل .

ترك الصلاة يؤدي الى الكفر :

تكلمنا عن الصلاة في تفسير ما تقدم من آياتها ، والآن نعطف هذه الفقرة على ما سبق ، وربما عطفنا على هذه ما تدعو اليه المناسبة فيما يأتي :

لقد أثبتت التجارب ان ترك الصلاة كثيراً ما يؤدي من حيث العمل الى مظاهر الكفر ولوازمه وآثاره من ان الكافر لا يبالي بارتكاب المحرمات والمنكرات، كذلك تارك الصلاة يرتكب المحرم والمنكر بلا اكتراث ، وحيثما تجد الكفر تجد الفحش

والفسق والفجور .. وهذه بعينها من آثار ترك الصلاة ، وليس أدل على هـذه الحقيقة من انتشار الفساد في هذا العصر الذي نعيش فيه .. فما هـذه الحانات ، ومواخير الدعارة ، وبيوت القمار في بلادنا نحن المسلمين،وما هذا التفرنج والتبرج في فتياتنا ، وهذا الفساد والانحلال في أخلاق أبنائنا الا نتيجة لترك الصلاة بدليل ان هذه الموبقات لم يكن لها عين ولا أثر حين كانت الصلاة معروفة مألوفة عند الأبناء والبنات .. وبهذا نجـد تفسير الحديث الشريف : « العهد بيننا وبينـكم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

ولا يجديه قوله : أنا مسلم ، ولا كلمة: لا إله إلا الله ، واشهـد ان محمداً رسول الله ، ما دامت أعماله أعمال الكافر الملحد .

ان الملحد لا يخجل ولا يحس بوخز الضمير ، لـترك الصلاة ، ويعلن ذلك على الملأ ، لأنه لا يدين بهـا وبمن أوجبها ، وكذلك أكثر شباب هذا العصر يجاهرون بترك الصلاة دون مبالاة ، بل يسخرون منها ومن المصلين .. اذن ، لا فرق بينهم وبين الملحدين .

وبالمناسبة ننقل هذه العظة البالغة عن كتاب الاسلام خواطر وسوانح للفرنسي الكونت هنري دي كاستري ، قال : «قمت برحلة على الخيل في جوف الصحراء بولاية حوران ، وكان معي ثلاثون فارساً يتسابقون جميعاً إلى خـدمتي ، وبينما نحن نسير إذ بصوت ينادي جاء وقت العصر ، فما أسرع أن ترجلت الفرسان ، واصطفوا جماعة للصلاة ، وكنت أسمعهم يكررون بصوت مرتفع : الله أكبر ، الله أكبر . فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ مني مأخذاً أعظم مما أخـذه في ذهني درس عـلم الكلام ، وكنت أشعر بحرج لا سبب له إلا الحياء والاحساس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يعظمون من شأني قبل لحظـة يشعرون الآن ، وهم في صلاتهم أنهم أرفع مني مقاماً ، وأعز نفساً ، ولو اني أطعت نفسي لصحت فيهم : أنا أيضاً أعتقد بالله ، وأعرف الصلاة .. فـما أجمل منظر أولئك القوم في صلاتهم ، وخيولهم بجانبهم ، أرسنتها على الأرض،وهي هادئة كأنها خاشعة للصلاة ، تلك هي الخيل التي كان يحبها رسول الله (ص) حباً ذهب به إلى أن يمسح خياشيمها بطرف ازاره .. لقد وقفت جانباً أنظر الى المصلين، وأرى نفسي

وحيداً تلوح عليّ سمات عدم الايمان ، كأنني من الكلاب أمـــام الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة ، تصدر عن قلوب ، ملئت صدقاً وإيماناً » .

والذين يتوفون منكم الآية ٢٤٠ ـ ٢٤٢ :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ★ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ★

الإعراب :

وصية نصب على المصدر ، والتقدير يوصون وصية ، والجملة خبر الذين ، ويجوز رفع وصية على الابتداء ، والخبر محذوف ، أي فعليهم وصية ، ومتاعاً منصوب على المصدر ، أي متعوهن متاعاً ، أو جعل الله لهن ذلك متاعاً وغير اخراج منصوب على الحال من أزواجهم ، وحقاً مفعول مطلق، أي حَقَّ حقاً .

المعنى :

كانت العادة عند العرب قبل الاسلام ان الرجل إذا مات لم يكن لامرأته من ميراثه شيء إلا النفقة حولاً كاملاً ، على شريطة أن تعتد في بيت الميت ، فان خرجت قبل الحول سقطت نفقتها ، وهذه الآية اقرار وامضاء صريح لمـا كان عليه العرب في حكم من مات زوجها،وقد حصل هذا الامضاء في أول الاسلام .

واتفق المفسرون والفقهاء قولاً واحـداً على نسخ هذه الآية بآيتين : الأولى التي حددت عدة الوفاة بأربعة أشهر وعشرة أيام ، وهي قوله تعالى : « والذين

يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً – البقرة ٢٣٣». والثانية التي جعلت للزوجة نصيباً من تركة زوجها ، وهي قوله سبحانه : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم – النساء ١٢ » . وعليه ، فان المرأة تنفق على نفسها من نصيبها .

ومع العلم بأن هذه الآية منسوخة قطعاً نشرع بتفسيرها كما فعل المفسرون : (والذين يتوفون منكم) . اي يشرفون على الموت ، من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه . (ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم) . كان يجب – قبل النسخ – على الذين تظهر لهم امارات الموت أن يوصوا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة والسكنى . (غير اخراج) . أي انما تجب لهن النفقة حولاً اذا أردن الاقامة في دار الميت ، أما اذا خرجن من تلقائهن فتسقط النفقة ، والى هذا أشار سبحانه بقوله : (فان خرجن فلا جناح عليكم) . انكم غير مسؤولين عن نفقتهن ، ما دمتم لم تخرجوهن قبل الحول .. وبكلمة تجب النفقة لهن بالاقامة الاختيارية الى الحول ، فان خرجن قبله سقط الوجوب .

(فيما فعلن في أنفسهن من معروف) . اذا خرجت المرأة من دار الميت فلها أن تترك الحداد ، وتتزين ، وتتعرض للخطاب ضمن الحدود الشرعية ..والمفهوم من هذا ان التي مات زوجها كانت مخيرة بين الاقامة في بيته حولاً ، وتستحق النفقة بذلك ، وبين أن تخرج منه ، ولا شيء لها ، ولا سبيل لأحد عليها .

(وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) . المراد بالمتاع المنحة يعطيها المطلق لمطلقته ، مع مراعاة حاله عسراً ويسراً ، كما سبق في الآية ٢٣٦ . ولفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة ، وهي على أربعة أقسام :

١ – مطلقة مدخول بها ، وقد فرض لها مهر معين في متن العقد ، وهذه لها كل المهر المفروض. قال تعالى : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً – البقرة ٢٢٩ » .

٢ – مطلقة غير مدخول بها ، وقد فرض لها مهر معين ، ولها نصف المهر المفروض . قال سبحانه : « وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم – البقرة ٢٣٧ » .

٣ ـ مطلقة مدخول بهـا ، ولم يفرض لها مهر ، ولها مهر المثل باجماع المسلمين كافة .

٤ ـ مطلقة غير مدخول بها ، ولم يفرض لها شيء في متن العقد ، وهـذه لا مهر لها،وانما لها المتعة ، قال جل جلاله : « لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف ـ البقرة ٢٣٦ » .

ونستخلص من مجموع الأدلة ان المتعة تجب للمطلقة غير المدخول بهـا ، ولم يفرض لها مهر فحسب ، أما غيرها فلا تجب لها المتعة ، بل يترك الأمر للمطلق، ان شاء منحها ، وان شاء منعها ، وقيل : يستحب أن يمنحها . (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) . أي تعملون ، لأن من لا يتعظ ويعمـل بآيات الله وأحكامه بمنزلة من لا عقل له .

حذر الموت الآية ٢٤٣ ـ ٢٤٤ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ★ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★

اللغة :

ألوف على وزن فُعول من أمثلة المبالغة ، ولذا قيل : انها تفيد معنى زائداً على معنى آلاف ، وانها تطلق على ما زاد على العشرة ، وما نقص عنها يقال فيه آلاف ، لا ألوف .

الإعراب :

وهم ألوف جملة حالية ، وحذر الموت مفعول من أجله .

المعنى :

لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية ، وقال أكثرهم : انها تشير إلى قصة تاريخية ، وسودوا الصفحات في تصوير هذه القصة .. فبعضهم قال بما يتلخص: ان قوماً من بني اسرائيل أمروا بجهاد عدوهم ، فخافوا الموت بالقتال، فخرجوا من ديارهم فراراً من الموت ، فأماتهم الله ليعرّفهم انه لا يُنجيهم من الموت شيء ، ثم أحياهم ليعتبروا ويستوفوا ما بقي من أعمارهم .. ومن أطرف ما قرأته في تفسيرها ان أحد المفسرين قال : ان الموت نوعان : موت عقوبة ، وهو الذي يحيا الميت بعده في هذه الدنيا ، وموت أجل ، وهو الذي لا حياة بعده إلا في الآخرة .

وقال آخرون : فروا من مرض الطاعون ، لا من جهاد عدوهم .

وفسر محيي الدين بن عربي الآية تفسيراً صوفياً على طريقته ، حيث قال : ان الله أماتهم بالجهل ، وأحياهم بالعلم والعقل .

وحمل الشيخ محمد عبده الآية – كما في تفسير المنار – على انها تمثيل للاعتبار والعظة ، وليست اشارة الى قصة واقعة حقيقةً ، وان الهدف من هذه الاشارة هو بيان سنة الله في الأمم ، وان الأمة التي تجاهد ، وتستميت في الدفاع عن حقها تحيا حياة طيبة،وان الأمة التي تجبن وتستسلم للظلم تحيا حياة الذل والهوان ، فقوله تعالى : (موتوا) . أي عيشوا بالاستعباد والاضطهاد ، لجبنكم ، لأن مثل هذا العيش موت لا حياة ، وقوله : (فأحياهم) . أي عاشوا عيش الحرية والكرامة لجهادهم ودفاعهم عن حقهم .

هذا تلخيص موجز جداً لرأي الشيخ محمد عبده الذي شرحه بكلام طويل،وهو – كما ترى – من وحي وعيه النير ، ورسالته الاصلاحية ، لا من وحي دلالة اللفظ . ان رأيه هذا صحيح في ذاته ، وانساني من غير شك ، ولكنه بعيد

عن مدلول اللفظ ، وقد يُظن انه أقرب من قول أكثر المفسرين من هذه الجهة لأن قولهم يعتمد الروايات الاسرائيلية ، والأساطير التي لا سند لها ، ولا تمت الى الحياة بسبب ، وقوله يهدف الى الترغيب في مقاومة الظلم ، والتضحية من أجل الحرية والكرامة ، شأن الموجه المصلح .

وكيف كان ، فان الآية تحتمل معاني شتى .. ومن ثم كثرت فيها الأقوال ، ولا شيء في لفظها يدل على صحة قول بالذات .. أجل، ان قول الشيخ عبده هو أرجح الأقوال جميعاً ، للاعتبار من جهة ، كما أشرنا ، ويساعد عليه السياق من جهة أخرى ، أما الاعتبار فواضح ، واما السياق فقوله تعالى بعد هذه الآية بلا فاصل : (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم) .

من ذا الذي يقرض الله الآية ٢٤٥ :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ★

الاعراب :

من اسم استفهام ، والمراد بها هنا الطلب ، ومحلها الرفع بالابتداء،وذا خبر ، والذي بدل ، وقرضاً مفعول مطلق ، ويجوز أن يكون مفعولاً به بمعنى المال المُقرَض ، وفيضاعفه منصوب بأن مضمرة ، ويجوز الرفع عطفاً على يقرض ، واضعافاً حال من الهاء في يضاعفه،ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً بمعنى المضاعفة.

المعنى :

بعد أن أمر الله سبحانه في الآية السابقة بالقتال دفاعاً عن الحق حث في هذه

الآية على بذل المال لتجهيز المجاهدين ، لأن القتال كما يحتاج الى الرجال فانه يحتاج الى المال ، ومن يقرأ عن ميزانية الحروب اليوم للدول الكبرى فلا بد أن تذهله الأرقام .. فلقد بلغت عند بعض الدول الغربية أكثر من أربعمئة الف مليون ولكن هذه الميزانية الضخمة خصصت للاعتداء وسيطرة الظلم ، وفرض الارادة على الشعوب ، والتحكم في مصيرها ومقدراتها .. أما الجهاد الذي حث الله عليه في كتابه فهو الجهاد من أجل احقاق الحق ، والتحصن من عدوان المعتدين .

(من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً). هذا في واقعه أمر بالانفاق والبذل، وجيء به بصيغة الاستفهام عن الاقراض ، ليحرك أريحية المؤمنين ،ويملأ القلوب بالعطف ، حتى يسهل عليها البذل ابتغاء مرضاة الله .. وقوله سبحانه : (قرضاً حسناً) اشارة الى أن المال المبذول يجب أن يكون من الحلال لا من الحرام ، وأن يبذل عن رضا وبقصد التقرب اليه سبحانه ، وأن يصادف موقعه .

ومتى تمت هذه الشروط بكاملها (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : لما نزلت الآية ٨٤ من سورة القصص : «من جاء بالحسنة فله خير منها » قال رسول الله : رب زدني ، فأنزل الله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، فقال رسول الله : رب زدني ، فأنزل الله سبحانه : فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . والكثير عند الله لا يبلغه الاحصاء .

(والله يقبض ويبسط) . أي يُضيق ويوسع، والمراد ان الله سبحانه لم يحث عباده على البذل ، لحاجة منه اليهم .. كلا ، فانه الغني ، وهم الفقراء ، وانما الغرض هو ارشادهم وهدايتهم الى عمل الخير . (واليه ترجعون) . فيجازى المحسن على احسانه ، والمسيء على اساءته .

قصة طالوت الآية ٢٤٦ ـ ٢٥٢ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْـــدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ

لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ
أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً
مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ★ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ
طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ
بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ★
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ
قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ★ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ

قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ★ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلى الْعَالَمِينَ ★ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ★

قدمنا في تفسير الآية ٢ ان القرآن كتاب هدى ودين ، وأخلاق وشريعة ، لا كتاب قصص وتاريخ ، وفلسفة وعلوم طبيعية ، وانه سبحانه إذا أشار الى حادثة تاريخية فإنما يشير اليها للعبرة والموعظة ، ويكتفي منها بمحل الشاهد ، وموضع الفائدة ، ولا يأتي بها مفصلة من جميع جهاتها ، وقد جاء التنبيه الى ذلك في العديد من الآيات منها : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ـ يوسف ١١١ » . ومنها: « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ آل عمران ١٣٧ . إلى غير ذلك من الآيات .. قال الشيخ محمد عبده :

« ان محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بادخال ما يروون فيها على انه بيان لها هي مخالفة لسنة القرآن ، وصرف للقلوب عن موعظته ، واضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفكارنا في استخراج العبر منه ، وننتزع من نفوسنا ما ذمه وقبحه ، ونحملها على التحلي بما مدحه واستحسنه » .

وقد أشار سبحانه الى قصة طالوت في الآية ٢٤٦ ـ ٢٥٢ ، ونذكرها نحن كما دلت عليها ألفاظ هذه الآيات ، ثم نشير الى موضع العبرة والعظة .

كان لموسى (ع) بعد موته خلفاء من الأنبياء يقيمون أمر الله في بني اسرائيل الواحد تلو الآخر ، ومن هؤلاء الخلفاء نبي ذكره القرآن ، ولم يسمه ، ولكنه كان في عهد داود (ع) ، كما يستفاد من الآيات ، وقال كثير من المفسرين : انه صموبل ، وفي ذات يوم أتاه جماعة من بني اسرائيل ، وقالوا له : أقم علينا أميراً نصدر عن رأيه في تدبير الحرب ، ونقاتل معه في سبيل الله ، فقال لهم نبيهم – وكان قد سبر أحوالهم – اني أتوقع تخاذلكم إذا كتب عليكم القتال ، ودعيتم الى الجهاد .

قالوا : كيف نتخاذل ، وقد أخرجنا العدو من ديارنا ، وحال بيننا وبين أبنائنا ؟!. فاستخار الله نبيهم فيمن يصلح للقيادة ، فأوحى الله سبحانه : اني قد اخترت عليهم طالوت ملِكاً ، وقيل انه سمي طالوت لطوله ، ولما أخبرهم النبي بأن الله قد اختار طالوت ، قالوا : كيف يكون له الملك علينا ، وهو غير عريق النسب ، وفارغ اليد من المال ؟!.

فقال النبي : ان زعامة الجيش لا تحتاج الى نسب ونشب ، وانما تحتاج الى الشجاعة ، والمعرفة بتصريف الأمور ، والله سبحانه قد منح طالوت الكفاءة العلمية والخلقية ، والقدرة الجسمية ، وسائر مؤهلات الزعامة والرئاسة .. فقالوا: نريد معجزة تدل على مكانته هذه .. قال : آية ذلك أن يعود اليكم التابوت ، تأتيكم به الملائكة بأمر الله تعالى .. قيل : ان هذا التابوت كان فيه بقية ألواح موسى وعصاه ، وثيابه وشيء من التوراة ، وكان قد سلبهم اياه الفلسطينيون في بعض المعارك الحربية .. وقيل : بل رفعه الله الى السماء بعد وفاة موسى .. ولما جاء التابوت بمعجزة من الله سبحانه صحت عندهم العلامة ، وأقروا لطالوت بالسلطان والقيادة .

وقادهم طالوت الى جهاد عدوهم ، وأخبرهم بأنهم سيمرون على نهر يمتحن به اخلاص المخلصين منهم ، فمن كان صابراً محتسباً فلا ينهل منه الا بمقدار ما يأخذه باليد ، فمن امتثل فهو المخلص الذي يوثق به ، أما الذي ينهل ، حتى يرتوي فلا معول عليه في الحرب والجهاد ، ولما مروا على النهر عصوا كعادتهم ، وشربوا الا نفراً قليلاً ثبتوا على الصدق والايمان .

ولما التقى الجمعان : بنو اسرائيل بقيادة طالوت ، والفلسطينيون بقيادة جالوت خاف أكثر الاسرائيليين ، وقالوا لطالوت : لا طاقة لنا بجالوت وجنوده . وقال المؤمنون القليلون منهم الذين لم يشربوا من النهر : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، ودعوا الله سبحانه أن يمنحهم الصبر والثبات ، والنصر على العدو ، فاستجاب لهم ربهم بعد أن علم منهم العزم والصدق في النية ، وقتل داود جالوت ، وانهزم العدو شر هزيمة ، وصار لداود بقتل جالوت من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بني اسرائيل . وآتاه الله بعد ذلك النبوة ، وأنزل عليه الزبور ، وعلمه صنعة الدروع ، وعلوم الدين ، وفصل الخطاب كما قال تعالى: « وآتاه الله الملك والحكمة » .

هذا ملخص ما دلت عليه الآيات الكريمة ، أما زواج داود ببنت طالوت ، ومحاولة هذا الغدر بزوج ابنته ، ومقلاع داود وأحجاره ، وقصته مع السبع والدب ، أما هذه وما اليها مما جاء في كتب التفاسير فلا سند لها الا الاسرائيليات .

أما العبرة من الاشارة الى هذه القصة وتدبرها فهي ان الذي تجب له القيادة من يتمتع بالكفاءة العلمية والخلقية ، لا صاحب الحسب والنسب، والجاه والمال، وان النصر والغلبة تكون بالصبر والايمان ، لا بكثرة العدد ، وان السبيل الى معرفة الطيب والخبيث هي التجربة والابتلاء .

وبعد تلخيص القصة ، والعبرة بها نشرع بتفسير الجمل والكلمات :

المعنى :

(ألم ترَ الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى) . ألم ترَ خطاب في ظاهره موجه الى النبي ، وفي المعنى الى جميع السامعين .. وهذه الصيغة يخاطب بها العالم بالقصة ، وغير العالم بها ، فتقول له : ألم تر إلى فلان أي شيء فعل، وأنت تريد أن تعرفه بما فعل ، والملأ اسم جمع ، لا واحد له من لفظه ، كالقوم والجيش والرهط . (اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله) . قيل : ان النبي الذي قالوا له هذا القول هو صمويل .

(قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) . هل هنا للتقرير ، وعسيتم بالفتح ، ومعناها المقاربة ، والمراد بها التوقع ، أي هل الأمر كما أتوقعه أنا منكم من التخاذل وترك القتال إذا فرض عليكم ؟! (قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) . أنكروا أن يكون لهم أي داعٍ لترك الجهاد ، وبينوا السبب الذي يدعوهم للقتال ، وهو طردهم من ديارهم ، وبعدهم عن أبنائهم .

(فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم) . وأكثر الناس على هذا الوصف ، يقررون ويصممون على الاقدام والعمل ، حتى إذ جد الجد تواروا في جحورهم ، وأبلغ ما قيل في ذلك كلمة لسيد الشهداء الحسين بن علي (ع) : الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون .

(قال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا انّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يأت سعة من المال) . هذا المنطق لا يختص ببني اسرائيل ، فلقد كان الناس ، وما زال أكثرهم يزعمون ان المناصب العالية يجب أن تكون لأهل المال والجاه : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولاً – الفرقان ٤١ » .

(قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) . أي ان الرئاسة لا تكون بالمال والنسب ، بل بالعلم والاخلاص ، والمراد ببسطة الجسم السلامة من الأمراض ، لأن المرض يمنع من القيام بواجبات الرئاسة، وقيل : ان طالوت كان أطول من الرجل المعتاد بمقدار ذراع اليد .

مشيئة الله وسلطان الجور :

(والله يؤتي ملكه من يشاء) . ان الله سبحانه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .. ما في ذلك ريب ، ولكنه جلت حكمته عادل

لا يظلم أحداً ، وحكيم لا يفعل عبثاً ، كيف وهو القائل : « وكل شيء عنده بمقدار – الرعد ٨ » . أي بنظام وسبب ، لا بالصدفة والفوضى ، حتى المال الحرام، والسلطان القائم على الظلم والاستبداد لها أسبابها الاجتماعية من نظام جائر، ومجتمع فاسد ، وجهل قاتل ، وما اليه .

وتسأل : هل يستند سلطان الجور ، والثراء المغتصب الى مشيئة الله ؟.

الجواب : كلا ، لأن الله سبحانه قد حرم الظلم ، والغصب ؟!. أجل، انه تعالى لا يتدخل بارادته التكوينية في الأمور الاجتماعية على طريقة (كن فيكون). انه سبحانه لا يردع الظالم عن ظلمه بقوة قاهرة ، وانما ينهاه بارادة التشريع والارشاد ، ويحذره من الظلم ، ويتوعده عليه ، فاذا خالف عاقبه يوم الجزاء الأكبر .. ولو شاء أن يمنعه لفعل ، ولكنه يترك الأمور تجري على أسبابها وسننها .. وربما كان هذا هو الوجه المسوغ لنسبة التمليك اليه بوجه عام، وعليه يكون معنى يؤتي الملك من يشاء انه سبحانه لو أراد أن يمنع الملك بقوة قاهرة عمن لا يستحقه لفعل ، ولم يصل الملك الى الظالم برغم وجود أسبابه العادية .

وكيف كان ، فان ثراء المرء وسلطانه يأتيان نتيجة للمجتمع الذي يعيش فيه ، أما نسبتها الى مشيئة الله مباشرة، وبدون توسط سبب من الأسباب الخارجية فخطأ محض .

(وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت) . التابوت هو الصندوق الذي كان موسى يضع التوراة فيه ، وكان الله قد رفعه الى السماء بعد وفاة موسى سخطاً على بني اسرائيل – كما قيل – (فيه سكينة من ربكم) . أي تسكن اليه نفوسكم ، وتطمئن به قلوبكم ، حيث كان للتابوت شأن ديني عظيم عند بني اسرائيل .

(وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) . لم يبين الله البقية ما هي ؟. وآل موسى وهارون هم الأنبياء الذين توارثوا التابوت . (تحمله الملائكة) . أي بمعجزة خارقة للعادة .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني

ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيـده) . روي ان طالوت قال لبني اسرائيل : لا يخرج معي الى الجهاد شيخ ولا مريض ، ولا من بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشتغل بها ، ولا رجل تزوج امرأة لم يبن بها ، فاجتمع جماعة ممن وصف ، وكان الوقت قيظاً شديد الحر ، وسلكوا مفازة لا ماء فيها ، ولما شكوا قلة الماء قال طالوت لهم : الله سيختبر حالكم في الطاعة والمعصية بنهر تمرون عليه ، فمن شرب منه فليس من أشياعي المؤمنين الا أن يتناول قليلاً ، وهو غرفة تؤخذ باليد . (فشربوا منه الا قليلاً منهم) . قيل : كان عدد هؤلاء المؤمنين ٣١٣ على عدد أهل بدر .. ولقد كان ، وما زال ، ولن يزال الطيبون المخلصون أندر من كل نادر .

(فلما جاوزه هو والذين معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) . سار طالوت هو والذين أطاعوه فيما ندبهم اليه بعد أن تخطوا النهر ، حتى التقوا بجالوت وجنوده ، ولما شاهدوا كثرة عدوهم انقسموا فريقين : فريق قال : لا طاقة لنا بمحاربتهم ، وفريق قال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) الذين ثبتوا وجاهدوا وضحوا من أجل حياة أفضل ، وهي أن يعيشوا أحراراً في وطن حر ، ومكتفين في مجتمع لا جائع فيه ، وعلماء في بلد العلم والحضارة ، أما الصبر على الذلة والمسكنة فانه رجس من عمل الشيطان .

(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وانصرنا على القوم الكافرين) . لما رأى المؤمنون القلة في جانبهم ، والكثرة في جانب عدوهم لجأوا اليه سبحانه داعين متضرعين باخلاص ، فاستجاب لهم (وقتل داود جالوت) ونصر الله المؤمنين على الكافرين ، وحقق بفضله ورحمته ظن من قال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) .

(وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) . أي ان الله سبحانه منح داود الملك ، لأنه تولى منصب طالوت بعد وفاته ، والحكمة اشارة الى الزبور ، قال تعالى : « وآتينا داود زبوراً — النساء ١٦٣ » . وعلمه صنع الدروع ، قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم — الأنبياء ٨٠ » .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل

على العالمين) . تشير الآية الكريمة الى ان أي مجتمع لا تقوم فيه هيئة قوية رادعة لا بد أن تسوده الفوضى والانحلال .. وان العقل والشرع من غير قوة تنفيذية لا يحققان الأمن والنظام ، قال الإمام علي (ع) : « السلطان وزعة الله في أرضه.. »ولكن طالما أفسد السلطان الأرض وأهلها ..وعلى الرغم من ذلك لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين) . لقد تلى الله آياته على نبيه الكريم ، وتلاها النبي علينا ، لنتدبر حقيقتها ، ونتخذها دستوراً في مقاصدنا ، وجميع أفعالنا ، لنحيا حياة طيبة هادئة .. « قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ــ الأنبياء ٤٥ » .

الجزء الثالث

سورة البقرة

(تتمة)

تفضيل الرسل الآية ٢٥٣ :

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ★

الإعراب :

درجات منصوب بنزع الخافض ، والتقدير رفع بعضهم الى درجات .

المعنى :

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) . خاطب الله نبيه محمداً (ص) في آخر الآية السابقة بقوله : « وانك لمن المرسلين » وعقبه من غير فاصل بقوله: « تلك الرسل » وعليه يتعين أن يكون المراد بالرسل جميع الرسل الذين منهم محمد ، لا جماعة خاصة منهم ، كما قال كثير من المفسرين ، ومع العلم بأن الأنبياء جميعاً مستوون في أصل النبوة ، واختيار الله لهم لتبليغ رسالته ، وهداية خلقه فانهم يتفاوتون في الخصائص ، وعلى الأصح ان بعض الأنبياء اشتهر ببعض الخصائص دون بعض لأن الله سبحانه قد نعته بها في كتابه .. فابراهيم اشتهر بأنه خليل الله ، لقوله تعالى : « واتخذ الله ابراهيم خليلاً – النساء ١٢٤ » . واشتهر موسى بأنه كليم الله ، لقوله سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً النساء ١٦٤ » . واشتهر عيسى بروح الله،لقوله : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه – النساء ١٧٠ » . واشتهر محمد

بخاتم النبيين، لقوله عز وجل : « رسول الله وخاتم النبيين – الأحزاب ٤٠ » .

وقد ذكر الله سبحانه بعض الأنبيــاء المفضلين ، أو بعض الخصائص لبعض الأنبياء بقوله : (منهم من كلم الله) . وهو موسى بن عمــران بالاتفاق . (ورفع بعضهم درجات) .

قال صاحب تفسير المنار : ذهب جمهور المفسرين الى أن المراد بـه نبينا .. وقال الرازي : أجمعت الأمة على ان محمداً أفضل الأنبياء ، واستدل على ذلك بتسعة عشر دليلاً .. منها ان علي بن أبي طالب ظهر من بعيد، فقال النبي (ص) : هذا سيد العرب ، فقالت عائشة : ألست أنت سيد العرب ؟. فقال : أنا سيد العالمين ، وهو سيد العرب .

وخير ما يستدل به على أفضلية الرسول على جميع الأنبياء والمصلحين شريعته في سعتها وسماحتها وانسانيتها [1] .

(وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) . البينات هنا الدلائل التي تظهر الحق ، كإحياء الموتى ، وشفاء المرضى ، وخلق الطير من الطين ، وما اليه .. والمراد بروح القدس هنا الروح الطيبة المقدسة ، ومر تفسيرها في الآية ٨٧ .

(ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعــد ما جاءتهم البينات) . أي ان الرسل بعد أن جاءوا بالبينات ، واوضحوا الحقائق بالدلائــل والبراهين اختلف أقوامهم من بعدهم (فنهم من آمن ومنهم من كفر) .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتلوا) يدل على ان الانسان مسير غير مخير .. وان في تكرار هذه الجملة تأكيداً لنسبة الاقتتال الى مشيئته سبحانه ؟.

---

١ تكلموا كثيراً عن سبب انحلال المسلمين ، وضعف الإسلام في نفوسهم ، وألفوا في ذلك العديد من الكتب ، وذكروا لذلك أكثر من سبب ، والذي نراه نحن ان السبب الأول والأخير هو اهمال الشريعة الإسلامية دراسة وعملا ، وقــد أدرك الاستعمار هـذه الحقيقة ، وعمل منذ وضع أقدامه في بلاد المسلمين على تنحية الشريعة الإسلامية عن المدارس ودور المحاكم ، وأحل محلهــا الشرائع الوضعية والاجنبية ، وبهذا أبعد المسلمين عن دينهم ، وقرآنهم وسنة نبيهم ... وربما تعرضنا لذلك بصورة أوسع حين تدعو الحاجة .

الجواب : ان الله سبحانه منح القدرة للعبد ، وبيّن له الخير والشر ، ونهاه عن هذا ، وأمره بذاك ، قال عز من قائل : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) فاذا سلك طريق الالفة والمحبة صح أن يُنسب سلوكه هذا الى العبد ، لأنه صدر عنه بارادته واختياره ، وفضّله على طريق الشقاق والنزاع ، وأيضاً يصح أن يُنسب الى الله ، لأنه أقدره عليه ، وأمره به ، أما اذا سلك طريق البغض والتناحر فان هذا السلوك يُنسب اليه وحده ، ولا ينسب الى الله ، لأن العبد قد فعله برضاه وفضّله على طريق الاتفاق،ولا تجوز اطلاقاً نسبته الى الله ، لأنه نهاه عنه .

وان قال قائل : لماذا أقدر الله العبد على الشر والتفرقــة ، وكان ينبغي أن يرغمه ويلجئه الى عمل الخير والوفاق ، ولا يمكّنه من الشر والاختلاف اطلاقاً ؟.

قلنا في جوابه : لو فعل الله هذا لم يبق للانسان من فضل،ولم تتصف أفعاله بخير أو بشر ، ولا بحسن أو قبح ، لأن هــذا الوصف منوط بارادة الانسان واختياره ، بل لو ألجأه الله سبحانه إلجاءً الى الفعل لم يبق من فرق بين الانسان وبين الجماد ، ولا بينه وبين ريشة في مهب الريح .. ومن أجل هذا ، من أجل أن تبقى للانسان انسانيته لم يشأ الله أن يكره الناس عـلى الوفاق ، ولو شاء ما اقتتلوا .

واختصاراً ان الاقتتال الذي حصل بين الناس لم يقع مخالفاً لمشيئة الله التكوينية المعبر عنها (بكن فيكون) . وانما وقع مخالفاً لمشيئته التشريعية التي هي عبارة عن مجرد البيان والارشاد،وقد شاءت حكمته جل جلاله ان يمنح الانسان الاستعداد الكافي لعمل الخير والشر معاً ، ليختار هو بنفسه لنفسه الهدى والخير ، ويصبح باختياره انساناً يفترق عن الجماد والحيوان .

الانفاق الآية ٢٥٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ★

الإعراب :

لا بيع فيه قرأ البعض بالفتح على أن تكون لا عاملة عمل ان،والأكثر بالرفع مبتدأ ، وفيه متعلق بمحذوف خبر ، والجملة صفة ليوم .

المعنى :

حث الله سبحانه عـلى بذل المال في أساليب شتى ، وسبق تفسير قوله : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) الآية ٢٤٥ وغيرها ، وأيضاً يأتي نظير ذلك ، وفي هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم) حث عـلى الانفاق مع الاشارة إلى أن ما في يد الناس من مـال هو من عطائه سبحانه ، وان غداً تفلت منهم الفرصة ، وعلى المؤمن العاقل أن يغتنم قبل فوات الأوان .

(من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) . المراد بالبيع هنا الفدية بالمال من النار ، وبالخلة المودة التي تستدعي التساهل والتسامح ، وبالشفاعة التوسط للخلاص من العذاب .. والقصد ان الانسان يجيء غداً وحده أعزل من كل شيء إلا من العمل الصالح . وتفيد هذه الآية نفس المعنى الذي تفيده الآية ٤٨ من هذه السورة : « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . وتكلمنا عن الشفاعة عند تفسير هذه الآية ، فقرة الشفاعة .

(والكافرون هم الظالمون) لأنفسهم بـترك العمل الصالح الذي ينجيهم من العذاب،ومن فعل فعلهم يكون ماله مالهم .. وتجمل الاشارة الى أن الظلم والكفر يتواردان في الاستعمال على معنى واحد ، فتارة يستعمل الكفر في الظلم ، كما في الآية ١٣ من سورة لقمان : « ان الشرك لظلم عظيم » . وقوله هنا : والكافرون هم الظالمون . وتارة يستعمل الظلم في الكفر،كما في الآية ٣٣ ـ الانعام : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

آية الكرسي ٢٥٥ :

اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي

السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ★

اللغة :

القيوم مبالغة في القائم ، والسِنة النعاس ،أي فتور يسبق النوم ، وآده يؤوده إذا أثقله وأجهده .

الاعراب :

الله مبتدأ ، ولا إله لا نافية للجنس ، وإله اسمها ، وخبرها محذوف تقديره موجود ، وهو بدل من إله على المحل ، لأن اسم لا محله الرفع ، والجملة خبر للمبتدأ المتقدم .

المعنى :

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم) . قال الفيلسوف الإلهي الشهير بالملا صدرا: لفظ الجلالة « الله » يدل بذاته على توحيد الذات والصفات معاً ، أما دلالته على توحيد الذات فلأن هذا الاسم الأعظم لا يطلق على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً ، قال سبحانه : « فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا – مريم ٦٥». واما دلالته على توحيد الصفات فلأن هذا الاسم يدل على الذات الجامعة لكل صفات الكمال والجلال بخلاف سائر الأسماء كالعالم والقادر والخالق فان آحادها لا تدل إلا على آحاد المعاني من العلم أو القدرة أو الفعل .

وتسأل : ان صفات الكمال والجـلال كثيرة ، ومتغايرة بحسب مفاهيمها ، فكيف يصح القول بتوحيدها ، مع هذا التعدد والتغاير ؟!.

الجواب : اذا قلت : هذا رجل عالم،فُهم منه وجود شيئين : صفة وموصوف، موضوع ومحمول ، وكل منها غير الآخر في حقيقته ، لأن الرجولة غير العلم، والعلم غير الرجولة .. هذا بالنسبة الى المخلوق ، أما بالنسبة الى الخالق فليس إلا الوجود القدسي ، وهذا الوجود هو نفسه العلم ، وهو نفسه القدرة ، وهو نفسه الحكمة .. فلا صفة وموصوف ، ولا موضوع ومحمول ، بل شيء واحد فقط لا غير .. وهذا الوجود القدسي لا مجانس له ، ولا شبيه له،لأنه واجب بالذات، ولا يجب غيره إلا به .

(لا إله إلا هو) قيل معناه لا معبود بحق إلا هو ، ولكن المفهوم لا أحد يجمع صفات الالوهية الا هو ، وكيف كان فان المعنيين متلازمان .

(الحي القيوم). اذا نسبت الحياة الى غير الله سبحانه يكون معناها النمو والحركة والاحساس والادراك ، وإذا نسبتها اليه جل جـلاله فيراد بها العلم والقدرة .. والقيوم مبالغة في القائم ، وهو في اللغة غير القاعد والنائم ، والمراد به هنا قيامه تعالى على كل موجود بخلقه وتدبيره: « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى – طه ٥٠ » .

« وخلق كل شيء فقدره تقديراً – الفرقان ٢ ». قال الملا صدرا : (فقوله: الحي دل على كونه عالماً قادراً ، وقوله : القيوم دل على كونه قـائماً بذاته ، مقوماً لغيره ، فالوصفان متوافقان في المعنى قوة وفعلاً ، متداخـلان في المفهوم كلاً أو بعضاً) . يريد ان القيمومة لا تنفك عن الحياة ، كما ان الحياة بمعنى القدرة والعلم لا تنفك عن القيمومة .

الله وسنن الطبيعة :

وتسأل : هل معنى قيام الله على تدبير الأشياء ان جميع الظواهر الطبيعية ، حتى الجزئيات منها هو الذي يتولى أمر تدبيرها مباشرة بنفسه ، ومن غير توسط أي سبب من الأسباب المادية،كما يظهر من الآية ١٣ – ١٤ من سورة المؤمنون:

« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ». فان المتبادر الى الفهم من هذه الآية ان الله سبحانه قد تدخل تدخلاً مباشراً ومستمراً لنقل النطفة من طور الى طور ، مع العلم بأن النظرية العلمية تقول : ان النطفة تنمو وتتطور وفقاً لقوانين طبيعية معينة ؟.

ولا بد في الجواب من التمييز بين حادثة خارقة للطبيعة ، كاحياء الموتى ، وايجاد شيء من لا شيء ، وبين حادثة تأتي وفقاً لقوانين الطبيعة ، مثل كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وما اليهما .. فما كان من النوع الأول يسند اليه سبحانه مباشرة ، وبلا واسطة ، وما كان من النوع الثاني يسند الى الأسباب الطبيعية مباشرة ، واليه تعالى بواسطتها ، لأنه هو الذي أوجد الطبيعة بما فيها من قوى وعناصر ، وهذه العناصر تتفاعل ، وتأخذ مجراها في ظواهر الكون .. وعليه يكون خلقه لهذه الظواهر ، ومنها تطور النطفة ، هو خلقه لأسبابها . « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » أي يجريه من خلال السنن والقوانين الطبيعية، ولو كان هو الذي يتولى خلقها مباشرة وبلا واسطة لما وجدت الأسباب والمسببات.

وبهذا يتبين معنا ان من يؤمن بأن كل حادثة طبيعية تستند الى الله مباشرة ، وبلا توسط سبب من الأسباب المحسوسة التي اكتشفها العلم،ويمكن أن يكتشفها ، فهو جاهل مخطىء في ايمانه .. ولو صح ايمانه هذا لم يجب العمل لشيء ، ولا كان للعلم من جدوى ، ولا للمخترعات وتقدم الانسانية من أثر .. كما ان من يعتقد ان الطبيعة هي كل شيء ، وانها السبب الأول والأخير ، ولا شيء وراءها فهو أيضاً جاهل مخطىء في اعتقاده ، والا لم يكن للنظام عين ولا أثر ، ولسادت الفوضى والاضطراب ، وتكون النتيجة لا علم ولا حياة . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٢١ من هذه السورة ، فقرة التوحيد .

(لا تأخذه سنة ولا نوم) . السنة النعاس ، وهو الفتور الذي يتقدم النوم.. لما بيّن سبحانه انه الحي القيوم أكد ذلك بأنه تعالى لا يمنعه نوم ولا سهو ولا شيء عن تدبير خلقه على الوجه الأتم الأكمل ، لأن ذلك يتنافى مع عظمته

واستغنائه عن كل شيء .. قال الإمام علي (ع) مخاطباً ربه : « لسنا نعلم كنه عظمتك الا انّا نعلم انك حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته اليك نظر، ولم يدركك بصر ، أدركت الأبصار ، وأحصيت الأعمال ، وأخذت بالنواصي والاقدام » .

(له ما في السموات وما في الأرض) . المراد بما فيهما الكون كله ، لا يخرج منه شيء عن سلطانه وتدبيره .. سئل الإمام علي (ع) عن معنى لا حول ولا قوة الا بالله ؟. فقال : انّا لا نملك مع الله شيئاً،ولا نملك الا ما ملكنا ، فمتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا ، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا .

(من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) . جاء بصيغة الاستفهام، ومعناه النفي والانكار ، أي لا يشفع أحد عنده الا بأمره .. وهذا رد وابطال لقول المشركين بأن الأصنام تقربهم الى الله زلفى ، قال تعالى حكاية عنهم : « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض – يونس ١٨ » . وتكلمنا عن الشفاعة عند تفسير الآية ٤٨ . وقال بعض العارفين: ان الناس غداً على أصناف : منهم السابقون ، وهم المقربون ، ومنهم أصحاب اليمين ، وهم سعداء ناجون ، ومنهم أصحاب الشمال ، وهم أشقياء معاقبون ، ومنهم أهل العفو ، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء تقبل الشفاعة فيهم،لقوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم – التوبة ١٠٣».

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) . المعنى ان الله سبحانه يعلم من عباده ما كان ويكون من خير وشر ، ويعلم الشافع والمشفوع له ، ومن يستحق العفو والثواب ، أو العذاب والعقاب ، وما دام الأمر كذلك فلا يبقى مجال للشفاعة إلا بأمره تعالى ضمن الحدود التي يرتضيها .

(ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) . الضمير في لا يحيطون راجع الى جميع العباد بما فيهم الملائكة والأنبياء ، والمراد من العلم المعلوم ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والأكل بمعنى المأكول .. والمعنى واضح ، وان شئت زيادة في التوضيح فاقرأ الآية ٢٦ من سورة الجنّ : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه

أحداً إلا من ارتضى من رسول » والآية ٣٢ من البقرة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

(وسع كرسيه السموات والأرض) . كثرت أقوال المفسرين وتضاربت في معنى الكرسي ،وبعض هذه الأقوال قول على الله من غير علم ، وخيرها قولان: الأول انه كناية عن عظمة الله وقدرته . الثاني ان المراد بالكرسي العلم ، أي ان علمه سبحانه أحاط بكل شيء والسياق يرجح هذا المعنى .

(ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) . أي لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ، وتدبير ما فيهما ، كيف ؟ وخلق الذبابة والكون بالنسبة اليه سواء ، ما دام سبحانه اذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون .

شيء من لا شيء :

فاعل الشيء على نوعين : الأول من نوع المادة . الثاني منزه عنها،ويفترقان من وجوه :

١ ـ ان الفاعل المادي يحتاج الى حركة وآلة دون الثاني .

٢ ـ ان المادي يناله التعب والاعياء دون الثاني .

٣ ـ يستحيل على المادي أن يوجد شيئاً من لا شيء ، ولا يستحيل ذلك عمن تنزه عن المادة .. ومن هنا يتبين ان قياس الخالق على المخلوق الذي يعجز عن ايجاد شيء من لا شيء قياس مع الفارق .. وكيف يصح قياس الغني عن كل شيء ، ويفتقر اليه كل شيء ، ويقول للشيء كن فيكون ، كيف يصح قياس هذا القادر على العاجز المفتقر الى كل شيء .

لا اكراه في الدين الآية ٢٥٦ ـ ٢٥٧ :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ★ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ الَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ ★

اللغة :

الرشد اصابة الواقع ، ويستعمل في كل خير ، والمراد به هنا الايمان،والغي ضد الرشد ، والمراد به في الآية الكفر ، لأن الكلام في الدين. والطاغوت مصدر بمعنى الطغيان ، مثل الملكوت والرحموت ، ويقع على الواحد والجماعة ، والمذكر والمؤنث ، والعروة من الدلو المقبض الذي يمسك به الآخذ ، ومن الثوب مدخل الزر ، والوثقى مؤنثة الأوثق ، وهو الأشد والأحكم ، والانفصام الانقطاع والانصداع .

المعنى :

(لا اكراه في الدين) . لو نظرنا الى هذه الكلمة مستقلة عن السياق لفهمنا منها ان الله سبحانه لم يشرع حكماً فيه شائبة الاكراه ، وان ما يكره عليه الانسان من أقوال أو أفعال لا يترتب عليه أي شيء في نظر الشرع لا في الدنيا، ولا في الآخرة .. ولكن قوله تعالى : (قد تبين الرشد من الغي) الذي هو تعليل لعدم الاكراه يعين ان في هنا بمعنى على ، أي الاكراه على الدين ، مثل « ولاصلبنكم في جذوع النخل ــ طه ٧١ » . أي على جذوع النخل .. وعليه يكون المعنى ان الاسلام لا يلزم أحداً باعتناقه قسراً واجباراً ، وانما يلزم الجاحد بالحجة والبرهان فقط : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ــ الكهف ٢٩ » : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ــ يونس ٩٩ » .

وتسأل : ان الدين لا يمكن أن يتعلق به اكراه ، لأنه من شؤون القلب

الخارجة عن القدرة ، تماماً كالتصورات الذهنية ، وانما يتعلق الاكراه بالأقوال والأفعال التي يمكن صدورها عن ارادة القائل والفاعل .. اذن ، ما هو الوجه المسوغ للنهي عن الاكراه على الدين ؟.

الجواب : ان قوله تعالى : (لا اكراه في الدين) . جاء بصيغة الاخبار فان كان هو المراد فلا يتجه السؤال من الأساس ، حيث يكون المعنى ان الدين هو الاعتقاد ، وهو أمر يرجع الى الاقتناع الذي لا اكراه عليه .. وان كان المراد به الانشاء والنهي عن الاكراه في الدين يكون المعنى ايها المسلمون لا تكرهوا احداً على قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله بعد أن قامت الدلائل والبينات على التوحيد والنبوة .

ولكن يتولد من هذا الجواب سؤال جديد ، وهو ان هذا لا يجتمع مع قول الرسول الأعظم (ص) : « أمرت ان اقاتل الناس ، حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فان قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » .

وجوابه : ان الاسلام أجاز القتال لأسباب : منها الدفاع عن النفس ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين — البقرة ١٩٠ » . ومنها البغي قال تعالى : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله — الحجرات — ٩ » . ومنها اظهار الاسلام،ولو باللسان من المعاندين له وللمسلمين ، لمصلحة تعود على الجميع،لا على المسلمين وحدهم ، وهذه المصلحة يقدرها المعصوم ، أو نائبه ، ولا يجوز لأي مسلم كائناً من كان أن يقاتل من أجل النطق بكلمة الاسلام ، أو انتشارها إلا بأمر المعصوم ، أو من ينوب عنه، وهو الحاكم المجتهد العادل ، وعلى هذه الصورة وحدها يحمل حديث : «أمرت أن أقاتل الناس » . أي اني اقاتلهم حين أرى أنا أو من يقوم مقامي ان مصلحة الانسانية تحتم القتال من أجل كلمة لا إله إلا الله ، وفيما عدا ذلك لا يجوز لأحد كائناً من كان ان يكره أحداً على قول لا إله إلا الله .. ويحمل الاشارة الى ان القتال دفاعاً عن النفس ، أو عن الدين والحق لا يتوقف على اذن الحاكم ولا غيره . وتقدم الكلام عن ذلك في تفسير الآية ١٩٣ ، فقرة الاسلام حرب على الظلم والفساد .

(قد تبين الرشد من الغي) . لقد بين الله سبحانه الحق بأوضح بيان ،

وأقوى برهان ، حتى لم يُبق حجة لكافر ، ولا عذراً لمعتذر .. ومن عرف طريق الرشد والحق عرف طريق الغي والباطل،إذ لا شيء بعد الحق الا الضلال .

قال الملا صدرا ما توضيحه : ان معنى تبين الرشد من الغي هو تمييز الحق من الباطل ، والايمان من الكفر بالأدلة والبراهين ، مع تفهمها وتدبرها ، أما من يعتقد بالحق عن تقليد فلا فرق بينه وبين الحيوان إلا الاعتقاد .. أجل ، ان من يقتدي بالصالحين عن صدق نية،وصفاء طوية يناله نصيب مما ينالونه غداً .

(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها). تعددت الأقوال في تفسير الطاغوت ، وقد أنهاها بعض المفسرين الى تسعة ، منها ان المراد به الشيطان ، ومنها الدنيا الدنية ، وأقربها الى الفهم ، ودلالة اللفظ تفسير الشيخ محمد عبده ، وهو ان الطاغوت ما تكون عبادته والايمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق ، والمراد من الاستمساك بالعروة الوثقى السير على الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ، تماماً كالمتعلق بعروة هي أوثق العرى وأحكمها ، والمراد بلا انفصام لها قوتها وعدم انقطاعها ، ومحصل المعنى ان الايمان بالله عروة وثيقة متينة لا تنقطع أبداً ، وان المتمسك بها لا يضل طريق النجاة ، وفي صحيح مسلم ان رسول الله قال : اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر ، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، لن يفترقا ، حتى يردا عليّ الحوض . ورواه الترمذي أيضاً .

ولكن في زماننا ترك الأمران معاً ، واليه أشار الإمام علي (ع) بقوله : يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ، ومن الاسلام إلا اسمه .

(والله سميع عليم) . يسمع كلمة التوحيد من المؤمنين ، وقول الكفر من الكافرين ، ويعلم ما في قلب الاثنين ، ويجزي كلاًّ بأعماله .

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) . اختلف المفسرون في المراد من هذه الآية اختلافاً كبيراً ، وتولد من بعض الأقوال اشكالات عقائدية ، حتى قال الملا صدرا : ان في المقام اشكالاً عظيماً يعسر حله على ذوي الافهام ، وقال الشيخ محمد عبده : ان بعض التفاسير هي من تفسير العوام

الذين لا يفهمون أساليب اللغة العالية ، أو تفسير الأعاجم الذين هم أجدر بعدم الفهم .

أما السبب لاختلاف المفسرين ، وما تولد منه من الاشكالات فهو انهم فهموا من الآية ان الله سبحانه يتولى ويدبر أمور المؤمنين دون غيرهم ، لا ان المؤمنين هم الذين يتخذونه ولياً لهم دون غيره ، والفرق كبير بين المعنيين ، ومن هنا ورد الاشكال على فهم المفسرين بأن ولاية الله وعنايته تشمل جميع الخلائق على نسق واحد ، لا المؤمنين فقط .

وكيف كان ، فان أقوال المفسرين ، أو أكثرهم لا تلتئم مع السياق ، وان المعنى السليم الذي لا ترد عليه أية شبهة ، ويلتئم مع قوله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله» الخ هو ان المؤمنين لا يتخذون لهم ولياً من دون الله ، ولا يجعلون لأحد سلطاناً عليهم الا له وحده .. اليه يلجأون ، وبكتابه وسنة نبيه يهتدون في عقائدهم ، وجميع أقوالهم وأفعالهم ، ولا يثقون بأهل الضلالة والطغيان ، مهما علت منزلتهم .. على العكس من الكافرين الذين يتخذون الطاغوت أولياء لهم من دون الله .

وليس من شك ان من آمن بالله ، وصمم على طاعته والاهتداء بآياته وبيناته عن صدق واخلاص فانه يسلم بتوفيق الله وعنايته من ظلمة البدع والضلالات ، والأهواء والجهالات ، ويستضيء بنور المعرفة الحقة ، والايمان الصحيح ، وهذا هو معنى يخرجهم من الظلمات الى النور .

(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) . قال الرازي : « الطاغوت مصدر كالملكوت ، ويقع على المفرد والجمع » وعليه فلا يرد السؤال ، أو الاشكال بأن المناسب أن يلائم بين لفظه ولفظ الأولياء ، فيقول : أولياؤهم الطواغيت ، أو وليهم الطاغوت . والمعنى ان الكافرين يتخذون أهل الضلالة والطغيان أولياء لهم من دون الله ، فيأتمرون بأمرهم ، وينتهون بنهيهم ، وهؤلاء يسيرون بهم في طريق المهالك ، ويخرجونهم من نور العقل والفطرة الى ظلمات الكفر والبدع .

الخلود في النار :

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على ان نوعاً من العصاة مخلدون في النار، وبين ان من هذا النوع من كفر بالله وكذب بآياته، قال جلت كلمته : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ البقرة ٣٩ . » ومن قتل مؤمناً متعمداً ، قال جل جلاله : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ـ النساء ٩٢ » . « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ـ النساء ١٣ » . ومن أحاطت به خطيئته : «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ البقرة ٨١ .

وليس من شك ان الله بموجب عدله لا يعذب الا من يستحق العذاب ، وان عذابه يختلف شدة وضعفاً على حسب الجريمة والمعصية ، فجريمة من سعى في الأرض فساداً ، وأهلك الحرث والنسل غير جريمة من سرق درهماً ، أو استغاب منافساً له في المهنة ، ومع هذا لنا أن نتساءل : ان في خلود الانسان في النار الى ما لا نهاية ، تقذف رأسه بشرر كالقصر ، وتلهب ظهره بمقامع من حديد، وتملأ جوفه بماء الصديد ، ثم لا يقضى عليه فيستريح ، ولا يخفف عنه فيسترد بعض أنفاسه ، وهو على ما هو من الضعف تؤلمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة ، كما قال علي أمير المؤمنين (ع) ، نتساءل : هل هذا الأليم العظيم من العذاب لهذا العاجز الضعيف يلتئم مع ذات الله التي هي محض الخير والرحمة ، والكرم والامتنان ، واللطف والاحسان ؟.. ومن المعقول أن يعذب الى حين ، أو يحرم اطلاقاً من النعيم .. أما هكذا أبداً كلما نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها ، دون انقطاع وبلا فترة استراحة ، أما هكذا أبداً ودائماً فمحل تساؤل .

وإذا قال قائل : وأي عذاب مهما كان نوعه ، وطال أمده يكثر على قاتل الحسين بن علي (ع) ، أو على من ألقى قنبلة ذرية أو هيدروجينية على شعب فأفناه بكامله ، أو على من سن سنة سيئة طال أمدها ، وكثرت مفاسدها ؟

قلنا في جوابه : أجل ، لا يكثر على من ذكرت أي أليم من العذاب، ولكن ليس كل العصاة «يزيد»، ولا كل القنابل ذرية وهيدروجينية ، ولا كل السنن

تفرق الناس شيعاً وأحزاباً متناحرة .. ولكن السؤال لم يقع عن هؤلاء ومن اليهم بل عن تخليد من هو دونهم بمراتب ومراتب .

وتقول : وماذا تصنع بنصوص القرآن والسنة النبوية على التخليد بالنار ؟.

وأجيب : لا شيء منها يرفض التأويل ويأباه .

وتقول ثانية : كل ما جاء به النص ، وكان الأخذ به ممكناً يجب بقاؤه على ظاهره ، وتخليد بعض العصاة في النار ليس محالاً في ذاته ؟

وأقول : أجل ، ولكن حمل الخلود على طول الأمد ، دون الأبد جمعاً بين النص ، وبين أدلة الرحمة لا تأباه الصناعة ، ولا يرفضه الشرع والعقل .

وتقول مرة ثالثة : ان الفقهاء لا يرتضون هذا الجواب ، لأنهم لا يجيزون حمل اللفظ على غير ظاهره الا بأسباب ثلاثة : قرينة عرفية ، كحمل العام على الخاص ، أو شرعية ، كالنقل الصريح الثابت عن المعصوم ، أو عقلية لا تقبل احتمال الخلاف ، ولا شيء منها فيما نحن فيه .

الجواب أولاً : أحسب ان الفقهاء الذين اطلعوا على أدلة رحمة الله تعالى يوافقونني على انها تصلح لصرف أدلة الخلود في النار عن ظاهرها بالنسبة الى بعض العصاة .. ومن تلك الأدلة الحديث القدسي : سبقت رحمتي غضبي ، والحديث الشريف : ان الشفعاء يوم القيامة كثيرون ، وآخر من يشفع هو أرحم الراحمين .. وان الله ينشر رحمته يوم القيامة ، حتى يطمع بها ابليس ، ويمتد لها عنقه .. وفي بعض الروايات : ان الحسن البصري قال : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا ، فقال الإمام زين العابدين(ع) : أما أنا فأقول : ليس العجب ممن نجا كيف نجا ، وانما العجب ممن هلك كيف هلك،مع سعة رحمة الله.فاذا عطفنا هذه الروايات على الآية ٥٣ من سورة الزمر: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً » . اذا عطفنا روايات الرحمة على هذه الآية تشكل لدينا قرينة قطعية على صرف أدلة الخلود في النار عن ظاهرها واختصاصها ببعض العصاة .

ثانياً : نحن نتكلم في الأمور العقائدية القطعية ، لا في المسائل الفرعية الظنية، والفقهاء على ورعهم وقوة ايمانهم فانهم علماء بأحكام الله الشرعية ، لا بالأمور العقائدية ، بل ان الكثير منهم بمنزلة المقلدين فيما يعود الى صفات الله وأفعاله ،

أما فيما يعود الى الأدلة على وجود الباري سبحانه فيعلمون منها دليل الدور والتسلسل، والبعرة والبعير (ملحوظة نحن من القائلين بصحة التقليد في أصول العقائد ، مع موافقتها للواقع) .

ثالثاً : ان العقل يستقبح الخلف بالوعد دون الوعيد ، فاذا قلت لآخر : سأحسن اليك ، ثم أخلفت كنت ملوماً عند العقل والعقلاء ، أما اذا قلت لمن يلزمه أداء حقك : سآخذ حقي منك ، ثم سامحت وصفحت ، فأنت ممدوح عند الله والناس ، بخاصة اذا كان من له الحق غنياً عنه ، ومن عليه الحق فقيراً الى التسامح ، والله غني عن العالمين وعذابهم ، وهم في أمس الحاجة الى رحمته وعفوه .

سؤال رابع وأخير : بماذا تؤول آيات الخلود في النار ؟. وعلى أي معنى تحملها ؟.

الجواب : يمكن حملها على طول الأمد ، لا على الأبد ، أو على البقاء في النار من غير عذاب ، تماماً كخيمة حاتم الطائي[1] أو وجود ابراهيم في النار ، ويعزز هذا ما جاء في بعض الأحاديث ان بعض أهل النار يتلاعبون بجمراتها كالأكرة ، ويقذف بها بعضهم بعضاً . وليس من شك ان هذه اللعبة لا تجتمع أبداً مع خفيف العذاب فضلاً عن شدته ، وليس على الله بعزيز أن يجعل النار برداً وسلاماً على غير ابراهيم كما جعلها على ابراهيم (ع) . قال محيي الدين ابن العربي في الجزء الثاني من كتاب الفتوح المكية ص ١٢٧ : « لا يبقى في النار موحد ممن بُعث اليه رسول الله (ص) ،لأن النار ترجع برداً وسلاماً على الموحدين ببركة أهل البيت في الآخرة ، فما أعظم بركة أهل البيت » .

الذي حاج ابراهيم الآية ٢٥٨ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ

---

١ في بعض الروايات ان حاتماً يدخل النار لكفره ، ولكنه في خيمة تقيه حرها لكرمه .

إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ★

اللغة :

حاجّ جادل ، وبهت أفحم .

الإعراب :

ان آتاه المصدر المنسبك من أن وصلتها مفعول من أجله لحاجّ ، لأن الذي حمله على المحاجة هو ابتاء الملك .

المعنى :

بيّن الله سبحانه في الآية السابقة ان المؤمنين وليهم الله ، وانهم يخرجون من ظلمة الشك الى نور الهداية والايمان، وان الكافرين أولياؤهم الطاغوت، ويخرجون من نور الفطرة الى ظلمة الكفر والضلال . ثم قص على نبيه الأكرم قصة المؤمن الذي خرج من ظلمة الشك الى نور الايمان في الآية الآتية ، وقصة الكافر الذي حاج ابراهيم بعد أن خرج من نور الفطرة الى ظلمة الكفر ، قال سبحانه : (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه... إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) . وهذا الحوار يذكره الله تعالى لنبيه وللناس كافة في اسلوب التعجب من المجادل مع الإنكار عليه .

دعا ابراهيم (ع) الى نبذ الأصنام والطغاة ، والى دين العدالة والمساواة ، فعارضه وقاومه أهل الامتياز والحكام ، لا ايماناً منهم ببطلان دعوته ، بل خوفاً على منافعهم ومكاسبهم ، وحرصاً على استغلالهم ومناصبهم .. وكالمعتاد جادلوا

ابراهيم باللسان ، ولما عجزوا وأفحموا أعلنوا عليه الحرب ، وحاولوا الخلاص منه باحراقه في النار ، تماماً كما يفعل المستعمرون في هذا العصر ، يبثون دعايات التضليل والتمويه عن طريق الصحف والاذاعات والأبواق المأجورة ، فان أخفقوا دبروا مؤامرات الانقلاب ، فان فشلوا ألقوا قنابل « النابالم » وغيرها على الآمنين والمستضعفين .

قال الذي أطغاه الجاه والمال لابراهيم : من ربك ؟ قال ابراهيم : ربي الذي يهب الحياة لمن يشاء ، ثم يزيلها ، ولا أحد يشاركه في ذلك . قال الطاغية : وأنا أيضاً أقدر على ذلك ، ثم احضر رجلين ، فقتل احدهما ، وأرسل الآخر.. ولما رأى ابراهيم مغالطة الطاغية وتدليسه بالاعتماد على حرفية اللفظ ، متجاهلاً وجه الحجة ، والمعنى المقصود جاءه بمثال آخر لا يمكن أن يغالط فيه ويدعيه ، وقال :

(فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر). لأنه عجز عن التمويه والتضليل ، وهكذا كل مبطل يلجأ في تلفيق حججه الى التزييف والتدليس،فإذا لم تنطلِ الحيلة أسقط في يده ، وأخذته الدهشة والحيرة.

وقال جماعة من المفسرين : ان ابراهيم عدل عن الجواب الأول ، وهو يحيي ويميت الى جواب ثانٍ ، وهو فأت بها من المغرب ، ليقطع الجدال عن قريب، ولا يطيل النقاش . وقال الرازي والشيخ محمد عبده : ليس قوله : فأت بها من المغرب جواباً آخر ، بل هو انتقال من مثال ، لتوضيح الدليل ، اذ المعنى ان الذي أعطى الحياة هو الذي أتى بالشمس من المشرق ، وإذا استطعت التمويه على قومك بالمثال الأول فانك أعجز من أن تموه عليهم في هذا المثال .

وسواء أكان قول ابراهيم جوابين ، أم مثالين فان الذي كفر قد أفحم ، وانما افحم لأنه مبطل ، وهو مبطل لأنه كافر . (والله لا يهدي القوم الظالمين). الذين ظلموا أنفسهم بمناصرة الباطل ، ومعارضة الحق .

ولم تذكر الآية اسم الطاغية ، لأن المهم استخراج العبرة من القصة ، لا اسم (بطلها) . والمشهور انه نمرود بن كنعان بن سام بن نوح ، وقيل : هو أول من وضع التاج على رأسه ، وتجبر وادعى الربوبية .. وسنعود الى قصة ابراهيم وقومه في سورة الأنبياء ، وغيرها ، حيث تدعو المناسبة .

الذي مر على قرية الآية ٢٥٩ :

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

اللغة :

خاويه أي خالية ، يقال : خوت الدار اذا باد أهلها لخلوها منهم ، وعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت،وكل ما هيء ليستظل به فهو عرش وعريش . ولم يتسنه أي لم يتغير،وقيل : مأخوذ من السنة،أي مرت عليه السنون والأعوام، وعلى هذا تكون الهاء أصلية ، وقيل : بل مأخوذ من تسنن الشيء اذا فسد ، وعليه تكون الهاء في يتسنه للسكت ، مثل الهاء في حسابيه وماليه وسلطانيه الواردة في آيات من سورة الحاقة . وننشزها قرىء بالراء ، أي نحييها،وقرىء بالزاي ، ومعناه نرفعها .

الاعراب :

كالذي الكاف اسم بمعنى مثل ، ومحلها الجر عطفاً على الذي حاج ابراهيم ، وجملة وهي خاوية على عروشها حال من قرية ، ولا يُلتفت الى قول النحـاة بأن صاحب الحال لا يكون الا معرفة ، لأن القرآن حجة على النحاة ، وليس

النحاة حجة على القرآن .. أجل ، في الغالب يكون صاحب الحال معرفة، وأنّى في موضع نصب على الحال ، وصاحب الحال لفظ الجلالة ، وكم في محل نصب على الظرفية بلبثتَ ، أي كم مدة لبثت ، وكيف في موضع نصب على الحال من الضمير المستتر في ننشز ، كما قال صاحب مجمع البيان ، وقال صاحب البحر المحيط : انها بدل من العظام .

المعنى :

كانت الآية السابقة مثالاً للكافر الذي اتخذ الطاغوت ولياً ، وخرج من النور الى الظلمات ، وهذه الآية مثال للمؤمن الذي اتخذ الله ولياً ، وخرج من الظلمات الى النور .

(أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها) . لم يفصح الله سبحانه عن اسم القرية،ولا عن اسم المار بها ، ومن هنا اختلف المفسرون : هل كان كافراً ، أو نبياً أو صدّيقاً ؟. واذا لم يكن كافراً فهل هو عُزير أو ارمياء أو الخضر ؟. وأيضاً اختلفوا في القريـة : هل هي بيت المقدس ، أو غيره ؟. ولا دليل على التعيين ، ولا للقائلين بـه الا الاسرائيليات .

ومعنى خاوية خالية من السكان ، والعروش سقوف البيوت،والمراد ان بيوت القرية منهدمة وليس فيها أحد ، والاستعظام كان لاحياء أهل القرية ، لا للقرية نفسها .

ونقول لمن زعم ان الذي مر على القرية كان كافراً ، لأنه شكك في قدرة الله ، نقول له : ليس كل من مرّت شبهة بذهنه ، وطلب لهـا مخرجاً يكون من الكافرين ، بل العكس هو الصحيح ، فلقد طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، وهو داعية الايمان والايقان .. هذا الى أن طلب المزيد من العلم بقدرة الله من صميم الايمان ، وبهذا يتبين خطأ من قال : ان الذي مر على القرية كان كافراً ، لا لشيء الا لأنه قال : (أنّى يحيي هذه الله بعد موتها).

كلا ، ليس هذا انكاراً ، ولكن مشهد الخراب العنيف جعله في حيرة ، وعجز عن ادراك السبيل التي بها يعود أهل القرية الى الحياة .

(فأماته الله مئة عام) . موتاً حقيقياً ، لا مجازياً ، اذ لا موجب للتأويل .

(ثم بعثه) . كما كان ، ولا يكثر شيء على من يقول للكون بمن فيه ، وما فيه : كن فيكون . ولا شيء أعجب وأغرب ممن قاس الخالق على المخلوق في قدرته .. ولا أدري : ما هو الوجه والقاسم المشترك المصحح للقياس .

حساب القبر :

(قال كم لبثت) . هذا سؤال على وجه التقرير ، دون الاستفهام . (قال لبثت يوماً أو بعض يوم) . ولولا الاجماع والاخبار لأمكن القول بأنه لا حساب في القبر ، ولا سؤال إلا يوم الحشر ، استناداً الى هذه الآية ، والى الآية ٥٥ من سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » . ولا سبب لقسم المجرمين ، وغفلتهم عن الأمد الذي مر على موتهم الا عدم الحياة ، لأن الاحساس بالزمن لا يكون الا مع الحياة والوعي .

وقال الشيخ المفيد في كتاب أوائل المقالات، فصل « القول في أحوال المكلفين من رعايا الأئمة بعد الوفاة » : « ان الناس في ذلك على أربع طبقات : الأولى عرفت الحق وعملت به ، وهذه تحيا وتسعد بعد الموت ، وقبل النشر . الطبقة الثانية : عرفت الحق، ولم تعمل به عناداً ، وهذه أيضاً تحيا ، ولكن في العذاب والشقاء . الطبقة الثالثة : اقترفت الآثام والمعاصي تهاوناً ، لا عناداً واستحلالاً للحرام ، وهذه مشكوك في حياتها بعد الموت ، وقبل النشر . الطبقة الرابعة : المقصرون عن الطاعة من غير عناد ، والمستضعفون من سائر الناس ، وهؤلاء لا يحيون ، بل يبقون في عالم الأموات الى يوم النشر» .

وأخذ الشيخ المفيد هذا التقسيم من روايات عن أهل البيت (ع) ، منها : « لا يعذّب في القبر كل ميت ، وانما يعذب من محض الكفر محضاً ، وينعم من محض الإيمان محضاً ، وما سوى هذين يُلهى عنه ولا يسأل عن شيء الى يوم البعث والنشور » . وقد تكلمنا عن ذلك مفصلاً في كتاب فلسفة المبدأ

والمعاد ، فصل « بين الدنيا والآخرة » وفصل « حساب القبر » .

(قال بل لبثت مئة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه) . قال لم يتسنه بالإفراد ، دون التثنية ، لأن الطعام والشراب من فصيلة واحدة ، من حيث سرعة الفساد اليهما ، ومعنى لم يتسنه لم يتغير بمرور السنين ، بل بقي على حاله ، وهذه معجزة إلهية ، لأن الطعام والشراب يسرع اليهما الفساد ، وأخشى أن يقول من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث : انهما كانا في ثلاجة ..

(وانظر الى حمارك) . كيف صار رميماً ، مع بقاء طعامك وشرابك على حالها ، وهذا أبلغ في المعجزة ، واظهار المقدرة في خرق العوائد ، لأن الجو واحد ، والظروف واحدة ، فلو كانت هي المؤثرة لأسرع البلى الى الطعام والشراب قبل أن يسرع الى الحمار ، لأنه أقوى منهما على البقاء ، فموته هو مع بقائهما مئة سنة على ما كانا عليه من أصدق الدلائل على ان الله لا يعجزه شيء على الاطلاق.

وقيل : ان الحمار بقي حياً طوال المئة عام بلا طعام ولا شراب .. وعلى الحالين فان الله سبحانه قد فعل ذلك ليزيل تعجب عزير ، واستبعاده لاحياء أهل القرية ، وأيضاً ليجعله آية على وجود البعث عند من علم بحاله من أهل عصره ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ولنجعلك آية للناس) .

(وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً). اختلفوا في هذه العظام : هل هي عظام عزير ، أو عظام حماره ؟. وقال قائل : انها عظام صاحب الحمار ، وان الله سبحانه أحيا أولاً عينيه ، لينظر الى بقية جسده كيف يتجمع ويحيا .. وهذا قول على الله بلا علم ، والأرجح انها عظام الحمار ، لقول صاحبه : لبثت يوماً أو بعض يوم . اذ لو كان قد رأى عظامه هو رميماً لتنبه الى طول الأمد.

وننشزها بالزاي ، أي نرفعها ، ونركّب بعضها ببعض ، كساها سبحانه لحماً ، تماماً كما بدأ أول خلقه يعيده ، قال الإمام علي (ع) : ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من شأنها واختراعها .

(فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شيء قدير) . قال هذا بعد أن مر بالتجربة الشخصية التي لا تقبل الشك ، وكيف يشك ، وقد شاهد بالعيان معاجز ثلاثاً : الأولى اعادته الى الحياة بعد الموت . الثانية : احياء حماره . الثالثة : بقاء طعامه مئة عام .

والعبرة التي نستخلصها من هذه القصة ان العاقل لا ينبغي له أن ينكـــر ما يعجز عقله عن ادراكه ، أو لا يتفق مع ما قرأه في كتاب أو صحيفة ، أو سمعه من أستاذ ، بل ينبغي أن يتحفظ ، حتى فيما يراه مخالفاً لقوانين الطبيعة .. فلقد أثبت العلم انه لا قوانين لها مطلقة ونهائية .

ليطمئن قلبي الآية ٢٦٠ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★

اللغة :

فصرهن ، أي اضممهن واجمعهن .

الاعراب :

اذ ظرف بمعنى وقت ، والعامل محذوف تقديره اذكر ، وكيف في محل نصب على الحال ، والعامل تحيي ،وليطمئن في محل نصب بأن مضمرة، والمصدر المنسبك مجرور باللام ، متعلق بمحذوف ، والتقدير سألتك للاطمئنـــان ، وسعياً مفعول مطلق ليأتينك ، أو حال بمعنى ساعيات .

المعنى :

معنى الآية واضح ، ولكن المفسرين يريدون أن يوجدوا سبباً للكلام على كل

حال ، ولذلك تساءلوا عن السبب الذي دعا ابراهيم (ع) الى هذا السؤال ، مع العلم بأنه مؤمن بالبعث ايماناً لا يشوبه شك ، ثم اختلفوا في جوابه على اثني عشر قولاً ، ذكرها الرازي ، ولا وجه لبحثهم من الأساس ، لأن الايمان بالغيب لا يتنافى مع طاب المشاهدة بالعيان ، فان كل من آمن بالله وملائكته ، وبما جاء في كتبه من أخبار الغيب ، كل المؤمنين من أكبر كبير الى أصغر صغير يتمنون أن يشاهدوا بالعيان ما آمنوا به عن طريق الغيب والوحي الا علي بن أبي طالب الذي قال : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

وكيف كان ، فان خليل الرحمن (ص) آمن بالبعث ايماناً غيبيـاً عن طريق الوحي كغيره من الأنبياء والصديقين ، ثم أحب أن يشاهد الحادثة بعينه بعد أن شاهدها بقلبه وعقله ، وبذلك تم لديه جميع طرق المعرفة قلباً وعقلاً وتجربة .

وقد أجاب الله سؤله ، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ويضمها اليه ، ثم يقطّعها أجزاء ، ويفرقها أشلاء ، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم يدعوهن اليه ، فيأتينه سعياً باذن الله . وامتثل ابراهيم أمر ربه، فعادت الأشلاء الى مكانها، ورجعت الحياة اليها ، وسعت اليه بقدرة الله .

والذي ننتهي اليه من هذه الآية ان طلب الكشف عن سر الخلق أو البعث ينشأ تارة عن الشك والتردد ، وهـذا يتنافى مع الايمان بقدرة الله والثقة بوحيه وأنبيائه ، وتارة ينشأ عن حب الاطلاع والمعرفة الحسية، مع الايمان بقدرة الخالق، والثقة بأنبيائه ، حتى ولو لم يرَ كيف يحيي الله الموتى ، كما هو الشأن في ايمان ابراهيم ، وهذا الطلب لا يضر بالايمان في شيء ، ولكنه صعب المنـال ، بل ومحال ان يتحقق لراغب إلا إذا كان نبياً كابراهيم الذي لا يزعزع ايمانه بقدرة الله شيء ، حتى ولو لم يستجب الله لسؤله ، وعلى هـذا فمن اشترط التجربة والمشاهدة لايمانه بالبعث فهو كافر من الأساس ، ولو كان مؤمناً بقدرة الله حقاً لكان في غنى عن هذا الشرط ، لأن قدرته تعالى لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .

حبة انبتت سبع سنابل الآية ٢٦١ - ٢٦٣ :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ★ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ★

الاعراب :

مثل الذين مثل مبتدأ ، والمضاف محذوف ، أي مثل صدقات الذين ، لأن اسم العين لا يخبر عنه باسم المعنى ، وكمثل حبة الكاف زائدة ، ومثل خبر ، والذين الثانية مبتدأ خبره جملة لهم أجرهم .

المعنى :

من تتبع آيات القرآن ، وتدبر معانيها يجد انها تهتم باصول ثلاثة : بث الدعوة الاسلامية ، والجهاد ، وانفاق المال في سبيل الله ، ذلك ان لهذه الاصول أعظم الأثر في تدعيم الاسلام وانتشاره، ولذا حث عليها بشتى أساليب الترغيب والترهيب، وتقدم العديد من آيات الحث على الجهاد وبذل المال ، ويأتي كثير غيرها، وأمامنا الآن أكثر من عشر آيات في البذل والانفاق .. منها تعد المنفق بالتعويض سبعمئة ضعف ، أو تزيد ، ومنها تنهاه عن اتباع الصدقة بالمن والأذى ، ومنها تأمره أن يكون العطاء خالصاً لوجه الله ومنها أن يكون من طيب الكسب وحلاله ،

لا من خبيثه وحرامه ، إلى غير ذلك[1] .

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء) . تساءل المفسرون : كيف ضرب الله مثلاً بحبة تنتج هذا الانتاج ، مع العلم بأنه لا وجود لها ؟ وبعضهم أجاب بأن المثال كناية عن الكثرة ، لا تعبيراً عن الواقع ، وقال آخر : انه مجرد فرض أريد منه أن العاقل اذا علم ان بذرته تعود عليه بسبعمئة ضعف يقدم ولا يحجم .

وليس من شك ان المفسرين استبعدوا هذا المثال ، لأنهم قاسوا الزراعة من حيث هي على الزراعة في العصر الذي عاشوا فيه ، حيث لا وسيلة اليهـا سوى الثور والحمار ، والمعول والمسحاة ، ولو كانوا في هذا العصر لم يروا في مثال الله أية غرابة بعد ان دخل العلم الى كل شيء ، واستعملت أدواته في الزراعة، وفي كل مظهر من مظاهر الحياة .

هذا وان عطاء ربك لا ينضب ، ولا تحصيه كثرة ، ولا يضيق على من يرتضي من عباده ، فالسبعمئة ضعف ليست حداً أعلى لفضله وعطائه ، ولذا قال : (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) . وكما تقبل الـ ٧٠٠ ضعف الزيادة فانها تقبل النقصان أيضاً .. حيث يراعى حال الباذل ، ومورد الشيء المبذول .. فرب درهم واحد ممن يحتاج اليه يكون أعظم أجراً عند الله من ألف ممن هو في غنى عنها .. وأيضاً درهم واحد يُبذل في اعلاء شأن الحق ، والتربية على الدين والأخلاق ، أو يُبذل في اسعاد الناس ، وخلاصهم من الظلم والفقر، هذا الدرهم الواحد الذي يبقى أثره ، ويدوم نفعه زمناً طويلاً أفضل مليون مرة من ألوف تُعطى لمن ينفقها على ترف أبنائه ، وأزواج بناته .

(الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم

---

١ قال بعض المفسرين الجدد : ان هذه الآيات « تضع النظام الاقتصادي » ... والحقيقة انها أبعد ما تكون عنه ، لأن النظام الاقتصادي يرتكز أولا وقبل كل شيء على تحديد وسائل الانتاج ، وتعيين أربابها ، وهذه الآيات وغيرها لم تتعرض لشيء من ذلك .. وإنما حثت الاغنياء أن يبذلوا من أموالهم في سبيل الله .

أجرهم عند ربهم) . للمن معان في اللغة ، منها الانعام ، يقال : أنعم الله عليك ، أي منّ عليك . ويقال : الله المنان ، أي المنعم ، ومنها القطع، قال تعالى : (وان لك لأجراً غير ممنون) أي غير مقطوع ، ومنها اظهار الصنيعة والفضل ، وهو المراد هنا ، قال صاحب مجمع البيان : المنّ أن تقول له : ألم أعطك ؟ ألم احسن اليك ؟ والأذى أن تقول : أراحني الله منك ، ومن ابتلائي بك .

والمعنى ان الانفاق والبذل الذي يعوضه الله أضعافاً هو الذي يتجه لله وحده ، لا للشهرة والمظاهر ، ولا يخدش شعور انسان ، لأن هذا يكدر الصنيعة،وينغص النعمة ، ويبطل الثواب .

(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) . القول المعروف هو الكلام الذي تقبله القلوب ، ولا تُنكره ، والمراد بالمغفرة هنا أن يتسامح المسؤول مع السائل اذا ألحّ بالسؤال ، أو فاه بالبذاءة والوقاحة اذا رُدّ بغير مقصوده ، كما هو شأن بعض السائلين .. والمعنى ان مقابلة السائل بكلمة طيبة ، والصبر عليه أفضل عند الله من العطاء مع الايذاء بسوء المقابلة .. وفي الحديث عن النبي (ص) انه قال : « اذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته ، حتى يفرغ منها ، ثم ردوا عليه بوقار ولين ، إما بذل يسير ، واما رد جميل » .

(والله غني) . عن جميع الصدقات والطاعات ، ونحن الفقراء الى عنايته ولطفه وثوابه .

(حليم) . لا يعاجل بالعقوبة في هذه الحياة ، وانما يؤخر العاصي ليوم لا ريب فيه .

لا تبطلوا صدقاتكم الآية ٢٦٤ - ٢٦٥ :

يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا

كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ★ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ★

اللغة :

الرئاء المراءاة ، أي تُري الناس انك تفعل الخير ،وانك من أهله ، والصفوان الحجر الأملس ، والوابل المطر الشديد ، والوبال سوء العاقبة ،والصلد من الأرض ما لا ينبت شيئاً لصلابته ، والربوة بتثليث الراء الرابية ، وأكلها أي ما يؤكل منها ، والطل الندى والمطر الخفيف .

الاعراب :

الكاف في قوله : كالذي اسم بمعنى مثل ، ومحله النصب على الحال من الواو في لا تبطلوا ، ورئاء الناس مفعول من أجله لينفق ، والكاف في كمثل زائدة ، وعليه تراب مبتدأ وخبر ، والجملة في محل جر صفة لصفوان، وصلداً حال من الهاء في تركه، وهو مؤوّل بيابس،وابتغاء مرضاة الله مفعول من أجله، وتثبيتاً معطوف عليه ، وضعفين حال من اكلها ، وفطلٌ فاعل لفعل محذوف ، والتقدير فيصيبها طل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) . بيّن سبحانه فيما سبق أن ترك المن

والأذى شرط لحصول الأجر والثواب على البذل والانفاق ، وان عدم الصدقة ، مع قول معروف خير منها مع المن والأذى ، وان من يبذل بلا من وأذى يضاعف له الأجر والثواب بلا حد وحساب ، وضرب لذلك مثلاً بحبة عادت على الزارع بـ ٧٠٠ ضعف .. بعد أن بيّن هذا كله ضرب في هذه الآية مثلاً لأصحاب المن والأذى بالمنافق المرائي الذي ينفق ماله طلباً لثناء الناس وحمدهم ، لا ابتغاء مرضاة الله وثوابه .

وقوله تعالى : (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) المراد به أن عمل المرائي ، وعمل الكافر سواء ، لأن كلاً منهما لم يبتغ وجه الله ، ومن هنا تواتر الحديث في ان الرياء شرك خفي .

(فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا) . الضمير في مثله يعود الى المرائي .. لقد شبه الله اولاً المانّ المؤذي بالمنافق المرائي ، ثم شبه هذا بصفوان عليه تراب ، وبديهة ان شبيه الشبيه شبيه ، كصديق الصديق ، وعليه يكون كل من المانّ المؤذي والمنافق المرائي كالصفوان ، أي الحجر الصلب الأملس ، يغطيه تراب خفيف يحجب صلابته ، فأصابه مطر غزير ذهب بالتراب .. وهكذا صدقة المؤذي والمرائي ، تماماً كالتراب على الحجر الأملس ، والأذى والرياء كالمطر الذي ذهب بالتراب .. وقوله تعالى : (لا يقدرون على شيء) معناه كما انه لا أحد من الخلق يقدر على رد ذلك التراب الذي اجتاحته السيول كذلك لا يقدر المراؤون والمؤذون على رد صدقاتهم .. والغرض انهم لا ينتفعون بها في الدنيا ، لأنها ذهبت من أيديهم ، ولا في الآخرة ، حيث أفسدها الأذى والرياء .

(والله لا يهدي القوم الكافرين) . المراد بالهداية هنا ثواب الآخرة بقرينة السياق ، لأن الكلام في ثواب الله ، والمراد بالكافرين من عمل لغير وجه الله ، فلقد جاء في الحديث الشريف : «اذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين كانوا يعبدون الناس ؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له ، فاني لا أقبل عملاً خالطه شيء من الدنيا وأهلها» .

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل) . بعد أن ضرب

الله مثلاً لصدقة المرائين والمؤذين ضرب مثلاً في هذه الآية لصدقة المخلصين ، كما هو شأنه عز وجل في المقابلة بين الضدين، واذا كانت صدقة أولئك كصفوان عليه تراب فان صدقة هؤلاء كجنة في مرتفع من الأرض ، عميقة التربة ، لا يخشى عليها من السيول ، كما هي حال حفنة التراب على الحجر الأملس، وهذه الجنة تثمر في السنة مثلي ما يثمر غيرها في المعتاد ، ولا تمحل اطلاقاً ، لجودة تربتها ، ويكفيها القليل من الري، حتى الندى ، لرطوبة ثراها ، واعتدال جوها، وهذا هو معنى قوله : فآتت أكلها – أي ثمرها – ضعفين فان لم يصبها وابل – مطر غزير – فطل ، وهو الندى .

أما قوله : «وابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم» فانه اشارة الى أمرين: الأول ان المؤمنين يطلبون مرضاة الله من الانفاق . الثاني ان هذا الانفاق كان بدافع من أنفسهم ، لا بدافع خارجي : وقيل : تثبيتاً من أنفسهم معناه انهم يجاهدون أنفسهم ، ويمرنونها على الطاعة بالبذل .. وهذا المعنى يصح إذا كانت من هنا بمعنى اللام ، كقوله تعالى .. « مما خطاياهم اغرقوا » أي لخطاياهم ، وكقول الفرزدق في الإمام زين العابدين : يغضي حياء ويغضى من مهابته .

وبعد ، فان في هاتين الآيتين من معجزة البلاغة ما لا تجدها في غير كلامه جلت عظمته .. فقد شبه أولاً صدقة الاذى بصدقة الرياء ، وشبه هذه بالتراب على الصفوان يذهب مع الريح والأمطار ، ثم ذكر في مقابل هذه الصدقة الخاسرة الصدقة الرابحة ، وهي صدقة الايمان ، وانها كبستان خصب التربة، يهب الخيرات على الدوام وفي كل عام ، سواء أجادت السماء بالمطر الغزير ، أو الخفيف .

أيود أحدكم الآية ٢٦٦ :

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ★

اللغة :

الاعصار ريح عاصفة تستدير في الأرض ، ثم تنعكس منها الى السماء حاملة الغبار ، فتكون كهيئة العمود ، وتسمى « الزوبعة » .

الإعراب :

أيود الهمزة للنفي والانكار ، أي لا يود ، وله فيها من كـل الثمرات له متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، أي رزق ومن كل الثمرات متعلق بمحذوف صفة للرزق ، ويجوز أن يتعلق بالرزق ، ونظير هذا المبتدأ المحذوف قول الشاعر العربي : « كأنك من جمال بني اقيش » أي كأنك جمل من جمال بني اقيش .

المعنى :

هذه الآية تصلح مثلاً لكل من عمل عملاً صالحاً ، وأتبعه بما يذهب بأجره وثوابه ، كالمن والأذى ، أو الرياء والنفاق ، والكفر والشرك،فحال كل واحد من هؤلاء ، ومن اليهم حال من كانت له جنة ينتفع بهـا هو ومن يعول ، فأصابتها جائحة أودت بها ، وهو أحوج ما يكون اليهـا لشيخوخته ، وضعف ذريته ، وعجزهم عن القيام بشأنه وشأنهم ، ولا مورد له غير هذه الجنة .

ووجه التمثيل ان من يفعل الخير ويفسده يأتي يوم القيامة،وهو أشد ما يكون حاجة الى ثواب ما عمل ، ولكنه يجد عمله هباء منثوراً حيث لم يقصد به وجه الله ، ويصبح عاجزاً لا يقدر على شيء ، تماماً كالشيخ الذي احترقت جنته بعد أن أقعده الكبر عن الكسب ، وله أولاد ضعفاء يلحون عليه بطلب أقواتهم ... وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) .

وقال المفسرون : انما خص النخيل والاعناب بالذكر لأنهما أحسن الفواكه نفعاً وطعماً ومنظراً .. وجاء جوابهم من وحي العصر الذي عاشوا فيه ، حيث

لا خوخ ولا تفاح ولا اجاص ولا برتقال .. ولو كانوا في هذا العصر لقالوا : انما خصهما بالذكر لأنهما كانا خير الفواكه يومذاك ، وبهذا يتبين معنا ان الحكم على الأشياء الطبيعية يجب أن يكون نسبياً مقيداً بالزمان والمكان .

وتسأل : ألا يتنافى التخصيص في قوله تعالى : «جنة من نخيل واعناب» مع التعميم في قوله : «له فيها من كل الثمرات » ؟.

الجواب : من الجائز ان أشجار النخيل والاعناب هي الكثرة الغالبة في الجنة.. ويجوز أيضاً أن يكون المراد بالثمرات المنافع ، ويكون المعنى ان صاحب الجنة متمتع بجميع منافعها وفوائدها .

الانفاق من الطيبات الآية ٢٦٧ – ٢٦٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ★ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ★

اللغة :

المراد بالطيب هنا الجيد ، وبالخبيث الرديء ، والتيمم القصد والعمد، ومعنى الغموض الخفاء ، والمراد به في الآية التساهل والتسامح ، يقال : أغمض فلان عن حقه اذا سامح وتساهل، والفحشاء والفحش التجاوز عن الحد، والمراد بالفحشاء هنا البخل .

الإعراب :

ان تغمضوا المصدر المنسبك من ان وصلتها في موضع نصب مفعول من أجله لآخذيه ، والتقدير لستم بآخذيه إلا لاغماضكم .

المعنى :

بعد ان حث الله سبحانه في الآيات السابقة على الصدقة ، وبين ما يجب أن يتصف به المتصدق من الاخلاص لله في صدقته ، والبعد عن الرياء ، والمنّ والأذى ، بعد هذا أشار هنا الى صفة الصدقة ، وانها ينبغي أن تكون من جيد المال ، لا من رديئه ، وبذلك تكمل الصدقة من سائر جهاتها ، قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض).

لو نظرنا الى ظاهر هذه الآية صارفين النظر عما جاء في السنة النبوية من بيان الواجبات المالية ، وتحديد نوعها ومقدارها ومصرفها — لو نظرنا الى الآية من حيث هي لاستفدنا منها ان في كل مال يكسبه الانسان حقاً لله ، يجب أن ينفق في سبيل مرضاته سبحانه ، على شريطة أن يكون الانفاق من جيد ما يملك ، لا من رديئه ، وأصرح من هذه الآية قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون — آل عمران ٩٢ » .

وهذا الانفاق يجب في كل مال سواء أكان مصدره الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو الهدية أو الارث أو الغوص أو المعدن ، أو أي شيء آخر .. هذا ما تدل عليه ألفاظ الآية ،لأن الإنفاق جاء بصيغة الأمر ، وهو يدل على الوجوب وقوله: « من طيبات ما كسبتم» يشمل جميع المكاسب ، وقوله : «مما أخرجنا لكم من الأرض» يشمل النبات والمعدن والبترول ، ولكن السنة النبوية — وهي تفسير وبيان للقرآن ، بخاصة ما يتصل بآيات الأحكام الشرعية — قد حددت الواجب المالي زكاةً كان أو خمساً ، أو نذورات أو كفارات ، وبينت المقدار والمصرف.. وقد تعرض الفقهاء لكل ذلك بالتفصيل في باب الزكاة والخمس والكفارات والنذورات .. وعليه تكون الآية واردة لمجرد تشريع الانفاق ورجحانه ، تماماً كقوله تعالى : «اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» .

(ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) . أي لا تقصدوا الرديء من أموالكم فتنفقوا منه .. وقيل في سبب نزول الآية : ان بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر ، أي رديئه ، وهذه الجملة ، وهي لا تيمموا الخبيث تأكيد للجملة الأولى ، وهي انفقوا من طيبات ، ومجمل المعنى: انفقوا من الجيد دون الرديء .

وأفتى الفقهاء في من يملك نوعاً من المال ، بعضه جيد ، وبعضه رديء ، أفتوا بأنه لا يجوز لهذا أن يخرج حق الله من القسم الرديء ، وعليه أن يخرجه من وسط الجيد ، وان اختار الأعلى فأفضل ، وبالأولى أن لا يكفي الرديء إذا كان جميع المال جيداً .. أجل ، يجوز الاخراج من الرديء إذا كان المال كله كذلك ، لأن الحق يتعلق بالعين الخارجية ، لا بالذمة .

(ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه) . ان المنصف يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به .. فاذا كان له مال جيد على غيره فلا يقبل الرديء بدلاً عنه الا اذا أغمض وتنازل ، اذن يلزمه - والحال هذه - اذا كان عليه مال جيد أن لا يدفع الرديء بدلاً عنه الا اذا أغمض صاحب الحق وتسامح ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : (ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه) . فهذا حجة بالغة على من يتصدق بالرديء ، مع انه لا يستوفيه بدلاً عن الجيد الا اذا تساهل هو وتسامح ، قال الإمام علي (ع) : كما تدين تدان .

(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) . معنى وعد الشيطان بالفقر ان يحرض بالوسوسة على الحرص والشح والتكالب ، وان يخوف من الانفاق بأنه يؤدي الى الفقر وسوء الحال ، ومعنى أمره بالفحشاء أن يغري بوسوسته بارتكاب المعاصي ، وترك الطاعات ، ومنها البخل والشح .

(والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) . لقد وعد الله سبحانه من ينفق الجيد من ماله ابتغاء مرضاته سبحانه ، وعد هذا في كتابه وعلى لسان نبيه بأمرين : الأول أن يكفر عنه الكثير من الخطايا ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها - التوبة ١٠٤ » . الثاني أن يخلف على المنفق خيراً مما أنفق ، قال تعالى : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين - سبأ ٣٩ » .

ومن حِكم الإمام علي (ع) : « الصدقة دواء منجح.. استنزِلوا الرزق بالصدقة.. تاجروا الله بالصدقة » .

ويوم كانت الروح الدينية مسيطرة على النفوس ، وموجهة التربيـة ،وسلوك الأفراد كان الأب يعطي بعض المال لولده الصغير ، ويأمره أن يتصدق به على الفقير معتقداً ان هذه الصدقة تمهد له سبيل التوفيق والنجاح .

الحكمة الآية ٢٦٩ :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ★

المعنى :

تطلق الحكمة على معانٍ : منها المصلحة ، كقولك : الحكمة من هذا الشيء كذا . ومنها الموعظة ، مثل الحكمة ضالة المؤمن ، ومنها العلم والفهم ، ومنه قوله تعالى : «ولقد آتينا لقمان الحكمة» .ومنها النبوة ، كقوله : وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب .. وتطلق الحكمة على الفلسفة . وقال قائل : الحكمة هي علم الفقه . وقال آخر : هي جميع العلوم الدينية . وقال ثالث : هي طاعة الله فقط .

ومهما قيل أو يقال فان الحكمة لا تخرج أبـداً عن معنى السداد والصواب ، ووضع الشيء في موضعه قولاً وعملاً ، فالحكيم هو الذي يُحكِم الشيء ، ويأتي به على مقتضى العقل والواقع ، لا حسب الميول والرغبـات ، ولا يستعجله قبل أوانه ، أو يمسك عنه في زمانه ، أو ينحرف به عن حدوده وقيوده .

وعلى هذا فالحكمة لا تختص بالأنبياء والأولياء ، ولا بالفلاسفة والعلماء ، فكل من اتقن عملاً وأحكمه فهو حكيم فيه ، سواء أكان فلاحاً ، أو صانعـاً ، أو تاجراً ، أو موظفاً ، أو واعظاً ، أو أديباً ، أو خطيباً ، أو حاكماً،أو جندياً،

أو غيره .. فالشرط الأول والأخير للحكمة والحكيم أن يحقق العمل الغرض المطلوب منه عقلاً وشرعاً ، دنيا وديناً .

وليس من شك ان من كانت الحكمة رائده ومرشده كان سعيداً في الدارين، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « ما أنعم الله على عبد بنعمة أعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة، قال تعالى (ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) . أي لا يعلم أحد ما أودع الله في الحكمة من الأسرار إلا من استخلصه لنفسه ، فالحكمة هي النجاة ، وصفة الثبات عند أوائل الأمور ، والوقوف عند عواقبها » .

ونجمل الاشارة هنا الى الفرق بين العلم والحكمة .. فالعلم يقيس الكميات ، ويتعرف على العلاقات التي تربط هذه الكميات بعضها ببعض ، ويكتشف القوانين التي تجمعها في شمل واحد ، والأثر الذي يترتب عليها من خير أو شر . أما الحكمة فانها تأمر باتباع العقل السليم ، والدين القويم ، واستعمال الشيء فيما وضع له ، وخلق من أجله – مثلاً – العلم يفتت الذرة ، ويوجد السفن الفضائية ، ولكنه لا ينظر الى الهدف الذي يرمي اليه العالم خيراً كان أو شراً ، ولا ينهاه عن هذا ، ويأمره بذاك ، أما الحكمة فلا يعنيها من تفتيت الذرة ، واختراع السفن كثير ولا قليل ، وانما تنظر الى ما تستعمل فيه الذرة وسفن الفضاء ، وتوجه الانسان الى أن يبتغي بهما خير الانسانية وهناءها ، لا شرها وشقاءها[1] .

وما أنفقتم من نفقة الآية ٢٧٠ – ٢٧١ :

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

---

١ قرأت فيما قرأت ان لدى الدول الكبرى قنابل ، الواحدة منها في طاقة مئة مليون طن من المتفجرات ، وانها يمكن أن تقتل في لحظات مئة وعشرين مليون نسمة ، وان سفن الفضاء تزود الطائرات الحربية بصور دقيقة للأهداف والمنشآت التي يريد العدو تدميرها ، كما تصور ثروات الأرض التي يطمع بها أهل الاحتكار والاستغلال ، ويدلنا هذا على كذب الدعايات التي يذيعها أصحاب هذه المخترعات بأن الغاية منها السلم ورفاهية الإنسان وسعادته ، وحمله في رحلات ترفيهية إلى القمر ، والزهرة .

مِنْ أَنْصَارٍ ★ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ★

الإعراب :

نعم فعل ماض ، وفاعلها مستتر ، وما نكرة في محل نصب على التمييز ، أي نعم شيئاً وهي أصلها ابداؤها ، ثم حذف المضاف ، وهو الابداء ، لدلالة الكلام عليه ، وأقيم المضاف اليه ، وهو ضمير الصدقات مقامه ، والتقدير نعم شيئاً هو ابداء الصدقات ، وهو مبتدأ ، والابداء خبر .

المعنى :

ثم عاد سبحانه الى ذكر الانفاق ، والترغيب فيه فقال : (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه) . لفظ النفقة يشمل كل ما يصدق عليه هذا الاسم،واجبة كانت النفقة أو مستحبة،كثيرة أو قليلة ، في طاعة أو معصية، سراً كان الانفاق أو جهراً .

ومعنى النذر لغة الوعد ، وشرعاً الزام الانسان نفسه بفعل شيء أو تركه لوجه الله ، وصيغته أن يقول الناذر : عليّ لله ، أو نذرت لله ، ولا يكفي مجرد القصد بلا صيغة ، ولا الصيغة بلا ذكر الله ، أو احد أسمائه الحسنى،فلو قال: نذر عليّ لئن كان كذا ان أفعل كذا لم يكن هذا من النذر في شيء لخلوه عن ذكر الله ، وأيضاً لا ينعقد النذر اطلاقاً إذا تعلق بمحرم أو مكروه .. فقد نذر شخص في عهد رسول الله (ص) أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم .. فقال الرسول (ص) : مروه فليتكلم ، ويستظل ، ويقعد ، وليتم صومه .

والضمير في يعلمه يعود الى (ما) في قوله : (وما أنفقتم) . أي ان الله

يعلم النفقة بأي دافع تكون ، ويجازي عليها ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

(وما للظالمين من أنصار) . المراد جميع الظالمين ، دون استثناء ، ومنهم الذين لا ينفقون اطلاقاً ، أو ينفقون الرديء ، أو رياءً ، أو يتبعون النفقة بالمنّ والأذى ، أو يضعونها في غير موضعها .. ومنهم أيضاً الذين ينكثون العهد ، ولا يفون بالنذر ، كل هؤلاء ، ومن اليهم لا أعوان ولا شفعاء لهم يدفعون عنهم بأس الله وعقابه .

(ان تبدوا الصدقات فنعما هي) . أي لا كراهية في اظهار الصدقة ، ما دام القصد منها وجه الله سبحانه .. سئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن الرجل يعمل الشيء من الخير ، فيراه انسان ، فيسره ذلك ؟. قال : لا بأس، ما من أحد الا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير اذا لم يصنع ذلك لذلك .

(وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم).ليس من شك ان اخفاء الصدقة أفضل من ابدائها ، لبعدها عن شبهة الرياء ، واظهار حاجة الفقير أمام الناس، وقد يكون في الابداء مصلحة ، كما لو كان مدعاة للاسوة والاقتداء ، وعندها يكون الابداء أفضل .. وقيل : ان اخفاء صدقة التطوع أفضل من ابدائها ، وبالعكس الصدقة المفروضة ، ولا نعرف حجة لهذا التفصيل ، وحديث : «صدقة السر تطفىء غضب الرب » يشمل الواجبة والمستحبة ، كما ان لفظ الفقراء في الآية يشمل الفقير المسلم ، وغير المسلم ، وقد أفتى الفقهاء باعطاء الصدقة المستحبة لغير المسلم اذا كان محتاجاً،لقول الرسول الأعظم (ص): «لكل كبد حرى أجر» .

(ويكفر عنكم من سيئاتكم) . من هنا للتبعيض ، أي بعض سيئاتكم ، وجيء بها ، لأن الصدقة لا تمحو جميع الذنوب ، وانما تمحو بعضها .

(والله بما تعملون خبير) . وما دام الله سبحانه يعلم السر ، تماماً كما يعلم الجهر ، فالأفضل السر ، لأنه أبعد عن الرياء الا اذا كان في العلانية مصلحة ، كالاسوة والاقتداء ، وان كثيراً من المخلصين يبالغون في اخفاء صدقاتهم ، فيتبرعون للمشاريع الخيرية باسم بعض المحسنين .

ليس عليك هداهم الآية ٢٧٢ – ٢٧٤ :

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ★ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ★ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ★

اللغة :

الحصر المنع والحبس ، والضرب في الأرض السير فيها ، والتعفف اظهار العفة ، والسيا العلامة التي يعرف بها الشيء ، والالحاف الالحاح .

الاعراب :

لأنفسكم خبر لمبتدأ محذوف ، أي فهو لأنفسكم ، وأيضاً للفقراء خبر لمبتدأ محذوف تقديره صدقاتكم للفقراء ، والحافاً قائم مقام المفعول المطلق ، أي لا يسألون الناس سؤالاً ملحفاً ، ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر،أي يلحفون الحافاً ، وسراً قائم مقام المفعول المطلق ، أي انفاقاً سراً ، مثل قمت طويلاً ، أي قياماً طويلاً ، وعلانية عطف على سراً ، ويجوز نصبها على الحال ، أي مسرين ومعلنين .

المعنى :

(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) . سبق في الآية ٢٦ من هذه السورة ان الهدى يطلق على معان : منها الهدى بالبيان والارشاد ، وهذا وظيفة النبي ، ومنها التوفيق من الله الى عمل الخير بتمهيد السبيل اليه ، ومنها الاهتداء ، أي تقبُّل النصيحة والعمل بها ؛ وهذا يسند الى العبد ، ومنها الثواب، ومنها الحكم على العبد بالهداية ..

ومعنى الهدى في قوله تعالى : (ليس عليك هداهم) الاهتداء وقبول النصح أي ليس عليك أن يعملوا بالحق ، وانما عليك ابلاغ الحق ، وكفى : « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب - الرعد ٤٠ » . ومعنى الهدى في قوله : (ولكن الله يهدي من يشاء) التوفيق الى طريق الخير .

وقيل في سبب نزول قوله : (ليس عليك هداهم) : ان المسلمين كانوا لا يتصدقون إلا على أهل دينهم،فخاطب الله نبيه بهذه الآية ، وأراد بها جميع المسلمين مبيناً لهم ان الكافر لا يعاقب على كفره في هذه الحياة بمنع الرزق عنه، والتضييق عليه كي يضطر الى الايمان .. وليس لأحد أن يعامله بذلك ، حتى ولو كان رسولاً من عند الله : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين - يونس ٩٩ » .

وتدل الآية ان الصدقة على غير المسلم جائزة،فرضاً كانت أو ندباً ، ولكن قول النبي (ص) : « أمرت ان آخذ الصدقة من أغنيائكم ، وأردها على فقرائكم». ان هذا الحديث يخصص الآية بصدقة الندب ، دون الفرض .

(وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) . ربما توهم متوهم ان في الانفاق خسارة له ، وحرماناً لأهله وعياله ، فدفع الله هذا الوهم بأنه يعود على المنفق بالخير والنفع دنياً وآخرة ، أما في الآخرة فالأجر والثواب ، وأما في الدنيا فقال الشيخ محمد عبده : « ان الانفاق يكف شر الفقراء عن الأغنياء ، لأن الفقراء اذا ضاق بهم الأمر يندفعون على أهل الثروة بالسرقة والايذاء والنهب ، ثم يسري شرهم الى غيرهم ، وربما صار فساداً عاماً يذهب بالأمن والراحة » .

ولا أدري هل استوحى الشيخ محمد عبده قوله هذا من النقابات العالية التي

خلقت المعضلات والمشكلات لأرباب العمل ، وأرغمتهم على الاعتراف بالكثير من حقوق العمال ؟..

(وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) . أي ما دمتم تقصدون بالنفقة وجه الله الكريم فهو يقبلها منكم ، سواء اعطيتموها لمسلم أو غير مسلم ، شريطة أن تكون من المال الجيد دون الرديء ، وان لا تكون مع المن والأذى .. وقيل : ان هذا نهي بصيغة الإخبار ، أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله .

(وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) . حتى ولو كان الانفاق على غير المسلم ، فانكم لا تُنقَصون من الجزاء شيئاً إذا كان الذي أنفقتم عليه محتاجاً .

أهل الصُّفة :

هاجر جماعة بدينهم الى مدينة الرسول (ص) في عهده تاركين بلادهم وأموالهم وأهليهم ، ولم يكن لهم في المدينة مسكن ولا عشيرة ، ولم يجدوا فيها وسيلة للعيش ، ولا يستطيعون السفر طلباً للرزق ، ويبلغ عددهم ٣٠٠ وقيل ٤٠٠ فلازموا المسجد يتعبدون فيه ، ويحرسون بيوت الرسول ، ويتعلمون القرآن ، وكان حفظه وتعلمه من أفضل الطاعات ، لأنه حفظ للدين ، وفي الوقت نفسه كانوا يخرجون مع الرسول في كل غزوة .. وكانوا يقيمون في صُفّة المسجد ، وهي موضع مظلل منه ، ومن هنا جاءت التسمية بأهل الصفة .

وكان النبي (ص) يطيّب قلوبهم ، ويقول لهم : « ابشروا يا أصحاب الصفة ، فمن لقيني من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فانه من رفاقي » . وهم أولى الناس بالصدقة ، لهذه الآية التي نزلت بهم ، وهي :

(للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً) . وقد وصفت هذه الآية أهل الصُّفة بصفات خمس :

١ - التفرغ للجهاد وطلب العلم ، وهذا معنى قوله : (احصروا في سبيل الله) . لأن البطال لا يصدق عليه انه حبس نفسه في سبيل الله .

٢ – العجز عن الكسب ، وهو المقصود بقوله : (لا يستطيعون ضرباً في الأرض) .

٣ – التعفف : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) .

٤ – ظهور علامة الفقر من وضعهم وحالهم ، لا من الحاحهم في السؤال ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : (تعرفهم بسيماهم) .

٥ – عدم السؤال مما في أيدي الناس سؤال الحاح ، واليه أشار سبحانه : (لا يسألون الناس الحافاً) .

وذكرنا في تفسير الآية ١٧٧ من هذه السورة ان السؤال محرم لغير ضرورة .

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيـــة فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . ذكر سبحانه ١٤ آية متوالية في أحكـــام الانفاق آخرها هذه الآية ، وهي خلاصة ما تقدم ، وتأكيد لفضيلة الانفاق في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً ، وفي سائر الأحوال سراً وجهراً .. وذكر الرازي في سبب نزول هذه الآية أقوالاً ، منها ما روي عن ابن عبـــاس ان علي بن أبي طالب (ع) كان يملك أربعة دراهم فقط ، فتصدق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سراً ، وبدرهم علانية ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الزكاة :

الزكاة غير صدقة التطوع ، لأن هذه الصدقة يدفعها المسلم ، وهو مخير بين فعلها وتركها ، ولا تخضع لشرط النصاب ، ولا لغيره سوى قصد التقرب بها الى الله وحده ، ويبدأ أجرها من عشرة أضعافها الى سبعمئة ضعف ، الى ما لا نهاية حسب دوافعها وأهدافها .

أما الزكاة فهي فرض عين ، وحق لازم ومعلوم في أموال المقتدر يدفعهـــا لمستحقها ، وهي ثالث أركان الاسلام الخمسة : الشهادتين ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

ويرى بعض الغيورين على الاسلام ان الزكاة نظام اقتصادي ، أو من النظام الاقتصادي للاسلام ، واعتبرها آخرون ضريبة في أموال الأغنياء .

والصحيح ان الزكاة أبعد ما تكون عن الضريبة والنظـام الاقتصادي ، لأن الشرط الأساسي لصحة الزكاة وقبولها هي نية التقرب بها الى الله،وبدونها لا تقبل اطلاقاً .. ولا شيء من الضرائب والأنظمة الاقتصادية يُعتبر فيه هذا الشرط .

هذا ، الى ان النظام الاقتصادي بمعناه الحديث ينظر أول ما ينظر الى وسائل الانتاج ، كالأرض والمعدن والمصنع ويعتبرها ملكـاً شخصياً للأفراد يسيطرون عليها ، ويتحكمون بها ، كما هي الحال في النظام الرأسمالي ، أو يعتبرها ملكاً للجماعة تديرها وتتحكم بها الدولة ، كالنظام الاشتراكي ، والزكـاة لا تنظر الى هذه الجهة اطلاقاً ..

ثم ان الضريبة تتولى السلطة الحاكمة أمر تحصيلها وانفاقها ، ولا تجيز بحال أن يمتنع المالك عن اعطائها للسلطة : ويتولى هو بنفسه صرفها في مواردها ..

وقد أجمع فقهاء المسلمين كافة على ان للمالك أن ينفق الزكاة بنفسه دون اذن الحاكم ، وانه يُصدَّق بلا بينة ويمين اذا قال : انفقتها في وجهها ، وأين هذا من الضريبة ؟!. بل أجاز الفقهاء للجابي أن يصرف الزكاة الى الفقراء بنفسه ، ولا يردها الى بيت المال .. قال الإمام علي (ع) لأحد عماله : اصرف ما عندك من المال الى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع الفاقة والخلات . وبديهة ان هذا التصرف محظور على جابي الضرائب .

وقد يقول قائل : ان فريضة الزكاة معناها الاعتراف بأن الفقر محتوم لا مفر منه،وان الاسلام يعالجه بالصدقات والتبرعات،وانه يقيم الحياة على البذل والعطاء ، وبالنتيجة يقسم الناس الى طبقات على أساس الغنى والفقر .

الجواب أولاً : ان مصرف الزكاة لا ينحصر بالفقراء والمساكين فقط ، فان من جملة مصرفها المصالح العامة التي عبّر الله عنها بسبيـل الله في العديد من الآيات ، فاذا لم يوجد الفقير صرفت الزكـاة في هذا السبيل .. اذن ، فريضة الزكاة لا تحتم وجود الفقر على كل حال ، كي يقال : انهـا اعتراف واقرار بأن الفقر ضربة لازم لا مفر منها .

ثانياً : ان الضمان الاجتماعي يكفل للمعوزين مـا يصونهم عن التسول والتشرد ، وهـذا الضمان موجود في البلاد الاشتراكية التي لا تعترف بالفوارق المادية والطبقات .

ثالثاً : ماذا نصنع بالمريض الذي لا يملك ثمن الدواء ، وبالجائع الذي لا يجد وسيلة للغذاء في مجتمع يسوده فساد الأوضاع : هل نتركهما ، حتى تصلح الأوضاع ، ويمحى من الوجود أثر الفاقة والبؤس : أو نُشرّع قانوناً يضمن لهما الحياة وسد الخلة ؟ ثم هـل يمكن تغيير الأوضاع ، ومحو الفقر بجرة قلم ، ودون أن يمر المجتمع بأكثر من مرحلة ؟.

ان الاسلام حرب على الضعف بشتى مظاهره ، بخاصة الفقر ، وقـد تعوذ النبي (ص) منـه ، وعنه في بعض الروايات : « كاد الفقر يكون كفراً .. المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » .

ان رسالة السماء تستهدف كرامة الانسان وسعادته ، والفقر منقصة ومذلة ، وشقاء وبـلاء .. فمحال ان يقره الاسلام .. ان الاسلام لا يأبى ان يكون في المجتمع غني وأغنى ، وقوي وأقوى ، ولكنه يأبى أن يكون فيه فقير وضعيف .

ان الاسلام لم يشرع الزكاة من أجل الفقراء فقط – كما يُظن – وانما شرعها حلاً للعديد من المشاكل، منها مشكلة الفقر ، حيث يوجد ، ومنها مشكلة الرق، حيث تُفك رقاب العبيد بأموال الزكاة ، ومنها مشكلة الانفاق على الجند المجاهد، وما الى ذلك من المصالح العامة ، كإنشاء المدارس والمصحات ودور الأيتام ، وشق الطرق والري .. ويأتي الكلام ان شاء الله عن مصرف الزكاة في الآية ٦٠ من سورة التوبة . ولو افترض ان مر على الانسانية زمان لا فقير فيه ، وجميع المصالح العامة متحققة متوافرة بحيث لا يوجد اطلاقاً مصرف للزكاة فانها تلغى من غير شك ، وهذا الزمان آتٍ لا محالة ، فقد جاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري ، باب الفتن ، عن النبي (ص) انه قال : « تصدقوا ، فسيأتي على الناس زمان ، يمشي الرجل بصدقته ، فلا يجد من يقبلها» .

هذا ، إلى أن الاسلام أوجب على صاحب الزكاة حين يؤديـها الى المحتاج أن لا يؤذي كرامته ، ولا يخدش شعوره ، وان يعتقد انه يؤدي واجباً عليه ، وديناً لا بد من وفائه ، وليؤكد القرآن هذا المعنى قال : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم-المعارج ٢٤-٢٥ » .. وتقدم تفسير الآية ٢٦٢-٢٦٣ : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى .. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

وبالرغم من أن الاسلام سبق الشرائع كلها السماوية والوضعية الى تشريع الزكاة، هذا التشريع الانساني الذي لم يهتد اليـــه أرباب الأنظمة إلا بعد الاسلام بمئات السنين ، وأسموه بالضمان الاجتماعي – على الرغم من ذلك فان أفضل شيء يقدم للمحتاجين في نظر الاسلام ان تهيأ لهم الأعمال المناسبة لقدراتهم ، حتى يشعروا بقيمتهم في الحياة : والله تعالى يحب عبده المؤمن المحترف .

وخير ما نختم به هذه الفقرة قول الإمام جعفر الصادق (ع) : على كل جزء من أجزائك زكاة لله ، فزكاة العين الاعتبار ، والغض عن المحرمات ، وزكاة الأذن الاستماع الى العلم والحكمة ، وزكاة اللسان الحمد والشكر لله ، والنصيحة للمسلمين ، وزكاة اليد البذل ،وزكاة الرجل السعي للجهاد والاصلاح بين الناس .

الربا الآية ٢٧٥ – ٢٨١ :

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ★ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا

تُظْلَمُونَ★ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ★ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ★

اللغة :

الربا الزيادة ، والخبط الضرب على غير هدى ، ومنه يخبط خبط عشواء – العشواء الناقة الضعيفة البصر – والمس الجنون ، والمحق النقص ، وفأذنوا ، أي فاعلموا ، والنظرة الانتظار .

الاعراب :

كما يقوم الكاف اسم بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق ، أي لا يقومون الا قياماً مثل قيام الذي يتخبطه الشيطان ، وان كان ذو عسرة كان تامة ، وذو فاعل ، وفنظرة خبر لمبتدأ محذوف ، أي فالواجب نظرة ، وان تصدقوا ، أي تتصدقوا وان وصلتها في موضع رفع على الابتداء ، والخبر خير لكم ، والتقدير الصدقة خير لكم .

وجه المناسبة :

موضوع كل من الصدقة والربا هو المال،مع وجود الفارق ، لأن الصدقة بذل بلا عوض ، وطهارة وزكاة ، وتكافل وتضامن ، والربا استرداد للمال مع الزيادة ، وطمع وجشع ، ودنس.وقذارة ، وسلب واستغلال ، فالمقابلة بينهما من حيث الموضوع مقابلة النظير للنظير ، ومن حيث الحكم والغاية مقابلة الضد للضد .. واذا كانت الأشياء تذكر بنظائرها فانها تذكر أيضاً بأضدادها ، ولذا

جاء حكم الربا عقب حكم الصدقات مباشرة ، وقبل أن نتعرض لتفسير الآيات نمهد بالاشارة الى تحديد الربا في الشريعة ، ودليل تحريمه ، والسبب الموجب له.

تحديد الربا :

الربا في اللغة الزيادة ، ومنه قوله تعالى : (اهتزت وربت) . أي زادت، وفي الشريعة ينقسم الى ربا النسيئة ، أي القرض ، وربا الفضل ، أي الزيادة بسبب المعاوضة بين متجانسين على التفصيل التالي :

ومعنى ربا النسيئة أو القرض أن يقرض الانسان شيئاً لغيره،أي شيء كان ، ويشترط على المستقرض المنفعة من وراء القرض ، سواء أكانت المنفعة من جنس المال ، كمن أقرض عشرة دراهم بشرط أن يردها أحد عشر ، أو من غير جنس المال الذي أقرضه ، كما لو اشترط صاحب المال على المستقرض أن يعمل له عملاً ، أو يعيره كتاباً ، أو أي شيء ، قال رسول الله (ص) : « كل قرض جر نفعاً فهو حرام » .. فلم يفرق بين أنواع النفع .. أجل ، اذا رد المستقرض المال ، مع الزيادة تبرعاً منه ، ودون شرط كان له ذلك ، وجاز للمقرض أن يأخذه ، فقد كان النبي (ص) يرد القرض مع الزيادة ، ويقول : ان خير الناس أحسنهم قرضاً .

وينبغي أن نتنبه الى أن الربا يثبت في القرض بشرط الزيادة والمنفعة اطلاقاً ، سواء أكانت العين من نوع المكيل أو الموزون أو المعدود أو المذروع ، وسواء أكانت من نوع المال المقترض ، أو من غيره .. وبكلمة ان ربا القرض لا فرق فيه بين عين وعين ، ولا بين منفعة ومنفعة .

أما ربا الفضل ، وهو الزيادة في المعاوضة ، فيشترط فيه أمران : الأول أن يصدق على كل من العوضين اسم الحقيقة النوعية التي توجد فيها بجميع مقوماتها، كبيع الحنطة بالحنطة ، أو بيع الحنطة بالدقيق ، لأن الثاني متفرع عن الأول ، أو بيع النشاء بالدقيق ، لأن الاثنين متفرعان عن أصل واحد ، وهو الحنطة ، والدليل على هذا الشرط قول النبي (ص) : « اذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم » . وأجمع الفقهاء الا من شذ على ان الحنطة والشعير من جنس واحد .

الشرط الثاني : أن يكون العوضان مما يكال أو يوزن ، فلا ربا فيما يباع عداً كالبيض ، ولا مشاهدةً كالثوب والحيوان ، فيجوز بيع بيضة ببيضتين ، وثوب بثوبين نقداً ونسيئة .

والخلاصة ان الربا محرم في الدين اطلاقاً ، وفي المعاوضة في خصوص ما يكال أو يوزن معدناً كان كالذهب والفضة ، أو حباً كالحنطة والشعير ، أو فاكهة أو نباتاً مع كون الاثنين من جنس واحد . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في الجزء الثالث من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ، فصل « الربا » .

التحريم :

يحرم الربا بنص الكتاب والسنة المتواترة ، واجماع المسلمين كافة من يوم الرسول (ص) الى اليوم ، بل لا يحتاج التحريم الى دليل ، لأنه من الواضحات البديهية ، تماماً كوجوب الصلاة ، وتحريم الزنا ، ومن هنا حكم الفقهاء بكفر من أنكر تحريم الربا ، لأنه ينكر ما ثبت بضرورة الدين .. وكما يحرم أخذ الربا يحرم اعطاؤه ، فقد جاء في الحديث : « لعن الله الربا وآكله وبائعه ومشتريه وكاتبه والشاهد عليه » .

سبب التحريم :

ان من يؤمن بالله ، وأنه المشرع الأول للحرام والحلال لا يطلب أكثر من وجود الوحي على تحريم الربا ، واذا سأل عن السبب الموجب فلا يسأل ليقتنع ، بل لمجرد حب الاطلاع ، أو ليُقنع الذين أشارت اليهم هذه الآية : « واذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون – الزمر ٤٥ » وكيف كان ، فقد ذكروا لتحريم الربا أسباباً :

« منها » : انه يتنافى مع أسمى المبادىء الانسانية ، كالبر والتعاون والتعاطف.

و « منها » : انه أكل للمال بالباطل ، لأن المرابي يأخذه بلا عوض .. وإذا قال قائل : ان العوض موجود ، وهو ان صاحب المال قد سلط المستقرض

على ماله ، ومكنه من استغلاله والانتفاع به ، فيكون حال الربا ، تماماً كحال ايجار الأرض والدار والحيوان .

قلنا في جوابه : فرق بعيد بين الايجار والربا ، ذلك ان المستأجر غير مسؤول عن العين المستأجرة اذا تلفت ، أو اعيبت إلا اذا تسبب هو في ذلك ، تماماً كالأجنبي ، اما اذا تلف الشيء المقترض - بفتح الراء - فانه يتلف من مال المستقرض .

و « منها » ان المرابي يربح دائماً ، والمستقرض معرّض للخسارة ، وفي النهاية يحتكر المرابي الثروة بكاملها ، وقد تنبه لهذا العيب بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين الذين نشأوا في ظل النظام الربوي ، ومن هؤلاء الدكتور شاخت الألماني مدير بنك الرايخ سابقاً ، قال من محاضرة ألقاها بدمشق عام ١٩٥٣ :

« يمكننا بعملية رياضية ان نعلم ان جميع المال في الأرض سوف ينتهي الى عدد قليل جداً من المرابين ، وذلك ان الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية ، بينما المدين معرض للربح والخسارة ، ومن ثم فان المال كله في النهاية لا بد أن يصير الى الذي يربح دائماً ، وهذه النظرية في طريقها الى التحقيق الكامل ، فان معظم ميلاك المال يملكه بضعة آلاف . أما جميع الملاك ، وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك والعمال وغيرهم فليسوا سوى أجراء ، يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجني ثمرة كدهم أولئك الآلاف » .

ومن المتخصصين بعلم الاقتصاد من أثبت ان فكرة الربا أساسها ومصدرها الأول اليهود ، وان غيرهم أخذها عنهم .. وليس ذلك ببعيد ، فان تاريخ اليهود القديم والحديث يثبت بأن إلهم ودينهم وشرفهم وسياستهم هو المال وحده لا شريك له ، وان أية وسيلة تؤدي اليه فهي شريفة ونبيلة ، حتى ولو كانت دعارة ، أو تدييثاً ، أو قتلاً أو سرقة ، أو نفاقاً ورياء ، أو أية جريمة ورذيلة .

المعنى :

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس).

ان الشيطان لا يمس أحداً، ولا سلطان له على أحد في الخبل والصرع، وانما القصد مجرد التشبيه والتقريب لأذهان العرب الذين يقولون عمن يصاب بالصرع: مسه الشيطان .. ومعنى الآية ان حال الذين يتعاملون بالربا، تماماً كحال المجنون والمصروع الذي يخبط في تصرفاته خبط عشواء، وروي عن ابن عباس: ان المرابين يقومون من قبورهم غداً كالمصروعين، ويكون ذلك امارة لأهل الموقف على انهم اكلة الربا.

(ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) . ذلك اشارة الى استحلالهم للربا، وقد فلسفوه بأن البيع والربا متماثلان من جميع الوجوه، فكيف يكون البيع حلالاً دون الربا ؟!. أليس للانسان أن يبيع ما يساوي خمسة دراهم بستة، وان يبيع ما يساوي درهماً معجلاً بدرهمين مؤجلين ؟.. اذن، ينبغي أن يُسمح له باعطاء عشرة دراهم بأحد عشر الى شهر، والفرق تحكم في نظر العقل.

ورد الله سبحانه هذا الزعم بقوله: (وأحل الله البيع وحرم الربا). ووجه الرد ان مجرد تماثلهما في الظاهر لا يستدعي أن يكونا كذلك في الواقع، فان البيع عملية تجارية نافعة، والبائع يقوم بدور الوسيط بين المنتج والمستهلك، فيكون ربحه عوضاً عن أتعابه، وليس أكلاً للمال بالباطل، أما الربا فهو استغلال محض، وأخذ للزيادة من غير مقابل، فيكون أكلاً للمال بالباطل .. ومن أجل هذا أحل الله البيع، وحرم الربا .. فاختلافهما حكماً عند الله دليل على اختلافهما واقعاً، وكذلك العكس.

(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) . أي من كان قد أخذ الربا قبل أن يتزل به التحريم، ثم تركه بعد التحريم لا يكلَّف رده الى من أخذه منه، وكذلك من يسلم الآن، فان كان قد أخذ الربا قبل اسلامه لا يجب عليه الرد بعد ان يسلم، فهذه الآية، تماماً كقوله تعالى: « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ».

ومبدأ عدم المفعول الرجعي للقانون أخذ به التشريع الجديد في موارد كثيرة، بخاصة في الأمور المالية، وعللوه بأنه يُحدث هزة اقتصادية يصعب تلافيها.

(وأمره الى الله). ذكروا في تفسير العبارة وجوهاً لم تركن النفس اليها. والذي فهمناه نحن ان من أخذ الربا جهلاً بحكمه، وتركه بعد أن علم نهي الله عنه

طاعة له فان الله سبحانه يشمله بعنايته ، ويغنيه بحلاله عن حرامه ، لأنه ترك الحرام توكلاً على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

(ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). معناه ان الذين لا يأتمرون بأمر الله ، ولا ينتهون بنهيه ، ويستمرون على أكل الربا عناداً واستخفافاً فهم مخلدون في النار ، لأن مثل هذا العناد والاصرار لا يصدر إلا عن كافر جاحد .

(يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم) . المحق هو النقصان ، والربا الزيادة ، والمعنى ان المرابي طلب المزيد في ماله ، ولكن الربا في الحقيقة نقصان للمال ، حيث يصبح رجساً محرماً ، والحرام يُخرج المال عن المالك ، ويجعل تصرف المرابي فيه كتصرف الغاصب في المال المغصوب ، هذا بالاضافة الى الاثم والعذاب،وبديهة ان كل ما كان سبباً لغضب الله وعذابه فهو رجس ونقصان ، وعمل من وحي الشيطان .

أما الصدقة فانها تطهر المال وتزكيه ، وتُثبته على ملك المتصدق والمزكي ، وتستدعي مرضاة الله وثوابه ، وهذا هو عين الكمال والزيادة .. وبكلمة ان كثير المال الحرام قليل ، وقليل المال الحلال كثير .. (والكفار الأثيم) هو الذي يتمادى في أكل الربا ، لا يرتدع عنه ، وكذا من يتمادى في ترك الزكاة ، ولا يكترث بتهديد الله ووعيده .

واستناداً الى هذه الآية يصح القول : ان أكثر المنتمين الى الاسلام في هذا العصر كفار آثمون ، لتماديهم في أكل الربا ، وترك الخمس والزكاة .

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . هذه الآية ظاهرة المعنى لا تحتاج الى تفسير ، ومع هذا فقد مر تفسيرها في الآية ٢٥ و ٨٢ .. وانما أعاد الله سبحانه هذا الوعد اطراداً في ذكر الوعد بعد الوعيد ، وبالعكس ، ولما بالغ هنا في وعيد المرابين اتبعه بوعد الصالحين .. وتجمل الاشارة إلى أن ظاهر الآية يدل على ان الايمان النظري مجرداً عن العمل ليس بشيء .

(يا أيها الذين آمنوا) بألسنتهم (اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين) حقاً في قلوبكم . وقوله : ذروا ما بقي من الربا يشعر بأن التحريم ليس له مفعول رجعي ، كما أشرنا .

(فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) . ولا موجب لاعلان الحرب من الله ورسوله على من أصر على أكل الربا الا انه كافر ، أو بحكم الكافر ، حتى ولو أكله تهاوناً لا جحوداً .. ولكن الروايات عن المعصوم قسمت أكل الربا الى نوعين : الأول من يأكله مستحلاً له ، وهذا كافر من غير شك ، لأنه قد أنكر ما ثبت بضرورة الدين . قيل للإمام جعفر الصادق (ع) : ان فلاناً يأكل الربا ويسميه اللبا . قال : لئن أمكنني الله منه لأضربن عنقه . النوع الثاني : ان يأكله تهاوناً بحكم الله ، مع الايمان بتحريمه ، وهذا يُستتاب أولاً وثانياً فان أصر يقتل . فعن الإمام الصادق (ع) : «آكل الربا يؤدب بعد البينة، فان عاد أُدب ، فان عاد قُتل » . وقيل : يقتل في الرابعة .

(وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) . أي لا تظلمون الغريم بطلب الزيادة على رأس المال ، ولا تُظلمون أنتم بنقصان رأس المال .

(وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) . كل مدين سواء استدان بالربا، أو بدونه لا تجوز مضايقته، اذا كان معسراً ، كما لا يجوز للمدين الموسر أن يماطل بالوفاء ، قال رسول الله (ص) : « كما لا يحل لغريمك أن يمطلك،وهو موسر كذلك لا يحل لك أن تعسره - أي تضايقه - اذا كان معسراً» .

وحدّ المعسر الذي لا تجوز مضايقته في الشريعة الاسلامية هو الذي لا يملك الا دار سكناه ، وما تدعو اليه الضرورة كثيابه وكتبه وأثاث بيته اللازمة لحياته، وأدوات الصناعة التي يكتسب منها قوته ، ومؤنة يوم واحد له ولعياله،كل هذه لا يجب بيعها لقضاء الدّين . وذكرنا مستثنيات الدين مفصلاً في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ، فصل المفلس .

(وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) . ليس من شك ان ابراء المعسر من الدين فضيلة ، بل ومن أعظم الطاعات ، لأن فيه تنفيساً لكربته ، وقضاء لحاجته ، وقد جاء في الحديث : « من انظر معسراً ، أو وضع عنه أظلّه الله تحت ظله يوم لا ظل الا ظله » .

واتفق الفقهاء كلمة واحدة على ان من استدان في غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء تسدد ديونه من بيت المال ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « من طلب هذا الرزق من حله ، ليعود به على نفسه ، وعلى عياله كان كالمجاهد

في سبيل الله ، فان غلب عليه ، فليستدن على الله ، وعلى رسوله ما يقوت به عياله » . ومعنى فليستدن على الله ورسوله ان دينه يسدد من بيت المـــال الذي يجب صرفه في سبيل الله .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك في الآية ٦٠ من سورة التوبـة : « انمـــا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكـيم » . والغارمون قوم وقعت عليهم ديون أنفقوها في طاعة الله .

وقوله تعالى : (ان كنتم تعلمون) ترغيب في العمل بالعلم ، أي ما دمـتم تعلمون ان ابراء المعسر من الدين خير فعليكم أن تعملوا بعلمـكم هذا ، وقيل : ان المراد بـ «تعلمون» هنا تعملون ، أي ان كنتم عاملين بالخير فتصدقوا بالدين على المعسر .. وليس هذا ببعيد .. قال الإمام علي (ع) : العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فان أجابه والا ارتحل عنه .. وكثير من علماء هذا العصر لا يسمون النظرية ، أية نظرية،علماً الا بعد أن يلمسوا صدقها بالتطبيق والتجربة .

(واتقوا يومـــاً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) . بعد أن نهى سبحانه عن الربا ، وتشدد فيه وأمر بالصبر على المدين المعسر ، أو ابرائه من الدين في سبع آيات ، بعد هذا عقب سبحانه بهذه الآية التي خوف فيها العصاة من يوم الحساب والجزاء ، وهوله وعذابه .

وفي مجمع البيان ان هذه الآية آخر آية نزلت على رسول الله (ص) ، وانه عاش بعدها واحداً وعشرين يوماً .

الدّين الآية ٢٨٢ ـ ٢٨٣ :

يَا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ

اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ★ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ★

اللغة :

الاملال والاملاء بمعنى واحد ، وهو الالقاء ، والبخس النقص ، والشهيد مبالغة الشاهد ، وهو من شهد الشيء وحضره ، والضلال عدم الاهتداء، والمراد به هنا الخطأ ، والسأم الملل والضجر ، وأقسط ، أي أعدل ، وأقوم ، أي أبلغ في الاستقامة ، وأدنى ، أي أقرب ، والفسوق هو الفسق ، أي الخروج

عن طاعة الله ، ورهان جمع رهن ، ومعناه في اللغة الحبس ، والمراد بـه هنا وثيقة لدين المرتهن .

الإعراب :

فرجل وامرأتان رجل فاعـل لفعل محذوف ، أي فليشهد رجل وامرأتان ، ويجوز جعله خبراً لمبتدأ محذوف ، أي فالذي يشهد رجل وامرأتان ، والمصدر من أن تضل مفعول لأجلـه لتذكر الأخرى ، والمصدر من أن تكتبوه مفعول لـ « لا تسأموا » ، وصغيراً أو كبيراً حالٌ من الضمير في تكتبوه، وتجارة بالنصب خبر كان ، واسمها محذوف ، أي الا ان تكون التجارة تجارة حاضرة ، ويجوز الرفع على أن تكون تامـة لا تحتاج الى خبر ، ورهان خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير فالوثيقة رهان ، وقلبه فاعل لآثم .

المعنى :

ذكر الله سبحانه في آخر هذه السورة احكاماً شرعية تتعلق بالصدقات والربا والدَّين والتجارة والرهن ، وتقدم الكلام عن الصدقة والربا ، والكلام الآن في بعض مسائل الدَّين والرهن والتجارة ، وقد اهتمت الآية كثيراً بكتابة الدين ، والاشهاد عليه ، حيث أمر الله بالكتابة أولاً بقوله : (فاكتبوه) . وثانياً : (ولا تسأموا أن تكتبوه) . وثالثـاً في بيان الحكمة من الكتابة والاشهـاد : (ذلكم أقسط .. وأقوم .. وأدنى) .

وبالرغم من ذلك فان أكثر فقهاء المذاهب لم يوجبوا الكتابة في الدين ، ولا في البيع ، ولا الاشهاد عليها ، وحملوا الأمر بذلك على الاستحباب ، ويؤيـد قولهم بالاستحباب ان الله سبحانه بعد أن أمر بالكتابة والاشهاد قال : (فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته) . أي اذا ائتمن الدائن المدين من غير صك ولا اشهاد فعلى المدين الوفاء، وهذا ترخيص ظاهر بترك الكتابة والاشهاد، وقريباً يأتي تفسير هذه الآية ، وهي (فان أمن) .

(يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) . التداين على وزن تفاعل ، أي داين بعضكم بعضاً ، ويأتي التداين لمعنيين : الأول التداين بالمال . الثاني المجازاة ، قال الإمام علي (ع) : كما تدين تدان، ولما كان اللفظ محتملاً لهذين المعنيين قال تعالى : تداينتم بدين ، دفعاً لارادة المجازاة من التداين، والأجل الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، والمسمى هو الذي يعين بالتسمية ، كالسنة والشهر ، وقوله تعالى : (فاكتبوه) أمر بكتابة الدّين ، والأمر يدل على الوجوب ، ولكن جرت سيرة المسلمين منذ القديم على عدم الالتزام بكتابة الدّين والاشهاد عليه ، فتعين حمل الأمر على الندب والارشاد .

بين القرض والدّين :

يشترك الدّين مع القرض في ان كلاً منهما يتوقف الانتفاع به على استهلاكه، وانه حق ثابت في الذمة ، ويفترق القرض عن الدّين في ان العين المقترَضة تسدد بمثلها في الجنس والصفات ، فاذا استقرضتَ نقداً ثبت في ذمتك للمقرض نقد مثله ، وكذا إذا استقرضت طعاماً أو شراباً أو ثوباً ، وعلى هذا ينحصر القرض في المثليات دون القيميات .

أما الدّين فيثبت في الذمة بسبب من الأسباب الموجبة له ، كالقرض، والبيع نسيئة ، والزواج بمهر مؤجل ، والجناية ، وما إلى هذه ، وعلى هذا يكون الدّين أعم من القرض ، ويقضى بمثله ان كان مثلياً ، وبقيمته ان كان قيمياً .

(وليكتب بينكم كاتب بالعدل) . لما كان الغرض من كتابة الدين ضمان الحق لكلٍ من الدائن والمدين ، ودفع التنازع والتخاصم بينهما — لما كان كذلك وجب أن يكون الكاتب أميناً عارفاً بأحكام الدين ، إذ لو كان جاهلاً ، أو متحيزاً انتقض الغرض المقصود .

وتسأل : لماذا قال : ليكتب كاتب بالعدل ، ولم يقل : ليكتب بينكم كاتب عادل ؟

الجواب : لأن الكتابة بين الناس لا يشترط فيها أن يتصف الكاتب بالعدالة

بمعناها الشرعي ، كما هو الشأن في القاضي والمفتي وامام الجماعة في الصلاة، لأن الغرض من كتابة الدّين ضمان الحق وصيانتــه ، كما أشرنا ، ويكفي لذلك أن يكون الكاتب عادلاً في هذه الجهة فقط ، لا في جميع أقواله وأفعاله .. ومن هنا يمكن القول بأن هذه الآية تشعر بأن الشاهد لا يشترط فيه العدالة الشرعية ، بل يكفي الثقة بكونه صادقاً وعادلاً في شهادته ، لم يتحيز فيها لأحد المتخاصمين ، ونحمل عــدالة الشاهد التي وردت في الأخبار على العدالة النسبية ، دون العدالة المطلقة .

وان قال قائل : ان اعطاء حــكم كاتب الدين للشاهــد قياس ، وأنت من القائلين ببطلانه ؟.

قلنا في جوابه : ان كاتب الدين شاهد على من أملى عليــه الدين ، وان لم يسمَّ شاهداً عند العرف ، وبكلمة ان للشاهد فردين لافظاً وكاتباً ، هذا يشهد بالكلام المكتوب ، وذاك يشهد بالكلام الملفوظ ، والكتابة أخت اللفظ .

(ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) . المراد بعلمه الله أمره والمأمور به الكتابة بالعدل ، ومن غير تحيز ، وقولـه : (فليكتب) تأكيــد لقوله : (لا يأب) . وسر هذا التأكيد ان الذين يحسنون الكتابة آنذاك كانوا قلة ، فاذا ما امتنع الكاتب تعذر الاستعانة بغيره .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولا يأب كاتب أن يكتب) نهي ، والنهي يدل على التحريم ، ومعنى هــذا ان الكاتب يجب عليــه أن يلبي اذا دعي الى كتابة الدين ، مع العلم بأن هذه الكتابة ندب لا فرض ، فكيف زاد الفرع على الأصل ؟.

الجواب : كما حملنا قوله تعالى : (فاكتبوه) على الاستحباب دون الوجوب نحمل قوله : (لا يأب) على الكراهة دون التحريم .. اللهم الا اذا تيقن المدعو الى الكتابة بأن امتناعه سبب تام للفساد ، ووقوع المتخاصمين في الحرام .. فعندها يحرم عليه أن يمتنع ، ولكن من باب دفع الفساد ، لا من باب وجوب كتابة الدين .

(وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً) . يملــل ، أي يملي ، والذي عليه الحق هو المديون ، والضمير في منه يعود على الدين ،

أو على الحق ، والمعنى ان المديون يجب أن يلقي على كاتب الدين الحق الذي عليه للدائن ، دون نقصان ، يلقيه بلفظ صريح واضح، ليكون اقراراً منه بالحق يُلزَم به هو أو ورثته عند الاقتضاء ، فربما توفي قبل وفاء الدين ، وتمنع الورثة عن الدفع ، فيذهب الحق على صاحبه اذا لم يكن بيده حجة من غريمه تثبت دعواه .

وهذا أقل ما يجب على المديون تجاه صاحب الدين الذي قضى حاجته ، وحل مشكلته ساعة العسرة ، وقد رأيت أكثر من واحد يخفض جناح الذل لصاحب المال من الحاجة راجياً أن يقرضه ما يسد به الضرورة،حتى اذا استجاب صاحب المال ، وأحسن تنكر له المديون ، واتخذه عدواً ، ووصفه بكل قبيح ، لا لشيء الا لأنه طالبه بحقه . وفضلاً عن ان مقابلة الاحسان بالإساءة حرام شرعاً وعقلاً فانها تنبيء عن الخبث واللؤم .

شكر الخالق والمخلوق :

قال تعالى في الآية ١٤ من سورة لقمان : « ان اشكر لي ولوالديك » . وفي الحديث : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . وفي حديث آخر : « من أسدى معروفاً الى انسان ، فشكر الخالق ، وقال : الشكر لله . وتجاهل صاحب المعروف ، فان الله سبحانه لا يقبل منه الشكر ، حتى يشكر من أجرى المعروف على يده .. »ومن هنا اشتهر : من لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق ، ولهذه الملازمة أسرار :

١ - ان العقل والشرع يحكمان بوجوب شكر المنعم ، أي منعمٍ كان ، ومن ترك هذا الشكر فقد عصى الله سبحانه ، والعصيان كفر وجحود لأنعمه جل وعلا .

٢ - ان كرامة الانسان من كرامة الله ، وفي الحديث : «ان الله يقول يوم القيامة لعبد من عباده : ما منعك اذا مرضت أن تعودني ؟. فيقول العبد : سبحانك أنت رب العباد ، لا تألم ولا تمرض .. فيقول الله : مرض أخوك المؤمن ، فلم تعده ، فوعزتي وجلالي لو عدته لوجدتني عنده ، ثم لتكفلت

بحوائجك ، وقضيتها لك ، وذلك من كرامة عبدي،وأنا الرحمن الرحيم » .

٣ – ان شكر المحسن من الوفاء ، والوفاء دليل الصدق والإيمان ، بل هو أصل الفضائل ، فحيث يوجد الوفاء يوجد الصدق والاخلاص والأمانة والتضحية .. والوفاء لا يتجزأ ، فمن يفي لمن احسن اليه فانه يفي أيضاً للأهل والأصدقاء والوطن ، وللانسانية جمعاء ، ومن غدر بمن أحسن اليه ، أو تجاهله ، فانه يتجاهل ويغدر أيضاً بأهله وأصدقائه ووطنه،ومن هنا قيل بحق : من لا وفاء عنده لا دين له .

وأروع ما يكون الوفاء في وقت المحنة وساعة العسرة ، لأن الوفاء في وقت النعمة والميسرة وفاء للمال ، لا لصاحبه ، وللدنيا ، لا لمن هي في يده .

(فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) . السفيه المبذر الذي لا يحسن التصرف في المال ، والضعيف الصبي ، ومن لا يستطيع الاملاء المجنون ، كل هؤلاء لا يصح منهم الاملاء والاقرار ، فلا بد أن يقوم مقامهم من يتولى شؤونهم ، ويقوم بعنايتهم .. وتجمل الاشارة الى أن الولي على قسمين: ولي خاص ، وهو الأب والجد للأب، وولي عام ، وهو الحاكم الشرعي الجامع بين الاجتهاد والعدالة ، ولا ولاية له إلا مع فقد الأب والجد ، والتفصيل في كتب الفقه ومنها الجزء الخامس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق .

(واستشهدوا شهيدين من رجالكم) . هذا هو النوع الثاني من الأمور التي اعتبرها الله في الدّين ، الأول الكتابة ، والثاني الاشهاد ، واستشهدوا ، أي أشهدوا ، يقال : استشهدت الرجل ، واشهدته بمعنى واحد ، والشهيدان هما الشاهدان ، وقد اعتبر القانون الوضعي وجود شاهدين في تحرير العقود الرسمية ، تماماً كما جاء في القرآن ، وقوله : (من رجالكم) استدل به الفقهاء على ان الشاهد يشترط فيه الاسلام .

وقال الشيعة الامامية والحنفية : هذا اذا كان المشهود عليه مسلماً ، أما إذا كان غير مسلم فان شهادة أهل ملة تُقبل على ملتهم . وقال المالكية والشافعية : لا تقبل شهادة غير المسلم ، حتّى ولو كان على مثله . (المغني وفتح القدير ، باب الشهادة) .

(فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهـــداء) . تثبت الحقوق المالية بشهادة رجلين ، ورجل وامرأتين ، ورجل ويمين باتفاق المذاهب إلا أبا حنيفة فانه قال : لا يقضي بشاهد ويمـين . والقرآن الكريم ذكر شهادة الرجلين ، والرجل والمرأتين فقط . أما ثبوت الحق المالي بالشاهد واليمين فقـد صرحت به السنة النبوية .

وتسأل : هل يثبت الحق المالي بشهادة النساء فقط ؟ ثم هل يثبت بشهادة المرأتين ويمين ، كما ثبت بشهادة الرجل واليمين ؟

الجواب : اتفقت المذاهب على ان الحقوق في المال لا تثبت بشهادة النساء مفردات عن الرجال ، وبدون يمين ، واختلفت في ثبوتها بشهادة امرأتين ويمين . قـال المالكية والامامية : يثبت ، وقال غيرهم : لا يثبت .

وقوله تعالى : (ممن ترضون من الشهداء) يحتمل معنيين : المعنى الأول أن يكون المراد من الرضا خصوص الرضا لنفس هذه الشهادة الخاصة ، لا للشهود بما هم مرضيون ديناً وصلاحاً بصرف النظر عن شهادتهم هذه وغيرها ، وعلى هذا فـلا تشترط العدالة في الشاهد ، بل يكفي أن يثق القاضي بأن شهادة الشاهد مطابقة للواقع ، كما هو شأن الشهادة في القوانين الوضعية ، حيث تركت تقـدير الشهادة للقاضي وحده .

المعنى الثاني أن يكون المـراد الرضا للشهود أنفسهم بما هم مرضيون دينـاً وصلاحاً ، وعليه فلا بد من عدالة الشاهد نفسه .. ان لفظ الآية يحتمـل هذا هذا المعنى والمعنى الأول ، ولكن الاخبار وفتوى الفقهـاء يرجحان ارادة العدالة في الشاهد نفسه .. قال الإمام علي (ع) : « اشهدوا ممن ترتضون دينه وأمانته وصلاحه وعفته ، وعلى هذا اذا شهد العدلان فعـلى القاضي أن يحـكم بموجب شهادتهـما ، سواء أحصل له العلم من قولهما ، أم لم يحصل تعبداً بالنص ، أمـا اذا شهد عنده غير العدول فلا يحكم بشهادتهم الا اذا حصل له العلم من أقوالهم ، بحيث يكون العلم هو المصدر للحكم ، لا شهادة غير العدول .

(ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى) . هنا سؤالان :

الأول : لماذا قال : ان تضل احداهما فتذكر احداهـما الأخرى ، ولم يقل

فتذكرها الأخرى،فأعاد الاسم الظاهر ، وهو احداهما في جملتين لا فاصل بينهما بعيد أو قريب ؟.

واجيب عن ذلك بوجوه خيرها جميعاً ان شهادة المرأتين لما كانت بمنزلة شهادة الرجل الواحد وجب الجمع بين المرأتين لتؤدي كل منهما شهادتها على مسمع من الثانية ، حتى اذا تركت شيئاً من الشهادة ذهولاً عنه ذكرتها الأخرى ، فاذا انتهت الأولى أدت الثانية بمحضر من زميلتها ، ومثلت الدور الذي مثلته تلك ، وعليه تكون شهادة كل منهما متممة لشهادة الأخرى ، وهذا المعنى لا يتأدى الا باعادة لفظ احداهما ، لكي ينطبق على الاثنتين ، ولو قال فتذكرها الأخرى لكان المعنى لئلا تنسى واحدة فتذكُر الثانية ، فتكون احداهما ناسية ، والأخرى ذاكرة ، وليس هذا بمراد،وانما المراد ان كلاً منهما تذكر الأخرى كما قدمنا .

وتجمل الاشارة الى انه لا يجب الجمع بين الشهود اذا كانوا رجالاً ، بل التفريق أولى على العكس من النساء الشاهدات .

السؤال الثاني: ما هو السر في ان شهادة امرأتين تساوي شهادة الرجل الواحد؟.

واجيب عن هذا السؤال بأوجه ، منها ان المرأة ضعيفة العقل، ومن الطريف جواب بعض المفسرين بأن مزاج المرأة تكثر فيه الرطوبة .. ولو صح هذا القول يكون كل رطب المزاج نصف شاهد ، حتى ولو كان رجلاً ، وكل حار المزاج يكون شاهداً كاملاً ، حتى ولو كان امرأة .. وأرجح الأقوال نسبياً ان الرجل يملك عاطفته وهواه أكثر من المرأة – غالباً – والجواب الصحيح ان علينا ان نتعبد بالنص ، حتى ولو جهلنا الحكمة منه .

وتجمل الاشارة الى أن القاضي قد تركن نفسه الى شهادة امرأة واحدة ، ويحصل له العلم من قولها أكثر مما تركن نفسه إلى شهادة عشرة رجال غير عدول.. والقاضي يجوز له أن يقضي بعلمه إذا تكوّن هذا العلم من ظروف الدعوى وملابساتها وقرائنها،ولو كانت هذه القرينة شهادة امرأة،ما دامت وسيلة للعلم أو الاطمئنان.

(ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) . إذا دعاك داع لتشهد له على حق أو دين وجب عليك أن تستجيب لدعوته على الكفاية ، أي إذا قام غيرك بهذه المهمة سقط الوجوب عنك ، والا كنت مسؤولاً أمام الله سبحانه،والدليل هذه الآية ،

والحديث الشريف : « إذا دعاك الرجل ، لتشهد له على حق أو دين فلا يسعك أن تتقاعس عنه » .

(ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله) . السأم الملال ، والضمير في تكتبوه يعود الى الدين أو الحق ، والقصد هو الحث على كتابة الدين من غير فرق بين قليله وكثيره ، ما دام الغرض التحفظ من وقوع النزاع والخلاف .

(ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا) . أي ان كتابة الدين والاشهاد عليه أعدل وأبلغ في الاستقامة وأقرب الى نفي الشك والارتياب .

وتسأل : ان الله سبحانه أمر بالكتابة أولاً في قوله : (فاكتبوه) وثانياً : (ولا تسأموا ان تكتبوه) . وثالثاً أشار الى الحكمة من ذلك بأن الكتابة أقسط وأقوم وأدنى ، ومع كل هذا فقد أفتى الفقهاء باستحباب الكتابة ، لا بوجوبها ، لسيرة المسلمين القطعية منذ الصدر الأول ، حتى اليوم ، ونحن معهم في ذلك ، ولكن هناك شيء آخر غير كتابة الدين ، والاشهاد عليه ، وهو ان الفقهاء قد أوجبوا على القاضي أن يحكم بموجب البينة العادلة ، حتى ولو لم يحصل له العلم منها ، وما ذاك إلا تعبداً بالنص .. ولكن الفقهاء لم يعتبروا الكتابة وسيلة من وسائل الاثبات كالبينة ، وقالوا : لا يجوز الحكم بموجبها الا إذا أوجبت العلم أو الاطمئنان .. ألا يدل هذا الأمر المتكرر بالكتابة على انها طريق لاثبات الحق ، ولو بالدلالة الالتزامية ؟..

الجواب : ان الأمر بكتابة الدين صوناً للحق الثابت شيء ، واعتبار البينة العادلة طريقاً لاثبات الحق شيء آخر ، ومن هنا يجب الحكم بموجب البينة ، سواء أقر بها المحكوم عليه ، أو أنكرها ، أما الكتابة فلا بد من سؤال المدعى عليه عنها ، فان أقر بها دخلت في باب الاقرار ، وان أنكرها احتاج اثباتها الى وسيلة من وسائل الاثبات كالبينة أو اليمين أو الاختبار والمقابلة بينها وبين خط الكاتب ، وعليه فلا تكون الكتابة وسيلة مستقلة بذاتها ، كما هو الشأن في البينة .

(الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) . المصدر من ان وصلتها في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، لأن الكلام المتقدم كان في كتابة الدين المؤجل ، والكلام هنا في التجارة الحاضرة ، واباحة عدم كتابتها ، ومعنى التجارة الحاضرة البيع بثمن معجل ، لا مؤجل ، ومعنى تديرونها

بينكم تتناقلونها من يد إلى يد ، فيأخذ البائع الثمن من المشتري ، ويأخذ المشتري المثمن من البائع ، وينتقل بذلك ما كان في يد كل الى ملك الآخر .

ومحصل المعنى من مجموع الكلام انه لا بأس عليكم بترك الكتابة في المعاملات التجارية التي تقع بينكم بثمن معجل ، أما السر لاباحة ترك الكتابة في ذلك فلأن مثل هذا البيع المعروف ببيع المعاطاة يجري كثيراً بين الناس ، فلو كُلفوا بكتابة الصكوك لكل المبيعات لشق الأمر عليهم ، بخاصة في الأشياء الصغيرة .

وكيف كان ، فان المسائل التجارية يوكل الشارع الأقدس أمرها الى الناس يديرونها بينهم حسبما تستدعيه مصالحهم ، فان كانت المصلحة في الكتابة والتسجيل فعلوا ، كما هو شأنهم في بيع العقارات ،وغيرها من المنقولات الثمينة كالسيارات ، وما اليها ، وان كانت المصلحة في ترك الكتابة تركوها ، كما هـي عادتهم في بيع المأكول والملبوس .. واذا أمر الله بكتابة الدين والبيع ، أو رخص بتركها فانما يأمر استحباباً وارشاداً إلى ما يجنبهم المشاكل والمتاعب .. أجل ، انه تعالى ينهاهم تحريماً عن الغش والتغرير ، والربا والاستغلال ، وأكل المال بالباطل من غير عوض ومقابل .

وتسأل : ان نفي الجنـاح عن ترك كتابة التجـارة الحاضرة يشعر بأن ترك كتابة الديون فيه جناح ، وعليه تكون كتابة الديون واجبة خلافاً لما عليه الفقهاء الذين قالوا باستحبابها ، لا بوجوبها .

الجواب : ان المراد بقوله تعالى : (فليس عليكم جناح الا تكتبوها) نفي البـأس والمضرة الدنيوية ، لا نفي الاثم والمضرة الاخروية ، كي يكون الأمر بكتابة الديون للوجوب .

(واشهدوا إذا تبايعتم) . اتفق الفقهاء على ان الاشهاد عـلى البيع ندب ، لا فرض إلا الظاهرية ، فانهم قالوا بأنه فرض ، لا ندب عملاً بظاهر اللفظ .

(ولا يضار كاتب ولا شهيد) . اذا اتفق المتبايعان على الكتابـة والاشهاد في الدين أو البيع فعلى الكاتب أن يكتب بالعدل ، وعلى الشاهد أن يشهد بالحق .. وتقدم الكلام عن لفظ لا يضار واعرابه في الآية ٢٣٣ ، وهو قوله تعـالى : (ولا تضار والدة بولدها) .

(وان تفعلوا فانه فسوق بكم) . الفسوق هو الخروج عن طاعة الله،وكل من

فعل شيئاً نهى الله عنه ، أو ترك شيئاً أمر الله به فهو فاسق خارج عن طاعة الله ، مستحق لغضبه وعقابه . (واتقوا الله) في الطاعة لجميع أوامره ونواهيه . (ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) . يعلمكم ما فيه خير لكم ديناً ودنيا . وبديهة ان الله سبحانه لا يعلمنا مباشرة ، ولا يلقي العلم في عقولنا وقلوبنا القاء، وانما يعلمنا بواسطة الوحي الذي ينزله على أنبيائه ، هذا الوحي الذي يتضمن كل ما فيه هدايتنا وارشادنا إلى المصالح التي تضمن بقاءنا وسعادتنا .

مع الصوفية :

قال الصوفية كلهم أو جلهم : لا سبيل الى المعرفة والعلم بالله ووحيه ، والشريعة وأسرارها إلا الايمان والتقوى ، فمن اتقى الله عرفه وعرف شريعته وأحكامها ، وعرف الآخرة وأهوالها ، وفهم القرآن والحديث من غير درس وتعلم ، ويسمون علمهم هذا بالعلم اللدني ، واستدلوا بأدلة منها قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) . ولفظ الآية الكريمة يأبى هذا الاستدلال ، لأنه لو كان كما قالوا لجزم يعلمكم جواباً لاتقوا ، ولاقترن الجواب بالفاء ، لا بالواو.. هذا ، الى ان من أمعن الفكر في قول الصوفية هذا يجده أشبه بهذيان المحموم الذي يلغو ويقول : ان البيت لا يتم بناؤه إلا بعد السكن فيه ، وان الثوب لا يتم نسيجه إلا بعد لبسه .

ولا أدري كيف يدعي الصوفية العلم بالحديث ، وقد تواتر عن الرسول(ص): « اطلبوا العلم ولو بالصين .. العلم بالتعلم » ؟ونحن لا نشك أبداً في أن النظريات تتبلور بالتطبيق والعمل ، وان العالم العامل تتفتح له أبوابٌ بمعلومات جديدة ، ولكن هذا شيء ، وكون التقوى وسيلة الى المعرفة شيء آخر .

(وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) . بعد ان أمر الله بكتابة الدين صيانة له جعل الرهن وثيقة له بدلاً عن الكتابة ، حيث تتعذر في السفر .

واتفق الفقهاء على ان عقد الرهن لا يتم إلا بالقبض ، واستدلوا بقوله تعالى:

(فرهان مقبوضه) . والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق .

وتسأل : ان الرهن جائز في السفر والحضر ، ومع وجود الكاتب وعدمه ، فما هو القصد من التقييد بالسفر ، وعدم وجود الكاتب ؟

وتخطى بعض المفسرين هذا السؤال ، وتجاهله بالمرة ، مع انه يسبق الى ذهن كل عارف بالأحكام الشرعية .. وأجاب أكثرهم عنه بأن الله اجراه على الأعم الأغلب ، اذ الغالب في السفر عدم وجود الكاتب في ذاك العصر .. ويلاحظ بأن الغالب في السفر أيضاً عدم وجود الرهن ، ومن الذي يحمل في سفره أشياءه التي يمكن رهنها إلا ما ندر ؟

والجواب الصحيح ان الآية بظاهرها تدل على عدم جواز الرهن في الحضر ، بناء على ان للشرط مفهوماً،وهو هنا : ان لم تكونوا على سفر فلا رهان،ولكن هذا الظاهر لا يجوز الاعتماد عليه بعد أن ثبت ان النبي (ص) الذي نزل الوحي على قلبه لم يعمل به ، فلقد رهن درعه عند يهودي ، وهو حاضر في المدينة ، وليست هذه هي الآية الوحيدة التي نترك ظاهرها بالسنة النبوية،ومن هنا أجمعت الأمة على عدم جواز العمل بظاهر آية من آيات الأحكام الشرعية إلا بعد البحث والتنقيب عن الأحاديث النبوية الواردة مورد الحكم المداول للآية الكريمة .

(فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه) . أي ان الدائن إذا أحسن الظن بالمديون ، وأعطاه بلا صك ولا رهن ولا اشهاد ثقة بصدقه ووفائه ، ان كان كذلك فعلى المديون أن يكون عند حسن ظن الدائن ، ويرد له الحق كاملاً ..

وهذا الحكم عام لا يختص بالدين ، بل يشمل الأمانات بكاملها ، قال تعالى: « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها – النساء ٥٨ » . وقال رسول الله (ص) : لا تنظروا الى صلاة الرجل وصومه ، وكثرة حجه ومعروفه ، وطنطنته بالليل ، ولكن انظروا الى صدق حديثه وأدائه للامانة ، وقال الإمام زين العابدين (ع): لو ان قاتل أبي ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته اليه .

(ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه) فرق بين تحمل الشهادة، وبين الادلاء بها بعد تحملها ، فمعنى تحمل الشهادة ان يدعوك داعٍ لتشهد له

على حق أو دين ، وتجب الاجابة هنا كفاية لا عيناً كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى : (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) . أما الادلاء بهـا فهو أن يدعوك صاحب الحق بعد أن تتحمل الشهادة لتدلي بها أمام المحاكم ، ولا يسعك أن تمتنع عن اجابته إذا توقف ثبوت الحق على الاستماع إلى شهادتك ، وأمنت الضرر ، فاذا امتنعت ، والحال هذه ، فأنت آثم ، لقوله تعالى : (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه) . والمراد بآثم قلبه انه يعاقب عقاب من قصد وتعمد الإثم ، لأن القصد والعمد من صفات القلب .

ان تبدوا ما في أنفسكم الآية ٢٨٤ :

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

المعنى :

(وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) . قد ترد على قلب الانسان خواطر سوداء لا يتمكن من دفعها ، كما لو تمنى أن تُهدم دار فلان ، أو تدهسه سيارة ، ولا حساب ولا عقاب على هذه ما دامت مجرد خواطر لا يظهر لها أثر في قول أو فعل ، لأنها خارجة عن القدرة ، فالتكليف بها سلباً أو ايجاباً تكليف بما لا يطاق .

وقد يعزم على المعصية عزماً أكيداً ، ويهم بها عن تصميم ، حتى إذا أوشك أن يفعل أحجم وتراجع ، إما خوفاً من الله سبحانه ، واما خوفاً من الناس ، والأول مأجور ، لأن إحجامه خوفاً منه تعالى يُعد توبة وانابـة يثاب عليها ، والثاني غير مأجور ولا موزور ، لا يثاب ولا يعاقب تفضلاً من الله وكرماً ،

فلقد جاء في الحديث : إذا همّ العبد بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة ، فان فعلها كتبت له عشراً، وان همّ بسيئة فعملها كتبت سيئة واحدة،فان لم يعملها لم تكتب شيئاً .

وقد يعزم على المعصية ، ويباشرها بالفعل ، وهذا العاصي على نوعين : نوع يعصي الله علناً غير مكترث بأقوال الناس وانتقادهم وتشهيرهم، وهذا هو المراد بقوله : (ان تبدوا ما في أنفسكم) . ونوع يستر معصيته بالنفاق والرياء ، يُفسد في الخفاء ، ويعلن الصلاح ، وكلا النوعين يعلم الله بهما (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) . ما دام الله سبحانه مالك السموات والأرض ، قادراً على كل شيء فله أن يعفو عمن يشاء من العصاة ، ويعذب من يشاء منهم حسبما تقتضيه حكمته .. قال محي الدين ابن العربي في تفسيره ما معناه : ان الله يغفر للعاصي إذا كان قوياً في ايمانه ، ولكن صدرت منه المعصية عرضاً ، لا لرسوخ جذورها في نفسه،ويعذب العاصي الضعيف في ايمانه الذي رسخت جذور المعصية في نفسه .

آمن الرسول الآية ٢٨٥ ـ ٢٨٦ :

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ★ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ★

اللغة :

يطلق الخطأ على ثلاثة معان : الاثم ، وضد العمد ، وضد الصواب، وهذا المعنى الأخير هو المراد من الآية ، والاصر العبء الثقيل ، يأصر صاحبه ، ويحبسه مكانه .

الاعراب :

المؤمنون مبتدأ ، وكلٌ مبتدأ ثانٍ ، وجملة آمن خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر المبتدأ الأول ، وجملة لا نفرق مفعول لفعل محذوف ، أي يقولون : لا نفرق ، وغفرانك نصب على المفعول المطلق ، أي اغفر غفرانك، أو مفعول به ، أي نطلب غفرانك .

المعنى :

(آمن الرسول بما انزل اليه) . هنا سؤال يفرض نفسه ، وهو ان كل رسول يؤمن بالله وبالوحي الذي انزل اليه ، والا لا يكون رسولاً ،فالاخبار عن ذلك يشبه توضيح الواضح ، وتحصيل الحاصل ، وهذا غير جائز في كلامه تعالى الذي يجب أن يحمل على أحسن المحامل ، فلا بد أن يكون للاخبار عن ذلك هدف يرمي اليه ، فما هو هذا الهدف ؟.

الجواب : ليس الغرض من الآية مجرد الإخبار بأن النبي (ص) قد آمن بالله.. كلا ، فان كل نبي يولد مؤمناً بالله ووحدانيته ، ولكن ليس كل نبي يولد نبياً ، أو يعلم انه سيكون نبياً – إلا عيسى (ع) الذي قال حين انفصل عن امه اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً .. مريم ٣٠ – ومحمد (ص) لم ينزل عليه الوحي إلا بعد أن أتم أربعين عاماً من عمره الشريف ، وحين قال له جبريل أول ما قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » شك في أمره وحار ، وخشي أن يكون الصوت من الوساوس والهواجس ، حتى انه شكا إلى زوجته الحانية خديجة ، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل ، ثم اقتنع بالحس والوجدان ان الذي

أتاه ملك ، وليس بشيطان ، وقد خاطبه الله بقوله : « فأن كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين – يونس ٩٤ ». وفي الحديث ان النبي عقّب على ذلك قائلاً : لا أشك ولا أسأل .

وبهذا يتبين ان الغرض في قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه) ان ما جاء في هذه السورة وغيرها من أصول الايمان والعقيدة ، والعظات والأحكام وكل ما أخبر به الرسول هو من وحي الله سبحانه ، وهذا الوحي لم يؤمن به الرسول إلا بعد أن مر بمرحلة الشك والبحث والملاحظة الدقيقة ، والا بعد ان تكشفت له الحقيقة بالحس والعيان ، اذن ، كل ما أخبر به الرسول فهو من عند الله لا ريب فيه .

(والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله). ليس الايمان بالله بمعناه الكامل الشامل ان نعتقد بأنه خالق الكون وكفى .. كلا، ان المؤمن حقاً هو الذي يؤمن بالله ، وبما بعث من الرسل ، وأنزل من الكتب بما فيها من اصول ومبادىء واحكام وملائكة،وما اليها من المغيبات دون استثناء، فمن آمن بالله دون كتبه ورسله ، أو آمن به وببعض كتبه ورسله كان حكمه عند الله غداً حكم من لم يؤمن به اطلاقاً ، ولو ان اهل الاديان أخذوا بمبدأ الايمان بالله،وبكل ما جاء من عنده لما كانت هذه الطوائف وتناحرها وتخاصمها ، ولكنهم آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض فكان بينهم هذا العداء المستمر .

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . لأن التكليف بغير المقدور ظلم : « وان الله ليس بظلام للعبيد – آل عمران ١٨٢ » . ولكن الاشعرية أجازوا التكليف بغير المقدور ، ونفاه الإمامية والمعتزلة .

(لها ما كسبت) من الخيرات والحسنات. (وعليها ما اكتسبت) من الشرور والسيئات، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .. ومن رحمة الله بعباده ان العبد اذا صدرت منه حسنة كتبها الله له في الحال،وبمجرد صدورها منه،واذا صدرت منه سيئة أمهله حيناً ، فان استغفر وندم لم تُكتب ، وان أصر كُتبت عليه .. وقال جماعة من العارفين ان الانسان يفعل الخير بدافع من نفسه ، لأنه مفطور عليه ، ولا يفعل الشر إلا ببواعث خارجية من البيئة والتربية الفاسدة ،

ولهذا جعل تعالى الخير من الكسب ، لا من الاكتساب ، حيث قال : (لها ما كسبت) ولم يقل ما اكتسبت ، وجعل الشر من الاكتساب ، فقال : (وعليها ما اكتسبت) ولم يقل ما كسبت .

(ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) . هنا اشكال مشهور كثر حوله الكلام ، وحول جوابه في كتب الاصول وعلم الكلام ، وملخص الإشكال ان الخطأ والنسيان لا يدخلان تحت ارادة الانسان وقدرته ، فالمؤاخذة عليهما مرفوعة بذاتها ، فمن نسي الصلاة ، أو أخطأ في فهم الحكم الشرعي واستخراجه من مصدره يُحكم بمعذوريته وقبح مؤاخذته .. اذن،فلا معنى لطلب رفع المؤاخذة عنه .

وغريب ما أجاب به الشيخ محمد عبده ـ كما نقل صاحب المنار في تفسيره ـ من ان الناسي والمخطىء تصح مؤاخذتهما بدليل ان الشريعة الاسلامية والشرائع الوضعية قد أوجبت الضمان على من أتلف مال غيره خطأ ، كما أوجبت الدية على من قتل انساناً من غير قصد .. وأخذ هذا الجواب وتبناه في تفسيره الشيخ مصطفى المراغي .

ووجه الغرابة ان المقصود من المؤاخذة في الآية هو العقاب والمسؤولية الأدبية، لا الغرامة المادية ، فمن قتل انساناً ، أو أتلف ماله خطأ لا يعاقب ، ولا يسأل عن شيء من الوجهة الأدبية ، وانما يحكم عليه بغرامة مالية ، تماماً كالمديون .

والصحيح في الجواب : ان الخطأ والنسيان يصدران تارة من الانسان بعد تحفظه واحتياطه ، وهذا النوع من النسيان والخطأ يعذر فيه صاحبه ، ولا تجوز مؤاخذته أدبياً ، وهو المقصود من الآية الكريمة .. وتارة يصدر الخطأ والنسيان عن التهاون وترك التحفظ ، بحيث لو تيقظ واحترز لم يصدرا منه ، وهذا النوع لا يعذر فيه صاحبه ، وتجوز المؤاخذة عليه ، وهو المطلوب رفعه في الدعاء .. وعليه يسقط الاشكال من أساسه .

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) . الاصر العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه مكانه ، والمراد به هنا التكليف الشاق .. وقد وضعه الله سبحانه على بني اسرائيل، حيث فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة،وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، وغير ذلك من التكاليف الشاقة التي ذكرها أهل التفاسير مفسرين بها قوله تعالى:

(كما حملته على الذين من قبلنا) . وعليه يكون معنى :لا تحمل علينا اصراً ، لا تكلفنا بما يثقل علينا حمله .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) يفيد هذا المعنى بالذات ، مع العلم بأن هذه الجملة معطوفة على ولا تحمل علينا اصراً ، والعطف يقتضي المغايرة ، حيث لا يجوز عطف الشيء على نفسه ؟.

الجواب : لو نظرنا إلى قوله : (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) مستقلاً عن السياق لكان الأمر كما قلت ، لأن المعنى الظاهر هو ان لا تكلفنا بما يشق علينا .. أما إذا نظرنا اليه مع ملاحظة السياق فيتعين أن يكون المراد لا تعاقبنا عقوبة لا نطيقها .. فعبّر عن العقوبة بما تؤدي اليه من عدم إطاقتها والصبر عليها، قال الشيخ مرتضى الأنصاري في كتابه المعروف بالرسائل ، باب البراءة : « لا يبعد أن يراد بما لا يطاق في الآية العذاب والعقوبة ، فمعنى لا تحملنا ما لا طاقة لنا به لا تورد علينا ما لا نطيقه من العقوبة » .

(واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) . العفو والمغفرة والرحمة ألفاظ متقاربة ، والفرق بينها بسيط ، هو ان العفو مجرد ترك العقاب على الذنب ، والمغفرة ترك العقاب ، مع السّتر على الذنب ، والرحمة طلب التفضل والانعام بالثواب. (أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) الذين يستخفون بدين الله ، ويعتزون بغير الله .. وجاء في مجمع البيان عن النبي (ص) : « ان الله سبحانه قال عند كل فصل من هذا الدعاء : فعلت واستجبت » . ولهذا استحب الاكثار من هذا الدعاء.

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا بــه واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

الفهرست

مقدمـــة	٥
الاستعاذة	١٩
من هو الشيطان ؟	٢٠
منطق ابليس	٢٠
البسملة وتحديد الاسلام بكلمة واحدة	٢٤
الفاتحة	٣١

سورة البقرة

فواتح بعض السور	٣٧
القرآن والعلم الحديث	٣٨
المعرفة	٤٣
الغيب	٤٤
الدين والعلم	٤٥
يقيمون الصلاة	٤٧
انذرت أم لم تنذر الآية ٦ ــ ٧	٥٠
منهج الاسلام	٥١

الملتزم بالحق	٥٢
المنافقون الآية ٨ ـ ٢٠	٥٤
من هو المنافق	٥٥
اعبدوا ربكم الآية ٢١ ـ ٢٢	٥٨
الفرع يتبع الأصل	٥٨
التوحيد	٥٩
فأتوا بسورة الآية ٢٣ ـ ٢٥	٦٤
سر الاعجاز في القرآن	٦٥
التحدي	٦٦
هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟	٦٧
ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً الآية ٢٦ ـ ٢٧	٦٨
الهدى والضلال	٧٠
التكوين والتشريع	٧٢
كيف تكفرون بالله الآية ٢٨ ـ ٢٩	٧٤
الانسان بذاته برهان	٧٤
موتتان وحياتان	٧٦
البعث	٧٧
واذ قال ربك للملائكة الآية ٣٠ ـ ٣٣	٧٨
الخليفة	٨٠
درس بليغ	٨١
واذ قال ربك للملائكة الآية ٣٤	٨٢
يا آدم اسكن الآية ٣٥ ـ ٣٩	٨٣
حواء وضلع آدم	٨٥
ضعف الارادة وسيلة للحرمان	٨٥
عصمة الأنبياء	٨٦

أهل البيت	٨٨
يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الآية ٤٠ ـ ٤٦	٨٩
مظاهر الحياة	٩٠
تاريخ اليهود	٩١
محمد ويهود المدينة	٩٢
أيضاً يا بني اسرائيل الآية ٤٧ ـ ٤٨	٩٤
التكرار في القرآن	٩٦
الشفاعة	٩٧
واذ نجاكم الآية ٤٩ ـ ٥٠	٩٨
واذ واعدنا موسى الآية ٥١ ـ ٥٣	١٠١
واذ قال موسى الآية ٥٤ ـ ٥٧	١٠٣
رؤية الله	١٠٧
واذ قلنا ادخلوا الآية ٥٨ ـ ٥٩	١٠٨
واذ استسقى موسى الآية ٦٠	١١١
حول الرأسمالية والاشتراكية	١١٢
شيء من لا شيء	١١٣
واذ قلتم يا موسى الآية ٦١	١١٤
ان الذين آمنوا والذين هادوا الآية ٦٢	١١٦
واذ أخذنا ميثاقكم الآية ٦٣ ـ ٦٦	١١٩
لا قياس على اليهود	١٢٢
ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الآية ٦٧ ـ ٧٣	١٢٤
ثم قست قلوبكم الآية ٧٤	١٢٧
اختلاف الأمزجة	١٢٩
أفتطمعون أن يؤمنوا الآية ٧٥	١٣١
واذا لقوا الذين آمنوا الآية ٧٦ ـ ٧٧	١٣٢

ومنهم اميّون الآية ٧٨ ـ ٧٩ ١٣٣
للتفسير أصول وقواعد ١٣٤
العالم لا يحكم بالواقع ١٣٥
وقالوا لن تمسنا النار الآية ٨٠ ـ ٨٢ ١٣٥
المسلم والمؤمن ١٣٨
مرتكب الكبيرة ١٣٩
واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل الآية ٨٣ ١٤٠
لا تسفكوا دماءكم الآية ٨٤ ـ ٨٦ ١٤٢
ولقد آتينا موسى الكتاب الآية ٨٧ ـ ٨٨ ١٤٧
المصلح الصادق والمزيف الكاذب ١٤٩
ولما جاءهم كتاب الآية ٨٩ ـ ٩١ ١٤٩
لليهود أشباه ونظائر ١٥٣
لقد جاءكم موسى بالبينات الآية ٩٢ ـ ٩٦ ١٥٣
المصلحة هي السبب لا الجنسية ١٥٥
قل من كان عدواً لجبريل الآية ٩٧ ـ ١٠٠ ١٥٦
التعايش السلمي والايمان بالله ١٥٨
ولما جاءهم رسول من الله الآية ١٠١ ـ ١٠٢ ١٥٩
ولو انهم آمنوا الآية ١٠٣ ١٦٤
السحر وحكمه ١٦٤
يا أيها الذين آمنوا الآية ١٠٤ ـ ١٠٥ ١٦٦
الحسد والحاسد ١٦٧
ما ننسخ من آية الآية ١٠٦ ـ ١٠٧ ١٦٨
النسخ ١٦٩
أم تريدون أن تسألوا رسول الله الآية ١٠٨ ـ ١٠٩ ١٧١
مخالفة الحق ١٧٤

واقيموا الصلاة الآية ١١٠	١٧٤
الصلاة وشباب الجيل	١٧٥
قالوا لن يدخل الجنة الآية ١١١ ــ ١١٣	١٧٦
احتكار الجنة	١٧٨
الدين المصلحة عند اليهود	١٧٩
أيضاً المسلمون يكفّر بعضهم بعضاً	١٨٠
كل يعزز دينه	١٨١
منع مساجد الله الآية ١١٤	١٨٢
من أحكام المسجد	١٨٤
لله المشرق والمغرب الآية ١١٥ ــ ١١٧	١٨٤
لولا يكلمنا الله الآية ١١٨ ــ ١٢٠	١٨٨
المدلول ونوع الدليل	١٩٠
أعداء الدين والمبدأ	١٩١
يتلونه حق تلاوته الآية ١٢١ ــ ١٢٣	١٩٢
بين مجتهد ومقلد	١٩٤
لا ينال عهدي الظالمين الآية ١٢٤	١٩٥
الإمامة وفكرة العصمة	١٩٦
واذ جعلنا البيت مثابة الآية ١٢٥ ــ ١٢٦	١٩٩
التجاء الجاني الى الحرم	٢٠٠
واذ يرفع ابراهيم القواعد الآية ١٢٧ ــ ١٢٩	٢٠٢
تاريخ الكعبة	٢٠٢
الشيعة وأجداد النبي	٢٠٥
البشارة بالمهدي المنتظر	٢٠٦
ومن يرغب عن ملة ابراهيم الآية ١٣٠ ــ ١٣٤	٢٠٦
حق الولد على الوالد	٢٠٩

وقالوا كونوا هوداً أو نصارى الآية ١٣٥ ــ ١٣٨	٢١٠
المنطق الجدلي	٢١١
قل أتحاجون في الله الآية ١٣٩ ــ ١٤١	٢١٤
الشهادة	٢١٦
مخلصون وكفى	٢١٧
ما ولاهم عن قبلتهم الآية ١٤٢	٢٢١
لماذا الصلاة الى جهة معينة ؟	٢٢٢
جعلناكم أمة وسطاً الآية ١٤٣	٢٢٣
التكامل والتعادل في الاسلام	٢٢٥
قد نرى تقلب وجهك الآية ١٤٤ ــ ١٤٥	٢٢٨
أهل القبلة	٢٣١
الاسلام وأهل الأديان المتعصبون	٢٣٢
يعرفونه كما يعرفون آباءهم الآية ١٤٦ ــ ١٤٧	٢٣٣
بيني وبين مبشر	٢٣٤
ولكل وجهة الآية ١٤٨ ــ ١٥٣	٢٣٤
أواصر الأمة الاسلامية	٢٣٧
شكر المنعم	٢٣٨
استعينوا بالصبر والصلاة الآية ١٥٤ ــ ١٥٧	٢٣٩
الصبر	٢٤٠
ثمن الجنة	٢٤٢
أنواع أجر الصابرين	٢٤٣
الصفا والمروة الآية ١٥٨	٢٤٤
ان الذين يكتمون ما أنزلنا الآية ١٥٩ ــ ١٦٢	٢٤٦
قبح العقاب بلا بيان	٢٤٧
حكم اللعن في الشريعة	٢٤٩

وإلهكم إله واحد الآية ١٦٣ — ١٦٤	٢٥٠
الأرض	٢٥١
وجود الله	٢٥٢
أيهما أسبق الليل أو النهار ؟	٢٥٣
يتخذون من دون الله أنداداً الآية ١٦٥ — ١٦٧	٢٥٣
التقليد والأئمة الأربعة	٢٥٦
كلوا مما في الأرض الآية ١٦٨ — ١٧٠	٢٥٧
التقليد وأصول العقائد	٢٥٩
كمثل الذي ينعق الآية ١٧١	٢٦٢
كلوا من طيبات الآية ١٧٢ — ١٧٣	٢٦٣
المضطر وحكمه	٢٦٥
الذين يكتمون ما أنزل الله الآية ١٧٤ — ١٧٦	٢٦٦
التجاذب بين الحق والباطل	٢٦٨
وآتى المال على حبه الآية ١٧٧	٢٦٩
البارّ في مفهوم القرآن	٢٧٣
القصاص في القتلى الآية ١٧٨ — ١٧٩	٢٧٤
الوصية للوالدين الآية ١٨٠ — ١٨٢	٢٧٧
الوصية للوارث	٢٧٩
كتب عليكم الصيام الآية ١٨٣ — ١٨٥	٢٨١
اجيب دعوة الداعي الآية ١٨٦	٢٨٦
أحل لكم ليلة الصيام الآية ١٨٧	٢٨٨
أكل المال بالباطل الآية ١٨٨	٢٩١
حكم القاضي الفاسق	٢٩٢
حكم الحاكم لا يغير الواقع	٢٩٣
يسألونك عن الاهلة الآية ١٨٩	٢٩٣
وقاتلوا في سبيل الله الآية ١٩٠ — ١٩٣	٢٩٥

الاسلام حرب على الظلم والفساد ٢٩٦
الشهر الحرام الآية ١٩٤ – ١٩٦ ٣٠٠
واتموا الحج والعمرة الآية ١٩٦ – ٢٠٣ ٣٠٢
من يعجبك قوله الآية ٢٠٤ – ٢٠٧ ٣٠٧
ادخلوا في السلم الآية ٢٠٨ – ٢١٠ ٣١٠
المخبآت والمفاجآت ٣١٢
سل بني اسرائيل الآية ٢١١ – ٢١٢ ٣١٣
لا ايمان الا بالتقوى ٣١٤
كان الناس أمة واحدة الآية ٢١٣ ٣١٦
الاختلاف بين الناس ٣١٨
دخول الجنة الآية ٢١٤ ٣١٩
ماذا ينفقون الآية ٢١٥ ٣٢٠
كتب عليكم القتال الآية ٢١٦ – ٢١٨ ٣٢١
عبادة التائب بعد ارتداده ٣٢٥
الاحباط ٣٢٦
الخمر والميسر الآية ٢١٩ – ٢٢٠ ٣٢٧
ولا تنكحوا المشركات الآية ٢٢١ ٣٣١
الزواج بالكتابية ٣٣٣
الحيض الآية ٢٢٢ – ٢٢٣ ٣٣٥
اليمين الآية ٢٢٤ – ٢٢٧ ٣٣٧
المطلقات الآية ٢٢٨ ٣٤٠
بين الرجل والمرأة في الشريعة الاسلامية ٣٤٣
الطلاق مرتان الآية ٢٢٩ – ٢٣٠ ٣٤٥
الطلاق ثلاثاً ٣٤٧
واذا طلقتم النساء الآية ٢٣١ – ٢٣٢ ٣٥٠

والوالدات يرضعن الآية ٢٣٣	٣٥٥
عدة الوفاة الآية ٢٣٤ ـ ٢٣٥	٣٦١
الزواج في العدة	٣٦٤
الطلاق قبل الدخول الآية ٢٣٦ ـ ٢٣٧	٣٦٥
الصلاة الوسطى الآية ٢٣٨ ـ ٢٣٩	٣٦٦
ترك الصلاة يؤدي الى الكفر	٣٦٨
والذين يتوفون منكم الآية ٢٤٠ ـ ٢٤٢	٣٧٠
حذر الموت الآية ٢٤٣ ـ ٢٤٤	٣٧٢
من ذا الذي يقرض الله الآية ٢٤٥	٣٧٤
قصة طالوت الآية ٢٤٦ ـ ٢٥٢	٣٧٥
مشيئة الله وسلطان الجور	٣٨٠
تفضيل الرسل الآية ٢٥٣	٣٨٧
الانفاق الآية ٢٥٤	٣٨٩
آية الكرسي ٢٥٥	٣٩٠
الله وسنن الطبيعة	٣٩٢
شيء من لا شيء	٣٩٥
لا اكراه في الدين الآية ٢٥٦ ـ ٢٥٧	٣٩٥
الخلود في النار	٤٠٠
الذي حاج ابراهيم الآية ٢٥٨	٤٠٢
الذي مر على قرية الآية ٢٥٩	٤٠٥
حساب القبر	٤٠٧
ليطمئن قلبي الآية ٢٦٠	٤٠٩
حبة أنبتت سبع سنابل الآية ٢٦١ ـ ٢٦٣	٤١١
لا تبطلوا صدقاتكم الآية ٢٦٤ ـ ٢٦٥	٤١٣
أيود احدكم الآية ٢٦٦	٤١٦

الانفاق من الطيبات الآية ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ٤١٨
الحكمة الآية ٢٦٩ ٤٢١
وما أنفقتم من نفقة الآية ٢٧٠ ـ ٢٧١ ٤٢٢
ليس عليك هداهم الآية ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ٤٢٥
أهل الصفة ٤٢٧
الزكاة ٤٢٨
الربا الآية ٢٧٥ ـ ٢٨١ ٤٣١
تحديد الربا ٤٣٣
سبب التحريم ٤٣٤
الدّين الآية ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ٤٣٩
بين القرض والدّين ٤٤٢
شكر الخالق والمخلوق ٤٤٤
مع الصوفية ٤٥٠
ان تبدوا ما في أنفسكم الآية ٢٨٤ ٤٥٢
آمن الرسول الآية ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ٤٥٣